عبد الخالق الركابي

سابع أيام الخلق

سابع أيام الخلق

الطبعة الرابعة

(طبعة منقّحة)

رواية

عبد الخالق الركابي

www.ibtesama.com

www.ibtesama.com

3

www.ibtesama.com

www.ibtesama.com

مقدمة

سيميولوجيا الهدم والتكوين

طراد الكبيسي

www.ibtesama.com

www.ibtesama.com

(فـأكـملت السـمـاوات والأرض وكلُّ جندها .
وفرغ الله في اليوم السابع من عمله الذي عمل .
فاستراح في اليوم السابع من جميع عمله الذي
عمل . وبارك الله اليوم السابع وقدسه . . .)

(سفر التكوين ـ الإصحاح الثاني)

﴿ إن ربكم الذي خلق السـمـوات والأرض في
ستة أيام ثم استوى على العرش يدبر الأمر . . ﴾

(سورة يونس ـ الآية ٣)

www.ibtesama.com

www.ibtesama.com

١ـ الرواية العربية المعاصرة والتراث:

لن نطيل الوقوف عند هذه النقطة ؛ فقد قتلها الباحثون بحثاً ، كما أننا لسنا بحاجة لأن نذكّر بعشرات الروايات العربية والعالمية التي استلهمت التراث أو التاريخ موضوعاً ، أو رؤى ، أو بنى فنية . لكن لا بد من الاعتراف بأن مسألة العلاقة بالتراث ، بالنسبة للكاتب العربي اليوم ، تبدو إشكالية في غاية الإبهام والتعقيد ؛ لأن كل كاتب يفهم التراث حسب وعيه وغايته ، من جهة ، ولأن التراث متنوع ، متعدد ، متناقض من جهة ثانية . ولأن حرية القراءة والتأويل ممتحنة من جهة ثالثة .

ولكن مع هذا يظل الحس التاريخي الذي تحدّثَ عنه (إليوت)[١] لدى الكاتب المعاصر ، إشكالية عالمية ، سواء أكان هذا الماضي يخص التاريخ الشخصي للكاتب ، أو تاريخ الأمة ، أو تاريخ شريحة اجتماعية مكتوباً أو شفاهياً .

وإذا صح ما ذهب إليه (كولن ولسن) من أن مشكلة (بروست)

---

(١) عندما قال : الحس التاريخي - يتضمن إدراكاً ليس لمضي الماضي فحسب ، بل لحضوره كذلك ؛ فالحس التاريخي يرغم المرء أن يكتب وهو لا يحس جيله بأكمله يسكن في عظامه فحسب ، بل يحس أن أدب العالم من أقدمه ، ومعه أدب أمته ، يقفان معاً ويشكلان نظاماً في آن معاً .

عن كتاب : الأرض اليباب لعبد الواحد لؤلؤة ـ إصدار/ المؤسسة العربية للدراسات والنشر ـ بيروت/ ١٩٨٠ـ ص١٢ .

www.ibtesama.com

هي (البحث عن زمن مفقود) أي استعادة أو استحضار الماضي عن طريق كتابته رواية ؛ فإن مشكلة الرواية التي نحن بصددها : (سابع أيام الخلق) هي المشكلة نفسها ، أي كتابة رواية لا تهدف إلى تصوير ما أطلق عليه الروائي (مدينة الأسلاف) إلا بقدر ما نقيم (مدينة الحروف والكلمات) ، مدينة (يوتوبية) فسيفساؤها منتقى من مدن عمَّها الخراب ، ومدن لم يرها الروائي إلا على الأطاليس ، أو لم يرها إلا في الأحلام والكوابيس ليكشف فيها الإنسان عن ذاته لذاته ، أي هي – الرواية ـــ المرآة التي يرى فيها المرء وجهه هو ليعرف مَنْ هو ؛ لكن ليس وجهه اليومي ، بل الوجه الكائن وراء هذا الوجه .(١)

٢ـ المتن الحكائي:

يمكن تلخيص متن الرواية ، في القراءة السطحية في الأقل ، بأنه يدور حول البحث عن مخطوط الراووق الذي ضاع «الأصل» منه ، واختلف الرواة في ما جاء فيه ، وذلك بهدف الوصول إلى الحقيقة في (السيرة المطلقية) .

وبعبارة أخرى أنه بحث «جينالوجي» أو هكذا يبدو ، أو ينبغي أن يكون ؛ فالروائي هنا أجهد نفسه في البحث للوصول إلى «الأصل» ، إلى الهوية الأولى من أجل التطابق مع ما حدث فعلاً ، أو هكذا يفترض ، بهدف كتابة رواية تعتمد هذا الأصل حتى تتطابق الذات مع نفسها ـ وهذا ما كشف عنه الفصل المعنون : (سفر الهوية) الذي هو أيضاً نوع من الانشداد إلى الجسد والتاريخ معاً ؛ فالجسد ساحة

---

(١) فن الرواية : كولن ولسن ـ ترجمة/محمد درويش – ـدار المأمون ـ بغداد ـ ١٩٨٦ .

www.ibtesama.com

لتسجيل الحوادث ، والجسد ينقشه ويخرّبه التاريخ في الآن نفسه .[1]

لكن من جهة أخرى ، في القراءة العميقة ، لا يعدو مخطوط الراووق أن يكون رمزاً :

أولاً : لضياع ماضٍ اختلفت الآراء حوله .

ثانياً : ورمزاً للانتهاك الذي يمارسه الرواة في النص الشفاهي ، وألف ليلة وليلة خير مثال على هذا ، وهو ما يمثل غربة أو اغتراب النص هذا حتى يتوفر من يُلفق لهذا (اليتيم) أباً أو مؤلفاً جامعاً دامجاً الروايات في ما يسمى (نصاً) .

ثالثاً : والراووق هذا شكل المكان ، أو شكل الأشكال في عمل روائي أقرب إلى (نص) ألف ليلة وليلة ، أو أنه هو محاكاة لعمل د . محسن مهدي في البحث عن (النسخة الأم) لألف ليلة وليلة . أو هكذا هو يفترض .

قال المؤلف في الرواية :[2]

«هنا تكمن المعضلة ؛ فكل من تعامل مع (الراووق) حاول الاستحواذ عليه ، غير مدرك طبيعة هذا المخطوط العصيّ على الاستحواذ ؛ فقد نما نمواً تلقائياً متخطياً دائماً محاولات من حاول إيقاف ذلك النمو عند حده ؛ خذ «ذاكر القيّم» مثلاً : فقد توهم أن في استطاعته أن يضع خاتمة له ، وقد فعل ذلك دون تردد عام ظهور النجم المذنّب مرة أخرى . ولكن ما الذي حدث؟ فها هي جملة ظروف تتبلور فجأة بعد عشرات الأعوام لتدفع بي إلى القيام بما قمت به ، مكرراً محاولة (القيّم) بشكل

---

(١) ميشيل فوكو : (جنيالوجيا المعرفة) ترجمة/ أحمد السلطاني وعبد السلام بنعيد العالي ـ دار توبقال ـ الدار البيضاء ـ ١٩٨٨ .

(٢) الرواية : ص١٨٠ .

www.ibtesama.com

من الأشكال ، وقد يأتي بعدي من يعيد المحاولة . إنها محاولات تبدو كأنها لا تمت إلى متن «الراووق» بصلة ، بيد أن مرور الزمن وحده هو الكفيل بإدخال تلك المحاولات في ذلك المتن . . . تذكَّرْ أولى تلك المحاولات ، محاولة «حليم الغياث» التي أسهب «ذاكر القيم» في وصفها . لقد غدت تلك المحاولة أحد فصول المخطوط المهمة . . . . وعلى هذا المنوال ستستمر المحاولات . . . إلى الأبد» .

٣. شكل المكان:

في (سابع أيام الخلق) ليس هناك حدث بمعنى الحدث في رواية القرن التاسع عشر مثلاً ؛ لذا لا نجد الشكل الروائي يتخذ تسلسل : البداية ، الوسط ، النهاية ، الذي يراه البعض عاكساً للزمن والتاريخ .

إننا إزاء «شكل مكاني» يتهرب من الزمن المحسوس عبر الزمن المتخيل ، ويتموضع في جماليات تعتمد الحركة التصويرية في متابعة البحث عن مخطوط (الراووق) وتحقيقه للوصول إلى حقيقة ما حَدَث في اليوم الذي سُمي بـ(دكة المدفع) ؛ ولذا فإن القارئ للرواية لا بد أن يحس التكرار واللا تزامن ؛ فالرواية مقيدة بموضوع مغلق والأحداث اليومية المتماثلة والشخصيات تتحرك في حركة دائرية مغلقة هي الأخرى بحكم المكان المحدد .

ويبدو أن مكان الطفولة والشباب للمؤلف/ السارد العليم/ كان أكثر من تذكر أيام خلت[1] بل كان آسراً إلى الحد الذي جُعل وكأنه

---

(١) جاء في الرواية ص١٦٩ . «والحق أن تسجيل ذلك القسم من السيرة لم يكن فكرتي ؛ فعلمي بدقائق تلك الأحداث قديم يستحيل عليّ تذكر وقت نشوئه لدي ، بل لعلني رضعته مع حليب المرحومة أمي في ذلك الزمن البعيد ، أيام كان فيها ==

www.ibtesama.com

موطن الخلق الأول وما أعقبه من أحداث تروى ، عادة ، بتخيلات لا تخلو من أسطورية ومجريات عجائبية على نحو ما بني عليه كتاب (ألف ليلة وليلة) : حكايات تسرد ، تتخللها رؤى صوفية عرفانية مستقاة من كتب المتصوفة أمثال ابن عربي وعبد الكريم الجيلي وغيرهم ، حتى تصل الحال بـ (مدينة الأسلاف) إلى يوتوبية : (مدينة الحروف والكلمات) ينكشف فيها المرء عن ذاته ، ويكتشف الآخرين من خلال عمل (رواية) .

٤. تناصات الرواية:

أول تناص يخطر في البال هو تناص الرواية مع روايات الخلق سواء ما ورد منها في الكتب المنزّلة (القرآن والتوراة) أو في القصص والأساطير التي وردتنا عن الحضارات القديمة حيث تتوافق هذه

= هذا البيت الكبير بطبقتيه وغرفه العديدة ، يضج بصخب أخوتي الذين كانوا يكبرونني في العمر قبل أن يموت منهم من مات ، ويهاجر من هاجر ، لأترك وحدي في آخر الأمر ، لا شيء يؤنسني في وحشة عزلتي سوى زقزقة العصافير التي لا تهدأ في سدرة «الحوش» الهرمة ، فضلاً عن صرير قلمي على الورق ، وأنا أحاول دون كلل إحالة ذلك الماضي إلى كلمات قد أجد فيها بعض العزاء ، كلمات تجلب أحياناً الغصة إلى حلقي ؛ فأهرب منها لأجول طويلاً في أماكني المعهودة من المدينة ، مغرقاً أحزاني بكأس أو كأسين ، يشاركني فيهما صديقي الشاعر في مقهى (أبو بلقيس) ، خلوتنا التي نطلق فيها العنان لأحزاننا الأزلية ، لأعود في آخر الأمر ، ملاحظاً عجائز الزقاق وعوانسه وهن يتتبعن خطواتي المترنحة بنظرات مختلسة من خلال خصاص الشناشيل ، ملقبات إياي بـ«العزب الأبدي» ، هذا اللقب الذي يلائم تماماً ساكن هذا البيت الموحش الحافل بالأصداء» .

www.ibtesama.com

جميعاً ، في عملية الخلق ، أو إعادة الخلق : (طوافانات ماحقة يعقبها خلق جديد) .

وإذا كان الرقم (٧) هو القاسم المشترك : (ستة أيام عمل ، والسابع استواء واستراحة) فإن الحرف - الكلمة - في المبدأ العرفاني ، يتوافق مع الأرقام ؛ لأن الحروف ، كما يقول ابن عربي ، (أئمة الألفاظ) وبها تتبدى عند الكلام : (حقائق الألفاظ)(١) .

أما التناص مع رواية الطوفان [الرواية ص٥٣-٥٦] فيتجسم في المطر الغزير الذي وُصف بالطوفان الذي أصاب القرية ذات ليلة ، وهو يتماثل في عنفه وقسوته والموقف الأيديولوجي لكل من السيد نور و(مطلق) حيث يمثل السيد نور موقف نوح ، أو ما يشبهه ، بينما يُمثل (مطلق) الغاوين الذين أغرتهم مفاتن الحياة الدنيا حتى رأوا برهان ربهم : الطوفان ، ولكنهم مع ذلك لم يعتبروا .

إن إستراتيجية التناص هنا لا تقوم على المحاكاة الساخرة بقدر ما تقوم على المعارضة/ المماثلة ، أي إيجاد مدوّنة/ حدث كلامي/ ليصل بالنتيجة وعبر آليات الكتابة إلى ما يمكن تسميته بأيقونية الكتابة ، أي هندسة المعنى في إطار علاقة مماثلة مع الواقع الخارجي/ التاريخي(٢) .

٥- البنية المفتوحة:

يصف الروائي مخطوط (الراووق) بالبنية المفتوحة التي بقيت تنمو

---

(١) الفتوحات المكية - السفر الأول - ص٢٣١/ت : د .عثمان يحيى - الهيئة المصرية للكتاب - ط٢- ١٩٨٥ .

(٢) وينظر د . محمد الفتاح : (تحليل الخطاب الشعري - إستراتيجية التناص) دار التنوير - بيروت١٩٨٥- ص١١٩-١٢٣ .

www.ibtesama.com

حتى الوقت الحاضر، والانفتاح هذا لم يذكر له غير سبب واحد هو «النقص» [الرواية/ص١٧]. لكنّ هناك سبباً آخر هو: النسْخ؛ فالمخطوط في الأصل ليس غير نص/ أو شبه نص/ شفاهي، كما تؤكد ذلك الروايات الثلاث الأولى؛ فكل راوٍ يحذف أو يضيف، يغيّر ويُبدل حسب هواه، أو حسبما يراه أفضل، أو لأي سبب آخر كالنسيان أو المداجاة.

كما يتصل الانفتاح بتاريخ (الأسلاف) مكاناً وزماناً، بمعنى أن (النص) هذا في بنيته الأصلية، تاريخ، والتاريخ - كما هو معروف - معرّض لإعادة الكتابة حسب الأغراض. إنه حكاية، وكل حكاية معروضة للتأويل.

و(النص) أيضاً ليس سوى (استعارة) تجري سَمطقتها عبر التناسخ اللانهائي حيث يثبت (المخطوط) (النص الشفاهي) في شكله الأخير المُدوّن.

كما يتفق السرد بضمير المتكلم مع الرواية التجريبية، وهي الرواية المفتوحة التي تبدو وكأنها لم تنته بعد؛ وذلك لغياب السارد الخارجي التقليدي... أما حين يتكلم السارد بضمير المتكلم ويقص علينا حكاية من الماضي فإن هذه الحكاية التي تدخل ضمن الرواية الكبيرة تبدو وكأنها تحدث الآن؛ لأن الذي يرويها لنا بضمير المتكلم ما زال حاضراً أمامنا أو هذا ما توحي به الرواية في الأقل؛ فما دمنا نسمع صوت المتكلم فذلك يعني حضوره في لحظة القراءة.

في (سابع أيام الخلق) هناك ستة رواة ينقل الكاتب الروائي إلينا ما يرد على ألسنتهم من أخبار... بمعنى أن الراوي السابع/ الكاتب الروائي/ هو مَن يهيمن على خطاب الرواية ويتحكم بتطور الرواية، وبخطاب كل راوٍ من الرواة الستة، ليضعه في روايته الكبيرة بضمير

www.ibtesama.com

المتكلم الذي يُجسّم شكل الرواية ويبينها وهو يخاطب القارئ[1] .

٦ـ المبنى الحكائي:

بنى المؤلف روايته على ستة أسفار تمثل روايات الرواة الستة : (ثلاثة منهم شيّدوها بأصوات ورثت أحزان سلسلة رواة تناقلوا الحرفة شفاهياً أباً عن جد . . . والثلاثة الآخرون شيدوها كتابياً : الرابع منهم بالريشة ، والخامس بقلم (القوبيا) ، والسادس بالحبر ، وها أنذا سابعهم أترك لمداد قلمي مهمة الإفصاح عما سأقوم به خلال الصفحات القادمة ، أي (هذا الذي تتشكل حروفه وكلماته تحت عيني القارئ) [الرواية ص٨ و٧] .

وقد سُمي كل واحد من الأسفار بـ (كتاب الكتب) وبحرف من حروف (الرحمن) . أما السفر السابع (سفر النون) فهو اكتمال الرواية/ أي الرواية كما هي بين أيدينا ، وقد تُرك بياضاً ؛ فالمؤلف هو سابع الرواة ، والرواية هي آخر الروايات ولم تعد ثمة حاجة لأية إضافات أخرى .

إن الأسفار السبعة هذه والتي يحمل كل واحد حرفاً من حروف (الرحمن) تشكّل ما يسميه المؤلف بالحكاية الإطارية ، وهي تمثل زمن الرواية . وتلي كل سفر من الأسفار الستة) فصول هي (إشراق الأسماء) ، (كتاب الإنية) ، (إشراق الصفات) ، (كتاب الهوية) ، (إشراق الذات) ، (كتاب الأحدية) ، وهي تمثل المراحل التي مرّ بها المخطوط على أيدي الرواة مسنداً بالصيغة التالية :

---

(١) ينظر مقال د . مهند يونس : (تبرير الرواية الإطارية في سابع أيام الخلق) ـ مجلة «الأقلام» العدد(١-٤) -١٩٩٧ـ ص ٣٣- ٣٤ .

www.ibtesama.com

(أخبرني شبيب طاهر الغياث في ما كتب به إليّ قال : وجدت بخط ذاكر القيم عن بعض القيمين عن المزار عن السيد نور قال : سمعت عذيب العاشق قال : سمعت مدلول اليتيم ، قال : سمعت عبد الله البصير ، قال . . . .) والتي تتكرر في مفتتح كل فصل من فصول المتن الحكائي الذي يتوزع بين عديد من رواة المخطوط ولاسيما الستة الذين ورد ذكرهم بالصيغة أعلاه .

قال الروائي في (سفر الألف المحذوفة) :

(. . . من خلال قراءتي كتابات (ذاكر القيم) التي كان قد دوّنها في تلك النسخة القديمة من كتاب (الإنسان الكامل) ، منذ تلك الليلة تبلور لديّ بناء هذه الرواية ؛ فبفعل مصادفة جاءت تلك الصفحات البيض في موضع احتوى في نصه الأصلي على تلك المراحل الثلاث التي تخرج بها الذات من إطلاقها إلى مسرح الوجود ، حيث سأتتبع عروج شخصياتي الروائية صعوداً نحو المؤلف ، وعروج المؤلف بدوره نزولا نحو تلك الشخصيات ، ليدرك الطرفان وحدتهما على صفحات هذه الرواية : فما كان موجوداً في ذهن الروائي بالقوة - أخيلة ، صور ، أفكار ، تعينات - سيتحقق في الرواية بالفعل على شكل حروف وكلمات) [الرواية ص٢٩٢] .

ويلاحظ أن هناك معراجين يقومان على الموازاة في حركة الصعود والنزول بين المؤلف وشخصياته الروائية ؛ فالصعود يبدأ بأول رواة المخطوط ، بينما النزول يبدأ بسادس الرواة . وهذه الحركة تتوافق وحركة الإنسان الكامل/ العارف كما يعبّر عنها عبد الكريم الجيلي ، قال : (فالإنسان الكامل يجمع بين الحق والخلق ؛ فالحركة الصعودية للحق من عالم الظاهر إلى عالم الذات ، تتم في حالة الشعور بالإتحاد الذي يشعر به الصوفي . وفي موازاة المراحل الثلاث التي يقطعها الحق في

www.ibtesama.com

طريق معرفته بنفسه : وهي مرحلة الوحدة ، ومرحلة الهوية ، ومرحلة الأنية ثلاث أحوال يشعر بها الصوفي وهي إشراق الأسماء الإلهية ، وإشراق الصفات ، ثم إشراق الذات)(١) .

٧. جامع النص:

يبدو جلياً أن (سابع أيام الخلق) نص «يجمع» نصوصاً متفرقة لا على مستوى مخطوط الراووق فحسب ، بل على مستوى (الاستدخالات) من نصوص مختلفة في الجنس والاتجاه . وتفسير هذا ربما يعود لسببين :

الأول : سد «النقص» في المخطوط أو في تاريخ مدينة الأسلاف الذي يمثله المخطوط والمتحف .

الثاني : كتابة رواية على أنها نظرية الرواية انطلاقاً من عبارة : (كل نظرية للرواية يجب أن تكون نفسها رواية) تقوم على التعاقب : أي انبثاق الجديد ، أو إعادة بناء للتكرار باستيعاب الجديد وتمثله ؛ فالمواجهة بين السارد والمرجع/ من حيث هو منبع تشكلات العلامات والتواترات الخطابية أو التلفظية التي تجسد الشكل الروائي/ ومن حيث

---

(١) «الإنسان الكامل في معرفة الأواخر والأوائل» لعبد الكريم بن إبراهيم الجيلي - مكتبة ومطبعة محمد علي صبيح وأولاده/ مصر١٣٨٣هـ - ١٩٦٣م الأبواب : ١٣ ، ١٤ ، ١٥ ، ٦٠ .

وكذلك كتاب : (في التصوف الإسلامي وتاريخه) لنيكولسن/ ترجمة أبو العلا عفيفي/ لجنة التأليف والترجمة والنشر - مصر١٩٤٧/ ص٨٦-٨٧ وكذلك كتاب : (التصوف الإسلامي) نصوص جمعها وقدم لها د . البير نصري نادر- المطبعة الكاثوليكية - ص٢١-٢٢ .

www.ibtesama.com

هي – أي المواجهة بين السارد والمرجع – توسّع أو تحدٌّ من الامتداد ، فإن النص/ الرواية ، ظل مفتوحاً ومغلقاً في الآن نفسه[(١)] . ومن هنا ، ما كان أمام السارد/ الروائي/ في الفصل السابع/ أو اليوم السابع/ «سفر النون» سوى أن يغلق المواجهة بعبارة : (تمت الرواية) .

بمعنى أن الروائي لا يقدم رواية سيرة وتاريخ تخصّ مجموعة اجتماعية محدّدة الإقامة والزمن ، يطلق عليها عشيرة (البواشق) فحسب ، بل يقدم رواية إبستيمية تتداخل فيها لغات ، وأساليب ، ومعارف وإجراءات تدور كلها حول الواقعي ، والنصي ، والاجتماعي ، والذاتي ، والأسطوري . . . منّظمة في ظل دينامية خاصة لتنظيم العلاقات التي يطرحها الواقعي والاجتماعي والذاتي ، بما هي علاقات يطبعها التوتر والجدل في الغالب[(٢)] .

وبمعنى آخر ، إنه يقدم رواية تسكنها مؤلفات وأفكار وُجدت من قبل ، وفي إطار علاقات متشابكة وتراتيبات مختلفة[(٣)] .

فعلى مستوى السرد ، مثلاً ، تستفيد الرواية ، بما هي قصة ذات منحى تاريخي ، من نمط السرد في (ألف ليلة وليلة) – أي الحكي الخالص الذي يجمع بين خطابين : الخطاب البيوغرافي/ السيري – وهو ما يقوم به الرواة الستة في سرد (السيرة المطلقية) . . . بينما يقدم

---

(١) ينظر مجلة (آفاق) : مجلة إتحاد كتاب المغرب ـ العدد ٨ـ١٩٨٨/٩ مقال : (من أجل سيميائية تعاقبية للرواية) لفلاديمير كريزنسكي عرض : عبد الحميد عقار ـ ص١٦٢ـ١٦٣ .

(٢) المصدر السابق نفسه : ص١٧٣ .

(٣) المصدر السابق نفسه : ص٣١/ مقال : (مقولات السرد الأدبي) لتزفيتان تودوروف ـ ترجمة : الحسين سحبان وفؤاد صفا .

www.ibtesama.com

الروائي ، الخطاب البايولوجي باعتباره سابع الرواة والأخير الذي قام بجمع وتنسيق الروايات والأحداث ووضعها في صيغتها الإطارية النهائية عبر التلاعب بالمحتوى من خلال الألفاظ والصور والبُنى . . . إلخ . وكأنه بهذا يرى أن الحل الأمثل لتقديم رواية أفضل هو السرد بضمير المتكلم ، أي أن السارد ليس هو المؤلف ، بل شخصية متخيلة تقمّصها المؤلف[1] . لا تنقل لنا أقوال وأفعال الشخصيات فحسب ، بل تنقل لنا أفكارها وأحاسيسها ومقاصدها . . كما تنقل لنا أفكار ومعاناة مؤلف الرواية نفسه في جمع الأحداث وإعادة تركيبها .

٨ـ نظرية الرواية بوصفها رواية أو: الروائي في الرواية:

لقد حشا الروائي روايته بالعديد من الآراء في نظرية الرواية ، آراء له تتعلق بصنعة الرواية (سابع أيام الخلق) ، وآراء أخرى لروائيين ونقاد في صنعة الرواية ، حتى يمكن لمجموع الآراء هذه ، أن تشكل نظرية أو وجهة نظر الركابي نفسه في صنعة الرواية . فهل كتب الروائي رواية مصمّمة وفق نظرية ، أم أنّ الرواية بصنعتها تطرح نظرية؟

أكد الركابي في أكثر من موضع داخل الرواية هذه ، وفي حوارات معه ، أنه كان منذ زمن يطمح إلى كتابة رواية تستلهم (ألف ليلة وليلة) قال : (إنني ومنذ أمد طويل كنت أسير طموح كبير تمثل باستلهام فكرة كتاب (ألف ليلة وليلة) ، أي الوصول إلى كتابة رواية ذات حبكة تركيبية تتوزع بين حكاية إطارية تنطوي على متن حافل بحكايات متعددة . بيد أن تحقيق ذلك الطموح كان يصطدم بحقيقة محزنة

---

(١) المصدر السابق نفسه : ص٧٧/ مقال : (من يحكي الرواية) لولفغانغ كايزير - ترجمة : محمد اسويرتي .

www.ibtesama.com

تتمثل بأن تلك (الثيمة) ، على بساطتها الظاهرة ، هي في واقع الأمر بالغة التعقيد ؛ فذلك الكتاب النفيس ما هو في واقع الأمر إلا نتاج أجيال من رواة وقصاصين وشعراء ومؤرخين تركوا للزمن وأذواق المتلقين مهمة إدراج نصوصهم في ذلك الكتاب الساحر حتى تعددت نسخه واختلفت بعدد نساخه . . .)[1] . فكيف حلّ الإشكال هذا؟

لقد تم – من جهة – من خلال قلب (الثيمة) الذي تطلب تغيير الحبكة الفنية ؛ ففي الوقت الذي كانت شهرزاد تقص من أجل أن تكسب حُب شهريار ، وبالتالي الفوز بالحياة ، راح الركابي يقصّ من أجل أن يكسب حُب ورقاء ؛ قال :

(. . . لكن الأمر يختلف مع هذه الرواية : لعلني أكتبها من أجل أن تحبني ورقاء) . وبالتالي يفوز برواية!

لقد كان لورقاء دور مهم في الرواية ؛ إذ تم حل كثير من مشكلات الرواية على يديها ، وفي المقدمة منها عثورها على أوراق السيد نور المهمة ، والتي بدونها ما كان لها أن تكون بهذا الشكل .

ثم إن ورقاء إحدى المرجعيات العرفانية التي تحفل بها الرواية ؛ فورقاء ، بحسب مصطلحات (ابن عربي) ، تعني النفس الكليّة أو اللوح المحفوظ (الرواية/ ص١٩١) ، وبهذا فورقاء تمثّل بشكل ما ، المستوى العميق للرواية ، والمكوّن من مرجعيات فلسفية وعرفانية ورموز وحرفيات وبُنى تحتية . . . بينما تمثل سلسلة الحكايات المستوى السطحي .

لقد هيمنت ورقاء على الرواية والروائي باعترافه : (لولا حضور

---

(١) مجلة الأقلام العدد (١-٤) -١٩٩٧ حوار أجراه مع الروائي ، وارد بدر السالم - ص٤٦ .

www.ibtesama.com

ورقاء لكانت هذه الرواية ستكتب بشكل آخر) . وهذا ما يجعل الروائي يعترف أيضاً : (بأن كتابة رواية ما ليست في واقع الأمر إلا ضرباً من حب الذات! يحب الروائي أن يتجلى في مرآة الوجود ؛ فيبدأ في خلق شخصياته الروائية ، وهنا يتلكأ قلمي لحظات قبل أن يخط على بياض هذه الصفحة اسم ورقاء ؛ فبرغم تعدد الخيوط التي قادتني إلى هذه الرواية ، يبقى ذلك الخيط الذي شدني إلى ورقاء أكثرها انسجاماً مع لحمة هذه الرواية وسداها ؛ فالكتب وحدها قادتني إلى ورقاء) (الرواية ص٨) .

ومن جهة أخرى ، هناك هيمنة فكرة النقص والكمال على الروائي حيث عدّ (ابن عربي) العلم بالكمال والنقص في الوجود النوع الرابع من علوم المعرفة إذ قال : (اعلم أنَّ كمال الوجود ، وجود النقص فيه ؛ إذ لو لم يكن لكان كمال الوجود ناقصاً بعدم النقص فيه) [الرواية/ص٢٩٣] .

وهذا يتفق مع النظرية القائلة بأنه ليس لأثر أدبي أن يدّعي امتلاك الحقيقة كاملة ؛ فالمروي يقوم مقام الاستعارة ، وبالتالي فإنه قابل لتأويلات مختلفة باختلاف القراءات والمراحل التاريخية ، وقابل للدخول في تراتبيات مختلفة . .)[1] .

ومن خلال الصراع بين النص المحظور (نص السيد نور) والنص المنقوص – نصوص الرواة الخمسة الآخرين – وبعد العثور على نص (السيد نور) تتحول (السيرة المطلقية) من صيغة شفاهية منقوصة إلى صيغة كتابية مكتملة ؛ وبذا تتجمع الأحداث الواقعية والتخيلية والمعرفية لتصوغ الشكل النهائي/ الناقص/ للرواية وفق نظرية الرواية ،

---

(١) مجلة (آفاق) مصدر سابق ـ ص٣١ .

www.ibtesama.com

مُحققة – في الأقل – سِمتها الأولى ، على رأي الروائي فورستر ، وهي إقناعنا بالإصغاء ، والإصغاء حتى النهاية . وكما فعلت شهرزاد : «لقد عاشت شهرزاد لأنها أبقت الملك يتساءل عما سيحدث لاحقاً»(١) .

في هذه الرواية التي تحاول أن توازن بين السيرة والرواية/ بين الممثل والمتفرج/ وأخطائهما ، عبر رأي ثالث ، هو رأي الخالق/ المؤلف/ والذي هو استبصار لحاصل الدمج والتفاعل بين ما هو واقعي ومُتخيَّل ، فماذا يعني ، مثلاً ، أن الرواية ستغدو برج بابل جديداً! [الرواية ـ ص١٣٣] .

هل تتحول إلى متاهة يتجسد فيها الصراع بين قوى الخير والشر ، أو بين استبداد القوة وقوة الاستبداد . . .ربّما! لكنها من جهة ثانية جسدت إلى حدّ كبير ذلك الصراع الأبدي/ الأزلي بين النظام والفوضى/ العماء والخلق/ وسعت إلى حد ما . . . . لكشف أسرار لا يحق لآدمي احتيازها ؛ لذا فإن النقص والكمال فيها يكمن في التنافر وفي تنظيم المتنافرات : (أشعر أن روايتي تكمن في تلك الأشياء المتنافرة : نصوص شفهية ، ووثائق وتواريخ ، كتابات عرفانية ، وأخرى أدبية . . .) .

أما الذي يجمع بين هذه المتنافرات فهو : (الأسلوب الحديث للرواية) ، وكما قال باختين : (أسلوب الرواية هو تجميع لأساليب ، ولغة الرواية هي نسق من اللغات) [الرواية ص١٣٤] .

---

(١) يُنظر : (أوجه السيرة) لأندريه موروا ـ ترجمة ناجي الحديثي كتاب مجلة (الثقافة الأجنبية) دار الشؤون الثقافية ـ بغداد ـ ١٩٨٧/ص١٤١ .

www.ibtesama.com

٩- الرواية العربية المعاصرة وآليات السرد القديم/ خاتمة:

وأخيراً : ما الآليات الفنية التي استلهمها الروائي من السرد العربي القديم؟

قال : (آمل أن أكون قد حققت بهذه الرواية طموحاً قديماً ما انفك يراودني منذ شروعي في كتابة أولى رواياتي ، هو تبني الأساليب التراثية العربية في كتابة رواية معاصرة سعياً مني لترسيخ سمات عربية إسلامية تضفي على الرواية جمالية خاصة تزيد الأساليب المطروقة تنوعاً وثراء . . . إنّ استلهام التراث يعني استبطانه وتمثله ، وصولاً إلى صيغة فنية تحمل خصوصية الذات العربية الإسلامية من دون التفريط بحداثة هذه الذات ومعاصرتها)[(١)] .

وبغضّ النظر عما تحقق من هذا الطموح ، يمكن أن نجيب عن السؤال أعلاه ، في النقاط التالية :

١ـ الإسناد : (أخبرني شبيب طاهر الغياث في ما كتب به إليّ قال . . .الخ) .

٢ـ الشخصية الكارثية : فشخصية (مطلق) في مرحلة اصطفافه مع السلطة ، وفي مرحلة خروجه عليها ، في كلتا الحالتين كان كمن يبحث عن موت كارثي لا موت عادي ؛ وهو ما حصل في الواقعة المسماة (دكة المدفع) حيث تمت إبادته ومَن معه بطريقة غير عادية . وليس صعباً أن نشير إلى شخصيات حقيقية أو متخيلة/ روائية/ في التراث العربي عاشت حياتها وموتها بالطريقة نفسها : (الكارثية) لأن قناعاتها ، بدورها ، كانت مطلقية .

---

(١) الأقلام ـ مصدر سابق/ ص٥٣ .

www.ibtesama.com

٣ـ تنوع أساليب السرد بلغات هي خليط من الحكية والفصحى ، الصورة والإشارة والرمز ، مع اقتباسات من لغات صوفية وعرفانية . . .الخ .

٤ـ السردُ تلبية لرغبة ، أو طلباً من . . . أو بتأثير من . . . (ورقاء ، بدر ، فرهود ، أو صديقه الشاعر . .) .

٥ـ ارتباط تسلسل الأحداث بنوع الحكاية . وقد ارتبط تسلسل الأحداث في (سابع أيام الخلق) بالبحث عن مخطوط الراووق من جهة . وكتابة رواية من جهة ثانية . وقد برز هذا واضحاً في عناية الرواية بذاتها ؛ فكأن كل الأحداث تتجه لتصب في مغامرة الكتابة على نحو ما يلاحظ البعض في تيار الرواية الجديدة(١) .

٦ـ الإغراق ، أحياناً في وصف مطول ، وتفصيلي ، ولاسيما في وصف المكان والأحداث أو بعض الشخصيات حسبما يُريد السارد توجيه العناية إلى «شيء» . . أو إلى الطريقة التي يُقدم بها هذا الشيء .

٧ـ تستر المؤلف/ السارد وراء شخصية ما . . . أو شخصية ما . . تختبئ وراءه .

٨ـ ويبدو أن الروائي ، وبغض النظر عمّا يطرحه المتن من أشياء جانبية وأحداث تاريخية ، هدف إلى إنتاج (نص ممتع) يجمع بين المتعة الحكائية والمُخيلات الصوفية العرفانية . و(نص المتعة) بالتأكيد ليس غريباً في التراث العربي : بدءاً من (ألف ليلة وليلة)

---

(١) يُنظر مقال : (سيميولوجيا الأدب : مقارنة سيميولوجية تطبيقية للقصة الحديثة والمعاصرة) د . أنطوان طعمة . مجلة (عالم الفكر) ـ الكويت/ المجلد ٢٤/ العدد٣/ ١٩٩٦/ص٢١٤ .

www.ibtesama.com

وحكايات (الزير سالم) إلى (الإمتاع والمؤانسة) فـ(جمع الجواهر في الملح والنوادر) . . .الخ[1] .

٩ـ أخيراً ، وفي ضوء ما تقدم ، نقول مع ميشيل بيتور : يبدو أن الروائي اليوم ليس هو الذي يكتب الرواية الأولى ؛ إذ لدينا الكثير من الروايات ، والشخص الذي يبدأ بكتابة رواية هو الشخص الذي قرأ روايات سابقاً . إذن فالرواية التي يكتبها هي عبارة عن شيء تتحدد هويتها بالنسبة إلى ما نحن نعرفه – كقراء – أيضاً وبالتأكيد[2] .

---

(١) يُنظر مقال : (ملاحظات أولية في آليات السرد العربي القديم) في كتابنا : (كتاب المنزلات ـ ج٣) ـ بغداد ـ ١٩٩٧/ص١٠٧ .

(٢) يُنظر كتاب (حوار في الرواية الجديدة) تحرير : ريمون ألاهو .

ترجمة : د . نزار صبري/بغداد ـ ١٩٨٨/ص٢٩ .

رواية (سابع أيام الخلق) لعبد الخالق الركابي ـ صدرت عام ١٩٩٤ عن دار الشؤون الثقافية ـ بغداد .

www.ibtesama.com

إلى : قدامة . . .

في البـــدء كنتِ أنتِ وكنتُ أنا ، حـــتى إذا مـــا اجتـمـعنا ورأينا الأغيـار به بعـدمـا كنا نراها له ، اصطلمنا عن نفسينا ، وانزاحت ما بيننا الحجب ، فكانت هذه الرواية .

عبد الخالق

www.ibtesama.com

www.ibtesama.com

(العالم حروف مخطوطة مرقومة في رقّ الوجود المنشور، ولا تزال الكتابة فيه دائمةً أبداً لا تنتهي) .

ابن عربي

(تعلّموا أكثر ما تستطيعون عن الرموز، ثم انسوا ذلك كله حين تحللون حلماً) .

يونغ

www.ibtesama.com

www.ibtesama.com

كتاب الكتب

سِفر الألف

لعلّ كلمات (شبيب طاهر الغياث)، سادس رواة المخطوط، هي خير مدخل لروايتي هذه؛ ففي ختام الصفحات التي كتبها إليّ لخّص جهده وجهود مَنْ سبقه من الرواة بعبارة بليغة أشبه ما تكون بحكمة :

- (إنها محاولات تبدو كأنها لا تمتُّ إلى متن «الراووق» بصلة، بيد أن مرور الزمن وحده هو الكفيل بإدخال تلك المحاولات في ذلك المتن) .

لقد تمّ العثور على أهم أوراق (السيد نور)؛ وبذلك اكتمل متن جديد للمخطوط، متن غريب هو مزيج من حكايات شفهية - ما زال رواة (السيرة المطلقيّة) المحترفون في (محافظة الأسلاف) يقصّونها على أنغام الرباب - ونصوص عرفانية، وكتابات أدبية ذات طابع تراثي بحت .

ستة أقسام يكمل بعضها بعضاً - فضلاً عن قسم سابع هو (هذا) الذي تتشكّل حروفه وكلماته تحت عينيّ القارئ - أفرغتُ ثلاثة (كاسيتات) منها بخط يدي على الورق، وثلاثة أخرى، مكتوبة بخطوط أصحابها أنفسهم، ها هي أمامي على سطح مكتبي في غرفة (الأُرسي) في الطبقة الثانية من بيتي القديم القابع في نهاية زقاق تكاد شناشيل بيوته المتقابلة تتعانق تحت شريط ضيّق من السماء تشابكتْ

www.ibtesama.com

خلاله أسلاك الكهرباء والهاتف وحبال الغسيل وهوائيات أجهزة (التلفاز) المرفوعة كرايات استسلام فوق - ولا أقول تحت - بصر أي راوٍ لا يزال يستمدّ من وتر ربابه المرهف القدرة على المكابرة والصمود في سرد الحكايات!

لقد أسدلتُ الستائر دون مدينة (الأسلاف)، مدينة البشر والإسمنت والحجر، لأفتح بمداد قلمي آلاف الستائر والنوافذ على مدينة (الأسلاف) الأخرى، مدينة الحروف والكلمات، المدينة التي أعاد تشييدها حرفاً حرفاً وكلمة كلمة وسطراً سطراً هؤلاء الرواة الستة: ثلاثة منهم شيّدوها بأصوات ورثتْ أحزان سلسلة رواة تناقلوا الحرفة شفهياً أباً عن جد - حتى أن عينيّ واحد منهم اغرورقتا، لحظة التسجيل، بالدموع وهو يسرد حادثة مضتْ عليها عشرات الأعوام! - والثلاثة الآخرون شيدوها كتابياً: الرابع منهم بالريشة، والخامس بقلم (القوبيا)، والسادس بالحبر، وها أنذا سابعهم أترك للقارئ مهمة اكتشاف ما سأقوم به خلال الصفحات القادمة!

تراني أعمل خارج متن (الراووق)؟

لا ضير في ذلك؛ ففي كلمات (شبيب طاهر الغياث) سأجد العزاء، تاركاً للمطبعة - لا للزمن هذه المرة - مهمة إدخال ما أكتب في ذلك المتن؛ فلولا سريان مدادي في هذه المفردات لن يكون لهذه الرواية وجود. وعلى كل حال أيسعني سوى الاعتراف بأن كتابة رواية ما ليستْ، في واقع الأمر، إلا ضرباً من حب الذات؟ يحب الروائي أن يتجلّى في مرآة الوجود؛ فيبدأ في خلق شخصياته الروائية، وهنا يتلكأ قلمي لحظات قبل أن يخط على بياض هذه الصفحة اسم ورقاء؛ فبرغم تعدد الخيوط التي قادتني إلى هذه الرواية يبقى ذلك الخيط الذي شدّني إلى ورقاء أكثرها انسجاماً مع لحمة هذه الرواية وسداها؛

www.ibtesama.com

فالكتب وحدها قادتني إلى ورقاء!

ثمة قول اعتاد صديقي الشاعر ترديده : وهو أن العثور عليّ في مدينة مثل مدينة (الأسلاف) ، التي تكاد تضيق بقاطنيها ، ليس بالأمر العسير ؛ إذ يكفي المرء تتبع مكتبات المدينة الموزعة في شتى شوارعها وأزقتها للعثور عليّ في واحدة منها!

ذلك هو الصواب عينه ؛ فمن يماثلني حباً وتعلقاً بتلك المكتبات؟ لقد قضيتُ فيها اوقاتاً ، على مدى أعوام من عمري ، لو استطعت إحصاءها لكان مجموعها كبيراً لا يضاهيه سوى مجموع الأوقات التي أقضيها بين جدران غرفة (الأرسي) هذه ، وأنا منهمك في كتابة رواياتي .

لقد عرفتها واحدةً واحدةً ، ورافقتُ نموّ بعضها وهي لا تتخطى بضعة كتب يعرضها صاحبها على الرصيف - حيث كان في وسعي ، حينما تبلغ أزمة إفلاسي الأزلي الأبدي ذروتها ، دسّ بعض كتبي بينها - إلى نصب أول كشك خشبي - فأضحى في وسعي اقتناء الكتب دَيناً ، فضلاً عن كوب شاي ساخن يجلبه لي صاحب الكشك بنفسه - انتهاءً بامتلاك مكتبة ؛ إذ استبدل صاحبها قنينة مشروب غازي بكوب الشاي القديم ، متقبلاً برحابة صدر مناوراتي الدورية التي لا أقوم بها عادة إلا في الأسبوع الأخير من الشهر ، والتي تتخللها أنصاف جمل ، يحمّر وجهي معها ويصفّر ، تنتهي باستدانة بضعة دنانير تجد سبيلها ، من جرار المكتب العامر بأكداس النقود ، إلى جيبي الخالي دائماً . . .

إنها مكتبات قد تكون صغيرة دون لافتة ، لا تشغل أكثر من زاوية أو أسفل سلّم إحدى العمارات ، أو تكون كبيرة ذات واجهة واسعة تحمل أسماء رجال عريقين في (تجارة) الكتب ، أو تكون (متنقلة)

www.ibtesama.com

تتمثل بحقيبة بائع متجول حافلة بكل (ما لذّ وطاب) من الكتب بطبيعة الحال!

مكتبات انحدرتُ إليها بوساطة سلالم رطبة لأزجي ساعات بين رفوف الكتب ، سامعاً خفق خطى السابلة في الأعلى ، لا يؤنسني في وحدتي سوى جرذان مذعورة تمرق من بين الأصابع على غير توقع لتختفي وهي تصيئ ، مكتبات ارتقيت إليها سلالم ، تتعقبني المدينة بضجتها المتصاعدة مع الغبار والدخان ، مكتبات شعرتُ ، وأنا في سراديبها ، باهتزاز الأرض بفعل هدير المطابع ، ومكتبات أشرفتُ من نوافذها على عشرات المآذن وهي تدوّي مجتمعة باسم الله .

إنها مكتبات قد تتباين فقراً وغنىً ، أناقة وقدماً ، لكنها تنسجم في أمر واحد هو تلك الرائحة الحميمة ، رائحة الورق وحبر المطابع التي ما أكاد أشمها حتى أحني رأسي إجلالاً ؛ فوراء كل كتاب ثمة الكثير من الحرمان والجوع والصبر والجَلَد الذي بُذل ليرى ذلك الكتاب النور .

هكذا مضيتُ في التنقل بين تلك المكتبات عاماً بعد عام لأنتهي ، في آخر الأمر ، بمكتبة المتحف ، وكأن تلك المكتبات كانت أشبه بـ(المقامات) التي يرتقي إليها (السالك) في طريق التصوف – وما الكتب التي كنت أقع عليها فيها إلا (الأحوال) التي تنزل بالقلب كلمع البرق فتورثني القبض والبسط أو الخوف والرجاء – ليحصل لي (الكشف) في مكتبة المتحف حيث رفعتْ ورقاء بحبها حجاب الظلمة عن قلبي : فاطلعتُ على كل أسرار (الراووق) ومعانيه!

التقيتها أول ما التقيتها في القاعة (النورية) ، ضبطتها منفردة بنفسها ، تستعرض ملابسها في واحدة من تلك المرايا الطويلة الضيقة التي تزدان بها الجدران . بدتْ مستغرقة في تأمل أناقتها أكثر من جمالها ؛ فشحّة الضوء هناك لا تسمح بالتدقيق في ملامح الوجه ،

www.ibtesama.com

تقوم بحركات ووضعيات إلى مختلف الجوانب . وحينما التقت نظراتنا في المرآة استدارتْ نحوي مفغورة الفم ذعراً – اعترفت لي فيما بعد بأنها حسبتني لحظتئذ شبحاً ، وهو ظن يسوّغه الجو شبه المعتم المفعم برائحة البخور والحنّاء ، كما يثيره اقتران تلك القاعة باسم (السيد نور) من أصداء – لكنها سرعان ما تداركتِ الأمر ؛ فابتسمت خجلى ، مغطية فمها بمنديل صغير كانت تحمله في يدها ، وتخطتني مطرقة الرأس ، فسارعتُ إلى سؤالها عن الطريق المؤدي إلى المكتبة؟ وحينما التفتتْ نحوي مستوضحة ، لم أجد مفراً من أن أسوّغ سؤالي بأنني ضيّعتُ طريقي ، وأضفتُ وقد أعدتني بارتباكها :

– يبدو أن تغييرات عديدة جرت منذ قيامي بآخر زيارة إلى المتحف قبل أعوام ؛ فثمة أجنحة جديدة أقيمت ، وأجنحة أُخرى أُزيلت ، فضلاً عن تحوير ممرات وسلالم تؤدي إلى اتجاهات لم أكن أمرّ بها في الماضي!

فأجابتني مبتسمة :

– ذلك هو دأب الأستاذ (بدر فرهود الطارش) ؛ لا يمر عليه عام إلا وأجرى عشرات التحويرات على شتى مرافق المتحف!

وسارعتْ تضيف موقفة إيّاي عند حدي :

– اتبعني .

وتقدمتني واضعة بذلك حداً لرفع الكلفة معها ، تاركة لعينيّ حرية تملّي ذلك الجمال المتجسد في هيئة أنثى تشع الفتنة من كل جزء منها . وقادتني في رحلة صامتة تمنيتُ لو تستمر إلى الأبد ، لكنها انتهت في المكتبة ؛ فافترق أحدنا عن الآخر لأهرع إلى أدراج البطاقات نابشاً فيها ، حتى إذا ما سجلت عنوان الكتاب الذي كنت أنوي استعارته ، ورقم تسلسله ، فوجئتُ بورقاء مرة أخرى : كانت تقف

www.ibtesama.com

خلف الحاجز الخشبي المقوس ، يؤطر نصفَها العلويَّ ، الظاهرَ فوق السجل الخاص بالاستعارة ، مستطيلُ باب في الخلف تلوح من خلاله خزانات الكتب الحديدية المتراصفة تحت أضواء كهربائية باهتة ، وثمة أيدي طلبة وأساتذة ومثقفين تمتد إليها لتتسلم من يدها الكتب ، وحين وجدتْ يدي سبيلها بين تلك الأيدي مددتها إليها كالضارع وأنا أهمس مداعباً :

- رحماك يا (أفروديت)!

- نعم؟!

تساءلتْ مستنكرة وهي ترفع رأسها نافضة شعرها الأسود إلى الوراء بحركة خاصة ساحرة . ورنتْ إليّ بنظرة قاسية من عينين لوزيتين أبرزَ الكحلُ اصفرارَ حدقتيهما الساطعتين ، نظرة سرعان ما غاضت عنهما القسوة لتخلّف وراءها ألفة عزوتها يومذاك - متوهماً - إلى ذلك اللقاء الغريب في القاعة (النورية) . وعادت تخفضهما نحو السجل لتجيبني ، وثمة ظل ابتسامة لاح على شفتيها اللتين تعلوهما طبقة (روج) خفيفة :

- ولم لا يكون اسمي (عشتار)؟

كان سؤالاً جريئاً ومفاجئاً لم أتوقعه منها ؛ إذ إنه فتح لي باب المداعبة على مصراعيه ؛ فاغتنمت الفرصة دون تردد :

- ولكن . . . أية (عشتار) تعنين؟ ابنة (سين) أم ابنة (أنو)؟

فأجابتني كالمتحدية ، وقد انفرج فمها عن ابتسامة عريضة كشفتْ التواءً جميلاً في إحدى أسنانها :

- ابنة الأول بطبيعة الحال!

وهكذا تجنبت الفخ ؛ فابنة الثاني كان يعني كونها آلهة الحب ، فلم أملك إلا أن أردد :

www.ibtesama.com

- جنّبنا الله شر الحرب!

يا إلهي! . . . جميلة؟ ومثقفة؟ ذلك فوق ما كنت أتوقع ؛ إذ لم أدر ما الذي جعل الثقافة لديّ تقترن بالخشونة والصلابة! . . . لعل سر ذلك يعود إلى ظني أن عالم الثقافة يقتصر على الرجال دون النساء!

كان جمالها هادئاً ، يتوغل في الروح على مهل ليجعل من الصعب على من يراها أول مرة نسيانها . والحق أن مواصلة زياراتي لمكتبة المتحف ، منذ ذلك اليوم ، لم تكن من أجل الكتب فحسب ؛ بل من أجل أن أتملى تلك العذوبة المتجسدة في ملابس بسيطة لا تخلو من أناقة - عرفتُ فيما بعد أنها كانت تخيطها بنفسها - كانت لها طريقة خاصة في الانحناء على السجل ، تجعل خصلات شعرها تتهدل حاجبة بياض وجهها ، وثمة حلية ذهبية على شكل مصحف تتدلى قرب يدها وهي تعشي البصر بوهجها الخاطف . وكانت لها طريقة خاصة بقول : (نعم) تشفعها بانتفاضتها تلك من رأسها . وكنت كلما وقفتُ قربها ، لا يفصلني عنها سوى عرض الحاجز الخشبي ، أحدس بعبير يفوح منها ليس بالعطر الصناعي بل هو أقرب ما يكون إلى خليط من دفء وحنان يمتزجان على شكل رائحة تنعش الروح قبل حاسة الشم!

كنت أتأملها حين تستغرق في الكتابة في سجلها ، محركة شفتيها مع حركة قبضتها البيضاء المضمومة على القلم إضمامة القلب على نبضه . كانت لها يدان جميلتان وثمة منديل ورقي وردي اللون في الغالب مكور في أحداهما .

تحت يد ورقاء تلك نمتْ فكرة هذه الرواية من محض كلمة (الراووق) التي دونتها في سجلها يوم استعرتُ نسخة خطية من المخطوط ، انتهاءً بهذه الصفحات التي ستكون يد ورقاء أول يد تتصفحها ، بعد يدي ، قبل أن نلقم بها أحشاء المطبعة .

www.ibtesama.com

يومذاك تساءلتْ مبتسمة وهي تسلمني الملف الضخم الذي يضم بين دفتيه أوراق المخطوط :

– ما جدوى العودة إلى مخطوط سبق لك أن استنفدتَ موضوعه في رواية تحمل الاسم نفسه؟!

لحظتئذ غالبتُ بصعوبة شعوراً مبهماً بالفخر لكونها عرفتني (روائياً) وليس محض (مستعير كتب) ، لكنه لم يكن أكثر من شعور عابر سرعان ما تلاشى حين تذكرتُ أن عملها موظفة في المكتبة يقتضيها معرفة مثل هذه الأمور ، فأجبتها مداعباً كدأبي معها :

– عديه حنيناً للحبيب الأول!

فتساءلتْ مستنكرة :

– أي حبيب أول وقد سبقتْ روايتك تلك مجموعة شعرية وثلاث روايات فضلاً عن مجموعة قصص قصيرة؟!

وعاد ذلك الشعور بالفخر يداعب غروي دون لبس ؛ فقد بدا من الواضح أنني بإزاء متابعة – لعلها معجبة! – لمؤلفاتي مجتمعة ؛ فأجبتها متهرباً من ذكر السبب الوحيد الذي دفعني لاستعارة المخطوط :

– لكنها أول رواية كتبتها عن مدينة (الأسلاف) .

والحق أن مدير المتحف (بدر فرهود الطارش) هو الذي كان يقف وراء هذا الأمر ؛ فقد كان من حسن حظي أن بات مغرماً بروايتي (الراووق) التي كانت السبب المباشر لتوثق علاقة أحدنا بالآخر ؛ فقبلها لم تكن معرفتنا تتخطى تبادل تحيات عابرة كنا نصطنع خلالها البرود واللامبالاة ، وكل منا – لكوننا شخصين مشهورين في نطاق المدينة! – ينتظر أن يبدأ الآخر بالتنازل ضامناً بذلك لنفسه المرتبة الأولى من الأهمية ، وقد اضطرتني الظروف إلى أن أبدأ بذلك ؛ فاتصلت به ذات يوم هاتفياً ، فإذا بنبرة صوته في السماعة تشي

www.ibtesama.com

بدهشته من ذلك الاتصال ، فسارعتُ إلى إخباره بأنني مقبل على تنفيذ مشروع روائي قد أخرج منه بأكثر من رواية ، فقاطعني متمنياً لي بإيجاز النجاح مفصحاً بصمته المفاجئ عن أن الأمر لا يعنيه مما اضطرني إلى أن أوضح له ، بأكثر الطرق لباقة ، أن موضوع ذلك المشروع الروائي على شيء من الحساسية ؛ ذلك لأنني سأتتبع به أناساً من مدينة (الأسلاف) لا يزال بعضهم أحياء ، واحتفظت لنفسي بسر كونه الوحيد الذي كان لا بد لي من استئذانه من هؤلاء (الناس) قبل المضي في مشروعي إلى غايته ، لكنه ، بذكائه الذي عُرف به ، كان قد أدرك من فوره دوافعي ؛ فقد تدفقتْ حيوية مفاجئة في صوته ، فصاح بشكل اضطرني إلى إبعاد السماعة قليلاً عن أذني :

- حسن . . حسن . . الآن عرفتُ سر اتصالك هذا ؛ إذ يبدو أنك ستدخل شخصي المتواضع في روايتك تلك ؛ مما يدفع بك بالتالي إلى نفض الغبار عن الأحداث القديمة وبضمنها بطبيعة الحال تلك الشائعة التي رافقت مولدي ، والتي عززتها زرقة عينيّ . . .

فقاطعته وقد هالتني صراحته :

- اطمئن يا أستاذ ؛ ذلك لأنني لم أتخطَ بعد الأعوام التي سبقت ولادتك - أي زمن المرحوم والدك - وعلى كل حال سأكون حريصاً على عدم المساس بالمشاعر ، فضلاً عن أنني ، وتحسباً من أي إحراج ، سأطلق أسماء مستعارة على الأشخاص الذين قد يؤدي ذكرهم صراحة إلى حصول تبعات . . خذ صاحبك (شبيب طاهر الغياث) مثلاً ؛ فقد أسميته باسم (وثيج لازم) .

فصاح بعدما صرّت في السماعة ضحكته :

- (شبيب طاهر) . . (وثيج لازم) . . فعيل فاعل . . أنهما على الوزن نفسه! . . اسمع . . من المؤكد أن فعيل فاعل . . أعني (شبيب

www.ibtesama.com

طاهر) سيُجنّ إنْ ذكرتَ اسمه الحقيقي في روايتك . . وقد (يعملها) فيطالبك بدفع تعويض ، ليس بالنقود ، بل بأفظع صور (الفصل) عشائرية ؛ وهي التعويض بثلاث بنات (جدميه) و(تلويه) و(مجفوته) . . نعم . . قد يطبق ذلك حرفياً ؛ ذلك لأنه رجل صعب المراس ، أما عن نفسي . .

وصمت لحظات قبل أن يتابع بمنتهى الجدية :

– . . اطمئن ؛ فأنا ، كما لا شك أنك سمعتَ عني ، آخر من يقلقه التشهير وكشف الأسرار وما شابه من أمور تدفع بعض الروائيين إلى حماية أنفسهم بالادعاء ، في الصفحات الأول من رواياتهم ، أن كل ما يرد فيها من أسماء وأحداث من صنع الخيال . . اطلقْ لقلمك الحرية كلها في ما يتعلق بي بادئاً بذكر اسمي الحقيقي واسم أبي . . دعْ (بدر فرهود الطارش) – وهو كما ترى اسم غير شاعري قد يثير النفور – يتحرك خلال كلماتك دون قناع ؛ فأنا رجل أعشقُ حقائق التاريخ ، فأطلقني في روايتك بعلاتي وجنوني وسوء السمعة التي رافقتْ مولدي دون ذنب مني ، وبغيرها من أمور لا اشتريها بفلس أحمر ، لا بل بدينار أزرق – فالفلس اختفى من التداول الآن – دعني أرَ نفسي كما جُبلتُ عليها ، وامنحني وهم الإحساس بالخلود ؛ فكل ما دون ذلك زائل وقبض ريح!

وحققتُ ما أراده ؛ فأظهرتُ أباه (فرهود) على حقيقته . وفي النسخة التي أهديتها إليه من (الراووق) بعد طبعها كتبتُ كما أتذكر جيداً : (إلى الأستاذ بدر فرهود الطارش . . دون رتوش أو . . حياء!) وهو إهداء أضحكه حتى امتلأت عيناه بالدموع .

منذ ذلك اليوم تعززتْ علاقتنا ، وتطورت تحياتنا العابرة إلى زيارات من قبلي كنتُ أقوم بها إلى غرفته في المتحف حيث ما من مرة طالعني

www.ibtesama.com

فيها بعينيه الزرقاوين من خلف مكتبه إلا كرر عبارة عتاب غدتْ كاللازمة :

ـ كان عليكَ ، يوم اتصلتَ بي هاتفياً ، أن تخبرني باختيارك مخطوط (الراووق) موضوعاً لروايتك عوضاً عن طلب الإذن والأسماء المستعارة وما أشبه ؛ لأنني حينها كنتُ سأكشف لك أموراً على جانب كبير من الخطورة والأهمية تتعلق بأسرار مخطوط (الراووق)!

وقد حاولتُ أكثر من مرة استدراجه ليكشف لي تلك الأسرار ، لكنه كان يتهرب بلباقة منوهاً بطريقة ، كانت تترك غصة في قلبي ، أنني فوّتُ على نفسي فرصة لا تعوّض ، حتى إذا ما طبعتُ رواية (قبل أن يحلّق الباشق) التي أُتابع فيها مصائر معظم شخصيات روايتي السابقة ، فوجئتُ بـ(بدر فرهود الطارش) يزورني في بيتي راجياً إياي ، لحظة فتحي الباب له ، ألا أعامله بـ(الرسميات) ؛ فكل ما قدم من أجله هو أن يرى هذا البيت الذي شهدتْ جدرانه (ولادة) أكثر من رواية عن مدينة (الأسلاف) .

وأضاف وهو يجيل حوله نظرات عطشى :

– وهو بيت سمعت عن عراقة طرازه الكثير حتى أنني أفكر في صنع نموذج له سيحتل ، مع نماذج بيوت أخرى تمثّل أطوار فن العمارة في مدينتنا ، واحداً من أهم أجنحة المتحف المستحدثة .

فطمأنته إلى أن كوني أعيش وحدي لا يقتضي الالتزام بأية رسميات ، فاتخذ من كلامي ذاك (جواز مرور) دفع به إلى أن يتقدمني خلال الردهة القصيرة التي يطل عليها باب (الديوخانة) المهملة منذ أعوام . واستدرنا يساراً داخلين «الحوش» حيث كانت العصافير في ذروة صخبها بين أغصان السدرة الهرمة التي توجت شمس العصر ذروتها بوهجها .

www.ibtesama.com

كان بدر ، أثناء تجوالنا ، لا يكف عن الثرثرة مطرياً أصالة ما يرى ، مجيلاً نظراته في شتى الاتجاهات ،لكنه صمت حين أخذت ساعة (الليوان) الجدارية تدق معلنة الوقت . ووقف متأملاً فاغر الفم صور أفراد الأسرة الموتى والراحلين وهي تزين جدران (الليوان) في وضعيات أزلية حنّطتها عليها عدسات مصورين مجهولين قد يكونون بدورهم التحقوا بمصيرهم المحتوم . وكانت تكتكة الساعة وحركة بندولها التلقائية تزيدان الشعور بالوحشة ، حتى أن (بدر) كف عن الكلام ونحن نرتقي درجات السلم نحو الطبقة الثانية لنحط الرحال في آخر الأمر في غرفة (الأرسي) التي تعلو واجهة البيت حيث شمل بدر محتوياتها بنظرة طويلة تلكأ بها على رفوف الكتب التي تحف بالجدران . وتفحص بشغف تلك التماثيل الخشبية الصغيرة التي لم يمنحني الكسل فرصة إنجازها منذ سنوات . وحام حول مكتبي العتيق الذي تناثرت فوقه الأوراق وأقلام الرصاص ، وأزاح جهاز الهاتف جانباً ليلتقط من تحت المصباح المنضدي نسخة من كتاب (محافظة الأسلاف في ماضيها وحاضرها) تأليف صديقه (شبيب طاهر الغياث) .

– لولا متابعتي الشخصية لهذا الكتاب ، الذي صدر ضمن منشورات المتحف ، لكان من المستحيل أن يطبع بمثل هذه الأناقة والجودة وبحجم كبير وبغلافين سميك وورقي .

ذلك كان ما قاله بعد صمت طويل وهو يعبث بصفحات ذلك الكتاب . ولم ينسَ إزاحة الستارة الزرقاء جانباً ملقياً نظرة عابرة على شناشيل بيوت الزقاق المتقابلة وهو يقول :

– موضع مثالي لكتابة روايات عن مدينة (الأسلاف) .

وأضاف وقد جلس على طرف سريري الخشبي المحاذي للكرسيّ الدوار :

www.ibtesama.com

- الآن عرفتُ سر إصرارك العنيد على مواصلة كتاباتك ؛ ذلك لأنك وحيد!

أجبته وأنا أجلس على الكرسي مديراً إياه في اتجاهه :

- ما الكتابة إلا تنفيس عن كرب الوحدة!

فتساءل وهو يومئ برأسه نحو باب الغرفة متابعاً فكرته :

- وتلك الصور المعلقة في الأسفل ، لِمَ لمْ تكتب عن أصحابها رواية؟

- وهل خلتْ رواية من رواياتي منهم؟

فتأملني لحظات كأنه يحاول أن يفقه مغزى كلامي ، وحينما عجز عاد يطرح أحد أسئلته المباغتة :

- وصورتك؟ لِمَ لم أرها بينها؟

فأجبت وأنا أبتسم :

- لا يستحسن أن تزين الجدران إلاّ بصور الموتى والغائبين!

وعاد يتأملني من جديد وقد أزعجه بعض الشيء كلامي الغامض هذا ، لكن ذلك لم يمنعه من أن يُثني على روايتي الأخيرة التي كان قد أنهى قراءتها قبل يوم ، مؤكداً أنني وقعت على موضوع سأعود إليه أكثر من مرة في روايات لاحقة . وعلّق في محاولة واضحة لمجاراتي في ذلك (الضرب الملغز) من الكلام :

- . . وذلك يعود إلى شعور مبهم ينتاب كل مبدع ينشد الكمال في عمله ؛ وهو الشعور بوجود (نقص) لا سبيل له إلى تلافيه ، خذني أنا مثلاً : فبرغم أنني قضيتُ نصف قرن في إنشاء المتحف ، بادئاً بأقدم العصور انتهاءً بالوقت الحاضر ، لكن شعوراً ملحاً يلؤني بوجود (نقص) في عملي ذاك ، (نقص) يجعل مرافق المتحف العديدة لا تكسب مغزاها الحقيقي إلا بوجود مرفق أخير ، وهنا تكمن معضلتي الحقيقية ؛

www.ibtesama.com

فما يجعلني عاجزاً عن إنجاز ذلك المرفق هو يقيني بأنه يجب ألا يشبه المرافق القديمة ، بل . . بل . . . كيف أعبّر؟ بل إنه يحتويها كلها!

وثبّتَ عينيه على وجهي متأملاً إياي بنظرة ملحة حاول بها أن يفهمني ما عجزتْ كلماته عن إيصاله .

والغريب في الأمر أنني وجدتُ مخطوط (الراووق) يخطر في ذهني وأنا أسمع كلمات بدر ؛ فـ(النقص) بدوره بقي سمة ملازمة له ، وقد يكون هو السبب الحقيقي لاتخاذ ذلك المخطوط هذه البنية المفتوحة التي بقيتْ تنمو حتى الوقت الحاضر . وعلى كل حال أيسعني أن أتجاهل أن المتحف والمخطوط ما هما في واقع الأمر إلا وجهان لتاريخ (الأسلاف) مكانياً وزمنياً؟

وحينما صارحتُ (بدر) بأفكاري تلك سارع في النهوض ليلتقط كتاب (محافظة الأسلاف في ماضيها وحاضرها) وعاد يجلس في موضعه ليتصفحه ، حتى إذا ما وقع على الصفحة المنشودة انحنى فوقها وقد ضيّق عينيه شأن من اعتاد القراءة من خلال عدستي نظارة ، ليقرأ بعسر العبارة الآتية :

– (مثلما كان المخطوط أشبه بحجر أُلقي في بركة الزمن ، فأخذت الدوائر في الاتساع بمرور الأعوام ، كانت القلعة هي البؤرة التي نمت عنها مدينة الأسلاف على مدى قرون) .

وعلّق وقد أطبق الكتاب متأمّلاً إياي بنظرة انتصار :

– أخشى أنك يا أستاذ تردد أقوال شبيب بشكل من الأشكال ؛ والدليل على ذلك كون كتابه هو الوحيد الموضوع في متناول يدك!

إنها ملاحظة على قسوتها لم تزعجني كثيراً ؛ فقد بات من تقاليد المدينة إجلال شبيب طاهر الغياث ملقبين إياه بـ(عبقري الأسلاف) ، هذا اللقب الذي استحقه عن جدارة ؛ فبرغم أنه لم يتخرج في جامعة

www.ibtesama.com

ما – فتحصيله الدراسي لم يتخط تلك الدروس التي أخذها خلال فترة قصيرة على يد (ممدوح أفندي) ، أول معلم شامي في تاريخ المدينة ، فضلاً عن دورات في تنظيم المكتبات اجتازها فيما بعد لا من أجل أن يستفيد منها قدر أن يستند إلى شهاداتها وهو يترقى في سلكه الوظيفي في مكتبة المتحف ليغدو في آخر الأمر أميناً لها – وبرغم أنه لم يؤلف سوى كتابه المذكور سلفاً ، بيد أنه ما من طالب (ماجستير) أو (دكتوراه) من أبناء المدينة لم يستعن به في كل ما يمت إلى التصوف والتاريخ بصلة ، حتى غدا ذلك الأمر طرفة اعتاد مثقفونا تداولها عن كون شبيب يقف خلف كل سطر خطته أقلام حملة تلك الأطروحات برغم خلو فهارسها من أي ذكر لاسمه!

– قد أكون أردد أقوال شبيب ، لا ضير في ذلك ؛ فلولا أهمية دوره في تاريخ المدينة أكنتُ أجعل منه باسم وثيج لازم واحداً من أهم شخصيات روايتيّ الأخيرتين؟

أجبتُ مسلّماً بالأمر الواقع ، فعلق بدر بنبرة لا تخلو من حسد :

– لقد كرّستَ له أغلب صفحات تينك الروايتين – ولاسيما (الراووق) – متتبعاً دقائق حياته منذ ليلة مولده حتى إسهامه في أحداث ثورة العشرين!

وسارع يضيف ، محاولاً تلافي فلتة لسانه ، مكرراً عبارة العتاب التي بقي يلاحقني بها على مدى أعوام :

– كان عليك ، يوم اتصلتَ بي هاتفياً قبل الشروع في مشروعك الروائي عن الأسلاف ، أن تخبرني باختيار مخطوط (الراووق) موضوعاً لروايتك .

ولم تكن بي حاجة ، هذه المرة ، إلى استدراجه ليكشف لي الأسرار المتعلقة بذلك المخطوط ؛ فها هي الظروف وقد وضعته في موقف

www.ibtesama.com

لا بد له معه من المضي في الإفصاح عن معنى (لغزه) ذاك ، وذلك ما حدث فعلاً ؛ فبعد لحظات تردد وإحجام حسم أمره في النهاية قائلاً :

- اسمع . . سأكشف لك سراً . . أو بالأحرى سأخبرك بوجود سر ، تاركاً لصاحب الشأن كشف دقائقه إنْ راق له الأمر بطبيعة الحال!

وتابع وهو ينقر على غلاف كتاب (محافظة الأسلاف) :

- أنت تعلم بالتأكيد ، شأن مثقفي البلدة كلهم ، أن (شبيب) قضى أعواماً عديدة في تحقيق مخطوط (الراووق) . .

فقاطعته وقد فاض بي الفضول :

- لكن ما يدهشني هو سر امتناعه عن طبع ذلك المخطوط بعدما أكمل تحقيقه!

- ذلك لأنه اكتشف متأخراً أنه يحقق نصاً داخله الكثير من الزيف والتحريف ، بل إنه يخلو من أهم الفصول التي كتبها (السيد نور) والتي كانت النواة التي نما حولها المخطوط!

- ماذا تقول؟!

صحتُ وقد نسيت نفسي ؛ فأحداث المخطوط كانت قد غدت ضرباً من المسلّمات التي يستحيل أن يتطرق إليها الشك ، فأجابني بدر وهو يبتسم عن أسنان سوّد الدخان منابتها :

- كما قلت لك . وقد بلغ ذلك التحريف والتزييف حداً من الشيوع بات من العسير فضحه ؛ ذلك لأنه تحول بمرور الزمن إلى حقائق راسخة دفعتْ بك ، مثلاً ، إلى اعتمادها في كتابة روايتيك ولاسيما (الراووق)!

- وما هي تلك الحقائق التي حرّفتْ وزيّفتْ إلى هذا الحد؟

وعاد بدر يتلجلج في كلامه ، ليقول في آخر الأمر في محاولة مكشوفة لتلافي فلتة لسانه الثانية :

www.ibtesama.com

- سيبقى شبيب هو الأجدر بكشف تلك الحقائق إنْ استطعتَ إقناعه . . بالمناسبة . . إنه لا يقلّ عني إعجاباً بروايتك ، بل إنه تمنى عليك لو أنك سميّتَ (وثيج لازم) باسمه الحقيقي . . قال لي بدهائه المعروف : كان على الروائي ألا يخشى ذكر الأسماء الحقيقية لأناس لم تشب ماضيهم شائبة مادام قد عمد إلى ذلك مع (ناس) - وهي مفردة يعنيني أنا بها بطبيعة الحال! - لهم ماضٍ (مصخّم)!

وألقى بدر برأسه إلى الوراء وقد أخذ يقهقه ، حتى إذا ما استطاع السيطرة على نفسه أضاف وهو يمسح بظاهر يده الدموع عن عينيه :

- وبذلك تستطيع أن تطمئن إلى أنك نجوت من (الفصل) والنساء الثلاث!

واستدرك وهو ينهض معيداً الكتاب إلى موضعه :

- ولكن إعجابه بك مشوب بشيء من الحسد ؛ ذلك لأنك نجحتَ في ما فشل فيه هو ؛ فمنذ عقود من السنين وهو يطمح إلى كتابة رواية عن تاريخ مدينة الأسلاف!

لعل في وسعي الآن أن أحدد ذلك اليوم بداية لانبثاق فكرة هذه الرواية لدي ؛ فقد كشف لي بدر فرهود الطارش جملة أمور من المؤكد أنها ستثير شهية أي روائي يستميت من أجل إنجاز عمل استثنائي!

وعلى مدى أسابيع أخذتْ تلك الفكرة في الاختمار ؛ فزياراتي المتكررة للمتحف حرّكتْ جملة أمور بلورت في آخر الأمر هذه الصفحات .

كنت أختلس الساعات من عملي مدرّساً للفن في مدرسة يبقى درس (الرسم) آخر ما يشغل طلابها ، تاركاً لصديقي الشاعر مهمة استثمار دروسي الشاغرة لتدريس مادة اللغة العربية التي يعشقها عشقاً ، معتمداً في ذلك على (سماحة) مدير لا يألو جهداً للتخلص

www.ibtesama.com

مني ، فأسارع إلى القفز إلى أول سيارة تحملني نحو (تل الأربعين) حيث تكون ورقاء في انتظاري بابتسامتها المعهودة .

- (الراووق) أيضا؟

تبادرني بالسؤال ، وحليتها الذهبية تتألق فوق صدرها . وفي قاعة المطالعة أجلس في مواجهة النافذة الجنوبية ، حيث أشرف على ذلك الجانب من المدنية ، مفكراً بغرفة (الأرسي) التي تنتظرني (هناك) في أقصى الجنوب . لكنني سرعان ما أنغمر في قراءة المخطوط مسجلاً في دفتري بعض الملاحظات .

هكذا تكررتْ استعارتي لـ(الراووق) أسابيع متعاقبة ؛ إذ إن تعليمات مكتبة المتحف كانت تمنع (منعاً باتاً) إخراج المخطوطات منها .

بدا من الواضح أن شبيب طاهر الغياث كان قد بذل جهوداً هائلة في تحقيق المخطوط ، بل أستطيع أن أزعم أنه كاد يكون قد ألّف نسخة جديدة من عشرات النسخ المتباينة شكلاً ومضموناً . لكنني لم أفاجأ بجديد في ما قرأتُ ؛ فعلى الرغم من أن (شبيب) استطاع أن يخرج بنص يكاد يخلو من أي إسقاط أو تشويه أو تكرار ، لكن جوهر (الراووق) لم يكن يخرج عما تألفنا على قراءته في عشرات النسخ الخطية الشائعة عنه ، وهذا أمر كان أبعد من أن يفلح في دفعي إلى خوض تجربة كتابية سبق لي أن استنفدتُ موضوعها ، بيد أن بدر فرهود الطارش بتلميحاته المبهمة عن وجود (أسرار) وأحداث (محظورة) تتعلق بالمخطوط استطاع أن يشحذ خيالي ، حتى إذا ما قادني إلى بيت شبيب أضحى وجود هذه الرواية أمراً لا مفر منه!

لقد بدا كأن (القدر) - الذي سبق له أن دفع بعض القيّمين إلى الإضافة إلى المخطوط بحجة تجلّي (السيد نور) لهم بشكل من الأشكال - عاد يكرر الأمر نفسه وكأنه لم يربط بين شبيب طاهر الغياث وبدر

www.ibtesama.com

فرهود الطارش بتلك الصداقة إلا من أجل غاية وحيدة لا تتعدى إحياء مضمون (الراووق) من خلال روايتي هذه!

بيد أن المشكلة هي أنني آخر من يؤمن بـ(القدر) ولاسيما في هذا الأمر ؛ ذلك لأنني - بحكم إلمامي بدقائق تاريخ المدينة - خير من يعرف الظروف الاستثنائية التي جمعت الرجلين - على بغض أحدهما للآخر - بتلك الصداقة التي غدت فيما بعد مضرب الأمثال : فعقب الأحداث الدامية التي عصفتْ بمدينة (الأسلاف) أثناء (ثورة العشرين) - والتي كان من أهم ضحاياها فزع الطارش ، أبرز الممالئين للإنكليز - ألقي القبض على العديد من الرجال الذين أسهموا في (العصيان) - كما ورد في التقارير الرسمية - أو حرضوا عليه . وكان شبيب طاهر الغياث من بين المقبوض عليهم ، وذلك أمر أثار عطف الجميع عليه ؛ إذ إنه كان لا يزال فتيّاً في العشرين من عمره ، فضلاً عن أنه كان (عرّيساً) ؛ فقد تزوج في صيف تلك الأحداث الساخنة .

لم تكد تمضي شهور حتى أستجيب شكلياً لبعض مطالب (الثوار) ؛ فأعلن عن انبثاق كيان دولة نصب على عرشها ملك ، وأطلق سراح بعض المسجونين والمنفيين ، ولاسيما من لم يتورط منهم بفعل جنائي .

وهكذا عاد شبيب طاهر الغياث إلى المدينة محاطاً بهالة من التبجيل والاحترام ليجد في انتظاره كتب ممدوح أفندي وقد ملأت حجرة زفافه - إذ إنه كان لا يزال يعيش في بيت والديه - وكان ممدوح أفندي - لسان حال ثوّار المدينة - قد صدر الأمر بنفيه ، فأوصى بكتبه إلى شبيب . قال يوم أُقتيد إلى السيارة التي حملته تحت بنادق (الشبانة) إلى مصيره المجهول :

- لن أجد من يستحقها خيراً من تلميذي النجيب شبيب ؛ فهو

www.ibtesama.com

وحده يعرف قيمتها : فعلى الرغم من أنه كان قد تخطى الخامسة عشرة من عمره حين شرعتُ في تعليمه القراءة والكتابة ، لكنه استطاع ، في ظرف فترة قصيرة ، أن يقرأ (ألف ليلة وليلة) على مدى أيام متعاقبة كاد يفقد خلالها البصر!

وأبى شبيب إلا أن يبقى عند حسن ظن معلمه القديم ؛ فمنذ ذلك اليوم غدتْ تلك الكتب موضع اهتمامه الدائم ، لا يمل قراءة بعضها أكثر من مرة ، مبدياً أساه حين يقف عاجزاً أمام الكتب المطبوعة بالفرنسية ، ليردد قولاً غدا شائعاً على الألسن فيما بعد :

– لو أن ثورة العشرين كانت قد أُرجئت بضعة أعوام لكنتُ قد تعلمتُ الفرنسية أيضاً!

وبقي مرور الزمن يزيد (شبيب) تعلقاً بكتبه تلك ، غير مدرك أن مضي عشرين عاماً على إطلاق سراحه سيفرز مواقف جديدة لم تكن بالحسبان : فقد تشعبتْ أسرته ونمت بولادة الأطفال وترعرعهم ، ونشبت حرب عالمية ثانية جعلت الحصول على لقمة الخبز المخلوطة بمسحوق نوى التمر ونشارة الخشب ليس بالأمر اليسير ؛ فأخذت زوجة شبيب ترمق تلك الكتب بنظرة عداء مكشوف ، بل غدت تجرؤ على مجابهة زوجها بقولها :

– حينما تزوجتك لم أكن أعرف أنك خلال أشهر ستجلب لي (ضرّة) تتمثل بهذه الكتب!

وصادف في تلك الفترة أن عاد بدر فرهود الطارش من بغداد بعد اغتراب دام أعواماً ، فشرع من فوره في تأسيس مشروعه الذي لم يلاق مشروع مثله الاستهجان والاستنكار ؛ فبرغم أن العوز دفع أسراً كثيرة إلى الحضيض ، فأخذت تمتهن الشحاذة ، لكن (بدر) كان يُسرف في تبذير النقود على شراء كل ما يمت إلى تاريخ مدينة (الأسلاف) بصلة

www.ibtesama.com

من أجل أن يؤسس المتحف . وكان يجابه كلمات الامتعاض بقوله :

- ليس بالخبز وحده يحيا الإنسان ، سيأتي اليوم الذي ستشكرونني فيه على ما أقوم به من أجلكم!

كان بدر منذ ذلك الزمن قد منّى نفسه بالحصول على كتب ممدوح أفندي ، كان يقول لمن يدرك أنه سيوصل كلامه إلى شبيب :

- ليس من حق الرجل الاحتفاظ بتلك الكتب ؛ ذلك لأنها جزء مهم من تراث المدينة .

وحين لم يجد أذناً صاغية جازف في لقاء شبيب شخصياً برغم تحذير الكثيرين إياه منه ، وصارحه برغبته في شراء تلك الكتب لقاء المبلغ الذي يرضيه ، لكن (شبيب) لم يتنازل بالرد عليه ، بل اكتفى بأن لسعه بنظرة احتقار - إذ أنّى لشاب في الخامسة والعشرين من عمره مثل بدر يحيط أصله وثروته الكثير من الشكوك والهمس ، والأنكى من ذلك أن الجميع يطلقون عليه لقب (المدلل) ، أنى له أن يُجابه رجلاً مثله أسهم في أحداث ثورة العشرين؟! - لكن (بدر) لم ينهزم ، واكتفى بتغيير (تكتيكه) ؛ فأخذ يجنّد مبعوثين يتمثلون بأقارب شبيب وجيرانه ليؤثروا على زوجته في ذلك ، مرسخاً في الأذهان ، منذ تلك الأيام ، طابع العناد الذي عُرف به ؛ ذلك لأنه حين يستقر رأيه على أمر ما لا بد من تنفيذه!

وهكذا صُعق شبيب طاهر الغياث ، حين عودته في أحد الأيام إلى بيته ، بخلو إحدى خزانات مكتبته من الكتب . وقبل أن يعمد إلى سؤال أطفاله عن أمهم جاءته صفقة ثوب تعلن عن موضعها ، فارتقى السلم بكل رويّة وهدوء برغم أنه كان يغلي غضباً . وواجه زوجته فوق السطح ، وثمة قطع ملابس مبلولة تخفق بينهما على حبل الغسيل :

www.ibtesama.com

- اسـمـعي يا امـرأة . . برغم أنني لم أتورط مـعك في مـشـادة حقيقية يتخللها الضرب والصفع على مدى عشرين عاماً مرّ على زواجنا ، لكن تأكدي أنني سأطلّقك اليوم إن لم تعرفي سر امتهاني لكرامتي بملاحقتك بهذا الشكل المهين إلى السطح!

فالتقطت (المرأة) من (الطشت) المركون بين قدميها ثوباً بالغتْ في عصره إلى حد التمزق ، حتى إذا ما صفقته في الهواء ، وألقته على الحبل ، أخذت تتمتم بكلمات غير مترابطة :

- ما العمل؟ فالأطفال عرايا وجوعى . . وهناك الحرب . . والطحين المغشوش لا يوزع إلا بالتموين . . . .

فقاطعها شبيب ببرود جعل المرأة تجفل :

- أهو بدر فرهود الطارش؟

فعادت تواصل نواحها :

- ومن المؤكد أن الكتب لا تؤكل . . فهناك الشاي . . والسكر . . . والزيت . . . .

وأسرّ شبيب لنفسه وقد أخذ جسده يرتجف غضباً :

- إنه (المدلل) إذن!

وبسط كفه تحت ذقن امرأته التي اكتفت بأن رمقته بنظرة خاطفة ، لتسارع إلى دس أصابعها البليلة بين ثدييها الهزيلين ، لتستل مجموعة أوراق نقدية مطوية على بعضها ، انقضّ عليها شبيب لينطلق بعدها هابطاً كل درجتين بوثبة واحدة .

غادر البيت متخذاً سبيله شمالاً نحو (تل الأربعين) حيث يمكث بدر فرهود الطارش على مدى ساعات النهار والليل ؛ فبرغم أن (بدر) كان يملك (بيوتاً!) وليس بيتاً واحداً في المدينة ، لكنه كان يلازم القلعة القائمة فوق (تل الأربعين) باستمرار : يقود مهندسين

www.ibtesama.com

و(أسطوات) وعمالاً ، موجهاً إياهم لتنفيذ مشاريعه التي كانت لا تزال غامضة ، تستدعي السخط والإدانة أكثر من الرضا والارتياح .

وكان بدر ، قبل لقائه الحاسم ذاك (شبيب طاهر الغياث) بمدة وجيزة ، قد عاد من بغداد بسمعة سيئة لا يحسد عليها ؛ فعقب انتهاء (ثورة العشرين) غدا بدر محط رعاية خفية من قبل (الصاحب) الكابتن (فوكس وايت) أول مساعد حاكم عسكري لمدينة (الأسلاف) . وكان (الصاحب) قد وقع ، في أثناء أحداث الثورة ، في قبضة الثوار مع عشرات من (الشبانة) الأرمن والهنود من(سيك) و(كركه) . وحين أطلق سراحه أستدعي إلى بغداد ليحتل منصباً رفيعاً كان يتيح له أن يحيط (بدر) من هناك بـ(رعايته) التي أحيت من جديد ذلك الهمس عن مولد بدر ، وسر زرقة عينيه مثل عيني (الصاحب) ، و(معجزة) ولادته لأبيه فرهود الطارش الذي كان قد ثبت عقمه عقب زيجتين سبقتا زواجه الأخير!

وقد بلغت تلك (الرعاية) ذروتها حين حُمل بدر - وهو في العاشرة من عمره - إلى بغداد ليقضي خمسة عشر عاماً في أرقى مدارسها ، بل وصل الأمر به أنه غدا قاب قوسين من (بعثة آثارية) وجهتها (لندن) ، وقد صار ذلك الأمر حقيقة واقعة حين توجه بدر إلى البصرة على أمل أن يبحر من هناك إلى بريطانيا . بيد أن بعثته تلك لم تتخط أرصفة ميناء (المعقل) ؛ فقد اختارت الدول الأوربية - كما اعتاد بدر أن يكرر بأسى - ذلك الوقت لتعلن حربها العالمية اللعينة ، وائدةً بذلك طموحات بدر إلى الأبد ؛ ذلك لأنه عاد إلى بغداد ليكتشف أنها لم تعد المكان الملائم له ؛ فـ(فوكس وايت) كان قد رُقي إلى رتبة أعلى وأُلحق بإحدى الجبهات ، فقفل بدر راجعاً إلى مدينة الأسلاف تسبقه سمعته السيئة تلك التي عززتها أكثر ثروة هائلة كان قد ورثها

www.ibtesama.com

عن (أبيه!) المرحوم فرهود الطارش ووظيفة (فُصّلت على مقاسه تماماً)؛ فبرغم حرمانه من بعثته الآثارية تلك، لكن (جهة ما) كانت قد هيأت له منصب (مدير متحف الأسلاف)، وهو منصب وجد فيه دون شك شيئاً من العزاء - إذ إنه كان قد ورث عن عرق ما عشق الآثار! - لكنه لم يكن في واقع الأمر إلا أشبه بمنصب فخري؛ فالمتحف المنشود لم يتجاوز ركاماً من منحوتات آثارية من تماثيل وجداريات وجرار وأختام أسطوانية، وما أشبه من قطع كانت تعود إلى (الصاحب) نفسه، فضلاً عن قطع أُضيفت إليها بموجب قانون صدر آنذاك يقضي بضم قسم من الآثار المكتشفة إلى متحف المنطقة.

كانت تلك القطع مهملة، منذ أعوام عديدة، في صناديق مبعثرة وتحت سقائف مرتجلة، كانت قد أُقيمت كيفما اتفق، وسط القلعة التي كانت تحمل هذا الاسم تجاوزاً؛ ذلك لأن الأحداث الدامية وأعمال التخريب التي نشبت أثناء (ثورة العشرين)، فضلاً عن مرور الزمن، لم يبق من القلعة إلا على أسوارها الأربعة وبوابتها الجنوبية القائمة وسط مفتولين.

لكن بدر فرهود الطارش وجد في ذلك (المنصب الفخري) خير متنفّس ليبرهن لأهل المدينة أن سوء سمعته الذي يصمونه به لا يقلقه كثيراً - بل يشاع أنه في لحظات سكره وعربدته كان يتباهى بأصله (النورماندي) قائلاً إنه لا بد من شيء من (النغولة) ليقدح زناد الفن والإبداع! - كان يقول إن كل شيء زائل باستثناء الفن والإبداع! . . وكان يعقب قوله مدعياً أنه سيحيي تاريخ مدينتهم بعمل أغرب متحف في العالم. وكان يجد في أمواله الطائلة - عشرات العقارات والأسواق والبساتين والأراضي - خير معين ليبرهن على ادعائه: يحرك بوساطة أكداس النقود سلسلة رجال تتلخص مهمتهم باقتناء أي شيء

www.ibtesama.com

يمت إلى تاريخ المدينة بصلة ، وكانت النتيجة خليطاً لا يصدق : (الشرطنامة) التي جعلت من فزع الطارش وكيلاً على مشيخة البواشق عقب اغتيال الشيخ عاصي بدس السم في قهوته ، و(شارات وكالة المشيخة) مع ختم الحمولة (الصغير) وختم الوكالة (الكبير) ، وساعة فزع الذهبية ، ومسبحته الكهرب ذات البلابل الذهبية ونارجيلته المزدانة برقائق فضية ، والمدفع العثماني القديم الذي أنهى حصار الفلاحين لقلعة فزع الطارش ، وأول جهاز تلغراف في المدينة ، ودلال المضيف وهاونه النحاسي وفناجينه ، و(طربزون) الدرويش ، و(القدّوم) الذي قُتل به فزع الطارش ، و(فونغراف) مانع الشيخ عاصي وكتبه وأعداد متسلسلة من مجلة (لغة العرب) ، وأول سيارة شغّلها يعقوب التاجر اليهودي بين بغداد ومدينة (الأسلاف) ، وسيارة (الشوفرليت) العائدة لـ(الصاحب) ، و(غرامافون) مقهى (الرافدين) مع النراجيل وأوعية الشاي ، والخزانة الحديدية التي حاول الثوار كسرها عقب اجتيازهم للسراي ، مع مختلف البنادق والمسدسات والسيوف والخناجر والقامات ، فضلاً عن أول علم عراقي رُفع على سارية السراي . ولم ينسَ حتى مخلفات الإداريين الذين تتابعوا على المدينة : كتب داود أفندي ، كرسي (الصاحب) بمسنديه المخمليين . . . وغيرها من أشياء لا تعد ولا تحصى .

آنذاك كان بدر - كما اعتاد أن يقول عن نفسه - يمر بالمرحلة الأولى من المراحل الثلاث المعهودة في تكوين المتاحف : وهي مرحلة (الجمع) . وفي انتظار الوصول إلى المرحلتين الأخريين : (الاختيار) و(العرض) كان بدر يحاول أن ينسّق ذلك الجمع العشوائي لآلاف الأشياء - التي قد تكون المتاحف آخر موضع لبعضها - وذلك بتنظيم سجلات جعلها ، على النقيض من العينات المبعثرة كيفما اتفق ، غاية

www.ibtesama.com

في الدقة والتنظيم : تسجيل أسماء العيّنات ، ووصفها بإيجاز ، مستعملاً في التسجيل ثلاث وحدات من الأرقام : ذكر السنة التي أُضيفت فيها مجموعة من العيّنات ، ورقم الإضافة المخصص للمجموعة التي حصل عليها في تلك السنة ، وأخيراً رقم كل عيّنة في المجموعة المضافة ، دون أن ينسى ذكر أوصاف مختصرة للعيّنات ، واسم المصدر الذي حصل على العيّنات منه وعنوانه ، مع ذكر طريقة الحصول عليها سواء أكانت شراءً أم إهداءً أم جمعاً .

وكان يعمل من كل سجل نسختين : واحدة يتركها في القلعة ، لغرض الرجوع إليها حين محاولة العثور على عيّنة ما ، والأخرى يحتفظ بها في البيت تحسباً من ضياع نسخة القلعة . ويوم استطاع الحصول على أول مجموعة من كتب شبيب طاهر الغياث فتح سجلاً جديداً - بنسختين بطبيعة الحال - ليدوّن في أول صفحة منه قائمة بعناوين تلك الكتب وهو يكاد يرقص على كرسيه طرباً . لكنه ، وقبل أن يُنهي تسجيل آخر عنوان ، فوجئ بشبيب يقتحم عليه غرفته هاتفاً به بازدراء :

- خذ . . يا أستاذ . . بدر!

ورمى شبيب بالأوراق النقدية التي كانت قد تبللت بعرق كفه فوق السجلّ المفتوح بين يدي بدر الذي ومضتْ عيناه الزرقاوان بنظرة غضب لم تدم سوى لحظة واحدة اختفت بعدها عيناه بين غضون أجفانه وهو يصرّ بضحكة مجاملة ، وقد أدرك أنه بإزاء رجل لن يجدي الغضب معه فتيلاً ، ووثب من خلف منضدته ليقول ، وهو ينقضّ بأصابعه على الأوراق النقدية :

- لِمَ الغضب يا أستاذ شبيب؟

- أستاذ؟!

www.ibtesama.com

تساءل شبيب مستنكراً ، وقد خفّض عينيه ، متأملاً دشداشته و(كالتيه) ، متلمساً بأنامله الطاقية التي تعلو رأسه . فتابع بدر الهجوم ، وقد اكتشف من فوره نقطة الضعف في خصمه ؛ إذ إنه كان يعدّ كل من يقف في طريق طموحه في إنشاء المتحف المنتظر خصماً :

– نعم . . مؤكد أستاذ . . بل إنك تفضل أساتذة المدينة كلهم ثقافة ومعرفة ؛ فمن يضاهيك في عدد ما قرأتَ من كتب؟ ولكن ما العمل؟ فنحن في بلد تُقيّم الثقافة فيه بالسترة والبنطال وربطة العنق لا بما في الرأس!

بهت شبيب بإزاء هذا الإطراء غير المتوقع ؛ فقد اعتاد أن تكون (ثقافته) تلك مصدر انتقاد الآخرين .

ومضى بدر قدماً نحو غايته :

– وسأجعل منك أستاذاً بالرغم من أنوف الأستاذة مجتمعين . . أتسمع؟ أما هذا المبلغ البسيط . .

وانقض بدر على كف شبيب ليدس فيها الأوراق النقدية ، مطبقاً عليها أصابعه وهو يقول :

– . . فاحسبه قسطاً مدفوعاً من مرتبك القادم!

أخذ بعدها يزيّن له الأمر مؤكداً أنه حرّ في الاحتفاظ بكتبه في بيته ، بل في وسعه إعادة المجموعة التي أخذها منه .

– . . كل ما هنالك هو أنني سأستعير . . نعم . . إنها مفردة موفقة . . احسب أنني أخذت كتبك على سبيل (الاستعارة) من أجل تكوين مكتبة للمتحف ستغدو أنت أميناً لها في يوم من الأيام!

فتساءل شبيب دهشاً :

– أمين مكتبة؟

– نعم يا أستاذ . . ومنْ غيرك يصلح لوظيفة من هذا النوع؟ أما

www.ibtesama.com

الشهادات . . فدعنا منها . .   سأبعث بك إلى عشرات الدورات بل المئات إن تطلب الأمر . . بل . . بل سأشتري لك الشهادة . . نعم . . فحتى الشهادات تُشترى!

فلم يملك شبيب إلا أن يتساءل مستنكراً من جديد :

– ولكن أين هي المكتبة التي ستجعلني أميناً لها؟!

فأجابه بدر وهو ينقر بسبابته على جبينه :

– المكتبة والمتحف موجودان هنا في رأسي ، أما وجودهما هناك . .

وأردف وهو يومئ نحو باب الغرفة المفتوح على ساحة القلعة الغاصّة بمئات التماثيل والقطع الآثارية والعيّنات الأُخرى المبعثرة كيفما اتفق تحت ضوء الشمس :

– . . فمسألة وقت!

وهو وقت طال كثيراً ، واستوعب أعمار أجيال قبل أن ينتصب بناء المتحف فوق (تل الأربعين) . لكن المكتبة – أو بالأحرى تلك الخزانات الخشبية التي أُستبدلت بها فيما بعد خزانات حديدية – بقيت النواة التي تكوّن منها المتحف ؛ فلإدراك بدر باستحالة التعامل مع الكتب تعامله مع العيّنات الآثارية الأُخرى التي كان يكتفي بترقيمها وإدخالها مع مواصفاتها في سجلاته ذات النسختين ، لتخزن العينات نفسها كيفما اتفق ، كان لا بد له – بعد حصوله على كتب شبيب – من أن يولي المكتبة الأهمية القصوى : فحين الانتهاء من بناء أولى القاعات احتلت تلك الخزانات الصدارة فيها ، لكنها سرعان ما نُقلت إلى جناح آخر تم بناؤه . وهكذا بقيت المكتبة تنتقل من موقع إلى آخر بحسب تطور الأبنية وتشابكها ، لكنها بقيت في جميع المراحل تحتل الموقع الأفضل والأكثر علواً .

وكان بدر يسوّغ حرصه ذاك بقوله :

www.ibtesama.com

- المكتبة تمثّل العقل ؛ فيجب أن توضع في أفضل القاعات وأعلاها ، شأن موقع الرأس في جسد الإنسان!

ولم تستقر المكتبة في موضعها النهائي إلا حينما تم تشييد المرفق الأخير . وكانت محتويات المكتبة قد نمت واتسعت وتعددت بما أضاف إليها بدر من آلاف الكتب والمخطوطات على امتداد سنوات طوال بالشكل الذي كان لا بد من أن تحتل ذلك المرفق بكامله . وعلى كل حال يبقى ذلك المرفق هو أصغر مرافق المتحف ؛ فعلى الرغم من أن تلك الأبنية والطبقات كانت تُشيّد على فترات متباعدة بحسب مزاج بدر المشفوع بخليط من عبقرية وجنون ، لكنها كانت تُختزل كلما ارتقت عالياً تبعاً للحكمة التي ابتكرها بدر :

- الاختزال طابع المستقبل ؛ وذلك ما يجب أن يسم المتحف بميسمه : فبعدما كانت جماجم الإنسان القديم وعظامه تعد ضرباً من العينات الآثارية ، أضحى في استطاعة كتاب الآن أن يختصر آلاف الأشياء ، وسيأتي اليوم الذي قد يستعاض فيه بابتكار ما عن مكتبات كاملة!

وهكذا ارتفعت ، فوق أسوار القلعة القديمة ، أبنية خرسانية تبدو من القرب على شيء من البشاعة والتنافر : أبنية تتلاقى وتتفرع عن بعضها بخطوط غير منسجمة تبدو كأنها تنبع دون سابق تخطيط ، فتبعث على الدوار والرهبة - ولاسيما حين تُضاء ليلاً بأضواء الكشافات الساطعة - لكنها تلوح من بعيد متسقة ، ذات بناء متدرج يشمخ فوق أعلى عمارات المدينة : يكفي المرء في أي موضع كان الالتفات نحوه ليشخصه ماثلاً لعينيه في زرقة السماء!

في البداية احتلت الطبقة الأرضية ، المحصورة بين أسوار القلعة الأربعة ، مرافق المتحف الإدارية والفنية : من مختبر لتصليح العينات

www.ibtesama.com

وتنظيفها ومعالجتها كيميائياً قبل عرضها ، إلى مستودعات لحفظ العيّنات ، وغرفة التصوير الشمسي ، فضلاً عن غرفة بدر نفسه ، وغرف موظفيه وغرفة للحراس . وبدأ البناء الحقيقي للمتحف في الطبقة الأولى التي تعلو تلك الطبقة الأرضية حيث رمم المفتول الشرقي القديم ، وحُوِّر ليغدو بمثابة المدخل : إذ ما يكاد الزائر يرتقي درجات سلمه اللولبي حتى يجد نفسه داخلاً أولى قاعات العرض .

كانت غاية بدر تتركز في تصميم أماكن العرض الخاصة بتاريخ نشوء مدينة (الأسلاف) وتطويرها من محض قلعة فجّرتِ الصراع بين (السيد نور) و(مطلق) ، إلى المدينة الحالية التي لا تكف عن الاتساع والنمو ، تاركاً لعشرات المهندسين والمعماريين والفنيين المختصين بشؤون المتاحف ، تصميم الأجنحة الأخرى على طراز الأنماط السائدة في المتاحف التقليدية .

كانت الفكرة ، في بادئ الأمر ، غاية في البساطة والوضوح وهي أن تقود أحداث (السيرة المطلقية) الزائر نحو المكتبة . ومما يسّر تحقيق ذلك كون المتحف لم يبنَ دفعة واحدة ، بل نما وتطور على امتداد عقود من السنين بقيت الأجنحة خلالها تقام ويُلحق بعضها ببعض عن طريق ممرات وسلالم وشرفات أخذت تزداد تعقداً وتشابكاً بمرور الزمن .

كانت القاعات تتلاحق عارضة العينات الآثارية بحسب الطرق المألوفة : إذ تبدأ بأقدم مخلفات البشرية ، صعوداً إلى المكتبة ، حيث القاعات المعزولة عن كل ما يمت إلى الخارج بصلة – من صوت أو ضوء – تعزز لدى الزائر حالة استغراق تلقائية مع تلك العينات المتفاوتة قيمة وحجماً : عينات دقيقة معروضة في صناديق زجاجية ، جماجم وعظام بشرية ، سلاسل فقرية ، جرار فخارية ، قطع خزفية ، أختام إسطوانية ، حلي وأحجار كريمة ، مسلات توشح هياكلها الحجرية كتابات مسمارية

www.ibtesama.com

هندسية الخطوط، وتماثيل ضخمة، ثيران مجنّحة تزيدها الأضواء الكاشفة المسلطة عليها مهابةً ورهبةً، وجداريات تمتد بطول أكثر من قاعة، جسّد عليها نحاتون مجهولون مناظر الصيد والقنص والحروب، وتقديم القرابين، ومباركة الآلهة والكهنة للملوك والأمراء والقوّاد .

وفجأة - وهي مفردة يشدد على أهميتها بدر - يجد الزائر نفسه بفعل مصادفة - كأن يزيح ستارة جانباً، أو يرتقي درجتين، أو يلج باباً مشرعاً بين جداريتين، أو يهبط بضع درجات تبدو كأنها تؤدي إلى قبو - يجد نفسه داخلاً قاعة تناقض القاعات السابقة كلها، قاعة تتوزع فيها ديكورات ونماذج متقنة الصنع تجسد إحدى مراحل نمو مدينة (الأسلاف) وتطورها، ومن خلال واجهة زجاجية تشغل جداراً كاملاً يرى المدينة نفسها وهي تنمو وتتسع تبعاً لصعوده واتساع مجال رؤيته، حتى إذا انتهى بالمكتبة رأى، من خلال عشرات النوافذ، المدينة كلها من جهاتها الأربع حتى حدودها القصية .

وإمعاناً من بدر في تعميق وقع المفاجأة تلك جعل المنافذ المؤدية إلى تلك القاعات متعددة تعدداً كان يؤدي بالزائر إلى أن يمر بتلك القاعات بتسلسل مختلف في كل زيارة، إذ إن انحراف سيره قليلاً إلى اليمين أو اليسار، أو ارتقاءه بضع درجات أو هبوطه بضع درجات كان يؤدي به إلى أن يدخل في كل مرة قاعة أخرى، بل إنه كان يحدث أحياناً أن يمر بقاعة معينة أكثر من مرة دون رغبة منه!!

لكن تلك المنافذ، في تعددها، وتلك السلالم، في هبوطها أو صعودها، كانت تقود في آخر الأمر نحو المكتبة حيث تبدأ من هناك سلالم الهبوط، وهي - على النقيض من سلالم الصعود - مرتبة ترتيباً صارماً معززاً بأسهم وإرشادات تقود الزائر في هبوطه نحو قاعات أثثها بدر بمخلّفات أبرز رجال العشيرة والإداريين الذين تعاقبوا على إدارة

www.ibtesama.com

(الأسلاف) ، محيطاً إياها بديكورات ولوحات ومؤثرات صوتية تبرز أهم سمات المدينة في القرن العشرين ، حتى إذا ما هبط الزائر درجات سلم المفتول الغربي خارجاً من المتحف طرف بعينيه دهشة ، وهو يرى المدينة نفسها منبسطة أمامه على مدى البصر ، كأنه صحا من حلم!

كان بدر يعزو سر الاختلاف بين سلالم الصعود – في تشابكها وتعقدها – وبين سلالم الهبوط – في وضوحها وترتيبها – إلى طبيعة أحداث (السيرة) التي استرشد بها في إقامة متحفه : فالاهتداء إلى مراحل تكوّن مخطوط (الراووق) ونموه يختلف في تعقده وغموضه عن المراحل التي أعقبت اكتمال ذلك المخطوط ، وانسجاماً منه مع هذه الفكرة كان قد جعل كل قاعة تحمل اسم أبرز من ألّف أحداث السيرة ، وهم (عبد الله البصير) و(مدلول اليتيم) و(عذيب العاشق) و(السيد نور) و(ذاكر القيم) ، وأخيراً (شبيب طاهر الغياث) .

ست مراحل ضائعة وسط متاهة مئات المرافق والأروقة والممرات والسلالم ، كان بدر يفتخر بأنها وليدة عبقريته ، أقام خمساً منها على محيط المتحف لتشرف كل واحدة منها ، من خلال واجهة زجاجية ، على المدينة نفسها . وكانت القاعة (النورية) هي الوحيدة المنغلقة على نفسها في عمق المتحف ؛ فلكونها تمثل المرحلة (المعضلة) من تاريخ نمو (الراووق) كانت شبه مظلمة ، تتراقص فيها ظلال الزوار التائهين في مرورهم العابر نحو القاعات الأخرى ؛ إذ لا يوجد فيها ما يبعث على البهجة قدر ما يبعث على الرهبة والخوف والتأمل : فقد كان سقفها مجوّفا مثل باطن قبة يضفي عليها هيئة ضريح تكتنفه الأسرار والغموض ؛ وثمة مزيج من رائحة البخور والحنّاء يفوح منها على الدوام . وكانت تكثر فيها المنحنيات والزوايا والأقواس المسنودة إلى أعمدة دقيقة ، تزين جدرانها المرايا الطويلة الضيقة التي تعكس المزيد

www.ibtesama.com

من الظلام ، وثمة كتابات بيض - هي فقرات مستلّة من تلك الورقة اليتيمة التي اكتشفت من أوراق (السيد نور) - على خلفيات زرق تحيط بها التزويقات والزخارف الهندسية والنباتية . وكانت هناك أسطورة أُشيعت عن تلك القاعة عززتها بضع (زيجات) ، مفادها أن لقاء حبيبين فيها (مصادفة) أكثر من مرة كان كفيلاً بأن ينتهي بهما إلى زواج مؤكد ؛ وذلك ما جعل تلك القاعة ملتقى عشاق المدينة الخائبين!

وكانت المرحلة السادسة المتمثلة بالمكتبة تختلف عن بقية المراحل بكونها تُركت لتدل بنفسها على مغزاها ؛ إذ إن (بدر) اعتاد أن يؤكد وجود أغلب أوراق (الراووق) مبعثرة بين آلاف المخطوطات في انتظار اليد التي تستلها من موضعها نافضة عنها الغبار!

أما القاعات الأربع الباقية فقد أعاد بدر فيها إحياء تاريخ (مدينة الأسلاف) وأولاها القاعة (البصيرية) ، حيث الديكورات تجسد فيها معالم المرحلة الأولى لنشوء المدينة ، يعززها صوت (قصخون) مزوّد برباب يجلس عادة في أبرز مكان ، مهمته - لقاء مرتب شهري - تتلخص بأن يسرد على أسماع كبار الزوار أحداث القسم الأول من (السيرة المطلقية) ، ذلك القسم الذي ألّفه (عبد الله البصير) .

www.ibtesama.com

www.ibtesama.com

إشراق الأسماء

أخبرني شبيب طاهر الغياث في ما كتب به إليّ قال : وجدتُ بخط ذاكر القيّم عن بعض القيّمين على المزار عن (السيد نور) قال : سمعتُ عذيب العاشق قال : سمعتُ مدلول اليتيم قال : سمعتُ عبد الله البصير قال :

يا مدلول اليتيم : بدأ الأمر على غير اختيار مني ؛ فذات يوم خرجتُ - كما هو شأني دائماً - بربابي المشهور ، هذا الرباب الذي كنت قد عملته من جلد ماعز جبلي لم يروضه القيد يوماً ما ، وبرمت وتره من بضع شعيرات من ذيل فرس بيضاء معروفة النسب ، في حين برمت وتر القوس من ذيل حصان أدهم لم تكن الخيول تستطيع اللحاق بغباره .

جلستُ ممسكاً مقبض الرباب بشمالي والقوس بيميني ، ملتقطاً بإذني ضجة المستمعين وهم يتحلّقون حولي ، مزاحمين بعضهم بعضاً في انتظار انطلاق أنغامي الشجية في سماء (ديرة الهشيمة) ، تلك الأنغام التي اعتدت أن أشنّف بها الأسماع قبل الشروع في سرد حكاياتي .

لكنني ما كدت ، في ذلك اليوم ، أن أمسّ بالوتر الأسود الوتر الأبيض حتى انقطع أحدهما مرسلاً نغمة مبتورة جعلتْ صرخات أسىً تنطلق من أكثر من واحد .

www.ibtesama.com

لم أفاجأ بذلك ؛ فقد عزوتُ الأمر إلى محض مصادفة ، أو إلى إهمال مني . قلت : لعلني شددت على القوس أكثر مما ينبغي ، أو قد أكون برمت وتر الرباب فوق طاقته .

إلا أن الأمر نفسه تكرر ثلاثة أيام متعاقبة : ما أكاد أمسّ بالوتر الأسود الوتر الأبيض حتى ينقطع أحدهما مبدداً لهفة الانتظار والتوقع بنغمته المبتورة ؛ فتأبطت الرباب في آخر الأمر ، وتحسست سبيلي عائداً به إلى كوخي لأودعه كوته المعهودة ، وفي الحلق غصة ، وفي القلب لوعة ؛ إذ أنّى لسالك مثلي اعتاد أن يأخذ نفسه بالمحاسبة والمراقبة أملاً منه في أن يلتحق بالركب ويظفر بالقرب ، أنّى له أن يغفل عن تأويل هذا الأمر وقد حصل ثلاث مرات متتابعة؟

فكرتُ في أن السر قد يعود إلى المهنة التي اخترتها في رواية القصص والأنساب والأشعار . لكن أوان استبدال مهنة جديدة بتلك المهنة كان قد فات ؛ ففضلاً عن كبري وفقد بصري اعتدت أن أكون على مدى عمري موضع حب (البواشق) وهم يتحرقون شوقاً لسماعي ، أنا شاعرهم وراويتهم الذي في وسعي شد انتباههم حتى لو رويت حكاية سبق لهم سماعها عشرات المرات ؛ وذلك بفضل هذه القدرة الربانية التي منحت إياها ، والتي تجعلني أستطيع أن أتلبّس لكل حالة لبوسها : تتهلل أساريري في مواقف الطرب والمرح ، فأعدي المستمعين بشتى مشاعر السرور والفرح ، في حين أقطب جبيني في مواقف الغضب ، ويتهدج صوتي انفعالاً ، فيعضّ المستمعون على نواجذهم غيظاً ، بل تكاد الدموع تنحدر من عيني المطفأتين في لحظات الحزن والأسى ، فينشج أكثر من واحد من حولي بالبكاء .

ليلاً اتخذتُ سبيلي نحو كوخ (السيد نور) قطب زمانه وصاحب الوقت الذي سلكنا بأنفاسه الطريق . وقفت أمام بابه لأبثه أساي :

www.ibtesama.com

- مولاي . . ما تجرّدتُ لسلوك الطريق حرصاً على إراحة النفس من التدبير ، إنما سلكته طمعاً في أن أحظى بالقرب ، فطال بذلك أخذ النفس برياضات ومجاهدات ، قوامها أحوال ومقامات ، اختلفت في أثنائها على القلب الأذواق والمواجيد ، وبقي ربابي مصدر رزقي ؛ أصدح على وقع أنغامه بمدائح بحق الأولياء والبررة ، مضمناً إياها حكايات الواصلين الذين خضعوا لسلطان الوجد ، فحلق بهم طائر السعد ، جاعلاً من ذلك سبباً لبقائي : أنال به كسرة خبز وجرعة ماء .

هكذا مضيتُ أبثّ الباب ما بي دون أن أطمع إلى أن ينفتح لي ؛ إذ إنه ما شوهد ينفرج قط منذ أقام المريدون الكوخ لـ(السيد نور) على أثر القطيعة التي وقعت بينه وبين (مطلق) عام ظهور النجم المذنّب ، وذلك ما عزز الاعتقاد الذي أخذ يسود بمرور الزمن بين بعض (البواشق) ، والذي مفاده أنه ما من مخلوق شوهد يتخطى عتبة ذلك الكوخ داخلاً أو خارجاً ، مؤكدين أن (السيد نور) هجر الديرة في تلك الحقبة نفسها ليواصل سياحاته ومجاهداته .

بيد أن ثمة اعتقاداً مناقضاً شاع بين بعضهم الآخر هو أن (السيد نور) ما غاب طرفة عين عن الديرة ؛ ما أن يُستغاث به في الملمات والشدائد حتى يتجلى على شكل وجه نوراني يطامن المخاوف ، ويدٍ حانية تخفف الأوجاع ، ورائحة مسك عبقة كأنما فُتح أحد أبواب الجنة!

ذلك ما كنتُ أطمح إليه : أن تضاء بصيرتي بنور ذلك الوجه الكريم ، معللاً النفس بتلك اليد الحانية تقيني العثرات والضلال .

عقدتُ طرف كوفيتي بالباب وقد عزمت على ألا أبرح مكاني إلا بعدما أحظى بجواب . وحين حصل ما حصل لم أدر أفي يقظة كنت أم نوم؟ ذلك لأنني حين نوديتُ اصطلمتُ تحت أنوار اسم المنادي ،

www.ibtesama.com

فأفناني عن نفسي : إنْ نودي هو أجبت أنا ، حتى إذا ما ارتقيتُ وبقيتُ بعد فنائي أضحى هو يجيب من يناديني أنا ، فكان أن قويت في الترقّي : فإذا به يتجلى لي في أسمائه اسماً بعد اسم ، كاشفاً لي بضرب من الانجذاب والتجلي أسرار من نُذر الرباب ليصدح بأنغامه له دون أن ينقطع منه الوتر .

منذ تلك الليلة أصلحت ربابي ، ومضيتُ سالكاً الطريق الذي خطّ لي ، جامعاً الأخبار المتعلقة بـ(مطلق) وأبنائه السبعة ورجاله الأربعين من أفواه شهودها الموزعين شرقاً وغرباً ، وشمالاً وجنوباً ، مستضيئاً حلكة ما يحيط بي بنور الهمّة ، تاركاً من ناداني تلك الليلة يكشف لي أسرار الأحداث وخفاياها ، وكيف أنها كانت موجودة في علمه منذ الأزل وقبل أن يحصل ما حصل .

قادني كلمة كلمة ونغمة نغمة ، مبيّناً لي سر حقيقة تلك الأحداث وأصلها ، وبروزها من ذاته ، وسر ظهور النور فيها بعد ظلام ، وقيامها به لنعلم نحن أنه هو باطنها ، ومنه هو فاضت الأنوار على الرواة الآخرين . وكانت تمر بي حالات كان يخلصني فيها من هيكل الحدثان ، وينزل عليّ اسم الرحمن ، ويمضي بي من اسم إلى اسم إلى أن ينتهي باسم القيوم آخر أسماء الذات إذ تبدأ بعده الصفات .

لقد غدوت مفتوناً بكل ما يتعلق بسيرة (مطلق) : ما تكاد تمر بي أسابيع أو شهور حتى أحتضن الرباب لتقودني أنت يا مدلول اليتيم نحو شخص ما يحفظ خبراً يتعلق بأحداث (السيرة) . وكنت أهجس ، في حلّي وترحالي وسط الصحارى والبوادي والأهوار ، وكأنني انتدبتُ لهذا الأمر ؛ ذلك لأن غاية وجودي كانت قد تركزت في جمع ما توزع في صدور مختلف الرجال من دقائق السيرة وأسرارها ، وكأن من أضاء لي السبيل شاء - لحكمة لا يدركها سواه - ألا يجعل أمر تأليف

www.ibtesama.com

(السيرة) وقفاً على شخص واحد ، بل يشارك العديدون في هذا الأمر : فقد كان يكفيني أن أسمع باسم راوٍ من الرواة حتى أهرع في أثره مهما نأت به ديرته ، وقد تلبستني حالةُ ولهٍ وغيبوبة أقرب ما تكون إلى الهيمان .

هكذا شرعتُ في سرد أولى حكايتي عن (مطلق) وما ارتبط باسمه - وهو في أول أمره - من مصائب وكوارث تكاد تشيب الرضيع في المهد . وكما توقعتُ : وجدتُ في (البواشق) مستمعين متعطشين ؛ لم تمنعهم معرفتهم بمعظم تلك الحكايات والأخبار من مناشدتي المضيّ في سرد المزيد منها ، حتى أن بعضهم كان يقصد كوخي في أوقات غير ملائمة مطالباً إياي بإكمال حكاية كنتُ قد بترتها في منتصفها ، مرجئاً إكمالها إلى وقت آخر .

والحق أن الأمر بدا وكأن مَنْ ندبني لهذه المهمة عرف كيف يختار الوقت الملائم لذلك ؛ فقد كانت عشيرة (البواشق) تمر بأسوأ أوقاتها وأكثرها حلكة وقسوة : فلم يكن قد مضى إلا أعوام معدودة على تلك الواقعة الدامية التي عُرفتْ باسم (دكة المدفع) ، وهرب من نجا من الموت من رجال العشيرة البارزين ليختفي كل واحد منهم تحت نجم . وأمست العشيرة تعيش حقبة شتات كادت تؤدي إلى خمول شأنها إلى الأبد ، وكأنها لم تعد تلك العشيرة التي دوخت جنود سلطة الاحتلال أعواماً طوالاً . وكانت مواضع البيوت المحيطة بـ(تل الأربعين) قد تُركت . وكان معظم البواشق - ولاسيما الفقراء منهم - قد نزحوا نحو كوخ (السيد نور) مستجيرين به ، ليعيدوا قربه بناء أكواخهم وخصاصهم . وكان الكثيرون قد هجروا الديرة : فثمة من التحق بذياب ؛ فنشطت من جديد أعمال السلب والنهب في الأهوار الجنوبية ، واتجه آخرون غرباً ، قاطعين الصحراء ، ليستقروا في البلدة .

www.ibtesama.com

وشوهد غيرهم يستقلّون بأُسَرهم المشاحيف ليغرزوا المرادي في (بزايز الجولان) منطلقين شرقاً وجنوباً . ولُمح قسم آخر وهم يجتازون النهر ليرتقوا التلال الشمالية حتى إذا ما هبطوا منها إلى الجانب الآخر اختفوا إلى الأبد .

وهكذا ، كانت الأفئدة تخفق انفعالاً وسط ذلك الجو المأتمي كلما داعبتُ بالوتر الأسود وتر الرباب الأبيض ، سارداً بين النغمات الشجية أخبار (مطلق) وأبنائه ورجاله وكأنني بـ(البواشق) يستبدلون بتفاهة أيامهم الخاملة ذكرى تلك الأيام المجيدة الحافلة بالمآثر .

لم أكن في أول الأمر قد فكرتُ في إنشاء هذه المقاطع من (السيرة) بالصيغة التي هي عليها الآن شائعة على ألسن الجميع ؛ فقد شرعتُ في الأمر بصورة تلقائية أبعد ما تكون عن التخطيط والتنظيم : أسرد ما جمعته من تلك الحكايات التي كنتُ قد عاصرتُ أحداث معظمها ، تاركاً لخيالي الجموح الذي لا يعرف التوقف عند حد إضفاء ما يستطيع إضفاءه عليها من سمات . لكن المناقشات والاعتراضات التي كانت تحتدم بين المستمعين حول أسبقية حادثة على غيرها ، أو وجود ثغرة تجعل حادثة لاحقة غير مقنعة قياساً إلى حادثة سابقة ، هذه الأمور كلها جعلت معالم (السيرة) تنتظم لدي ؛ ففي لحظات انفرادي بنفسي في كوخي أخذت أُعيد ترتيب الأحداث في ذهني بصورة أكثر إقناعاً .

لقد مضيتُ في سبك دقائق (السيرة) بعضها ببعض ، رادماً ما يعتورها من ثغرات : فعلى الرغم من تعدد تلك الأخبار وتناقضها أحياناً ، وعلى الرغم من إغراق قسم منها في خيال مسرف يكاد يخرجها عن الواقع ، لكنني كنت أعرف كيف أنتقي الصالح منها مختزناً إياه في ذهني ، حتى إذا ما عدتُ إلى كوخي أخذتُ في ترتيبها ترتيباً مقنعاً .

www.ibtesama.com

ولم أكن أطمئن إلى صحة ذلك الترتيب إلا بعدما أمسّ بالوتر الأسود الوتر الأبيض باعثاً في سماء الديرة نغماتي ، داعياً (البواشق) إلى التحلّق حولي لأسرد على مسامعهم آخر ما توصلت إليه ، حتى إذا ما حظي بالرضا والقبول واصلتُ تنقلي هنا وهناك مقتنصاً من الرواة المزيد من الحكايات والأخبار الدائرة في الفلك نفسه .

والغريب في الأمر أن ذهني لم يخذلني يوماً ما في إنجاز تلك المهمة المعقدة ؛ فقد ألهمتُ قدرة خارقة على اختزان مئات الحكايات ، رابطاً كل واحدة منها بأمر معين يجعلها عصية على النسيان ؛ فإحدى الحكايات مثلاً ارتبطت في ذهني ، حين سماعها من راويها ، برائحة ورد لم أعرف لها مصدراً : أكانت بسبب شجيرة نامية في الجوار؟ أم لكون أحد الجالسين قد تضمّخ بذلك العطر؟ وثمة حكاية ثانية ارتبطت في ذهني بهدير رحى كانت تُدار في كوخ قريب ، يصحبه غناء صوت أنثوي مفعم باللوعة والأسى . وهناك حكايات أخرى ارتبطت بهديل فاختة أو باصطفاق مياه الهور القريبة بالجرف . كنت أتذكر تلك الأمور ، ومعها أستعيد الحكايات بدقائقها ليأخذ الصالح منها موضعه المناسب في (السيرة) .

هكذا دأبتُ على إنشاء (السيرة) وفي ظني أنني سأصل بها في ختامها إلى (واقعة دكة المدفع) ، غير مدرك ما قُدّر لها من أمور ؛ فذات يوم استيقظتُ مع صياح أول ديك ، فقد كنتُ في سبيلي للقيام برحلة جديدة سعياً وراء راوٍ قيل إنه يحفظ حكايات تعقب أحداث عام الطاعون وزواج (مطلق) بالأرملة . تحسستُ سبيلي داخل كوخي نحو الكوّة التي اعتدتُ أن أضع فيها الرباب ، وحين مددتُ يدي لم ألمس غير الفراغ ، فجمدت في موضعي لحظات خافق الفؤاد أفكر فيك أنت يا مدلول اليتيم .

www.ibtesama.com

لقد التحقتَ بي وأنت صبي ، بلغ قصر قامتك حداً كان يضطرني إلى أن أضع كفي على رأسك الحليق وأنت تقودني هنا هناك ، حتى إذا ما كبرتَ بعض الشيء أخذتُ أضع كفي على كتفك قبل أن ننطلق لغايتنا . وها أنذا في آخر الأمر - وقد تجاوزتني طولاً - أمسك بشمالي بزندك ونحن نواصل حلّنا وترحالنا .

ترى أيعقل أن يغدر بي إنسان مثلك ، فيسرق الرباب؟

إنه سؤال زاد من إلحاحه عليّ - وأسفاه - تخلّفك عن الحضور إلى كوخي ذلك اليوم برغم معرفتك بأننا على سفر!

فجر اليوم التالي استيقظتُ من نوم محموم حافل بالكوابيس على صوتكَ وأنتَ تدخل عليّ الكوخ ، حاملاً لي كسرة الخبز المعهودة وجرة الماء ، فوثبتُ نحو الكوة فإذا بيدي تمس بحركة خاطفة وتر الرباب الذي دوّى في صمت الكوخ بنغمة يتيمة خيّل إلي معها أنك جفلتَ حتى كادت الجرّة تسقط من بين يديك!

ما الذي كان يحدث من حولي دون علمي؟

وعاد فؤادي يخفق من جديد على خاطر تكدّرتْ بسببه فرحتي برجوع الرباب ، لكنني تكتمتُ على هواجسي وتجمّلت بالصبر . قلتُ : عساك أن تكاشفني بالأمر . ولكن . . هيهات! . . فحين طلبتُ منك أن تقودني نحو بغيتنا ، فوجئتُ بك تعمل جاهداً على إرجاء تلك الرحلة ، مقترحاً - بفلتة لسان - إلغاءها ، معززاً بذلك شكوكي التي دفعت بي إلى الإصرار على الأمر ، حتى إذا ما وصلنا إلى غايتنا انسللتَ من بين يديّ كالهارب تاركاً إياي أدخل وحدي كوخ الرجل - وأنت الذي لم تفوّت سماع حكاية واحدة طوال الأعوام التي قضيتها معي! - لكن السر سرعان ما انكشف ؛ فلحظة انفردتُ بالرجل فوجئتُ به يسألني عن جدوى إتعاب نفسي بقطع تلك المسافة المديدة

www.ibtesama.com

لسماع حكاية سبق لي أن بعثتُ بمن ينوب عني في سماعها؟ وأكد الأمر بقوله إن الفتى الذي قدم من قبلي كان يحمل ربابي المشهور دليلاً على صدق ادعائه!

ذلك اليوم لم أنطق بكلمة ، إنما اكتفيتُ بأن احتضنتُ ربابي ، ونهضتُ لأغادر الرجل دون وداع . وكنتَ في انتظاري على مبعدة من الكوخ ، وكل جوارحك تنطق بإثمك ؛ حتى أنك أخطأتَ فحاولتَ أن تتأبط يمناي لتقودني في طريق العودة لولا أنني صححتُ لك الأمر ؛ فقد كان من المألوف أن تأخذ بشمالي ، تاركاً إياي أحمل الرباب بيميني!

وعلى امتداد طريق العودة سرنا صامتين ، لا يجرؤ أحدنا أن يبادل الآخر حرفاً واحداً ، شاعراً مع كل خطوة تقرّبنا من (ديرة الهشيمة) بعرق من عروق زندك ينبض تحت أصابعي مفصحاً بذلك عن مبلغ اضطرابك!

وحينما دخلنا الكوخ سارعتُ إلى إعادة الرباب إلى موضعه ، واستدرتُ نحوك ، مانحاً إياك آخر فرصة للاعتراف وطلب العفو والغفران ، وحينما لم تفعل هتفتُ بك آمراً :

- اذهبْ . . ولا تعد لي ؛ فقد اختلفتْ بنا السبل!

وبقيتُ واقفاً في موضعي مترصداً بسمعي حركاتك التي دلّتْ على مبلغ حيرتك وارتباكك . لكنك عزمت على أمرك في النهاية فتنهدت أسى قبل أن تغادر كوخي حيث تتبعت بأذني وقع خطاك وهو ينأى بك عني ليتلاشى في آخر الأمر تاركاً صرير الجنادب يملأ ذلك الليل الصيفي .

تلك الليلة لم أُشغل نفسي بالتفكير في شأن (السيرة) وتنظيم حكايتها في ذهني ؛ إذ ما كدت ألقي برأسي على الوسادة حتى

www.ibtesama.com

استغرقتُ في نوم عميق خالٍ من الأحلام، لم استيقظ منه إلا فجراً في الوقت الذي اعتدتَ أنت القدوم فيه، فرفعتُ رأسي منادياً إياك باسمك وفي ظني انك داخل الكوخ، وحينما أدركت أنني واهم ألقيت برأسي على الوسادة من جديد مواصلاً نوماً عميقاً لم أصحَ منه إلا ضحىً على ضجة أحد الصيادين وهو يدخل كوخي حاملاً لي حجلاً ذبيحاً.

منذ ذلك اليوم صمت ربابي، وأخذ الغبار يتراكم عليه في كوّته، وافتقد (البواشق) أنغامي التي لم تعد تتردد في سماء الديرة؛ فقصد العديدون منهم كوخي محاولين استجلاء السر، سر عزوفي عن الاقتراب من الرباب، وسرد أحداث السيرة وإضافة المزيد إليها. لكنني كنتُ عاجزاً عن إجابتهم؛ فنور الهمّة كان قد خمد في القلب، وطرأتْ الغفلة على الخيال. لكنهم كانوا يزدادون عليّ إلحاحاً مسوّغين ذلك بحرصهم على إتمام (السيرة) التي لم تعد تتعلق بـ(مطلق) وحده قدر تعلقها بتاريخ عشيرة (البواشق)، فكنتُ أعترفُ لهم باستنفاد خزيني من الحكايات والأخبار، فكانوا يعترضون متسائلين:

- كيف ذلك والسيرة لا تزال في بدايتها؟

فكنت أتهرّب من إلحاحهم راجياً إياهم أن يتجملوا بالصبر عسى أن ينبغ فيهم من ينوب عني في إكمال ما عجزت عنه. لكنهم كانوا يضجون في الاعتراض مؤكدين استحالة وجود من يستطيع مضاهاتي في هذه المهمة، فكنت أوقفهم عند حدهم طالباً منهم عدم المبالغة في إطرائي؛ فما قمت به لم يتجاوز أن ثمة من ألهمني الأمر فانطق به لساني، ولن يعدموا وجود من سيؤدي الدور نفسه، بل أفضل مني. وكنت أعقب ذلك بالتذكير بك:

- هناك مدلول اليتيم مثلاً.

www.ibtesama.com

حينها فقط كانوا يتذكرونك ، أين أنت؟ ولَم تركتني؟ وما سر انقطاع العلاقة بيننا بعد عِشرة عمر؟ ولكنني لم أكن أشفي غليلهم تاركاً إياهم يحملون أسئلتهم تلك إليك ، أنت الذي عرفتك منذ طفولتك تتهرب من مخالطة الآخرين . وحدث ما توقعته ؛ فبعد أيام جاءني من أبلغني بفشلهم معك . قالوا إنك بدوتَ مشغول البال بأمر جلل ، تبدو كالغائب برغم حضورك . وقال آخرون إنهم لمحوك ليلاً تحوم حول كوخ (السيد نور) مناجياً نفسك بكلام غامض غير مفهوم . حينها فقط أدركتُ الأمر ؛ فعذرتك لفعلتك معي ، وعرفتُ أنك ابتليتَ بما ابتليتُ به ؛ فأخذتَ تعاود سيرتي متتبعاً أثر الرواة أينما كانوا ، فحمدتُ الله على أنني سأموت قرير العين ؛ فالحياة تبقى أخذاً وعطاءً ، والموت يبقى أبداً واقفاً بالمرصاد ، فطوبى لمن جنّب نفسه الضلال قبل أن تشتط به الحال .

يا مدلول اليتيم : هكذا نشأتِ (السيرة) يوماً بعد يوم ، وشهراً بعد شهر ، وعاماً بعد عام ، عساك أن تبلغ بها من بعدي الختام .

يا مدلول : هاأنذا أحلّك من عهدك لي ، عهد المريد لشيخه ، وأحمّلك الأمانة ، فامضِ بها إلى حيث يشاء الحق . ولكن قبل ذلك دعني أداعب بالوتر الأسود الوتر الأبيض لكي أسرد ما أنشأتُه من (السيرة) لك وحدك ، فأعرني سمعك :

لقد جرى القلم بما الله حكم ؛ فبين القِبلة والمغرب بزغ النجم المذنّب سيف الله المسلط فوق رقاب المارقين .

قال الراوي : يومها شوهدتْ أسراب الغربان ترقط بسوادها الكريه زرقة السماء حيث تردد نعيبها طويلاً قبل أن تختفي عند خط الأفق ليخيّم صمت مطبق ، كان يتبدد من حين إلى حين على صفير الريح وهي تمر بجدران القلعة مثل عويل فاجع أعاد إلى الأذهان ذكرى ذلك

www.ibtesama.com

اليوم المشهود الذي فشل فيه (السيد نور) في ثني (مطلق) عن الشروع في حفر أسس قلعته فوق التل ، فنكس رأسه الجليل أمام الرجال الواجمين ، مردداً الكلمة التي لا يخجل قائلها :

- لا حول ولا قوة إلا بالله .

وأعلن على مسمع من الجميع انه سيهجر كوخه مع أول آجرّة تُوضع في أسس القلعة . إلا أن (مطلق) - وقد أعماه الجشع - لم يأخذ الأمر على محمل الجد ؛ فحالما انتهى رجاله من إعداد مواد البناء أمرهم بالشروع في العمل ؛ فهجر (السيد نور) كوخه القائم وسط الأكواخ والبيوت الطينية المبعثرة تحت ظل التل ، واتجه جنوباً متجاهلاً إلحاح الرجال الذين ساروا في أعقابه راجين إياه التريّث في تنفيذ وعيده . قال وهو يجيل فيهم بنظرة مهيبة :

- لقد حذّرته من قبل . . نبهته على ضرورة ألا يدع شيطان الطمع يوسوس له فيقترف الإثم الذي سيحاط بعده بالشقاء والنصب ، لكنه أولاني إذناً صماء ، وأغمض عينيه تاركاً هاوية الجشع تسحبه إلى قعرها الذي ليس له قرار . . هذا فراق بيني وبينه ، لن يجمعنا بعد اليوم طريق .

وأسبل جفنيه ليتابع وقد استضيء وجهه بنور الكشف :

- . . اللهم إلا يوم يكفّر فيه عن خطيئته ، فيقطع على ركبتين داميتين هذه المسافة التي تفصلني عن ذلك التل المشؤوم ، معلناً التوبة ، واضعاً بذلك نفسه على أول الطريق حيث يكون أمامه سفر طويل لن يحقق خلاله مقاماته إلا بما يمنحه الحق من أحوال تضيء القلب .

لكن الرجال لم ينهزموا ؛ فقد عادوا هذه المرة يذكّرون (السيد نور) بصداقته القديمة لـ(مطلق) تلك الصداقة التي تقتضي العفو والغفران ؛ ولولا الذنب ما كانت المغفرة ، فأطرق (السيد نور) ساعة من الزمان ،

www.ibtesama.com

حتى إذا ما رفع رأسه خاطبهم بطريقة أبقت باب الأمل غير مغلق :

- دعوا للزمن مهمة أن يخفف من حدّة ما وقع ؛ فما تعاقب الليل والنهار على شيء إلا وغيّراه .

قال الراوي : وهكذا لم يملكوا وقد دبّ في قلوبهم اليأس إلا أن يستعيدوا الأحداث التي جلبتْ إليهم النحس : وكانت البداية حين أخذ (مطلق) يبدي تبرمه وضيقه بحياة الزهد والتقشف التي يحيونها في هذه البقعة المعزولة عن أطراف الدنيا الأربعة . كان يتحدث عن المدينة ، وعن حياة الترف التي ينهل الناس منها هناك ، مقارناً بها حياتهم هم الذين يكاد يقتلهم الجوع والعوز ، لا يملك بعضهم ثمن كفنه عند موته . كان يفضي بهمومه تلك إلى أي كان باستثناء (السيد نور) ، حتى إذا لم يجد أذناً صاغية ازدادت نقمته استعاراً ؛ فأخذ يتمتم علانية بجمل مبهمة وأنصاف كلمات كانت تجعل (السيد نور) يعلّق وثمة ابتسامة مشرقة تضيء وجهه :

- اللهم جنّبنا رعود (مطلق) وبروقه الخُلّب!

وذات يوم تجمّع الرجال فوق التل ، حيث تشمخ بقايا جدران قلعة قديمة خرجت من تعاقب الليل والنهار وتناوب العواصف والأمطار بكتلة مبهمة اتخذت منها طيور البوم والخفافيش لها مسكناً ، تجمّعوا هناك ، واتجهوا بأنظارهم غرباً في انتظار بزوغ هلال العيد ، وراقبوا طويلاً الشمس الحمراء وهي تذوب بجلال وراء الأفق ملطخة السحب الواطئة بفيض من وهجها البرتقالي ، حتى إذا ما ارتفعت التكبيرات معلنة عن رؤية الهلال أخذ (مطلق) يتمتم بجمله المبهمة وأنصاف كلماته ، فلم يملك (السيد نور) إلا أن يخاطبه وقد أشرق وجهه بابتسامته المعهودة :

- دع رعودك وبروقك الخلّب ليوم آخر ؛ فغداً أول أيام العيد .

فتساءل (مطلق) بمرارة وهو يشيح بوجهه جانباً :

www.ibtesama.com

- وبماذا يختلف العيد عن غيره من الأيام في أرضٍ الداخل فيها مفقود والخارج منها مولود؟

- ما هذا؟ ما هذا الكلام يا (مطلق)؟

صاح (السيد نور) مستنكراً ، فأجابه (مطلق) وهو يقوم بإيماءة مبهمة نحو الغرب :

- الحياة الحقيقية هناك . . في البلدة حيث الترف والدعة .

- دعك من التفكير في هذا الاتجاه يا (مطلق) .

حذره (السيد نور) . وأضاف وقد خفض صوته حتى كاد يستحيل إلى همس :

- دعك من هذا التفكير ، ودع الآخرين ليعيشوا حياتهم المترفة ؛ إذ إنها ليست تحت جبروت سلطة الغزاة المحتلين غير جحيم لا تطاق ، واكتفِ بحياة القناعة في هذه البقعة المعزولة التي هي أشبه بالجنة التي وعد الله بها عباده المؤمنين .

قال الراوي : يومذاك كانت تلك البقعة تكفل لهم حياة رضية كانوا يحيونها بدعة وهدوء ؛ فإلى الغرب ، في الاتجاه الذي تمتد فيه صحراء شاسعة تفصلهم عن البلدة ، كانوا يسرحون ماشيتهم لترعى على هواها . وإلى الشرق ، حيث تنداح الأهوار التي لا أول لها ولا آخر ، كانوا يندفعون بمشاحيفهم الرشيقة ليعودوا بها ، بعد أيام ، وقد كادت تغطس حتى حافتها العليا تحت ثقل الأسماك والطيور التي اصطادوها . وإلى الجنوب - في الجانب الآخر من الوادي - كانت تقوم بساتين النخيل . وإلى الشمال - وراء النهر - تتابع التلال على مدى البصر حيث تكثر الغزلان والحباري وطيور الدرّاج والحجل التي يستطيعون الإيقاع بها دون تعب يُذكر .

ولكن (مطلق) مضى في إظهار سخطه وتبرمه مجابهاً تحذير(السيد

www.ibtesama.com

نور) باعتراف مفاجئ :

– ذلك أمر خارج عن إرادتي ؛ فثمة صوت يوسوس في صدري أن أدع القناعة جانباً ، إنه صوت لا أملك له رداً ، يمعن في مطاردتي ليل نهار منبهاً إياي على أن الزمن يمضي ، والحياة تتسرب من بين أصابعي مثل حفنة رمل دون أن أحظى بالغنى والجاه والذرية التي ستكفل خلود ذكري إلى الأبد!

فقال (السيد نور) من فوره :

– ولكن خلودك هو في خلود الذكر الحسن ، لا الخضوع للجشع والطمع اللذين يوقعان الشقاق بين البشر .

بيد أن (مطلق) لم يقتنع ؛ فعلى الرغم من أنه لم ينطق بل تعقب صامتاً (السيد نور) والرجال الآخرين ، وهم ينحدرون من سفح التل وقد ولّى النهار وأقبل الليل بالاعتكار ، لكنه بدا في صمته وكأنه كتم في نفسه أمراً ما ؛ حتى إذا ما مضت أيام شوهد وقد اعتلى ظهر دابة اتجه بها غرباً ، فراقبته العيون طويلاً قبل أن يغيب عن الأنظار .

تلك الليلة نعب طائر بوم طويلاً في أطلال القلعة ، واسترسل كلب في عويل مقبض حتى الفجر . وعلى مدى ساعات نهار اليوم التالي بقي الرجال – وهم يمارسون أعمالهم المعهودة من رعي وصيد – يستديرون من ساعة إلى ساعة متطلعين بأنظار قلقة في اتجاه الغرب حيث الصحراء المستسلمة لأشعة الشمس تكاد تعشي الأبصار .

قال الراوي : وانتهى انتظارهم حين مسّ قرص الشمس الأفق وصبغ بلونه الدامي سماء الغروب ؛ فقد سقط ظل مديد وسط أكواخهم . وحينما رفعوا الرؤوس رأوا (مطلق) يعود راجلاً وقد حمّل دابته بأكياس وسلال لا تُعد ولا تحصى .

– هاأنذا أعود من البلدة سالماً معافى!

www.ibtesama.com

صاح (مطلق) من بعيد كمن يداري خجله ، فسأله (السيد نور) متهكماً :

- أواثق أنت من ذلك؟

فتهرّب (مطلق) من الإجابة بأن قال وقد أخذ يربتُ على حمل دابته :

- انظروا . . لقد عدت ببضائع لم نذق مثلها من قبل!

فأجابه (السيد نور) وقد ازداد تهكمه مرارة :

- يكفينا أنك ذقتها . . . أما نحن . . . فدعنا على قناعتنا .

فجنح (مطلق) بوجهه جانباً وقال بسخرية لم تعهد فيه من قبل :

- هنيئاً لكم بقناعتكم تلك . . . قناعة ملائكة أكلهم وشربهم التسبيح والتقديس!

فصاح (السيد نور) بصوت رددتِ أطلال القلعة صداه :

- ولكنها تبقى خيراً من الطمع والجشع اللذين تلبساك .

فاستدار (مطلق) نحو(السيد نور) وقد شحب وجهه من فرط الغضب ، وتساءل بصوت مرتعش كان يحاول السيطرة عليه بصعوبة :

- وأي طمع أو جشع في ذهابي إلى البلدة؟

- ذلك لأن البلدة مصدر شر .

فتساءل (مطلق) بسخرية جارحة :

- أبسبب ذلك كنتَ تمنعني من الذهاب إلى البلدة؟ أم لحرصك على أن أبقى على جهلي وأنا أعيش حياة الخمول والكسل؟

وتابع قبل أن يتسنى لـ(السيد نور) الوقت للرد عليه :

- لقد تفتّحت عيناي ، صار في استطاعتي الآن أن أُميِّز ، دون الحاجة إلى مشورة أحد ، بين ما يضرني وما ينفعني!

- أسفي عليك يا (مطلق) . . لقد وسوس لك الشيطان ؛ وبذلك

www.ibtesama.com

غادرتَ جنة الأمان لتعيش جحيم القلق حيث ستُحاط بالشقاء والنصب ؛ نهارك سعي لا يهدأ وراء لقمة الزاد ، وليلك تقلّب من جنب إلى جنب وأنت تفكر في الوسائل التي تكفل لك الحصول على المزيد!

وفتح (مطلق) فمه ليجيبه ، لكنه وجد نفسه مستهدفاً من عشرات الأعين التي كانت ترمقه بنظرات إدانة ، فأفرغ غيظه بأن سحب مقود دابته بعنف ، واتجه نحو كوخه وهو يتعثر بخطاه كمن يسير تحت الأبصار مكشوف العورة . وتعقبه (السيد نور) بصوته :

- (اهبطوا بعضكم لبعض عدو ولكم في الأرض مستقر ومتاع إلى حين) .

قال الراوي : تلك كانت بداية الجفوة التي أخذت تتسع بمرور الزمن ؛ فقد مضى (مطلق) في إظهار تحديه ؛ فكلما سنحت له الفرصة شوهد وهو يغادرهم نحو البلدة ، تتقدمه دابته محملة بسلال الفواكه صيفاً ، وخصاصيف التمر شتاءً ، والغزلان الذبيحة في بقية المواسم فضلاً عن مجاميع الطيور المشدودة السيقان إلى بعضها . وبقيت الحيرة تلف الجميع وهم يتساءلون عن سر تلك الدابة التي بات من المألوف أن تتقدم صاحبها مرخية الأذنين تحت ثقل حملها؟

وذات خريف انكشف السر لهم وليته لم ينكشف : فقد فوجئوا بسحابة غبار تنمو في الأفق الغربي حتى غطت الأقطار ، فتبادلوا بينهم نظرات دهشة ؛ فدابة (مطلق) المنهكة في رواحها ومجيئها لم تكن قادرة على إثارة كل هذا التراب!

وتجمع الرجال عند مشارف أكواخهم وقد ظللوا أعينهم بأكفهم وهم يتطلعون غرباً ، حتى إذا ما انجلت سحابة الغبار ظهر فرسان على صهوات الخيول ، يتقدمهم (مطلق) على ظهر دابته المعهودة وهو يسحب وراءه أعنة مجموعة دواب محملة بالأكياس!

www.ibtesama.com

مرّ بهم منكس الرأس وفي أعقابه الفرسان الذي لم يكونوا سوى جنوداً

تلك الليلة كان السؤال الوحيد الذي ردده الجميع تحت سقوف أكواخهم هو عن سر قدوم هؤلاء الجنود في رفقة (مطلق)؟

فجراً شوهدوا وهم يرافقون (مطلق) في جولة استمرت طويلاً ذرعوا خلالها الأراضي البكر الممتدة حتى تخوم الصحراء . وحينما ارتفعت الشمس فوق الجبال الشرقية تردد وقع حوافر خيولهم وهم يعودون إلى البلدة . لحظتئذ فقط عرف الجميع السر ؛ فقد شاهدوا (مطلق) يشد إلى دابته محراثاً خشبياً ليصرخ بها بأعلى صوته وقد أدار ظهره نحو الأكواخ عاملاً بالسكة الحديدية أول ثلمة في الأرض .

وكان قد أنهى خامس خط لحظة توجه (السيد نور) نحوه ليسأله بحذر :

– ما الذي تعمله يا (مطلق)؟

فرمقه (مطلق) بنظرة خاطفة قال على إثرها ، وهو يستدير بدابته ، حاثاً إياها على معاودة سحب المحراث ، بادئاً بالخط السادس :

– كما ترى!

وترك (السيد نور) واقفاً في موضعه ، وواصل الصراخ بالدابة وهي تتجه غرباً ، ساحبة المحراث الذي ألقى (مطلق) بثقله على مقبضه ، مراقباً سكته الحديدية وهي تشق الأرض عميقاً بين قدميه . واستدار عائداً ليقول لاهثاً وقد وقف مع نهاية الخط السابع أمام (السيد نور) :

– لقد التزمتُ بزراعة هذه الأرض المشاعة بعدما فوّضتني السلطة في البلدة ذلك .

وأضاف بحماسة :

– لولا الهدايا التي اعتدت أن أتحف بها المسؤولين هناك لما سمحوا

www.ibtesama.com

لي بزراعة هذه الأرض!

- وهل تدرك نتيجة إقدامك على هذا العمل؟

- ستكون النتيجة خيراً من حياة الرعي والصيد التي لا تكاد توفر لنا لقمة الزاد .

فسأله (السيد نور) بنبرة منذرة :

- وهل تحسب أن تلك السلطة التي فوضتك هذا الأمر ، وأرسلت معك جنودها لترهبنا بهم ، فضلاً عن تزويدها إياك بحبوب البذار ، هل تحسب أنها تقوم بكل هذه الأمور دون ثمن؟

فأولاه (مطلق) ظهره ، وأجابه باستهانة وهو في سبيله لحراثة خط جديد :

- سأسدد ثمن حبوب البذار على دفعات ، كما سأدفع ضرائب ضئيلة لقاء التزامي بزراعة الأرض .

فصاح (السيد نور) في أثره :

- لقد ضعتَ يا (مطلق) وضيّعتنا معك ؛ فقد أنهيتَ بعملك هذا زمن البراءة والدعة ، وستتعاقب المصائب على هذه الأرض التي لم تعرف غير الأمان والسلام .

واستدار عائداً نحو كوخه مخاطباً كل من يمر به من الرجال :

- لقد ضاع عبثاً تعبنا معه هو الذي أحطناه برعايتنا منذ وجد بيننا ، قلنا لعل الله سبحانه وتعالى بعث به إلينا عظةً وعبرة ، ليختبر عن طريقه مقدار تعبدنا له ، لكن هيهات ؛ فهاهو يعود إلى الطينة التي جُبل منها بعدما تملّكه شيطان الطمع .

قال الراوي : وهكذا انتهت حياة الدعة والأمان ، وغدا (مطلق) مصدر قلق للجميع ؛ ما يكاد يخرج من كوخه - تتعقبه زوجته الحامل - حتى يبدأ في الصراخ مع كل خطوة يخطوها : يعنّف زوجته دون

www.ibtesama.com

حياء لتكاسلها في مساعدته في الحقل بحجة قرب موعد ولادتها ، ويرفع صوته بالصياح مرسلاً لعنات مبهمة لأن أحد الرجال مرّ به فأشاح بوجهه عنه متجاهلاً الرد على تحيته ، وحتى النهر ، والساقية المتفرعة عنه ، ومنجله الذي يعمل به لم يسلم من غضبه ؛ فالدنيا بأسرها تعمل ضده : فالماء لا ينحدر من النهر بالكمية اللازمة ، وكتفا الساقية تتهدمان دون سبب واضح غامرتين المجرى بالتراب ، أما المنجل . . يا إلهي! . . أي حداد لعين هو الذي سنّه؟ إذ إن حدّه أشبه بأسنان رجل عجوز : ما يكاد يحشّ به ثلاث حزم عشب حتى يضرس فيستنجد بالمبرد المثبت في طيّة حزامه ليسنّه من جديد!

وفوجئ ، في أحد الأيام ، بقطيع غنم يسرح وسط نباتات قمحه التي كانت قد شرعت في الإزهار ، فاندفع بمنجله المشرع وقد أعماه الغضب مصيباً الأغنام بضربات عشوائية سقط على إثرها العديد منها ونوافير الدم تندفع من أجسادها ملطخة خضرة نباتات القمح بلونها الأحمر القاني . وواصل مطاردة الأغنام المندفعة في شتى الاتجاهات وسط كثافة النباتات ، تتعقبه زوجته بصوتها المتوسل :

– (مطلق) . . . كف عن ذلك . . كفاك يا (مطلق) ؛ لقد نحرت العشرات منها!

وكان من المؤكد أنه سيستمر في مطاردة الأغنام حتى يجهز عليها كلها لولا أنه فوجئ بزوجته تطلق صرخة حادة سمع ، على أثرها ، صوت سقوطها وارتطام جسدها الثقيل بالأرض . وحينما وقف ليلتفت خلفه لاهثاً لم يبصر شيئاً ؛ ذلك لأن نباتات القمح كانت تمتد على مدى البصر وهي تتماوج بفعل هبوب نسمة هواء ، فقفل عائداً متتبعاً أثر سيره الذي ترك النباتات مسحوقة أو ملوية الرؤوس ، وهنا وهناك ترقد جثث خراف نافقة ، أو جريحة لا تملك القدرة على النهوض ،

www.ibtesama.com

وفجأة تنبه إلى تحرّك النباتات إلى يمينه حيث ارتفعت صرخة وليد نحيلة ، فاستدار في ذلك الاتجاه ليشرف أخيراً على زوجته وقد اضطجعت على ظهرها وسط بساط عشبي وثمة كتلة لحم دامية تنتفض بين ساقيها!

– يا إلهي! . . لقد ولدتِ المرأة!

همس وهو يتهاوى قربها على ركبتيه . وبيدين راجفتين أخذ يتفحص الجنين ليتأكد من أنه حي ، ولكنه لاحظ امرأته ، التي كان الضعف قد بلغ بها منتهاه ، وهي تومئ بعينيها منبهة إياه على الحبل السري ، فتلمّس بيده سيقان النباتات المسحوقة من حوله بحثاً عن المنجل ، حتى إذا ما اهتدى إليه قطع بنصله الملطخ بالدماء الحبل السري ، وساعد امرأته على الجلوس ليلف الطفل ، الذي انطلق يصرخ ، بطرف ثوبها . في تلك اللحظة الدقيقة جفل (مطلق) على أصوات رجال كانوا يقتربون ، فهبّ واقفاً ، وتقدم مسافة ليستقبلهم بعيداً عن الموضع الذي ترك فيه امرأته .

– سأعوضك عن الأغنام التي خسرتَها .

كلّم (مطلق) الراعي صاحب الأغنام الذي كانت قبضته قد ابيّضت لشدة إطباقه إياها على رأس عصاه الغليظة . وتابع وهو يجيل نظرته الصارمة على الرجال الآخرين المحيطين بالراعي :

– لكنني سأكرر الأمر نفسه مع أي قطيع أراه في حقلي!

وحينما حاول الراعي رفع عصاه ، سارع صحبه إلى منعه محذرين إياه همساً من السلطة والجنود الذين يسندون (مطلق)!

قال الراوي : وهكذا انقلب عداء الرجال لـ(مطلق) إلى حذر مشوب بخوف مستتر ؛ فقد باتوا يتجنبون الاقتراب بقطعانهم من حقله ، ويوغلون بها بعيداً لكي لا تموت جوعاً ، وبذلك غدا الرعي

www.ibtesama.com

مهمة شاقة عليهم ؛ فالبقعة التي كان (مطلق) قد اختارها لزراعة قمحه عُرِفتْ ، منذ القدم ، بكثافة عشبها وجودته ، وهكذا فترت حماسة العديدين لمهنة الرعي . وما مر موسمان أو ثلاثة حتى عمد آخرون إلى زراعة القمح ، مجارين (مطلق) في ذلك . وضاعت تحذيرات (السيد نور) سدى . كان يصيح بهم بأسى :

– أسفي عليكم يا رجال ؛ إذ إنكم تحفرون قبوركم بأيديكم : فبعدما بقيتْ أرضنا هذه بمنجاة من جبروت سلطة المحتلين ها أنتم تسلّمونها لها صاغرين ، وتلك خطيئة لن يغفرها الله لكم ؛ إذ إنه سبحانه يمهل ولا يهمل .

لكنهم كانوا يولونه آذاناً صماً ؛ فعلى الرغم من أن الجنود كانوا يأتونهم عقب الحصاد والتذرية لاستيفاء الضرائب منهم ، إلا أن تلك الضرائب كانت ضئيلة في أول الأمر ، لا تكلفهم شيئاً يذكر ، مما أدى بالآخرين إلى اتخاذ الزراعة مهنة لهم ، حينها فقط أدركوا أن تفاؤلهم لم يكن في موضعه ؛ فقد أخذت الضرائب تزداد باستمرار ، بل بدأ الجنود يعمدون إلى معاقبة من يمتنع عن أدائها ، حتى استحالت الحياة إلى جحيم حقيقية . وكان (مطلق) الوحيد الذي تضاعف ثراؤه ؛ فقد وسّع أسوار كوخه لتبتلع الأكواخ المجاورة ، كما بات يرتدي ملابس فاخرة كانت تهفهف من حوله كلّما وثب معتلياً صهوة حصان أدهم اشتراه آنذاك ، ليتوجه إلى البلدة .

قال الراوي : بيد أن تحذيرات (السيد نور) لم تذهب سدى : فذات ليلة جفل الجميع على صوت رعد جبار هز أكواخهم ، فهبوا مذعورين من نومهم ؛ إذ إن موسم الأمطار كان قد انتهى ، وحقول القمح فُطمتْ لكي تجف السنابل قبل الشروع في الحصاد . قالوا : لعلها غيمة صيف سرعان ما ستتبدد . لكنهم أدركوا خطأهم ؛ فقد شرعت أبواب

www.ibtesama.com

أكواخهم تصطفق بفوضى على أثر هبوب عاصفة مفاجئة . وواصلت البروق اشتعالها محيلة الليل ، بين فينة وفينة ، إلى نهار ساطع قبل أن تقصف الرعود . وهطل مطر مفاجئ حسب الجميع أنه زخة ربيعية سرعان ما ستتوقف . لكن المطر بقي يتواصل حتى الصباح ، وأخذت المياه تتسرب من الشقوق التي تتخلل السقوف . وشوهد (مطلق) يندفع من بيته كالمجنون ، وقد احتمى بعباءة صوفية انتفختْ خلفه ، وهو يعدو في اتجاه الحقول التي أخذت مياه الأمطار تتجمع في المواضع الخفيضة منها على شكل برك . ورفع رأسه رامقاً الغيوم السود المدلهمة بنظرة هلع انطلق بعدها يجتاز الأكواخ المستسلمة لعصف الريح والمطر متجهاً شرقاً حيث يكمن مصدر الخطر القادم . وانحدر من الجرف ، فالتحق به العديدون ، ووقف الجميع بإزاء مياه الأهوار المزبدة الآخذة في الاعتكار . ومن الشمال كان السيل يواصل تدفقه الكاسح على امتداد الوادي الذي ضاق جرفاه العموديان عن استيعابه فأخذا يتراجعان إلى الجانبين مخلّفين وراءهما كتلاً هائلة كانت التيارات الحادة تنحت أساساتها بسرعة خارقة ، فتهوي بدوي مكتوم يعلو لحظة خاطفة على هدير السيل قبل أن تبتلعها المياه في تدفقها المجنون .

قال الراوي : منذ ذلك اليوم أصبح الوادي الشمالي يُعرف باسم (وادي الزود) تذكاراً لذلك الطوفان الذي لم تشهد تلك المنطقة له مثيلاً ، والحقّ أن الجميع يومئذ راحوا يتلفتون حولهم هلعين وقد أيقنوا أن كل لحظة تمر تقرّبهم من كارثة لا يدرك هولها سوى الله . وكان (مطلق) أول من تنبه إلى نفسه ؛ فصاح بصوت جبار حاول أن يعلو به على زئير العاصفة :

– عجّلوا . . علينا بتحصين الضفة الجنوبية للنهر ؛ فهناك يكمن الخطر!

www.ibtesama.com

وكان النهر - الذي يتفرع من الجانب الغربي للأهوار عند مصب (وادي الزود) فيها - قد فاض بمياه السيل ، فهرع الجميع إلى هناك ، وتشابكت أيديهم على المناجل والفؤوس والمساحي . وانطلقوا يقتلعون شجيرات الطرفاء ، ويقتطعون أغصان الغرب والصفاف ، شادين إياها إلى بعضها على شكل حزم كانوا يسارعون إلى رصّها في المواضع الخفيضة من الضفة الجنوبية للنهر ، مثقلين إياها بالطين والحصى والرمال .

قال الراوي : ولكن أنّى للإنسان الضعيف الإفلات من غضب الله؟ فمع كل حزمة يضعونها في موضعها كانت تنجرف حزم في مواضع أُخرى تحت ضغط المياه التي أخذت تشخر وهي تندفع مزبدة على شكل شلالات كانت تنمو بسرعة خارقة لتغدو ، آخر الأمر ، سيلاً جارفاً يكتسح كل ما يعترض سبيله . وعبثاً بقي (مطلق) يعلو بصراخه على هدير العاصفة حاثاً إياهم على مساعدته في رصف المزيد من الحزم ؛ فقد أخذت المياه تزحف مقتربة من أكواخهم . وضجّ الأطفال والنساء في الصراخ ، فركض الرجال عائدين . وكان (مطلق) آخر المنسحبين . عاد إلى بيته ليختطف ابنه الصغير (طارش) واضعاً إياه على كتفيه حاملاً كل ما في استطاعة ذراعيه المجهدتين حمله ، آمراً امرأته بالإسراع في جمع ما تستطيع جمعه . واخترق ، تحت ثقل حمله ، الأوحال والمياه ، وهو يصرخ :

- التل . . علينا الاحتماء بالتل .

وهناك ، فوق التل ، التقى (مطلق) (السيد نور) وقد احتمى من عصف المطر تحت جانب من أطلال القلعة ، فتبادل الاثنان نظرة طويلة متأملين أحدهما الآخر . وائتلق برق شعّت على وهجه ملامحهما البليلة ، وانفجر الرعد بدوّي هزّ التل تحتهما ، فغالب (مطلق) رجفة

www.ibtesama.com

مباغتة أَلَمّت به . وأسقط ما كان يحمله بيديه ، لينزل ابنه عن كتفيه برفق محاولاً إيجاد الكلام المناسب لهذا الموقف . وحينما أعياه الأمر قال وهو يدفع ابنه نحو (السيد نور) :

– إنه ابني . . طارش .

– دعه معي ، وسارعْ إلى العودة إلى بيتك لجلب ما تستطيع انتشاله من الطوفان .

أجابه (السيد نور) وهو يحتضن (طارش) بين ذراعيه مداعباً شعره البليل ، فرمقه (مطلق) بنظرة دهشة قفل على أثرها هابطاً محاذراً الانزلاق ، وكلمة (الطوفان) التي نطق بها (السيد نور) تدّوي في ذهنه بصدى غريب!

وكان الجميع في حركة دائبة بين الأكواخ والتل ، يخوضون بأقدام عارية في الأوحال ، ويتلقون برؤوسهم المطر المتساقط ، وهم يحملون كل ما خف وزنه وغلا ثمنه إلى التل ، حتى إذا ما حلّ المساء كانوا قد انتهوا من نقل ما استطاعوا نقله ، وتركوا أكواخهم ليس فيها ديّار ولا نافخ نار . ومرت بهم ليلة رهيبة لم تكف الأمطار فيها عن الهطول لحظة واحدة . وكانت البروق تشعل الغيوم السود الخفيضة بألق خيوطها المتعرجة ، مظهرة الوجوه البليلة زرقاً أشبه بوجوه الموتى . وبقي صوت (السيد نور) يتواصل ، وسط تلك الضجة المدوية ، وهو يرتّل الآيات ويلهجُ بالأدعية ، مردداً الأوراد والأحزاب ، في حين كان الرجال من حوله لا يكفون عن ذكر اسم الله .

قال الراوي : وحلّ الصباح بعد طول انتظار وليته لم يحل ؛ فعلى وهج ذلك الضياء الرمادي الخافت رأوا مياه السيل وقد طوّقتهم من كل جانب لتمتد على مدى البصر وثمة جذوع أشجار مقلوعة وجثث حيوانات نافقة تغوص وتطفو وهي تنحدر مثيرة في سيرها المتثاقل

www.ibtesama.com

الكثير من الزبد . وهنا وهناك كانت تبرز رؤوس تلال سرعان ما اختفت بدورها بعدما واصلت الأمطار هطولها بعنف أشد عقب هدنة طارئة لم يكف الرذاذ خلالها عن السقوط .

وكان منظرهم فوق التل عجيباً يبعث الرهبة والهلع في القلوب : ففي الأسفل ، قرب خط المياه الآخذ في التصاعد ، تجمعت الحيوانات البليلة إلى بعضها وقد صعقها الرعب وأذلّها الحصار ؛ فكفّت الكلاب عن النباح ، وسكنت في مواضعها داسّة أذنابها بين أطرافها الخلفية ، وتخلت المعيز عن مكرها الأبدي ؛ فجمدتْ في موضعها مرعّشة أذقانها المسترسلة ، وكفّت الكباش عن التناطح ، وحتى الديكة لم تعد تطلق صيحاتها الرنّانة معوضة هزيمتها بنقر رؤوس الدجاجات المستكينة . وتجمّع البشر في أعلى التل ملتصقين ببعضهم كأنهم يستمدون من دفء أجسادهم القدرة على البقاء والصمود وهم يتقاسمون بينهم لقمة الزاد الواحدة بحرص شديد خوفاً من أن يستمر هطول الأمطار مدة طويلة فضلاً عن يقينهم أن توقفها لا يعني انتهاء محنتهم سريعاً ؛ فمن المؤكد أن انحسار السيل لن يتم بالسهولة التي فاض بها .

وتداخلت نهاراتهم بلياليهم تداخل خيوط اللحمة البيض بخيوط السداة السود . وحلّ يوم توقفت فيه الأمطار .

قال الراوي : وكان صباحاً غريباً لم يلمحوا فيه للشمس أثراً ؛ فقد تماسك من حولهم ضباب كثيف لا يبصر المرء خلاله أبعد من رمية حجر ، لكنهم على الرغم من ذلك أيقنوا أن مياه السيل قد غطت كل ما حولهم ؛ فقد فوجئوا بطيور برية حطت فوق أطلال القلعة . وكانت المياه تزداد في تدفقها عنفاً وضراوة ، فكان التل يبدو كأنه يمخر بحمله العجيب في الاتجاه المعاكس .

وتلاحقتْ أيام وليالٍ أخرى لم تكن الطيور تكفّ خلالها عن

www.ibtesama.com

الطيران بعيداً لتعود إليهم في آخر الأمر منهكة ، حتى حلّ يوم لم تعد فيه . وسرعان ما أخذت رؤوس التلال بالظهور ، ونبعت من وسط الأهوار أشجار الجزيرة قبل أن تبرز الجزيرة نفسها . وإلى الجنوب تطاولتْ أشجار النخيل بأعناقها ، وذات يوم ارتسمت شرقاً قوس قزح دلالة انتهاء المحنة ، فكبّر الجميع الرحمن .

قال الراوي : وما مرّت سوى أيام حتى أعاد الرجال بناء أكواخهم في مواضعها القديمة فوق طبقات الطمي التي جفت وتشققت .

يومها خاطب (السيد نور) (مطلق) قائلاً :

- أرأيتَ كيف أن الله سبحانه وتعالى قادر ، بطرفة عين ، أن يفعل ما يشاء؟

وحينما لم يحر (مطلق) جواباً استطرد (السيد نور) في كلامه :

- عساك أن تتخذ لك مما جرى عظةً وعبرة .

لكن (مطلق) بدا كأنه محكوم بقدر لا قدرة له على ردّه ؛ فسرعان ما عاود سيرته القديمة ، بل بالغ فيها مسوّغاً ذلك ، لمن يعاتبه ، بحرصه على أن يعوّض تعب عمره الذي ذهب طعماً للطوفان!

كان يعتلي صهوة حصانه ساحباً وراءه مقود الدابة المحملة بالهدايا المعهودة إلى المسؤولين في البلدة . وكان هؤلاء المسؤولون يبادلونه بدورهم الزيارات ولاسيما في فصل الربيع حين تكتسي التلال بأعشاب برية ذات زهور دقيقة طرية سرعان ما تذبل مع أول لمسة لها . وكانوا يزورونه أيضاً في مواسم الصيد والقنص ، فضلاً عن إرسالهم جنودهم من حين إلى حين ، طالبين من (مطلق) أن يعينهم في مطاردة لص اشتهر بلقب (المعيدي) كان قد هرب بعصابته من الأهوار الجنوبية القصيّة ليتخذ من أهوارهم له مكمناً ، فكان (مطلق) يقود بمشحوفه الجنود إلى هناك ، ليتيهوا أياماً وليالي وهم يجوسون خلال الممرات

www.ibtesama.com

الضيقة اللانهائية المتعرجة بين أدغال القصب والبردي حيث تكف آلاف الضفادع عن مواصلة نقيقها الصاخب ، مفسحة المجال لسماع صوت اصطفاق أجنحة الطيور في هربها الجماعي . وكان يعود بهم في آخر الأمر دون أن يقعوا لذلك اللص على أثر .

ذات يوم تقدّم (مطلق) عدداً من ضيوفه هؤلاء ليرتقي بهم التل حيث شوهدوا من شتى الاتجاهات وهم يذرعون أعلى التل ، يظهرون ويختفون بين أطلال القلعة القديمة ، وثمة حبال بأيديهم يمدونها هنا وهناك وكأنهم يقيسون بها ، حتى إذا ما رحل هؤلاء عائدين إلى بلدتهم انتشرت شائعة بين الرجال مفادها أن (مطلق) في سبيله إلى بناء قلعة ذات مفاتيل في موضع الأطلال!

وكما هو متوقع انطلق (السيد نور) نحو كوخ (مطلق) ليتساءل وهو واقف عند العتبة :

- أصحيح ما يشاع يا (مطلق)؟

وكان صمت (مطلق) خير جواب ، فعاد (السيد نور) يقول وهو يهز سبابته في الهواء :

- حذار من الإقدام على هذا الأمر!

فأجابه (مطلق) متهرباً بعينيه منه :

- قصدي أن أحمي أسرتي من طوفان آخر .

فصاح (السيد نور) وقد فقد السيطرة على نفسه :

- ولكن أنسيت أنه لا عاصم لك من غضب الله؟!

فأجابه (مطلق) وهو يجيل بنظراته خلال زوايا كوخه المعتمة :

- سأجعل القلعة من العلو والتحصين بحيث لا ينال منها أعتى الفيضانات .

فأوضح (السيد نور) مفصّلاً كلماته واحدة فواحدة :

www.ibtesama.com

- تذكّر أن هذا التل ليس سوى ركام أبراج أقام الجبابرة وقوى الشر - التي كانت تسكن هذه البقعة قبل وجودنا بآلاف الأعوام - بعضها على أنقاض بعض لتبلغ هذا العلو الشاهق!

وحينما لم يحر (مطلق) جواباً تابع (السيد نور) كلامه وقد تجددت آماله :

- لقد أقاموها ترفعاً على قوى الخير ، متحدين بذلك الحق ، فمحقهم بنار عذابه ، ومسخ بعضهم إلى أصنام حجرية لا تزال مدفونة في أعماق التل .

فغمغم (مطلق) وقد نكّس رأسه :

- سأنحر الذبائح تقرّباً إلى الله قبل الشروع في حفر الأسس .

فترّجاه (السيد نور) قائلاً :

- حسن . . تمهّل قليلاً ، ودعني أستخر الله واعمل بنتيجة الخيرة .

وعلى الرغم من أن (مطلق) لم يزدْ إلا إطراقاً برأسه ، لكن (السيد نور) سارع إلى إخراج مسبحته السوداء الطويلة وانهمك في إسقاط حباتها ليرفع بالسبابة والإبهام الحبة المنشودة معلناً أن خيرته جاءت معاكسة . لكن (مطلق) وثب واقفاً وقد نفد صبره ، وأعلن وهو يضرب الأرض بقدمه :

- مُحال . . لقد اتفقت مع المسؤولين على بناء القلعة ؛ إذ إن كوخي غير جدير باستقبالهم حينما يفدون عليّ ضيوفاً!

فتأمّله (السيد نور) طويلاً ليخاطبه في النهاية باذلاً آخر جهد لإقناعه :

- ستكون القلعة شراً وبيلاً علينا ؛ ذلك لأنها ستوقع الفرقة والخصام ، وتجعل منا شيعاً وأحزاباً بعدما كنا جميعاً حزب الله!

www.ibtesama.com

وحين أشاح (مطلق) بوجهه وقد أطبق شفتيه بعناد ، قال (السيد نور) بصوت منطفئ :

- لقد يئست الآن منك يا (مطلق) ؛ ذلك لأنك لم تكتف بالاستجابة لإغواء شيطان الطمع ؛ وذلك باقترافك خطيئتك الأولى بعقد صلاتك المريبة مع المسؤولين ، بل يبدو أن الشيطان تلبّسك تماماً!

واستدرك وهو في سبيله إلى الانصراف :

- لكنني سأمنحك آخر فرصة ، وسأتجمّل بالصبر عساك أن تعود إلى سواء السبيل ، بيد أنني سأهجرك يوم تضع أول آجرّة في أُسس قلعتك!

قال الراوي : بيد أن (مطلق) لم يأخذ ذلك التحذير على محمل الجد ؛ فقد مضى يعد العدة للشروع في تنفيذ مشروعه الكبير . ولم يمنعه عن ذلك سوى اكتشافه المحزن أن الآخرين لا يجارونه في طموحاته ؛ فقد بدا من الواضح أنهم أولوا تحذيرات (السيد نور) الاهتمام كله ، حتى أنهم صارحوه بأنهم ليسوا على استعداد لجلب الخراب على أنفسهم بأيديهم وذلك بمساعدته في إقامة بناء لا يرجى من ورائه خير ، فوجد (مطلق) نفسه وحيداً بإزاء مشروع لا تقوم له قائمة بمعزل عن مساعدة الآخرين ، فتطرق إليه اليأس ، وكاد يصرف النظر عن ذلك الأمر لولا أنه صادف آنذاك أن وفد قادم غريب اسمه مجبل وفي صحبته امرأة اسمها رازقية سرعان ما غدت موضع حسد النساء ؛ فقد اشتهرت ليس بجمالها الخارق فحسب بل بإلمامها بكل الأمور الأنثوية من حفافة وتجميل وما شابههما من خفايا ودقائق تعد ضرباً من الأسرار الخاصة بالنساء ، كما أنها كانت تتقن حياكة البسط والسجاجيد والأزر ، فضلاً عن عمل السلال والأطباق والمراوح من الخوص . كانت تتنقل بين البيوت سافرة الوجه ، تكلم الرجال دون أن

www.ibtesama.com

تخفض عينيها، مضفية على كل موضع تحل فيه لمسة من لمساتها الساحرة، مثيرة بذلك شجون الرجال وهم يكتشفون بأسى مدى سوء حظهم؛ فقد ابتلوا بنساء لا يحسنَّ سوى لكزهم ليلاً، موقظات إياهم من نوم ثقيل بعد تعب نهار كامل، هامسات بأصوات متهدجة:

– هيا.. فالأطفال ناموا!!

وكان زوجها مجبل لا يقل عنها إلماماً بأعمال الرجال ولاسيما البناء، وإليه يعود الفضل في التخفيف بعض الشيء من حدة الفوضى التي كانت السمة البارزة لتلك الأزقة في تشابكها كيفما اتفق تبعاً لمواقع البيوت التي كانت تبنى بحسب أمزجة قاطنيها وعواطفهم؛ فرسوخ علاقة حسنة بين بضع أسر كان يدفع بأفرادها إلى أن يحوّروا أبواب بيوتهم لتقابل بعضها بعضاً، أما انفصام تلك العلاقة فكان يؤدي إلى إغلاق تلك الأبواب باللبن، وفتحها على أزقة مجاورة!

لكن (مجبل) أخذ على عاتقه مهمّة بناء البيوت بمعزل عن العواطف والأهواء، كما أنه كان أول من شيّد منازل حقيقة بجدران مكينة تستند إلى أسس راسخة، تتوزع في داخلها حجرات تطل على أفنية وباحات تسرح فيها الدجاجات والخرفان والكلاب وتمرح، ولها سلالم تؤدي إلى سطوح مسوّرة، بل إنه جعل لسلّم بيته باباً كان يحرص على إغلاقه بنفسه مع غروب الشمس مثيراً بذلك من حوله شكوكاً تتلخص بتساؤل الجميع عن سر حرص مهاجر على وضع باب لسلّمه إن لم يكن يخشى أمراً ما؟ وكان الصمت الذي يلوذ به مجبل، كلما سُئل عن هذا الأمر، يشحذ خيال العديدين عمّن يكون الرجل؛ إذ لا يبعد أن يكون قاتلاً!.. أو.. لعله عين من عيون الحكومة يراقب تحركاتهم وسكناتهم!

وذات يوم عاد أحد الرعاة بقطيعه معلناً أن ثمة شخصاً غريباً مرّ

www.ibtesama.com

عليه في أحد الوديان ، فساومه طويلاً على ثمن حمل ، حتى إذا لم يتفقا ودّعه ذلك الرجل ، لكنه سرعان ما وقف ليسأله بشكل عرضي إن كان ثمة رجل اسمه مجبل قد سكن عندهم في الأشهر الأخيرة؟

وتبودلت نظرات ذات مغزى بين الجميع ولسان حالهم يقول : ألم نقل أن ثمة أمراً غامضاً وراء هجرة الرجل؟ ولم يطق أحدهم صبراً ، فبادر من فوره إلى التوجه نحو بيت مجبل ليلتقيه خارجاً فأخبره بالأمر ، لكن شعرة واحدة لم تهتز من مجبل ؛ فقد اكتفى بأن عقد ما بين حاجبيه لحظة خاطفة هزّ بعدها يده باستهانة!

قال الراوي : والحق أن (مجبل) قلق كثيراً ذلك اليوم ، إلا أن انهماكه بأعمال البناء المعهودة سرعان ما أنساه الأمر ، حتى إذا ما مرت أيام انتبه من نومه ذات ليلة على وقع خطى متسللة كانت تحوم حول الدار ، بل إنه جفل في ليلة أخرى على وقع خطى تتردد هذه المرة فوق السطح ، فأيقظ رازقية التي دست رأسها في صدره ، وهي تحاول ازدراد لعابها بصعوبة ، متطلعة إلى الظلام المخيم ، متابعة بنبض قلبها تلك الخطى التي انتهت بهز يد مصممة باب السطح ، محاولة فتحه . وحينما صمد الباب وعادت الخطى تتردد قبل أن تنتهي بصوت ارتطام ذلك المجهول بالأرض وقد وثب من فوق السطح بخفة الهررة ، تنفس الزوجان الصعداء!

صباح اليوم التالي مرّ مجبل على أكثر من صديق طلباً للحماية ، ولكن مَنْ الذي يجازف في إقحام نفسه في أمر على هذه الدرجة من الغموض؟ وهكذا أخذوا يعتذرون له على استحياء وهم يتهربون بأعينهم منه ، لينتهوا في آخر الأمر إلى إغلاق أبوابهم في وجهه . وكان الباب الوحيد الذي لم يوصد أمامه هو باب (مطلق) ؛ فقد بادر من فوره إلى إدخاله ، حتى إذا ما أجلسه في مواجهته وسقاه قهوته قال :

www.ibtesama.com

- أُريد أن تصارحني رجلاً لرجل . . هيّا حدثني بالأمر لأستطيع الاستجابة لطلبك دون ندم .

وكان مجبل عند حسن ظنه ؛ فقد سارع يحدثه بقصته : وكانت البداية يوم أستدعي لبناء غرفة زفاف رازقية لابن عم لها كان يُعد خاطباً منذ طفولتهما . ولأن رازقية كانت قد جُبلت بطبيعتها على إبداء رأيها في ما يخصها من أمور فقد اختلفت مع خاطبها على اختيار موقع الغرفة واتجاه بابها ؛ إذ كان من رأي الخاطب أن يكون الباب في اتجاه (القِبلة) فعلّقت رازقية متهكمة :

- حينما أموت تستطيع أن تجعل قبري في اتجاه (القبلة) ، أما غرفة عرسي فلا بد من أن يفتح بابها في الاتجاه الصحيح!

فلم يجد الخاطب - وقد جرحت رجولته أمام غريب - إلا أن يطلب من مجبل إبداء رأيه ، وحين اعترف مجبل محرجاً بأنه من رأي خطيبته هدلت رازقية ضاحكة ، وقالت بدلال :

- سلم فمكَ يا رجل!

ففقد الخاطب السيطرة على نفسه ، وصفع خطيبته صفعة رنانة ، وقال بصوت متهدج ، وهو يتنقل بين الاثنين بنظرات متشككة :

- ماذا؟ أثمة أمر بينكما دون أن أدري؟

فبادلت رازقية (مجبل) نظرة استنكار سرعان ما استحالت في عينيها المخضلتين بالدموع إلى دعوة صريحة للقيام (بأمر ما) لتسويغ الإهانة التي نزلت بها دون استحقاق .

ولم يخذلها مجبل في ذلك ؛ فقد بادلها حباً مستحيلاً دفع بهما ، بعد أسابيع ، إلى أن يلتقيا ليلاً في الموضع نفسه الذي شهد تلك الصفعة الظالمة وقد حمل كل واحد منهما ما خفّ وزنه وغلا ثمنه .

www.ibtesama.com

وتسللا هاربين من عشيرتهما ، متسترين بالظلام .

- تلك هي حكايتي من أولها إلى آخرها ، والله على ما أقول شهيد .

بذلك ختم مجبل حكايته ، ولم يتشكك (مطلق) في حرف واحد مما ذكر ، إنما ضرب على صدره معلناً له أنه سيتكفل بحل مشكلته ولو كلّفه الأمر حياته . وكان (مطلق) عند وعده ؛ فقد بادر من يومه بالتوجه إلى عشيرة مجبل ، والتقى ابن عم رازقية واستطاع إقناعه بشكل من الأشكال بأن يمنح الهاربين (عطوة) حلّ (مطلق) خلالها المشكلة ، متحملاً وحده كل تكاليف (الفصل) ؛ فبات في وسع مجبل ورازقية أن يناما في بيتهما دون التأكد عشرات المرات من أنهما لم يغفلا عن إغلاق باب البيت أو باب السلّم!

منذ ذلك اليوم أضحى مجبل أسير فضل (مطلق) يلازمه كظله ليل نهار ، لا هدف له في الحياة سوى إرضائه . وفي الحق أن (مطلق) وجد في مجبل خير عون ؛ ففضلاً عن حصوله على بنّاء لا يُشق له غبار في وقت هو بأمسّ الحاجة إليه ، استطاع مجبل تجنيد العديدين لمساعدته في بناء القلعة مقنعاً إياهم بشتى الوسائل والأساليب ؛ فقد ركّز على المعوزين منهم مانحاً إياهم مكافآت مجزية ، كما شحذ همم المترددين مخففاً من أثر تحذيرات (السيد نور) المتعلقة بشؤم القلعة مؤكداً أن قيامها سيضفي شيئاً من الأهمية على منطقتهم خاملة الذكر!

وهكذا سرعان ما أخذ عشرات الرجال يرتقون التل للشروع في العمل تحت إشراف مجبل ومراقبة طارش الذي لم يعتقه أبوه من العمل على الرغم من أنه كان لا يزال صبياً بحجة حرصه على أن يعلمه الاعتماد على نفسه منذ الصغر .

قال الراوي : وفجر ذات يوم لا ينسى ارتفعت الأيدي وهبطت

www.ibtesama.com

بالمعاول ، فانهارت أطلال القلعة القديمة التي بدت كأنها كانت في انتظار لمسة لتهوى بضجة صاخبة هزت الأرض تحت الأقدام ، وارتفعت سحب غبار خانقة اندفعت من خلالها طيور بوم أعشاها ضوء الشمس فأخذت ترتطم بأي شيء يعترض سبيلها ، وتساقطت الخفافيش بأجنحتها الغشائية الرقيقة ، فأخذت تسحب سيقانها المشلولة ، مطلقة صرخات ضئيلة وهي تكشر أسنانها الفأرية الدقيقة مدافعة عن نفسها ضد عدو مجهول ، حينها أخذت نُذر الشر بالظهور : فقد انهار جدار على رجل فدفنه في موضعه ، كما رنّت معاول بعض الذين كانوا ينبشون التل من أجل استخراج الآجر المدفون لاستعماله مجدداً في البناء ، رنّت وتطاير منها الشرر وهي تصطدم بأجساد حجرية كانت مدفونة في باطن التل بدا من الواضح أنها - كما سبق لـ(السيد نور) أن ذكر - كانت لكفرة مسخهم الله إلى حجارة . وذات صباح وقع بصر (مطلق) على ثعبانين أبيض وأسود كانا ملتفين ببعضهما ، رآهما يزحفان خارجين من بين أكوام صخور قبل أن يختفيا في إحدى الفجوات . حينها لم يستطيع (مطلق) مغالبة شعوره بالتشاؤم ؛ فأمر رجاله بإيقاف العمل ذلك اليوم ، وعاد إلى بيته مهموماً .

ليلاً رأى (مطلق) حلماً رهيباً جعله يثب من فراشه صارخاً ، فجفل ابنه طارش من نومه ، وجلس بدوره وقد أخرسه الرعب ، فسارعت أمه إلى احتضانه ، وخاطبت زوجها قائلة :

- ما الأمر؟ منذ ساعة وأنت تتقلب في فراشك مثل سمكة (مزوهرة) فاضطررت إلى أن أجلس مراقبة إياك!

وزحف طارش نحو أبيه ليسأله وهو يلتصق به :

- ما بك يا أبتاه؟

لم يجبهما (مطلق) ، إنما اكتفى بأن تأملهما بنظرة زائغة وأصداء

www.ibtesama.com

صرختـه لا تزال ترّن في رأسـه بإيقـاع مؤلم . لكـن بزوغ شـمـس النهـار التالي سرعان ما أنسى (مطلق) حلمه ذاك ؛ فعاد يرتقي سفح التل وقد تبدد شعوره بالتشاؤم . وأمر رجاله بالشروع في حفر الأسس . وكانت المواضع المحيطة بالتل قد ضاقت بأعمال البناء : فهنا وهناك ارتفعت أكوام الآجر ، وبالقرب منها كتل صخور انشغل أكثر من واحد في تشذيبها مبددين السكون بنقرات الفؤوس . وعلى مقربة منهم أخذت سحب الدخان الخانقة تتصاعد من(كور) بنيت من أجل إحراق الصخور ليعمل من مسحوقها النورة . وانهمك نجاران في تقطيع الجذوع الغليظة محولين إياها إلى أخشاب وعوارض لبوابة القلعة الرئيسة والأبواب الداخلية للحجرات والإسطبل وبقية المرافق . وفي موضع آخر أقيم كوخ كان مستطيل بابه المفتوح يستضاء ، من حين إلى حين ، على وهج نار كان صبي عابس يؤججها في الكورة بوساطة منفاخ معمول من جلد معزاة مدبوغ . وأمام الكورة كان النصف العلوي للحداد يبرز من جوف حفرة ، ولهب النار يضيء وجهه المخضل بالعرق ، وهو منهمك في التقاط الكتل الحديدية المحمرّة بالكماشة ليركنها إلى السندان المغروز بالقرب منه ، مغضناً جفنيه أمام الشرارات المتطايرة مع دقات مطرقته الثقيلة وهي تحيل تلك الكتل إلى فؤوس ومسامير وعوارض وما شابه ذلك . وكان السقاؤون في حركة دائبة بين النهر القريب ومواضع خلط النورة بالرماد ، وثمة نقاط ماء راشحة من القرب التي يحملونها تحدد مسارهم على الأرض المتربة . وكان مجبل يشاهد في كل موضع : ما تكاد تراه هنا وهو يصدر تعليماته حتى يرتفع صوته من هناك مقرعاً أحد الرجال المتهاونين في العمل . وفي موضع كان ملتقى أنظار الجميع نُصبتْ قدور ضخمة غطى سواد الهباب نحاسها المطروق ، وألسنة اللهب تتصاعد تحتها ، في حين تتراقص قطع اللحم

www.ibtesama.com

في جوفها وسط المرق المزعفر الذي كانت رائحته الشهية تستدر لعاب الرجال المنهمكين في العمل ؛ فتمضي الأيدي بعزيمة أشد في حمل الآجر أو سحب المنشار أو ضرب المطرقة أو نقر الأحجار ، والجميع في انتظار حلول مواعيد الغداء الحافلة بوجبات سخية بقيت أخبارها تُروى أعواماً متعاقبة ، تلك الوجبات التي لم يعد العشب بسببها ينمو في تلك البقعة لفرط تشبّعها بالدهن!

وذات صباح تمّ وضع أول آجرّة في أساس القلعة . ونحرت الذبائح فوق التل ، فسالت الدماء خيوطاً متعرجة إلى الأسفل ، وفي الوقت نفسه ترددتْ ملء الأسماع صفقة باب كوخ (السيد نور) الذي نفذ وعيده فقرر هجر مأواه القديم ، ولم تجدِ معه توسلات الرجال نفعاً ؛ فقد انحدر جنوباً ، مسقطاً مع كل خطوة يخطوها حبة من مسبحته السوداء الطويلة . ولحظة اعترض الوادي سبيله جاءت آخر حبة أسقطها موافقة لخيرته ، فأعلن عن اختياره تلك البقعة مقاماً له حيث لا تصله أصوات الأعمال الجارية في بناء القلعة المشؤومة إلا خافتة يكاد يطغى عليها خرير المياه المنسابة أسفل الجرف ، فسارع الرجال من وقتهم وساعتهم إلى إقامة كوخ من لبن وطين أكملوه - ببركة (السيد نور) - خلال ساعات . ونصبوا له باباً زودوه بقفل بقي مهملاً في إحدى الكوى ؛ إذ إن الكوخ استعاض باسم مَنْ أُقيم من أجله عن أيّ قفل : لا يقربه مخلوق حتى يرتّد على أعقابه مسبل العينين خشوعاً!

وتلقى (مطلق) الخبر بوجه عابس ، وانفجر دون سبب في ابنه طارش ، آمراً إياه بأن يغرب عن وجهه ، فتلفت الصبي حوله حائراً كأنه يُشهد الآخرين على براءته . وأطرق (مطلق) برأسه طويلاً ، حتى إذا ما رفعه كان العبوس قد زايله ، ولم يبق منه سوى تقطيبة عكّرت ما بين حاجبيه الكثيفين .

www.ibtesama.com

قال الراوي : ومضى العمل بعزيمة أشد . وبمرور الأيام دوّى صيت (مطلق) في الآفاق ؛ فقصده القاصي والداني ، وهو بذكائه وكرمه عرف كيف يوّطد علاقته بالجميع . لقد بلغ صيته حداً أضحى معه اسمه وحده كفيلاً بحماية ماشية الفلاحين من أن تسرق من قبل (المعيدي) الذي ما كاد يستقر في موضعه الجديد في الأهوار حتى أخذ يصول هنا وهناك . لقد حوّل ذلك اللص الأفاق سرقاته بعيداً إلى الجنوب ، حتى خيّل إلى (مطلق) أنه انتقل إلى موضع آخر لولا أن حملات الجنود المتكررة عليه كانت تذكّره بوجوده!

لقد غدا (مطلق) كبير المنطقة دون منازع ، لا يُذكر اسمه في المضايف والدواوين إلا يكون محاطاً بالمهابة والاحترام ، لا شيء ينغّص عليه سعادته سوى ذلك الكوخ القائم جنوباً على حافة الوادي ؛ فهو يبدو كالقذى في العين : فبرغم أن يوم دخول (السيد نور) ذلك الكوخ كان آخر العهد به ، لكن ذلك الباب الموارب بقي مصدر قلق لـ(مطلق) ؛ ما يكاد يستدير في ذلك الاتجاه فيلاحظ الكوخ المنفرد حتى تموت البسمة على فمه وهي في ذروة تفتحها!

والحق أن ذلك الباب لم ينفرج يوماً ما لاستقبال أحد حتى خشي بعضهم من أن يكون (السيد نور) قد مات . كانوا يتبادلون نظرات دهشة متسائلين عن كيفية بقائه حياً برغم عزلته؟ أيتسلل من كوخه ليلاً بحثاً عما يسد به رمقه؟ أم ثمة من يمر عليه دون علم منهم مزوداً إياه بالطعام؟ لكنهم سرعان ما كانوا يستغفرون الله ؛ فالذي شقّ الأشداق تكفّل لها بالأرزاق!

منذ ذلك الوقت أخذتِ الشائعات القائلة باحتمال هجرة (السيد نور) في الانتشار . كانوا يقولون إنه تخلى عنهم بعدما لم يمتثل واحد منهم لنصائحه ، لذلك تركهم ينساقون وراء (مطلق) الذي سيجلب

www.ibtesama.com

لهم الخراب والدمار .

قال الراوي : وها هو المقّدر قد وقع ، والنجم المذنّب في الأفق سطع حيث اعتادوا أن يلمحوه في موضع (القِبلة) سيفاً نورانياً كان يثير الهلع في القلوب ، فيسارعون إلى التلفت شمالاً نحو جدران القلعة الآخذة في الارتفاع ، ليعودوا متطلعين جنوباً نحو الكوخ الذي لا يكاد يتميز إلا بصعوبة على خلفية من البساتين تؤطر الجرف الجنوبي للوادي ، تاركين مصيرهم يتأرجح بين هذين القطبين المتنافرين : قطب الشرّ الآخذ في الاستفحال مع مضيّ الزمن ، وقطب الخير الذي اختار العزلة والانفراد . لكن الرجحان سرعان ما مال نحو القطب الأول ؛ فعلى الرغم من أن النجم المذنّب بعد مضي مدة غاب ، بيد أن نُذر الشرّ عادت تتعقب الجميع مثل نعيب غراب ؛ فقد وقعت الكارثة التي بقيت أحداثها تروى محاطة بالهول والفزع!

في البداية أُشيع همساً أن أمراً جللاً قد وقع في البلدة ، أما ما هو ذلك الأمر؟ فهذا ما لم يملكوا عنه جواباً ؛ فكل الذي سمعوا عنه لم يتعدَ أخباراً غامضة تتحدث عن أفواج ناس تهرب من البلدة لينصب بعضهم الخيام عند الضواحي!

تُرى ما هو ذلك الأمر؟

سؤال تردد على كل لسان متوقعين أن يسمعوا جوابه من (مطلق) ؛ فمنذ ظهور النجم المذنّب انفضّ الرجال من حوله مرعوبين باستثناء مجبل الذي زادته الكارثة إخلاصاً له . وتوقفت أعمال البناء في القلعة التي لم يكن قد أُنجز منها سوى جناح واحد ، فلم يعد أمام (مطلق) ما يزجي به أيامه غير القيام بزيارات إلى أصدقائه في البلدة .

كان يذهب إلى هناك ويعود بعد يوم أو يومين متجهم الأسارير وثمة نظرة قلق تتواثب في عينيه المستسلمتين لسطوة حاجبيه

www.ibtesama.com

الكثيفين . وكان التغيير الوحيد الذي لاحظه العديدون عليه هو أنه ألحق دابة أخرى محملة بالهدايا بدابته المعهودة ، كان يعود بهما ساحباً مقوديهما من فوق صهوة الحصان ، وقد حمّلهما بأكياس الحبوب والمؤن وبضائع لا تُعد ولا تُحصى كان يسارع إلى تخزينها في ذلك الجناح من القلعة بمساعدة مجبل بطبيعة الحال .

وبقيت الشائعات تتردد أكثر مشفوعة هذه المرة بوقائع غريبة تتعلق بضحايا ومحتضرين وظهور مقابر جماعية حول البلدة بعدما ضاقت مقبرتها القديمة عن استعياب المزيد!

تُرى ما الذي يحدث في البلدة؟ أوقعتْ حرب غامضة لا عهد لهم بها من قبل؟

وهيمن شعور بخطر وشيك على الجميع ، خطر كان يزيد من وطأته عدم معرفتهم سببه!

بيد أنه لا بد لكل سر من أن ينكشف في النهاية ؛ فمع غروب شمس يوم سكنتْ ريحه تماماً شوهد (مطلق) قادماً من جهة الغرب حيث ارتسم هيكله وهو فوق صهوة حصانه على أفق أحمر . وكانت مدة غيابه قد طالت هذه المرة أسبوعاً كاملاً ، حتى أن امرأته قلقت عليه في الأيام الأخيرة ولاسيما أنها كانت تعيش نفاساً مرهقاً عقب ولادتها ابنها الثاني جناح . وكانت رازقية تحاول طمأنتها أكثر من مرة في اليوم ؛ فقد كانت تترك كوخها لترتقي التل بأمر من زوجها مجبل لتتفقد أحوالها في جناحها في القلعة . كانت تقول لها مواسية :

– سترينه عائداً في اللحظة التي تكفّين فيها عن قلقك حاملاً لك أفخر الهدايا .

لكن صرخات جناح ، الذي ندُر أن يطبق فمه ، كانت تزيد المرأة عصبية ، فتزعق بدورها في ابنها الأكبر طارش آمرة إياه أن يهبط التل

www.ibtesama.com

ويسأل الآخرين عن سبب تأخر أبيه . وحينما كان طارش يُبدي تردداً وإحجاماً كانت رازقية تطمئنها بقولها :

– سأسألهم بنفسي حينما أعود إلى بيتي وأنتهي من إرضاع طفلي ، لا بل سأطلب من مجبل التوجه إلى البلدة للسؤال عنه إن تطلّب الأمر ذلك!

لكن امرأة (مطلق) لم تظفر بجواب شافٍ يفسر سر تأخر زوجها ؛ فما الذي يملكه هؤلاء الرجال المنعزلون عن الدنيا غير أن يطمئنوها ببعض الكلمات؟

قال الراوي : غير أن أيام القلق والترقب انتهتْ أخيراً بعودة (مطلق) ؛ فهرع الجميع غربي البيوت موقنين أنهم سيعرفون ، هذه المرة ، سر الأحداث الغامضة الجارية عن بُعد .

كان أول ما جذب انتباههم أن (مطلق) عاد دون الدابتين . وكان الأمر الثاني الذي جعلهم يتبادلون نظرات متسائلة ملاحظتهم أن ثمة تغييراً غريباً طرأ على (مطلق) قياساً بسفراته السابقة ؛ فقد بدا أكثر انحناءً على ظهر الحصان ، يكاد وجهه يمسّ قربوس السرج ، وكان أشد تأرجحاً واهتزازاً إلى الأمام والخلف ، وإلى اليمين واليسار ، يبدو كأنه موشك على السقوط!

وانفرج حشدهم تلقائياً أمام الحصان ملاحظين (مطلق) يُجيل عليهم من ذلك العلو بنظرة ذاهلة . وبغتة شرع في الارتجاف ، ومال جانباً ، فهرع أكثر من واحد محاولين إسناده ، لكنه سقط بذراعين مفتوحتين إلى مداهما ، وتقلّب في موضعه أكثر من مرة قبل أن يتمدد على ظهره . واندفع العشرات نحوه متلمسين إياه من هنا وهناك ، سائلين عما أصابه؟ وكان مجبل أكثرهم هلعاً ؛ فقد وضع رأسه في حُجره دون أن يكفّ عن سؤاله عن الأمر . إلا أن (مطلق) بدا كأنه لا

www.ibtesama.com

يسمعهم ؛ فقد فوجئوا به يحرك شفتيه المتيبستين بعسر ليهمس بصوت ذاوٍ :

– السيد نور . . خذوني إلى كوخ السيد نورا

وتطلع بعضهم إلى بعض حائرين قبل أن يعودوا ليتنقلوا بأنظارهم بين القلعة والكوخ مدركين بشكل من الأشكال أن ما يفصل أحدهما عن الآخر أبعد من هذه المسافة الممتدة بينهما!

– إنه يهذي!

علّق واحد منهم ، فانحنى العديدون على (مطلق) محاولين حمله نحو كوخ (السيد نور) ، بل إن مجبل كان قد احتضنه رافعاً إياه عن الأرض بصعوبة في اللحظة التي صاح فيها رجل آمراً إياه أن يدعْه في موضعه!

كان رجلاً عجوزاً محدودب الظهر ، يشق سبيله بين الواقفين ، مزيحاً من يعترضه بضربات من عصا استقر مقبضها في كفه الراجفة .

– انتظروا .

وقرفص قرب (مطلق) ، وبأصابع مرتعدة جس جبينه ليرّتد بها وقد فوجئ بارتفاع حرارته . لكنه عاد يرفع بسبابته وإبهامه جفن إحدى عيني (مطلق) ، فتسنى للمتحلقين فوق رأسه ملاحظة تلك الغشاوة المضببة وقد اعتلت كرة العين الثابتة في محجرها . وبيد خبيرة عمد الرجل إلى رفع طرف ثوب (مطلق) كاشفاً للأنظار بطناً أسود مشعراً شوّهته تقرّحات سود تنبعث منها رائحة كريهة . وبغتة هبّ الرجل واقفاً فسقطت العصا منه لفرط سرعته . وبصعوبة بالغة ردد كلمة يتيمة كان وقعها على الأسماع مثل وقع الصاعقة :

– الطاعون!!

وكان للكلمة مفعول سحري جعل الجميع يتراجعون إلى الخلف

www.ibtesama.com

مصعوقين وهم يرددون الكلمة المرعبة :

- الطاعون؟!

وخلال ذلك السكون المطبق الذي خيّم عليهم بغتة ارتفع صوت (مطلق) :

- خذوني . . إلى . . كوخ . . السيد نورا!

وصاح الرجل العجوز وهو يتعثر بعصاه في محاولته الهرب :

- الرجل مصاب بالطاعون! . . اهربوا بأرواحكم قبل أن يختطفكم الموت الأسود!!

ولم تكن بالآخرين حاجة لهذه النصيحة ؛ ذلك لأنهم انطلقوا نحو أكواخهم وهم يرددون :

- الطاعون؟ . . يا إلهي! . . . إذن هذا هو الأمر الجلل الذي دهى البلدة والذي كنا نسمع أخباره بغموض!!

وصفقوا الأبواب وراءهم باباً إثر باب . وكان باب بيت مجبل آخر باب أُغلق ؛ إذ إن الرجل كان الوحيد الذي بقي منتصباً فوق (مطلق) وهو يتأمل كفيه بهلع ، وكأنه يتوقع أن يرى الطاعون قد وسمهما بعلامته المميتة . بدا في حيرة بين خوفه على نفسه وشعوره بالولاء نحو (مطلق) . ولم يدر كيف كان سيتصرف لولا أنه تنبه ليد تدفعه في ظهره ، وصوت يهمس في أذنه حاثاً إياه على العودة إلى بيته حيث تنتظره زوجته وطفله الرضيع .

وسُمعتْ امرأة (مطلق) تصرخ وهي تندفع خارجة من جناح القلعة قبل أن يعترض بعض الرجال سبيلها آمرين إياها بالعودة ، معلنين لها عن استعدادهم ليوثقوا يديها ورجليها إنْ حاولتِ الرجوع بزوجها إلى القلعة مسببة بذلك في تفشي الوباء بينهم!

وبقي (مطلق) مهملاً في موضعه ، لا شيء يدلّ على كونه حياً

www.ibtesama.com

سوى موجات ارتعاش كانت تأخذ بجسده من حين إلى حين . بدا كأن تبلّداً قد اعتور حواسه ؛ فقد بقي يستغيث ، طالباً أخذه إلى كوخ (السيد نور) ، غير مدرك أنه أمسى وحيداً!

قال الراوي : وكان الظلام قد أطبق لحظة تحامل (مطلق) على نفسه فأخذ يحبو على أربع متخذاً سبيله نحو كوخ (السيد نور) . اتجه جنوباً لا اعتماداً على ذاكرته الموشكة على الانطفاء ، بل استجابة لحدسٍ غامض وجهه نحو المسار المطلوب وكأن ثمة قوة خفية تشده إلى ذلك المَوضع!

ومضى وقت طويل قبل أن يجتاز في حبوه البطيء بضع خطوات . كان يحبو بصعوبة غير شاعر بأشواك النباتات الجافة تخز راحتيه وركبتيه . كان يقدم ذراعاً راجفةً إلى الأمام ، يعقبها بسحب إحدى ساقيه ، وبعدها يقدم الذراع الثانية ، ساحباً وراءها الساق الأخرى ، هكذا حبا طويلاً . . أطول مما يتصوره عقل ، حتى إذا ما استطاع أن يميّز ، بعينين أعشاهما الموت الوشيك ، هيكل الكوخ المنتصب في الظلام ، سقط في موضعه كأنه فارق الحياة . ومضى وقت مديد لتدبّ من جديد الحركة في ذلك الجسد الهامد . شرع يتحرك هذه المرّة زحفاً بعدما عجز عن الاستناد إلى ذراعيه وركبتيه . كان يغرز مرفقيه في الأرض الصلبة ، ويسحب جسده إلى الأمام فوق الحشائش والنباتات الشوكية دافعاً إياه بقدميه الخائرتين . هكذا واصل الزحف : مرفقان مغروزان في الأرض ، وأصابع دامية تتشبث بأيّ شيء تقع عليه ، وقدم تحفر التراب محرّكة الجسد أشباراً إلى الأمام . كان يواصل زحفه الأليم دون أن يكفّ عن ذكر اسم (السيد نور) ، حتى إذا ما التصق بباب الكوخ غشيَ عليه من جديد ، فلبد ساكناً في موضعه ساعة من الزمان . وبصعوبة بالغة رفع (مطلق) قبضته الواهنة وهو منبطح على

www.ibtesama.com

وجهه ، ليدق بها الباب ، هاتفاً بضعف :

- دخيلك . . دخيلك يا سيد نورا!

ومرّ وقت طويل دون أن يحظى بسماع صرير الباب وهو ينفتح ، فعاد يرفع قبضته ليدق بها ثانية مردداً العبارة نفسها :

- دخيلك . . دخيلك يا سيد نورا!

ومضى الليل ، والمتحصنون خلف أبوابهم المغلقة يسمعون وقع تلك القبضة الواهنة التي يعقبها الصوت المتحشرج :

- دخيلك . . دخيلك يا سيد نورا!

وكان مجبل ينتفض مع كل دقة ، فيندفع نحو باب بيته محاولاً الخروج لولا أن رازقية كانت تقف في وجهه هامسةً بأنه من العبث تعريض نفسه للخطر دون جدوى ؛ إذ لا قدرة له على إنقاذه ، فضلاً عن أن الآخرين سيمنعونه عن ذلك .

وقيل إن الليل كان قد تجاوز منتصفه ، وقال آخرون إن أول ديك كان يتهيأ ليعلن عن قرب انبلاج الفجر لحظة فاحت رائحة مسك نفاذة ، وعشيتْ عينا (مطلق) بنور ذلك الوجه الكريم ، وشعر قبل أنْ يغمى عليه بتلك اليد الحانية تمسح على جبينه الملتهب ، حتى إذا ما انتبه وجد أنه ملقى على باب قلعته ، حيث تلقفته امرأته ، وسحبته إلى الداخل ، مغلقة الباب وراءها بإحكام!

قال الراوي : ولكنْ . . . أحدثَ الأمر بهذه الصورة؟ أم بشكل آخر؟ سؤالان عزّز جوابهما الآراء المتناقضة حول حقيقة (السيد نور) ؛ فثمة من عدّ الأمر واحدة من كراماته ، في حين أكد آخرون أن الأمر لا يخرج عن احتمالين : أما أن يكون مجبل هو الذي تسلل من بيته ، تحت جنح الظلام ، حاملاً صديقه المحتضر إلى جناح قلعته ، أو أن (مطلق) نفسه استطاع الوصول إلى هناك زحفاً!

www.ibtesama.com

ووسط هذه الآراء المتناقضة بقيتِ الأعين ترمق التل بنظرات هلع أياماً وليالي . وبقيت الألسن تردد السؤال المفزع :

ـ تُرى ألا يُحتمل أن يكون قد أعدانا بهذا الوباء الرهيب؟!

الطاعون!

إنها الكلمة المرعبة التي لا تكف الأفواه عن ترديدها ، مشفوعة بالتفاتات ذُعر نحو القلعة .

الطاعون!!

إنها الكلمة المقيتة التي تخطر في الأذهان تلقائياً طوال ساعات النهار ، حتى إذا ما هرب الناس منها باللجوء إلى النوم طاردتهم في الأحلام .

الطاعون!!

إنها الكلمة التي تحول بين الآباء ومداعبة أطفالهم لحظة عودتهم من الحقول والبساتين متعبين : تُرى أيحصدهم الوباء ليبقى فلذات أكبادهم من بعدهم دون معيل؟ أم كتب الله عليهم أن يروهم وهم يذوون تحت أبصارهم دون أن يملكوا للقضاء رداً؟

الطاعون!!

إنها الكلمة التي كانت تطفئ الآمال في عيونهم لحظة كانوا يتطلعون غرباً حيث تنداح حقول القمح على مدى البصر وقد انحنت السيقان تحت ثقل السنابل .

قال الراوي : ومرت الأيام ، والآذان مرهفة في انتظار سماع الصرخة المتوقعة وهي تنطلق من فوق التل . كانوا موقنين من هذا الأمر حتى أنهم أخذوا يحددون موعد انطلاقها : غروب هذا اليوم . وحينما يخيب توقعهم كانوا يقولون : لا بل منتصف الليل . . أو صباح الغد . . أو عند الظهيرة . . لكن الأيام تعاقبت دون أن يسمعوا تلك الصرخة

www.ibtesama.com

إلى أن حلّ فجر يوم لا ينسى ؛ فقد هبّ الجميع من نومهم القلق الحافل بالكوابيس على دويّ الصرخة المنتظرة ، ففتحوا الأبواب ، وأطلوا برؤوسهم إلى الخارج ، وهم يترحّمون على روح (مطلق) شاعرين في أعماقهم بشيء من الراحة لكون العبء قد أُزيح عن صدورهم . لكنهم لم يصدقوا أسماعهم حين فوجئوا بمن يقول إن أول ضحايا الوباء ليس (مطلق) إنما هو رجل من بينهم ؛ فقد انطلقت الصرخة من أحد بيوتهم!

وما كاد الليل ينتصف حتى انطلقت صرخة ثانية من بيت آخر ، في حين بقي باب جناح القلعة مغلقاً لا يُفتح إلا أمام مجبل الذي لم يعد ثمة من يمنعه من تفقد أحوال صديقه!

ومرّ أسبوع لم تكفّ الصرخات خلاله عن الانطلاق من هنا وهناك . وكان الموتى قد كثروا حتى عزّ على أهلهم الحصول على الأكفان . وكانت أعدادهم تتضاعف يوماً بعد يوم : تسقط النساء وسط حلقات الندب والبكاء ، ويسقط الرجال وسط مجالس الفاتحة . وصار الموتُ أمراً مألوفاً : ما يكاد الواحد يسقط وسط أسرته حتى يفرّ الآخرون ناجين بأنفسهم . ولم يعد الابن يبكي أباه ، ولم تعد الأم تشق ثوبها حزناً على فقد ابنها . لقد بات هاجس الأحياء الوحيد الحفاظ على أنفسهم على الرغم من أن الحياة غدت لا تطاق . وتصاعدت الروائح الكريهة من البيوت التي حصد الموت ساكنيها جميعاً ، فلم يبق من يمد إليهم الأيدي لدفنهم . وسارع بعضهم إلى الهرب . كانوا يحملون ما خفّ وزنه وغلا ثمنه ، ويستقلون المشاحيف لينطلقوا بها في الأهوار . وكانت المقبرة المشرفة على الوادي الجنوبي قد ضاقت عن استيعاب المزيد من الموتى ، فأختيرت الجزيرة التي غدت تُعرف باسم (البطيحة) لدفن الموتى ، في حين سُمّي الوادي الجنوبي باسم (وادي المرّ) تخليداً لمرارة الدموع التي سُفحت على حافته . وحلّت أيام خيّم خلالها على

www.ibtesama.com

الأكواخ والبيوت صمت مخيف ، كان يُسمع خلاله نباح الكلاب وزمجرتها وهي تتقاتل على جيف الموتى ، بل قيل إن ثمة محتضرين أجهزت عليهم الكلاب قبل أن يلفظوا آخر أنفاسهم!

قال الراوي : وعلى الرغم من تلك المصائب التي تشيب الوليد في مهده لم يفوّت اللصوص الفرصة السانحة التي لا تُعوّض . وعاد اسم (المعيدي) يتردد على ألسن منْ لمْ يدمغه الوباء بدمغة الموت التي لا تزول ؛ فاسم (مطلق) لم يعد يرهب لصاً مثله ، بل إنه وجد الفرصة متاحة أمامه لينتقم من (مطلق) الذي كان يقود حملات الجنود وهم يجدّون في مطاردته ؛ فاخذ يبعث جواسيسه ليتسقطوا الأخبار : إذ كانت تتردد في ظلام الليل ضربات مجاديفهم ، وصوت اصطفاق المياه على جوانب مشاحيفهم السود الخفيفة ، وهم يتسللون نحو الضفاف الغربية حيث ما يكادون يُلمحون حتى يختفوا بلمح البصر ، يتعقبهم نباح الكلاب التي تنبهت لهم بعد فوات الأوان . وحينما استفحل الوباء وشرعت النسور تُشاهد من أبعد المسافات وهي تحوم فوق تلك البيوت المستباحة بدأ (المعيدي) يغير برجاله في وضح النهار : يظهرون عند خط المياه مثل الجراد المنتشر ، فيلتفت الأحياء حولهم مصعوقين ، لا يدرون من أي الوباءين سيسلمون . كانت جلبة مشاحيفهم ، وهي تنسحب بمقدماتها على اليابسة في نهاية الرحلة ، أول ما يطرق الأسماع ، يعقبها وقع أقدامهم وهم يركضون خلال الأزقة كالمجانين ، لينتهي بتردد لهاثهم خلف الأبواب التي سرعان ما كانت تتطاير شظايا بفعل ضربات أكتافهم أو ركلات أرجلهم . كانوا يقتحمون البيوت بخناجر مشرعة تومض أنصالها المرهفة لحظة خاطفة قبل أن تغرق بالدم . كانوا برغم قسوتهم يبدون خائفين مرتبكين ، وعلى عجلة من أمرهم : يبترون الأصابع للحصول على خاتم فضي رخيص ، ويطيّرون

www.ibtesama.com

الأذان عن الرؤوس لاختطاف قرط ذهبي ، ويقطعون الأذرع والسواعد لاقتناص معضد غاص في اللحم النتن المنتفخ ، غير آبهين بعويل الأطفال الذي يكاد يصم الأسماع!

قال الراوي : وأعجب ما جرى أن (مطلق) ، بالأمر المقدّر ، لم يذهب ضحية ذلك الوباء ؛ فذات صباح فتح عينيه على مرأى العوارض التي تسند السقف ، فطرف بجفنيه لحظات محاولاً تذكّر الكيفية التي انتهت به إلى مضجعه هذا . وحينما حاول أن يتحرك لم يطاوعه جسده بيسر ، بل تفجّرت آلام القروح في أكثر من موضع ، فأغمض عينيه ثانية ، حينها فقط تذّكر كيف أصابه الداء في البلدة : كان - كعادته كلّما توجه إلى هناك محملاً بالهدايا - في ضيافة واحد من أصدقائه المتنفذين الذين ندر لهم أن يفتحوا أبواب قصورهم الحصينة في استقبال أحد منذ استفحال الطاعون ، فجأة شعر بالعجز عن إيصال لقمة الطعام إلى فمه ، وانتابه على غير توقع إرهاق شديد لم يكن يوماً ما من طبعه وهو المجبول على الحركة والنشاط ؛ فحدج مضيفه بنظرة استغاثة جعلته - عوضاً عن مساعدته - يثب واقفاً مبتعداً عنه رامقاً إياه بنظرة ضارية دفعتْ (مطلق) إلى أن يتحامل على نفسه بصعوبة ليغادر ذلك القصر مودعاً بصفقة بابه التي تردد صداها في سمعه بشكل لا يطاق ؛ فقد هجس لحظتئذ برأسه وكأنه قد تورم وتضخم بعدما أوشك على الغليان من فرط ذلك الصداع الصاعق الذي ألمّ به!

وانصفقتْ أبواب قصور أصدقائه الآخرين في وجهه بشكل أعاد إلى ذهنه المشتت ذكرى ذلك اليوم الذي لم يجد فيه مجبل غير بابه مفتوحاً في استقباله . هام على وجهه طويلاً في أزقة البلدة الضيقة متعثراً بالجثث التي تتصاعد منها روائح عفونة رهيبة . وتجوّل مع

www.ibtesama.com

المصابين بالداء المميت على غير هدى مشاركاً إياهم في صراخهم بكلمات عُجم كانوا يحاولون بها ترجمة ما تنتاب أذهانهم من رؤى مروعة يثيرها منظر تلك البقع الحمر المائلة إلى السواد المنتشرة على أجسادهم وثمة فقاعات تنفجر في ثنايا الفخذين وتحت الإبطين مفرغة خراجاتها الصديدية العفنة ، فيطالع بعضهم بعضاً بعيون احمّرت حتى درجة الاحتراق ، محركين - وسط لهاثهم القانط - ألسناً متورمة بيضاً احمّر بعضها ، واسوّد بعضها الآخر مثل الفحم ، مواصلين هذيانهم الجماعي الرهيب!

كان يخيّل إليه - وقد أنهكته الحمى - أن ثمة سوائل كثيفة تتدافع داخل جسده على غير نظام ، باحثة عن أيّ مخرج ، في حين ما يكاد يشعر بقلبه يثب في صدره ليدق بعنف دقاً يترجّع نبضه في كل مسام من مساماته حتى يفاجأ به وقد خمد فأوشك أن يصيب أطرافه بالخور والعجز!

ولمْ يدرِ متى اهتدى إلى حصانه ، وكيف اعتلى صهوته ، ومنْ الذي أعانه على ذلك ؛ فكل الذي يتذكره هو تلك الساعات الطوال المريرة التي قضاها على صهوة الحصان وهو يمشي به على مهل ، متخذاً سبيله تلقائياً نحو الديرة مائلاً به إلى هذا الجانب تارة وإلى ذاك طوراً ليقف به في آخر الأمر وسط رجال هجس بأنه يعرفهم دون أن يستطيع تشخيصهم بوضوح . وكان آخر ما تذكّره سقوطه عن صهوة الحصان ، وارتطام رأسه بعنف بالأرض . وكان اسم (السيد نور) آخر ما ومضَ في ذهنه قبل أن يفقد الوعي!

عاد يفتح عينيه على ملمس يد حنون لجبينه المندى بالعرق ، ففوجئ بابنه طارش منحنياً عليه يتفرس فيه بعينين دامعتين ، وفوق رأسه وقفت امرأة غارقة في السواد ، وهي ترنو إليه بإشفاق . وطرف

www.ibtesama.com

بعينيه لحظات ، محاولاً تذكّر تلك المرأة التي بدا وجهها مألوفاً لديه . وحينما لم يفلح أسعفه ابنه ؛ فأخبره بأنها زوجة مجبل الذي لازمه بعدما هجره الآخرون . وأضاف ، ووجهه الطفولي بدا وكأنه كبُر أعواماً خلال أسابيع المحنة :

- لقد مات زوجها بالوباء ، وكذلك طفلها!

فغطت رازقية وجهها بطرف فوطتها ، وشرعت في نشيج هزّ جسدها كله لم يدهشه لو أن أصابعها امتلأت بسببه بالدم لا بالدموع . لحظتئذ فقط تذكر (مطلق) أمراً جعل الدم يهرب من وجهه ، فتلفت حوله بعينين متسائلتين . عندها جاء دور طارش في البكاء . لكنه استطاع أن يقول برغم الغصة التي ضاق بها حلقه :

- لقد ماتت . . أمي أيضاً!

وحينما سكنتْ عينا (مطلق) في محجريهما العميقين ، وثمة نظرة رعب قد تجمّدت فيهما ، طمأنه طارش وهو يمسح دموعه :

- اطمئن ؛ فأخي الرضيع جناح لم يمت بفضل رازقية!

فلم يملك (مطلق) إلا أن يرنو إلى رازقية - التي زاد سواد الحداد وجهها سحراً - بنظرة امتنان .

قال الراوي : وتماثل (مطلق) للشفاء ؛ فقد أخذ جسده يرشح عرقاً دلالة نجاته . وغدت أيام الهذيان ولياليه كابوساً في طريقه إلى الزوال . وكان بابه أول باب صرّ ليخرج منه بقامة هزيلة ، وهو يستند إلى كتف طارش ، ووراءهما لاح وجه رازقية وقد احتضنتْ جناح بحنو ثكلى لا تكفّ حلمتاها عن درّ اللبن بسخاء .

وأخذت الأبواب تنفتح هنا وهناك على مسافات متباعدة . وعادت الديكة ترتقي الأسوار الخفيضة لتصّفق بأجنحتها قبل أن تطلق لصياحها العنان . وتلوّت أعمدة الدخان صاعدة ، ففاحت روائح

www.ibtesama.com

الأطعمة التي تذكّر المرء بالحياة والتي تجعل الكلاب تجلد بأذنابها الأرض برقة ، نابحة أي وافد غريب بشراسة ، لتتلقف عن استحقاق اللقيمات التي يُجاد بها عليها!

لقد عادت الحياة كسابق عهدها باستثناء تغيّر وحيد يتمثل في الحزن الذي وسم عيون الجميع بميسه الأزلي . كان حزناً شديد الوطأة يجعل الحلوق تغصّ بلقمة الزاد ، متذكرين حلوقاً اخترمها الدود . كان حزناً يجعل الضحكات تنطفئ وهي في ذروة تفتحها على الشفاه لتغرورق العيون بالدموع . كان حزناً توضّح عمقه أكثر يوم تزوج (مطلق) برازقية : فحالما انتهت مدة (العدّة) اقتادتها النساء من بيتها إلى أعلى التل . سرنَ بها صامتات ، لا يصدر عنهن سوى حفيف ملابسهن السود وكأنهن يمشين في جنازة ، حتى إذا ما اختلى الاثنان ببعضهما تأمل أحدهما الآخر لحظات لينخرطا بعدها في البكاء!!

www.ibtesama.com

كتاب الكتب

سِفر اللام

وهكذا ، أستطيع الآن أن أؤرّخ يوم تسجيل بدر فرهود الطارش القسم الأول من (السيرة المطلقية) بداية شروعي في تأليف هذه الرواية ، وهي بداية سبقتْ كتابتي هذه الصفحات بمدة طويلة ، وتلك مفارقة ستظل تتكرر على امتداد الصفحات القادمة دون أن أملك لها تفسيراً مقنعاً ، اللهم إلا بأنْ أعزوها إلى طبيعة مخطوط (الراووق) التي أخذت تهيمن على بناء روايتي هذه شئتُ أم أبيتُ ؛ إذ من المعروف أن بداية تأليف ذلك المخطوط يعتورها الكثير من الالتباس والغموض : فعلى الرغم من اقتران (الراووق) باسم (السيد نور) لكونه أول من شرع في تأليفه كتابياً ، لكنه - استناداً إلى سلسلة الرواة الذين أسهموا في إنشاء (السيرة المطلقية) - يُعدّ رابعهم!

وقد بقي ذلك الالتباس يرافق نمو المخطوط وتشعبه بالصورة التي انتهى إليها : نصاً مفتوحاً لا يعرف التوقف عند حد . والواقع أن (السيد نور) نفسه أشار إلى هذا الأمر بأسلوبه العرفاني الذي يحتمل الكثير من التأويل والترميز ؛ فقد ختم أوراقه بالإشارة إلى أن من سيأتي بعده ليأخذ على عاتقه مهمة تأويل ما كتب سيكون (أول الرواة في المسطور وآخرهم في الظهور)!

تلك الأفكار أُدين بها ، في واقع الأمر ، إلى دفتر ملاحظاتي ؛ فقد

www.ibtesama.com

سجلتها فيه لاحقاً ، أما يومذاك فلا أملك سوى الاعتراف بأن أحداث ذلك القسم من (السيرة) كانت قد أنستني نفسي ؛ فعلى امتداد الوقت الذي تطلّبه التسجيل أوليتُ سمعي لصوت (القصخون) متنقلاً في الوقت نفسه بين تلك الديكورات واللوحات والتماثيل المتوزعة في القاعة (البصيرية) - القائمة في الزاوية الجنوبية الغربية للمتحف - والتي تجسّد المرحلة الأولى لنشوء مدينة (الأسلاف) يتوسطها نموذج متقن الصنع للقلعة ، وقد أبرزتْ معالَمه بجلاء الكشافاتُ الموجّهة نحوه من شتى الزوايا . ومن خلال الواجهتين الزجاجيتين اللتين تشغلان الجدار الجنوبي والغربي للقاعة كانت المدينة نفسها تمتد تحت بصري ببيوتها وشوارعها وعماراتها وأزقتها وأسواقها . لكن صوت (القصخون) كان يعيدني إلى زمن بعيد لم يكن فيه ذلك الجانب من المدينة سوى أرض خلاء استسلمتْ لقدرها تحت وهج نجم مذنّب ارتسم في موضع (القِبلة) منذراً بكل تلك الكوارث والمآسي التي تعاقبت تباعاً!

كنتُ قد انسجمتُ مع ما أسمع حتى أنني بدوتُ كمَن يصحو من حلم ، أو بالأحرى من كابوس ، حين أنهى (القصخون) روايته ، وغادر القاعة متأبطاً ربابه .

- أرأيت كيف انسجم (القصخون) مع الأحداث حتى أنه لم يستطع منع نفسه عن ذرف الدموع حين حديثه عن اجتياح الطاعون الديرة؟

علق بدر فرهود الطارش بعد إيقافه جهاز التسجيل عن العمل ، وأردف وهو يضغط على زر فيه ليستل من جوف الغطاء الشفاف الذي اندفع عالياً (كاسيتاً) ناولني إياه :

- ذلك هو سبب امتناعي عن تسجيل الأقسام الثلاثة للسيرة حتى الآن من أجل بثّها عن طريق المؤثرات الصوتية في القاعات ؛ إذ

www.ibtesama.com

أنى لأكثر الأجهزة الالكترونية رقياً ورهافة مجاراة الإنسان في ذرف الدموع شجناً؟

غادرتُ المتحف متلمساً ، على امتداد الطريق ، (الكاسيت) المستقر في جيبي وثمة فكرة مجنونة ما انفكّتْ تقلقني من أن أُفاجأ بأناملي وقد تلطخت بالدم!

في البيت استقبلتني الساعة الجدارية بتكتكتها الأزلية وبحركة بندولها الرتيبة فوق الصور التي تزين جدران (الليوان) .

تلك الليلة أحكمتُ إطباق شبابيك شناشيل غرفة (الأرسي) كما تأكدتُ من إسدال الستائر ، وألقمتُ المسجل الصغير (الكاسيت) قبل أن أجلس على الكرسي الدوّار ، فارشاً على سطح المكتب ، تحت ضوء المصباح المنضدي ، الغلاف الورقي العريض الذي يغطي الغلاف السميك لكتاب (محافظة الأسلاف في ماضيها وحاضرها) .

وعلى وقع صوت (القصخون) ونغمات ربابه أخذت أتأمل تلك الصورة الكبيرة وقد غطت الغلافين الأمامي والخلفي والتي ليست غير صورة مدينة (الأسلاف) وقد اُلتقطت من الجو . إنها صورة قد لا تلفت نظر من لا يمتّ إلى المدينة بصلة ؛ ذلك لأنه لا يرى فيها سوى آلاف البيوت التي تبدو أشبه بمكعبات صغيرة ، تحيط بمآذن مساجد تعلو سطوح بعضها قباب زرق . وهنا وهناك تنبثق ، على مسافات متباعدة ، عمارات بطبقات عديدة ، وسقوف أسواق مثلثة ، لا ينظّم فوضاها سوى دوائر ساحات مزدانة بتماثيل ونُصب ، تتفرع عنها شوارع مستقيمة تؤدي بدورها إلى أزقة دقيقة تكتنفها الظلال .

إنها صورة لا تختلف كثيراً عن صور مدن كبيرة أُخرى ، تحمل كل منطقة من مناطقها طابع الحقبة الزمنية التي أُنشئت فيها : فالتداخل والاضطراب وخلو المساحات المفتوحة يكاد يكون طابع المحلات القديمة

www.ibtesama.com

التي تحفّ كل واحدة منها بجامع لا يعلو مئذنتَه وقبتَه بناءٌ قريب ، تلتقي عنده الأزقة ، وتتجّمع حوله البيوت والأسواق والحمّامات والخانات والمقاهي ، محددة بمواقعها شبكات الأزقة العنكبوتية ، في حين ينعكس الأمر في الأحياء الحديثة التي شرعت في الظهور على محيط المناطق القديمة عقب الحرب العالمية الثانية واكتشاف النفط جنوبي المدينة ووسط الأهوار ، وما تبع ذلك الاكتشاف من شيوع مظاهر التحّضر والترف ، فأخذتِ الأحياء الحديثة بالظهور حيث الشوارع هي التي أخذت تحدد اتجاهات المرافق المحيطة بها من بيوت ومدارس ورياض أطفال ومستشفيات ودور سينما ومسارح ، فضلاً عن شيوع المسافات المفتوحة بينها من متنزهات وحدائق ، دون أن أنسى قيام المعامل والمصانع التي يمكن الاهتداء إليها عن طريق أعمدة الدخان المتصاعدة من مداخنها . لكن الصورة نفسها هزّتني من الأعماق وأنا أتأملها تلك اللحظة على وقع صوت (القصخون) وهو يروي ذلك التاريخ المملوء بالمآسي ؛ إذ إنني وجدتني فجأة وقد انفصلتُ عن ذلك الكيان فأخذتُ أتطلع إليه بحياد غريب ، فإذا بي أرى المدينة نفسها بغير الطريقة التي كنتُ أراها بها وأنا محاصر بوجودها وبضجة سياراتها وصخب السابلة الذين لا يكفّون عن التصادم في أسواقها حيث اعتدتُ أن أنسى نفسي وأنا منغمر في حياتي اليومية وسط ذلك الكيان الجبار كائناً ضئيل الشأن يدبّ دبيب نملة على امتداد الأزقة والأسواق والشوارع والجسور ، متخذاً سبيلي نحو أماكن معينة لا تتخطى المدرسة والمتحف والمكتبات المتوزعة في شتى الأنحاء ، ومشرباً أو مشربين ، فضلاً عن مقهى (أبو بلقيس) بلوحاته (الفطرية) التي تغطي جدران الصالة .

وجدتني فجأة أتأملها وكأنما من سطح كوكب آخر ، فإذا بي أجول

www.ibtesama.com

بنظراتي بين تلك البقع التي كانت متباعدة عن بعضها في الماضي ، تشكّل بؤر صراعات مريرة ، تغذيها الأحقاد والثارات والنعرات الدفينة التي سرعان ما كانت تطفو على السطح لأدنى سبب ، إذا بي أراها وقد تقاربت على سطح الصورة ؛ إذ يكفي سمك إبهامي ليغطي المسافة التي تفصل القلعة عن المزار ، وثمة بضعة سنتيمترات فقط تفصل الاثنين عن منطقة (تل العاشق) ، والأمر نفسه مع المناطق الأخرى : مقهى الرافدين ، والسراي ، ومنطقة (الجرية) ، و(التلغرفخانة) ، و(الأورديكاه) وغيرها من المناطق .

إذن لم يُجانب شبيب طاهر الغياث الصواب حين ذكر أن القلعة كانت هي البؤرة التي نمتْ عنها مدينة (الأسلاف) على مدى قرون ؛ فبرغم حرقة صوت (القصخون) وهو يكاد يقطع وتر ربابه ليقص أحداث صراع نشب بسبب بناء قلعة . . . محض قلعة واحدة ، ها هي المدينة وقد افترشتْ عشرات الكيلومترات المربعة المؤطرة بالبحيرة - بزايز الجولان في الماضي - شرقاً ، وخط سكة الحديد الممتد غربي منطقة (تل العاشق) ، وبين منطقة (المواصلة) شمالاً - حيث يقوم المطار - وبساتين منطقة (البصاروة) جنوباً ، تلك البساتين التي لم يبق منها سوى شريط خضرة لم يحن أوان اجتثاثه بعد ، والتي كانت تغطي المنطقة كلها في الماضي بدءاً بالحافة الجنوبية لوادي المرّ حتى الحدود القصية ، إلا أن يد (الحضارة) الحديدية طاردتها دون هوادة على مدى عقود من الأعوام مقتلعة النخيل من جذورها ، باذرة وراءها - في سيرها الأعمى الذي لا يرحم - بيوتاً وعمارات وشوارع لا تزال أرصفتها الإسمنتية تتقبب ، بكل صلابتها ، فوق نبتة مرهفة تزهو أياماً بخضرتها قبل أن تسحقها الأحذية!

تُرى أفي وسع (كاسيت) يسرد أحداثاً حفظتها منذ صغري عن

www.ibtesama.com

ظهر قلب أن يسعفني في كتابة رواية تطمح إلى أن تدخل المدينة كلها بين غلافيها؟

سؤال مثبط للهمة دون شك جعلني أشعر بلا جدوى ما أنا مُقبل عليه . وتذكّرت ذلك (النقص) الذي سبق لبدر فرهود الطارش أن حدثني عنه ؛ حقاً إن (النقص) سيبقى سمة كامنة في صميم أي عمل إبداعي .

والحق أن تسجيل ذلك القسم من (السيرة) لم يكن فكرتي ؛ فعلمي بدقائق تلك الأحداث قديم يستحيل عليّ تذكّر وقت نشوئه لدي ، بل لعلني رضعته مع حليب المرحومة أمي في ذلك الزمن البعيد ، أيام كان فيها هذا البيت الكبير ، بطبقتيه وغرفه العديدة ، يضجّ بصخب إخوتي الذين كانوا يكبرونني في العمر قبل أن يموت منهم منْ مات ، ويهاجر منْ هاجر ، لأُترك وحدي في آخر الأمر ، لا شيء يؤنسني في وحشة عزلتي سوى زقزقة العصافير التي لا تهدأ في سدرة الحوش الهرمة ، فضلاً عن صرير قلمي على الورق وأنا أحاول ، دون كلل ، إحالة ذلك الماضي إلى كلمات قد أجد فيها بعض العزاء ، كلمات تجلب أحياناً الغصّة إلى حلقي ، فأهرب منها لأجول طويلاً في أماكني المعهودة من المدينة ، مغرقاً أحزاني بكأس أو كأسين يشاركني فيهما صديقي الشاعر في مقهى (أبو بلقيس) ، خلوتنا التي نطلق فيها العنان لأحزاننا الأزلية ، لأعود في آخر الأمر ملاحظاً عجائز الزقاق وعوانسه وهن يتتبعنَ خطواتي المترنحة بنظرات مختلسة من خلال خصاص الشناشيل ، ملقبات إياي بـ(العزب الابدي) ، هذا اللقب الذي يلائم تماماً ساكن هذا البيت الموحش الحافل بالأصداء!

كانت (السيرة) حديث المرحوم أبي كلّ شتاء ، في ذلك الزمن الذي لم يكن (التلفاز) فيه قد تسيّد بعد الجلسات الأسرية ، حتى إذا

www.ibtesama.com

ما كبرتُ ، وأنهيتُ المراحل الدراسية المعهودة ، وتخرجتُ في أكاديمية الفنون الجميلة ، كانت روحي قد تشرّبتْ تلك الأحداث لتستجير بها في الملمات مستمدة منها المواعظ والعِبَر .

وهكذا ، كان من الطبيعي أن أرمق (بدر) بنظرة استنكار يوم اقترح عليّ تسجيل الأقسام الثلاثة لـ(السيرة) ، وفي ظني أنه يمزح . لكنه ازداد إصراراً على ذلك مؤكداً وجود فروق قد لا يتنبه لها الآخرون . قال ، وثمة نظرة قد ارتسمت في عينيه الزرقاوين أدركتُ منها أنه لا مفرّ لي من الاستجابة لإصراره :

– أنا لا أجهل أن أحداث السيرة وقصصها معروفة ، ليستْ لك وحدك بل لأغلب قاطني هذه المدينة ، بيد أن هناك فروقاً دقيقة تميّز كل قسم عن الآخر ، خذ القسم الأول مثلاً : ففضلاً عن طغيان الطابع الغيبي عليه نراه يحفل بأصداء عديدة من أساطير الخليقة و الطوفان وما أشبه ، بل إنني وقعتُ على عبارات أقرب ما تكون إلى الأمثال وردت حرفياً في كتاب (ألف ليلة وليلة)!

وقد عزّز صديقي الشاعر كلام بدر ذاك ؛ ففي غرفة المدرّسين المشرفة على محلات الحدادة في مدرستنا القائمة وسط المنطقة الوحيدة غير الصالحة لإقامة المدارس – المنطقة الصناعية – تطرّقنا إلى الأمر نفسه أكثر من مرة خلال الفرص الخاطفة فأشبعناه بحثاً وتمحيصاً على وقع ضجة المطارق التي لا تهدأ لحظة واحدة ، هذه الضجة التي كانت تتخذ أحياناً جانب الطرافة ، ولاسيما حين تأتي لتأكيد رأي أو تفنيده ؛ فقد كان يصادف أن تعقب أحد آرائنا سلسلة ضربات غاضبة ، كانت تجعل الشاعر يلتفت نحو النافذة العريضة ، مبدياً اعتذاره ، أو قد تدوّي مطرقة ما بضربة يتيمة حاسمة كأنها تؤكد أحد آرائنا تجعل الشاعر يلتفت في ذلك الاتجاه شاكراً . وكنا ، في جميع

www.ibtesama.com

الأحوال ، نغرق في ضحكات تثير انتباه زملائنا الآخرين ، فكانوا يقطعون أحاديثهم المعهودة رامقين إيانا بنظرات متسائلة لم نكن نملك لها جواباً!

قال وهو ينهي احتساء شايه :

– هناك تأثيرات أُخرى غير التي ذكرها صاحبك بدر ، تأثيرات عرفانية لا يخطئها السمع .

وانهمك في إيقاد سيجارة ، وانتظر لكي يهدأ هدير منشار كهربائي بدأ يشق ، على غير توقع ، رقائق معدنية ، مكتسحاً غرفتنا بهدير جبار أحسستُ بوقعه على جذور أسناني :

– . . . بل أستطيع أن أحدد لك بيسر مصادر العديد من تلك العبارات ؛ ففي الوسع الوقوع على عبارات مماثلة لها في أغلب مؤلفات (ابن عربي) ولاسيما (فصوص الحِكَم) و(الفتوحات المكية) ، بل ثمة عبارات تتطابق حرفياً مع عبارات كاملة وردت في كتاب (الإنسان الكامل في معرفة الأواخر والأوائل) للعارف (عبد الكريم الجيلي)!

فتساءلتُ ، مستثمراً لحظات هدوء سادها أزيز كاوية كهربائية ، مصحوبٌ بوميض لحام لا يعيبه شيء سوى تلك الرائحة الصادرة عنه :

– أليس غريباً أن يكون هؤلاء الرواة الثلاثة قد اقتبسوا عبارات من كتب عرفانية برغم كونهم أُميين؟

فأجابني وهو يطالعني بنظرة ذكية من خلال عدستيّ نظارته الطبية اللتين تزدادان سمكاً بمرور الأعوام وتتابع القراءات :

– إنهم لم يقتبسوا من أيّ كتب ؛ فذلك التشابه يعود إلى ما يسمونه ، بحسب مصطلحاتهم الصوفية ، بـ(النفث الروحاني) وهو إحدى طرق حصول العلم الإلهي في روع الأولياء ، ليس عن طريق الإملاء أو الوحي أو الإلقاء ، بل بضرب من الإجمال والإبهام!

www.ibtesama.com

وأضاف وهو يسحق سيجارته ونحن ننهض استجابة لرنين جرس بدء درس جديد :

- وعلى كل حال يبقى التصوف ذوقاً وسلوكاً ، ولم يكن في يوم ما علماً يُلقن ويُدرس فقط .

ومن خارج النافذة جاءت ضربة مطرقة لتؤكد ذلك الكلام!

لكنني كنت لا أزال آنذاك أتلمس طريقي متهيباً نحو هذه الرواية دون أن أملك الجرأة الكافية لفتح غلافها الأول لأدخل مدينة (الأسلاف) ، مدينة الحروف والكلمات ، مستعيضاً عن ذلك بتدوين الملاحظات في دفتري . بل مرّت بي حالة إحباط جعلتني أكثر - تحت رقابة أعين عجائز الزقاق وعوانسه - من مغادرة البيت دون أن أعرّج على المتحف لتسجيل القسمين الآخرين من السيرة ، مصطحباً صديقي الشاعر إلى (خلوتنا) في مقهى (أبو بلقيس) . ويوم اتصل بدر هاتفياً حاولتُ أن أبلغه بأوجز الكلمات بهواجسي وقلقي وشعوري بأنني مُقدم على عمل لا طائل من ورائه ، لكن استغراقه في ما كان يشغله جعله لا يفقه مغزى كلامي ؛ فقد قاطعني بطريقته الفظة المعهودة :

- دعِ (السيرة) تنتظر الآن ، إذ إننا نستطيع تسجيلها متى أردنا ، ولنلحق بشبيب طاهر الغياث ؛ فقد يغدر بنا ويموت فيسبب بذلك في إجهاض روايتك المنتظرة مثلما سبق له أن أجهض مشروع العمر في طبع المخطوط!

فرجوته - وكنتُ لا أزال غير مُلمّ بأسلوبه بعد - أن يوضّح لي مغزى كلامه ، فصاح في السماعة مستنكراً :

- أُوضّح مغزى كلامي؟! . . . ولكن الأمر غاية في الوضوح ؛ فشبيب مريض . . . ومرض رجل تخطى التسعين يجب أن يؤخذ

www.ibtesama.com

بمنتهى الجدية ، ففكرتُ في زيارته ، فإن كانت بك رغبة . . .

فقاطعته أنا هذه المرة :

– مؤكد لديّ رغبة! . . . كيف تريديني ألا أرغب في زيارة شخص كرّستُ له معظم صفحات روايتين متعاقبتين؟!

كان موعد لقائنا عصراً قرب مرقد (السيد نور) الذي لم يكن أكثر من غرفة مهملة في الزاوية الجنوبية الغربية من الطبقة الأرضية لعمارة المصرف بطبقاتها العديدة . وكان بدر قد سبقني في الحضور ؛ إذ ما كدت أترجل من سيارة الأجرة عقب اجتيازها السدّة ذات البوابات الحديدية المقامة على صدر (وادي المرّ) ، وأنعطف يساراً ، ماراً من أمام المصرف حتى رأيته يقف قرب الباب الملطخ بالحناء ، وكأنه ينشد الغفران!

كان باب الضريح مثقلاً بعشرات الأقفال التي جعلتني لحظتئذ أفكر في أنها لم توضع لنيل مراد ما ، بل من أجل إحكام إغلاق الباب حرصاً على أن يبقى ذاك الولي حبيس مرقده إلى الأبد!

توغلنا في أزقة منطقة (الجرية) – وهي تسمية أعادت إلى ذاكرتي ذلك التاريخ الغابر يوم وقع الشقاق بين (السيد نور) ، و(مطلق) فانتقل ذلك الولّي إلى هذه البقعة ، حيث أُقيمت البيوت قرب كوخه فيما بعد – وكان البيت المنشود يقع في محلة (المضيفخانة) – وهذه التسمية ذكّرتني بدورها بمضيف عشيرة (البواشق) الذي كان يُقام عادة في ذلك الموضع حتى العقد الأول من القرن العشرين – وكان علينا الهبوط ثلاث درجات قبل دخول الباب ؛ فمستوى الشارع كان قد ارتفع بتعاقب أعمال المجاري والرصف والإكساء .

كانت (الديوخانة) تقع على يسارنا – مثل بيتي تماماً – وفي اللحظة التي دخلناها غادرها بضعة عجائز فانين كانوا يسندون بعضهم

www.ibtesama.com

بعضاً ، تعرّفت فيهم إلى أكثر من واحد كنت قد تعقّبتُ طفولته وشبابه في روايتيّ السابقتين .

كان شبيب طاهر الغياث مضطجعاً على فراشه فوق السجادات التي كانت تغطي الأرض ، وثمة أرائك ، ذات طراز عتيق انخسفت حشاياها لكثرة الجلوس عليها ، تحفّ بالجدران . وهنا وهناك – في زوايا شبه مظلمة لم يفلح المصباح الكهربائي الوحيد المدلى من السقف في تبديد عتمتها – انتصبت خزانات كتب تلقي بظلالها الطويلة على الجدران التي كانت بيضاً يوماً ما .

لم يكد بدر يعرّفني إلى شبيب حتى تزحزح محاولاً النهوض لولا أنني سارعتُ إلى منعه ، لكنه أبى إلا أن يزحف مغادراً فراشه ليجلس على أريكة قريبة ، طالباً من بدر أن يقرّب إليه مجمرة نحاسية توسّطها وعاء الشاي .

– لا قدرة لصدري الضعيف على تحمّل ما تنفثه المدفئات النفطية والغازية من سموم .

تمتم شبيب وقد انحنى فوق الجمرة التي وضعها بدر بين قدميه المكتسيتين جوربين صوفيين ، باسطاً فوق اللهب كفيه الضئيلتين المملوءتين شرايين وعقداً .

بدا مفرطاً في النحول ، يكاد جسده يضيع في ثنايا ملابس ثقيلة تدثّر بها برغم أن الجو كان ربيعياً على شيء من دفء ، وثمة طاقية بيضاء تعلو رأسه الصغير ، تؤطر ، مع لحية بيضاء خفيفة ، ملامح وجه جددت الشيخوخة فيه براءة طفولة غابرة . لكنه بالرغم من ذلك بدا في ذروة نشاطه العقلي كثير التلميح والفكاهة في كلامه .

سألناه عن صحته ، فأجابنا أن الأعمار بيد الله . وسألني بدوره وهو يومئ برأسه نحو بدر :

www.ibtesama.com

- لا شك أنه (ألقى القبض) عليكَ وأجبركَ على اصطحابه إلى بيتي؟

- أبداً ؛ فمنذ أعوام وأنا أتوقُ إلى التعرف إليكَ .

- على كل حال يبقى ذلك خير ما فعل ؛ فأنا بدوري أودُّ التعرف إليكَ شخصياً بعدما عرفتكَ من خلال رواياتك .

وكان بدر ، في أثناء حوارنا الخاطف ذاك ، قد اتخذ كامل حريته وكأنه في بيته ؛ فقد رفع صوته طالباً الإسراع في جلب الأكواب والسكر ، وسرعان ما أُستجيب لطلبه ، فتربّع قرب الجمرة ليصبُّ لنا الشاي .

يومها ، وأنا أراقب (شبيب) ، وهو يحتسي شايه بكل تؤدة وأناة مبدياً حرصه على ألا تلوث قطرة منه ثوبه ناصع البياض ، لم أستطع مغالبة شعور بالمفارقة انتابني على غير توقع لحظة تنبهتُ إلى أنها أول مرة أُجالس فيها الرجل ؛ فبرغم أننا نعيش في مدينة واحدة إلا أن ذكرياتي عنه لم تكن تتخطى ما كنت أسمعه عنه من الآخرين فضلاً عن لقاءات عابرة - كانت تتم في الغالب في مكتبات المدينة ، ولاسيما مكتبة (الأسلاف) لصاحبها اليهودي يوسف يعقوب - لقاءات من المؤكد أن (شبيب) لم يكن يتنبه خلالها لي ؛ إذ إنني كنت لا أزال طالباً في أول عهدي باقتناء الكتب ، في حين كان هو أميناً لمكتبة المتحف وقد اقترن اسمه باسم مخطوط (الراووق) الذي كان منهمكاً في تحقيقه ، حتى إذا ما أُحيل على التقاعد واعتكفَ في بيته لم أعد ألمحه ولو بشكل عابر على الرغم من أنه بقي ملء أعين الناس وأسماعهم ، الناس الذين استقيتُ منهم كل صغيرة أو كبيرة تتعلق بماضي شبيب مستثمراً إياها في روايتيّ السابقتين .

يومذاك أخذ شبيب يُثني على تينك الروايتين ، مبدياً ارتياحه

www.ibtesama.com

ورضاه عن كل ما يتعلق بشخصه ، فصاح بدر وهو يصبّ لنفسه كوباً آخر :

- وهناك رواية ثالثة في الطريق حول الموضوع نفسه!

فغمغمتُ وقد بلغ الارتباك مني مداه :

- لا . . . بل . . . بل إنها محض فكرة . . . قد لا تتمخض عن شيء .

لكن (بدر) عاد يصيح وقد قرر أن ينوب عني في الإفصاح عن أفكاري :

- أية فكرة وقد شرعنا في تنفيذ الأمر عملياً؟

والتفتَ نحو صديقه العجوز موضحاً :

- لقد سجلتُ له القسم الخاص بـ(عبد الله البصير) من السيرة ، وسأعقبه بالقسمين الآخرين .

فخاطبه شبيب متهكماً :

- ما ضاع أمرٌ وراءه بدر فرهود الطارش!

وأردف وقد التفتَ نحوي مطالعاً إياي بنظرة إشفاق مشفوعة بابتسامة عريضة كشفت عن أسنانه الصناعية النضيدة :

- لا خلاص لكَ منه ؛ فحين تستقر فكرة في رأسه لا بد له من تنفيذها ، ومن المؤكد أنه سيجبرك على كتابة تلك الرواية ولو اقتضاه الأمر الاستعانة بالشرطة!

وأغرقنا في ضحكات كانت ضحكة بدر أعلاها جرساً .

وعلّق بدر وهو يمسح عن عينيه الدموع :

- ليس إلى هذه الدرجة يا صديقي ؛ فمشكلتي الوحيدة تتلخص في أنني ضعيف بإزاء كل ما يمتُ إلى ماضي (الأسلاف) بصلة .

وأضاف بنبرة مداهنة شدت انتباهي على الفور :

www.ibtesama.com

- المهم هو أنه يُفترض بك يا أستاذ شبيب . . .

فقاطعه شبيب مستنكراً :

- أستاذ شبيب؟ أعوذ بالله! . . فهذا اللقب يثير شجوني ؛ فتتويج اسمي المتواضع به يعني أنني مُطالب بالانصياع لإحدى نزوات بدر . . . وذلك أمر لا مفرّ لي من التسليم به مسبقاً لأنني لستُ على استعداد ، وأنا في هذه المرحلة من عمري ، لأن أتعرض لمحاولة اغتيال في عُقر داري!

فصاح بدر وهو يُغالب ضحكه بصعوبة :

- لا تشوّه سمعتي أمام الرجل!

- أُشوّه ماذا؟

طرح شبيب سؤاله بشكل ماكر ، فكان الجواب عاصفة ضحك جديدة علا خلالها صوت بدر وهو يحاول أن يسوّغ موقفه :

- هذه السمعة هي غير تلك التي يلاحقني بها المتخلّفون . . وهي سمعة أحرص حقاً على ألا تشوبها شائبة ؛ لأنها سمعة الفن والإبداع!

- حسن . . . حسن . . . والآن خبّرني بالذي تراه يُفترض بي أنا الأستاذ شبيب!

فأوضح بدر وقد عاد يمسح الدموع عن عينيه :

- يُفترض بك ألا تبخل على روائي مدينتنا بكشف الأسرار التي وقعتَ عليها أثناء تحقيق (الراووق) ، تلك الأسرار التي جعلتْ تحقيق ذلك المخطوط أمراً مستحيلاً .

فأبدى شبيب استعداده التام لمساعدتي في هذا الأمر . وأوضح أنه سبق له ، أثناء قيامه بالتحقيق ، تسجيل ملاحظات كان يطمح إلى أن يستثمرها كمقدمة للمخطوط عند طبعه ، أو تطويرها إلى محاضرة كان بدر يتحرّق شوقاً لإلقائها آنذاك في قاعة المطالعة في مكتبة المتحف .

www.ibtesama.com

وتزحزح فوق الأريكة محاولاً النهوض لولا أن (بدر) سارع إلى منعه ليتبرع في جلب ما كانت به حاجة إليه من إحدى خزانات الكتب حيث فتح أبواباً وسحب أدراجاً ، عابثاً في أوراق وملفات بدا على معرفة دقيقة بها كأنه سبق له أن نبش فيها عشرات المرات .
وسرعان ما عاد بدر بالملف المنشود ليناوله صديقه وهو يقول :
- وهي محاضرة كنت سأجعل منها حديث مثقفي البلدة في ذلك الزمن ؛ فقد هيّأتُ لها عشرات (السلايدات) لكي أعرضها عن طريق الفانوس السحري أثناء إلقاء المحاضرة .
وأضاف بمكر :
- وعلى كل حال لم يفت الأوان بعد ؛ فباب قاعة المطالعة لا يزال مشرعاً لمثل تلك المحاضرة متى ما شاء الأستاذ شبيب!
- أعوذ بالله! . . . أعتقني من نزواتك يا رجل . . . والبركة في ضحيتك الجديدة!
صاح شبيب مستغيثاً وهو يتصفّح أوراق الملف مقرّباً إياها من عينيه في بعض الأحيان ، دون أن يكف عن التمايل بحمله إلى هذا الجانب مرّة وإلى الآخر مرة ، طمعاً في اقتناص خيوط ضوء شاردة من المصباح المدلى فوق رؤوسنا . وحينما تأكد من أنه الملف المنشود دسّه بين يديّ ، فأخذتُ أُقلّب أوراقه بدوري محاولاً أن أفقه مغزى تلك السطور المبهمة التي كانت تطالع عينيّ وقد تخللتها عشرات التشطيبات والإضافات والأسهم التي تقود إلى هوامش لا بد من الاستعانة بمنجّم لفك طلاسمها!
وأنقذني شبيب من محنتي ؛ إذ يبدو أن رؤيته لملفه العتيد بين يدي غيره نبهته على احتمال التفريط به ، فسارع إلى استعادته مني معلناً عن استعداده الاستعانة بملفه ذاك في كتابة صفحات يوضح فيها

www.ibtesama.com

معاناته في تحقيق المخطوط .

واستطرد ممعناً النظر في وجهي :

- لن أبخلَ عليك بعمل قد أنجزه خلال أيام أو أسابيع ما دام سيعينك في كتابة الرواية المنتظرة .

وأضاف وهو يناول الملف بدر ليعيده إلى موضعه منهياً بذلك قلقه على (لقيته) النادرة :

- لقد وجدتُ في رواياتك كنزاً عوّضني عن إهمالي في كتابة رواية قبلك بعقود من السنين .

واعترف ، بعد لحظات تردد وإحجام ، بأنه لا يزال يحتفظ بفصول من (محاولة روائية) ، وتمنى عليّ أن أقرأها إن كان في وسعي (التضحية) بجزء من وقتي (الثمين)!

ولم تكن به حاجة للنهوض ؛ لأن (بدر) تبرع تلقائياً للقيام بتلك المهمة مبرهناً بذلك على أنه ليس على معرفة بمحتويات تلك الغرفة فحسب بل البيت أيضاً!

والحق أن (محاولته) الروائية تلك لم يكن يعوزها لتغدو رواية معاصرة ناجحة سوى لمسات لا يُدركها إلا من احترف هذه المهنة ؛ فحال عودتي إلى البيت قضيتُ الليل في قراءة تلك الأوراق ، فإذا بها على جانب كبير من الأصالة والتفرّد ؛ كان يكفيها شيء من المطاولة والعناد لتصل إلى حجم معقول يشفع لها أن تحمل على غلافها حين طبعها كلمة (رواية)!

صباح اليوم التالي أخبرتُ الشاعر في المدرسة باكتشافي ذاك ، فتمنّى لو كان في وسعه بدوره قراءة تلك الأوراق . لكن تذكّري لهلع شبيب على ملفه المستقر بين يدي قبل يوم جعلني أعترفُ باستحالة ذلك ، فعلّق الشاعر مسوّغاً سرّ لهفته :

www.ibtesama.com

- لا أجمل من الإطلاع على تلك المحاولات الإبداعية البكر التي يغامر في القيام بها صنف من البشر لا يلجأ إلى القلم من أجل نزوة عابرة أو للحصول على مجد زائل ، بل يعمد إلى ذلك مضطراً مثلما يعمد الغريق إلى إخراج رأسه فوق لجة الماء مستميتاً من أجل تنسم الهواء!

وانتظر حتى مرّت بسلام ضجة منشار كهربائي أخذتنا بدوامتها لحظات :

- هناك تظهر الأصالة ؛ فالرواية - في اعتقادي - ليست مجرد أدب فقط .

لم تكد تمر أسابيع حتى سمعتُ ، لحظة عودتي من المدرسة ، رنين هاتفي ينبعثُ من الشناشيل وأنا لا أزال في الزقاق ، فسارعتُ إلى فتح الباب والصعود إلى الطبقة الثانية . لكن الرنين انقطع لحظة دخولي غرفة (الأرسي) . ولم أكد أشرع في استبدال ملابسي حتى أخذ يرن مجدداً . وفوجئتُ بصوت أنثوي مألوف يكلمني بحرارة . لكنني عجزتُ عن التعرف إلى صاحبة الصوت ، فأخذتُ أُجيبها كيفما اتفق ، فإذا بها تفاجئني بقولها :

- يبدو أنك لم تعرفني! . . .أنا . . .أنا ابنة (آنو)!

وعلى الفور هجستُ بالحياة تدبُّ في سماعة الهاتف ، فحوّلتها إلى يدي الثانية ، والتقطتُ أنفاسي قبل أن أصيح :

- مَن؟ ورقاء! . . . غير معقول!

فخفقت السماعة بضحكة رقيقة ، وتلك كانت أول مرة أسمع فيها ورقاء تضحك!

- قبل أن يشتطّ بك الخيال أُحب أن أُؤكد لك أن اتصالي الهاتفي بك خارج عن إرادتي ؛ فقد تم بتكليف من رجل لا يمكن أن يُرد له طلب!

www.ibtesama.com

ووجدتها فرصة من العار عليّ تفويتها دون (حرشة) ؛ فسألتها بدوري بمكر :

- و(آنو)؟ أهو اسمك حقاً في هوية الأحوال المدنية؟!

ونجحتُ في إرباكها ؛ فقد شهقتْ مستفظعة ، فتخيّلتها وقد احمرّ وجهها الفاتن حتى جذور شعرها . لكنها سرعان ما سيطرت على نفسها ، فأجابتني ضاحكة :

- عدّها فلتة لسان!

- لكن المرحوم (فرويد) بنى أهم نظريات علم النفس على فلتات اللسان!

فتساءلتْ متهكمة :

- (فرويد)؟ وعلم النفس؟ الآن فقط اكتشفتُ سرّ بقائك عزباً حتى الآن!!

وسارعتْ تضيف جادة هذه المرة :

- كل ما هنالك أن الأستاذ شبيب طاهر الغياث كان قد اتصل صباح هذا اليوم بغرفة الأستاذ بدر فصادف أنه لم يكن هناك ، فطلب من موظفة (البدّالة) تحويله إلى هاتف المكتبة ، مقر عمله القديم ، فكان أن طلب مني رقم هاتفك . وحين اعتذرتُ إليه بجهلي الرقم - وهذا ليس فلتة لسان! - رجاني أن أحاول الحصول عليه والاتصال بك لأبلّغك بأنه أنهى (المهمة) وهو في انتظارك صباح الغد .

وأوضحتْ أنها استطاعت الحصول على رقمي من أحد موظفي المكتبة لعله من المعجبين برواياتي ، أضافتها ضاحكة منهية اتصالها بقولها :

- . . . وبذلك ترى أن الأمر لا يتخطى الرسميات وإلا فلا يسعني سوى الاستعانة بأبي (سين) ، وهو اسم مثبت في شهادة الجنسية ،

www.ibtesama.com

وليس في هوية الأحوال المدنية!

وأطبقت السماعة على أجمل ضحكة داعبت سمعي .

بادرتُ من فوري إلى الاتصال بهاتف بيت صديقي الشاعر مثيراً (نخوته) وعشقه للغة العربية راجياً إياه استثمار دروس الرسم ليوم الغد معوّلاً في ذلك على (سماحة) مديرنا المعهودة!

صباح اليوم التالي لم تكن بي حاجة للإلحاح على بدر لمرافقتي ؛ إذ لم يكد يسمع بالأمر في الهاتف حتى أعلن أنه (سيطير) ليكون في انتظاري عند مرقد (السيد نور)!

كان شبيب طاهر الغياث نفسه هو الذي فتح لنا الباب هذه المرة ، فعانقه بدر بشوق حقيقي وهو يقول :

- حمداً لله ؛ ذلك لأنني لم أعد أسمع لأجنحة (عزرائيل) خفقاً في الجوار!

فداعبه شبيب قائلاً :

- (عزرائيل) يأخذ روحك ؛ فأنا لستُ في عجلة من أمري ؛ فقد قررتُ أن أُكمل قرناً من الزمن قبل أن أُفكر في الموت!

وأوصلتنا ضحكاتنا إلى الأرائك التي تحف بجدران (الديوخانة) ، وتنبهتُ إلى وجود نافذة على مستوى أرض الزقاق لم أُشخّصها في المرة السابقة بسبب أن الوقت كان عصراً والشمس موشكة على المغيب .

- ها؟ ما رأيك في (محاولتي) الروائية؟

سألني بلهفة حاول أن يتستر عليها بمداعبة وهو يتسلّم أوراقه :

- ألم أكن أُصعّب عليك مهمتك الإبداعية لو أنني كنتُ أكملتها وسبقتكَ في طبعها بعقود من السنين؟!

وذلك أمر لم أستطع إلا أن أُقرّه في دخيلتي ؛ ذلك لأنه ما اختار

www.ibtesama.com

لموضوع روايته سوى أمور تكاد تتطابق مع موضوعات رواياتي : تاريخ مدينة (الأسلاف) ومخطوط (الراووق)!

أبلغته رأيي بمنتهى الروية والحذر ؛ إذ ما جدوى إثارة شجونه وهو في مثل هذه المرحلة المتأخرة من العمر؟

ويبدو أن كلامي أسعده ؛ فقد تشرّب وجهه الهرم بحمرة كادت تجعل عينيّ تغرورقان بالدموع ؛ ذلك لأنه بدا من الواضح أن لهفته للقائي لم تكن بسبب إنجازه لـ(المهمة) - وقد خامرتني لحظتها خاطرة مفاجئة عن احتمال ألا يكون كتب لي أي شيء! - بل بسبب تعطشه لسماع رأيي في محاولته الروائية!

وتأملته بإشفاق وحب . . . سبحان الله! . . . أي قدر هذا الذي يجعل العديدين يتشبثون تشبثاً عنيداً بعشبة (جلجامش) المرهِفة؟

وعلّق شبيب منتشياً :

- لقد تفتّحتْ عيناي ، منذ أول عهدي بالقراءة والكتابة ، على الروايات ، بل أستطيع أن أجزم أن ممدوح أفندي علّمني القراءة والكتابة عن طريق الروايات ؛ فقد كانت مكتبته تحفل بالعشرات منها ، ولم تكن مقتصرة على كتب الفلسفة كما ذكرتَ في روايتك الأخيرة .

وأضاف بتواضع أثار فزعي :

- لكنني لا أخفي عنك أنني تأثرتُ بكَ أنتَ . . . نعم ؛ فبرغم أن عمري ضعف عمرك لكنني تعلّمت من روايتك الشيء الكثير ، تعلمت منها ما لم أتعلمه من الروايات الأُخرى ، ولعل سر ذلك يعود لكونك اخترتَ المواضيع الأثيرة إلى نفسي .

وختم تدفقه في الكلام بعبارة أثلجتْ صدري :

- . . . وستراني في الصفحات التي كتبتها لك أكاد أتمثّل أسلوبك في رسم الشخصيات والحوار دون أن أطمح إلى أن أُضاهيك ؛

www.ibtesama.com

فأنتَ قد غدوتَ (أسطه) لا يُشق له غبارا

وقام بنفسه هذه المرة مانعاً بحركة من يده (بدر) من النهوض . ومضى بتؤدة وأناة نحو إحدى خزانات الكتب وهو يقول :

- كنت أحياناً أبتسمُ لنفسي ، أثناء كتابتي تلك الصفحات ، مستبقاً رد فعلك حين تقرؤها وتكتشف أنني أنسجُ على منوالك!

وصاح بدر وقد نفد صبره لطول صمته :

- وأنا؟ أأهرع إلى المتحف لأحضّر الفانوس السحري و(السلايدات)؟ ففي وسعك يا أستاذ شبيب إلقاء محاضرة لم يلقَ مثلها في قاعة المطالعة ، محاضرة سأشفعها بمئات (السلايدات) ؛ فمنذ صرفك النظر عن طبع المخطوط عشرنا ، خلال ربع قرن ، على مئات الأوراق التي من المؤكد أن بعضها يعود إلى (الراووق)!

فأجابه شبيب ، وقد عاد بظروف سميك ، ملتقطاً في طريقه قلم حبر :

- ما كتبتُه لا يصلح لأن يكون محاضرة ، بل إنه أشبه بفصل من رواية ، وهو مكرّس لإرضاء شخص واحد فقط في هذه المدينة!

وابتسم لي عن أسنانه الصناعية وهو يكتب على المظروف العبارة الآتية :

- (أجزتُ لك ما كتبتُ به إليك) .

وهي عبارة لم أدرك أهميتها في بناء هذه الرواية إلا لاحقاً!

www.ibtesama.com

www.ibtesama.com

كتاب الإنّيّة

أخبرني شبيب طاهر الغياث في ما كتبَ به إليّ قال : كان العثور على ورقة واحدة من (الراووق) إيذاناً بإخفاق مشروع العمر في تحقيق المخطوط ؛ فتلك الكلمات التي ملأ بها (السيد نور) وجهَي الورقة برهنتْ على صحة ما كتبه (ذاكر القيّم) في صفحاته الثماني ، وهنا تكمن المفارقة ؛ فالمصدر الخطّي الوحيد - أعني صفحات (القيّم) تلك - الذي أبعدته من ضمن الأصول الخطية التي اعتمدتُها في التحقيق ، عاد ليحتلّ المرتبة الأولى من حيث الأهمية واضعاً إياي بإزاء اختيارين كلاهما مرّ : إما صرف النظر عن طبع الكتاب بعد اكتشافي المتأخر عدم دقتي في اختيار الأسانيد الصحيحة في عملي - مما ترتب عليه إخراج نص يعتوره الكثير من التحريف والتزييف - أو إعادة تحقيق المخطوط ، وذلك أمر لا طائل من ورائه ؛ فقد برهنتِ التجربة على كون (الراووق) مخطوطاً يستحيل تحقيقه!

والحق أن (الراووق) كان آخر مخطوط أُفكر في تحقيقه ؛ وذلك لأمور عديدة - سأتطرق إليها فيما بعد - قد يكون أهمها انشغالي آنذاك بإنجاز سلسلة مشاريع كتابية تتعلق بمدينتي ؛ فبعد طباعتي كتابي الوحيد (محافظة الأسلاف في ماضيها وحاضرها) - وهو كتاب لولا عملي أميناً لمكتبة المتحف لما كان في وسعي إخراجه بتلك السعة والشمول ، ولولا صداقتي لبدر لما ظهر بتلك الطباعة الأنيقة المزوّدة

www.ibtesama.com

بعشرات الصور والخرائط - وجدتني أُخطط لإنجاز بضعة كتب لا تخرج عن نطاق المدينة : تاريخها وجغرافيتها ، وعاداتها وتقاليدها ، ومأثوراتها الشعبية وحكاياتها ، وتراجم لأبرز رجالها - ولاسيما المتصوفة منهم - بل . . حتى أمراضها المتوطنة شغلت حيزاً من مخططي الطموح ذاك!

وهكذا ، غدوتُ زبوناً دائماً لمكتبات المدينة - ناهيك عن مكتبة المتحف - لا أملّ من النبش في خزاناتها ورفوفها بحثاً عن المصادر ، دون أن أنسى - بسبب قلّة تلك المصادر - الاستعانة بما يختزن أصحاب تلك المكتبات - ولاسيما كبار السن منهم - في أذهانهم ، وفي مقدمتهم يوسف الملقب بـ(أبو يعقوب) - وهو لقب من المؤكد أنه لن يتحقق واقعياً ؛ فبذلك العزب العجوز الذي كان قد تجاوز السبعين تنتهي سلسلة نسب التاجر اليهودي يعقوب أول من شغّل السيارات على خطوط المدينة الخارجية -

كان يوسف ومكتبته القابعة فوق سلسلة محلات خياطة وكماليات ، أهم محطة أمرّ بها في بحثي عما يعينني في عملي الكتابي ؛ فما من مرة تركتُ ضجة الشارع التجاري خلفي لأدخل ذلك الباب الذي تعلوه قطعة كُتبت عليها : (مكتبة الأسلاف لبيع وشراء الكتب والمجلات القديمة) حتى وقعتُ على مصدر ما - سواء أكان على شكل كتاب أو ذكرى غابرة يطفح بها ذهن يوسف - وذلك هو ما كان يجعلني أندفعُ بنشاط ، مرتقياً درجات ذلك السلم الطويل المظلم الذي تقشر طلاؤه وتقبب في أكثر من موضع بفعل الرطوبة والقدم ، لألتقط أنفاسي على الفسحة التي يطل عليها شبّاك ، قبل أن أستدير يساراً مرتقياً ثلاث درجات تحملني إلى صالة يوسف التي تنفتح من جانبها الأيسر على ثلاث غرف صغيرة تؤدي إحداها إلى الأخرى ، في حين يتفرع من الجانب الأيمن ممر قصير يطل عليه باب غرفة جانبية - هي

www.ibtesama.com

التي يشرف شباكها على فسحة السلم - تجاورها غرفة نوم صاحب المكتبة . وتبقى الكتب والمجلات تحيط بك أينما تحركت ، ليس في تلك الغرف الأربع فحسب ، بل في الصالة والممر وغرفة النوم - حدّثني (أبو يعقوب) كثيراً عن أرقه المزمن الذي يدفعه أحياناً إلى مدّ يده ، وهو مضطجع على سريره ، ليلتقط أيّ كتاب يقع عليه مصادفة ، إذ يظل يقرأ فيه في ضوء المصباح المنضدي القريب ساعات ليستيقظ ، صباح اليوم التالي ، والكتاب ملقى على وجهه ، أو مدسوس في طيات فراشه ، أو محشور بين ملابسه أحيانا! - وحتى دورة المياه ، تلك الفسحة الصغيرة القائمة خلف كرسي يوسف ، لم تكن تخلو من كتب أو مجلات!

ذات يوم ما أن التقطتُ أنفاسي على فسحة السلّم لأشرع بعدها في ارتقاء الدرجات المتبقية حتى كدتُ اصطدم بـ(ذاكر القيّم) الذي كان يرتجف ويتمتم بكلمات مبهمة متمضّغاً بفمه الأدرد - شأن العجائز الذين بلغوا من العمر عتياً - وهو يحاول الهبوط ، يعينه الصبي الذي تتحدد مهمته بمراقبة الزبائن الذين اعتادوا ، على عهدة يوسف ، سرقة الكتب!

بدا (أبو يعقوب) خلف تل من كتب ومجلات تثقل مكتبه المتداعي الذي يتوسط الصالة في مواجهة السلّم - للحد من عمليات السرقة كما يبدوا! - في ذروة الاستياء والغضب ؛ فبحجة صممه تجاهل الرد على تحيّتي ، ومضى كرسيه الخيزراني يقعقع تحته ، في حين لا تكفّ يداه القصيرتان السمينتان ، المنتهيتان بأصابع غليظة ملطخة دائماً بالحبر ، عن التنقل بين قنينة (الغراء) والأشرطة اللاصقة والمقص ، وهما ترممان وترقّعان عشرات الكتب والمجلات العائدة لأكثر من عقدين أو ثلاثة عقود خلت . وحتى مكتبه ، المستند في أحد

www.ibtesama.com

جوانبه إلى بضع طابوقات ، كان يستجيب لانفعاله ؛ فقد كان يصرّ ويئن ويتمايل إلى مختلف الاتجاهات ، وكأنه موشك على التداعي إلى ألواح في أية لحظة!

كان من الواضح أن سوء مزاجه سينتهي إلى مضاعفة أسعار الكتب التي قد اقتنيها ، فاستدرتُ يساراً لأشرع دون حماسة في جولتي المعتادة خلال الغرف الثلاث ، ملتقطاً في طريقي كتباً مثقلة بالغبار ونسيج العناكب سرعان ما كنتُ أُعيدها إلى مواضعها بعد تقليبها سريعاً ، ملقياً نظرات خاطفة على فهارسها ، وسمعي موزع بين هدير مكائن الخياطة وضجة السيارات والسابلة المتصاعدة من الأسفل ، وبين صراخ يوسف المتفجر في الصالة وهو يعنّف صبيه لتأخره في إيصال (ذاكر القيّم) - وكنتُ ألمح (القيّم) ، في تلك اللحظة ، من خلال الزجاج المغبّر لشباك ضيق بين خزانتي كتب يطل على الشارع ، وقد أفلح ، بمعونة عابر سبيل ، في الوصول إلى الجانب الآخر ليبدأ رحلة العودة المضنية إلى المزار - وبغتة انتهى صراخ يوسف بهمس جعلني أبتسم بالرغم مني ؛ فمن المؤكد أنه كان يغمزُ صبيّه ليهرع إلى تعقبي قبل أن أغتنم الفرصة السانحة فأسرق كتاباً ؛ إذ ما من مرة دعاني - في لحظة صفاء - للجلوس قربه ، إلا بثّني همومه التي تتلخص بعمليات السطو الجارية على كتبه : فما يكاد يمر يوم لم تتسرب فيه كتبه بطرق وأساليب لم يستطيع أن يضع لها حداً سواءً بدسّها في طيات الملابس أو الجوارب أو بعقد صفقات سرية مع العمال الذين بات من المألوف لديه أن يطردهم حال اكتشافه عدم أمانتهم - وذلك ما حدا به إلى أن يشغّل ذلك الصبي الذي لا يزال بعدُ على شيء من البراءة و(الفطارة)! - بل ثمة لص عتيد جعله هو (يوسف) نفسه - وهنا اعتاد أن يصفع جبينه تفجعاً - يساعده في سرقة واحد

www.ibtesama.com

من أغلى كتبه ثمناً؛ فلكون ذلك الكتاب ضخم الحجم عمد ذلك اللص الأفاق إلى سرقته على مراحل: كان يسرق ملزمة كل مرة، حتى إذا ما سرّب الملازم كلها جاءه في أحد الأيام ليسأله عن الكتاب نفسه! . . . وكانت المفاجأة حين جلب الصبي الغلاف السميك الفارغ؛ فقد جُنّ (أبو يعقوب) فوثب كالملدوغ، وصاح طويلاً، مفرغاً غيظه بقرع مكتبه وكرسيه، مسرعاً في عملية تداعيهما المحتوم. وفي النهاية قذف بالغلاف الفارغ نحو السلم حيث انحدر ذلك اللص في أثره وهو ينحي باللائمة على هؤلاء القساة الذين لا يردعهم وازع من ضمير، قال ذلك على الرغم من كونه هو نفسه اللص؛ فقد أخبره صبيّه أنه لمحه، بعد أيام، وهو يُعيد تجميع الملازم والغلاف لدى مجلّد كتب يقع محله تحت مكتبته تماماً! . . . وهنا لابد ليوسف من أن يصفع جبينه وينفجر صارخاً:

– وكل ذلك يهون قياساً إلى شعوري بأنني ساعدته في تلك السرقة؛ فقد منحته الغلاف عن طيب خاطر!

غادرتُ الغرف الثلاث لأجتاز، على وقع كرسي يوسف ومكتبه المقعقعين، الصالة متجهاً نحو الغرفة الرابعة، يتعقبني الصبي مثل ظلي. لكنني سرعان ما تركتها خالي الوفاض اللهم إلا من غبار اسودّت بسببه كفّاي، مما حدا بي إلى دخول دورة المياه، متخطياً في طريقي أكوام كتب ومجلات قبل أن أفلح في الوصول إلى المغسلة حيث طالعني في المرآة المضببة وجهي. ووجدتني أُحاول أن أستعيد عبثاً عدد الأعوام التي لاح لي خلالها وجهي في هذه المرآة، لقد تغيرتْ أمور كثيرة: استبدل يوسف بخزان الماء الخشبي القديم ثلاجة حديثة تقبع خلفي لا تمنعها أكوام الكتب المتراصفة فوقها من أن تئّز، على مدد منتظمة، بصوت مكتوم، كما اعتورت عشرات الشقوق

www.ibtesama.com

الجدران ، وحتى المرآة نفسها تبقّع طلاؤها في أكثر من موضع ، فلم يبق مفرٌّ من رؤية ملامح الوجه بالتقسيط : الأنف مرة ، ومن ثم إحدى العينين ، فالثانية ، انتهاءً بالذقن . أما الأذنان . . . فلا حاجة إلى رؤيتهما! . . لقد تغيرت تلك الأمور كلها باستثناء نظرة الشك التي بقي (أبو يعقوب) يتعقب بها زبائنه!

في الصالة رفعتُ صوتي محاولاً اختراق صمم يوسف الذي كان لا يزال منكفئاً بصلعته الساطعة على مكتبه ، يواصل عمليات اللصق والترميم :

- انظر يا (أبو يعقوب) . . .

وحين رفع رأسه الضخم مطالعاً إيّاي بملامح وجهه الثقيل ، استرسلتُ في كلامي وقد أفردتُ ذراعيّ إلى جانبي :

- . . . أطمئن : فأنا لم أسرقك!

فرمش لحظات بعينيه الجاحظتين قبل أن يلملم كرشه المستقر بسلام بين فردتي بنطاله المنتفختين ، وحاول النهوض هاتفاً بصوته العميق الذي يبدو كأنه يصدر من قاع صفيحة :

- عفواً . . . عفواً أستاذ شبيب ؛ فالعتب على النظر . . .

والتفتَ نحو الصبي صارخاً به :

- قرّب الكرسي يا ولد . . .

عاد بعدها نحوي ليستمر في إبداء أسفه ، محاولاً عبثاً التخفيف من جهامة وجهه بابتسامة مصطنعة :

- . . .أي والله . . . العتب على النظر . . . الله بالخير . . . إذ إنني لم أُشخّصك بسبب . .

وعاد يستدير نحو صبيه محركاً حاجبيه - اللذين يبلغ سمك الواحد منهما عرض راحة اليد! - بغمزة جبارة انطلق الصبي ، على

www.ibtesama.com

أثرها ، يتعقب شابين دخلا غرف العرض .

وتابع يوسف كلامه وهو يلتقط ، من بين أكوام الكتب والمجلات المبعثرة على مكتبه ، كتاباً بغلاف مجلّد :

– لم أشخّصك بسبب . . . أتعرف ذلك الرجل العجوز الذي هبط السلّم لحظة صعودك؟

فابتسمتُ لنفسي وقد ضبطتُ الرجل متلبساً بالكذب ؛ فعلى الرغم من عتبه (على النظر) اكتشفتُ أنه كان قد شخّصني منذ لحظة تجاهله الرد على تحيتي! . . فكرتُ في ذلك وأنا لا أكفّ عن التحرك فوق ذلك الكرسي المستقر تحتي مستميتاً للوقوع على أقل الأوضاع إيلاماً لجسدي ؛ فثمة عيب واضح كان في ذلك الكرسي اللعين ، لعله ميل إلى أحد الجوانب ، أو تضعضع أكثر من اللازم في قوائمه ومسانده ، فضلاً عن حدس مبهم بأن جلستي تلك ستنتهي بكارثة لن أفلح في تلافيها ؛ فمن المؤكد أن جانباً من سترتي أو بنطالي سيتعلق بمسمار ناتئ . . . وحينها . . . لتقرّ عينا يوسف الجاحظتان!

وكان (أبو يعقوب) قد مضى في كلامه دون أن ينتظر مني جواباً مدركاً دون شك مبلغ غباء سؤاله :

– إنه يستغل احترامي لماضيه العريق فيحرجني بإجباري بما يشبه القسر – أي والله يا أستاذ . . . بما يشبه القسر! – على شراء ما تبقّى من كتبه العتيقة التي يدأب على تشويه صفحاتها الصفر بهوامش مبهمة تجعل أكثر الناس جنوناً يزهد فيها – أي والله يا أستاذ . . . يزهد فيها – فتبقى مهملة لديّ على الرفوف لتذهب في آخر الأمر طعماً للأرضة . إن ما أمنحه إياه لقاء نفاياته تلك ليس أكثر من صدقة – نعم . . . فحتى نحن اليهود نمنح الصدقات! – وأنا لا أمنحه تلك الصدقة من أجل كتبه ، بل إكباراً مني للعناء الذي يتجرعه وهو في

www.ibtesama.com

أرذل العمر ؛ إذ عليه أن يقطع مسافة شاسعة تفصل مكتبتي عن المزار مجتازاً في طريقه عشرات الشوارع التي لا يكاد يمر عليها يوم إلا و(تشخط) فيها إحدى السيارات (شخطة) تنتهي بإخراج بقايا إنسان من بين العجلات - أي والله يا أستاذ . . . من بين العجلات! - لكنه بطريقة ما يجتاز تلك الشوارع بسلام ، حاملاً إلى مكتبتي (تحفته!) التي لا تُقدر بثمن!

ولوّح بالكتاب قبل أن يدسّه بين يديّ مواصلاً الكلام :

- . . . فيرابط في أسفل السلم دقائق منادياً إياي على وتيرة واحدة لكي أبعث إليه بالصبي ليعينه على الصعود دون أن يخطر له لحظة واحدة ما قد أتعرض له من خسارة ؛ فقد يستغل أحد اللصوص فرصة نزول الصبي فيدس كتاباً في طيات ملابسه أو جواربه أو . . . إنّ ما يقتلني حقاً هو شعوري بأنني ساعدتُ ذلك اللص في تلك السرقة ؛ فقد منحته الغلاف عن طيب خاطر!

وصمت (أبو يعقوب) ليتأملني بعينين ساكنتين ، وقد أدرك دون شك أنه اشتط في كلامه عن سبيله . وكان لا بد من مرور لحظات قبل أن يفلح في جمع أفكاره ليعود بها إلى ما كان بصدد التحدث عنه :

- . . . وتمر قرون قبل أن يطل (ذاكر القيّم) بكوفيته المتسخة من فتحة السلّم و . . . تاتي . . . توّاتي . . . يحجلُ على ساقيه مسنداً ثقله إلى كتف الصبي المسكين ليتهالك ، في آخر الأمر ، على كرسيك هذا وهو في النزع الأخير - أي والله يا أستاذ . . . في النزع الأخير - يفغر فمه الأدرد ويطبقه دقائق مغترفاً الهواء اغترافاً ، وقد (يعملها) يوماً ما . . . نعم أنا واثق من أنه سيورّطني في أحد الأيام في ورطة لا مخرج لي منها ؛ إذ من المؤكد أنه (سيعملها) ويموت في مكتبتي!

www.ibtesama.com

وعاد يصرخ بصبيّه ، الذي حاول العودة إلى الصالة بعدما ضجر من مراقبة ذينك الزبونين ، ليواصل ثرثرته التي كان آخر ما سمعته منها قبل أن أذهل عن كل ما يحيط بي بسبب ذلك الاكتشاف الذي وقعتُ عليه أثناء تقليبي الكتاب :

- . . . تصوّرا . . لقد جاءني اليوم بهذا الكتاب مصارحاً إياي ، وهو يلتقط أنفاسه ، بأن فيه صفحات بيضاً - أي والله . . .

كان الكتاب نسخة مصورة بـ(الأوفسيت) عن طبعة حجرية قديمة لكتاب (الإنسان الكامل في معرفة الأواخر والأوائل) لـ(العارف الرباني والمعدن الصمداني عبد الكريم الجيلاني) ، وكنتُ قد وقعتُ على تلك الصفحات البيض ، وكانت ثماني ، تتعاقب كل اثنتين منها - كما يحدث كثيراً مع الكتب المصورة - في أعقاب صفحتين مطبوعتين على امتداد ملزمة كاملة ، لكنّ يداً ما لم يكن القلم يطاوعها بيسر عمدتْ إلى ملء تلك الصفحات بكتابات مدونة بقلم (القوبيا) تصعب قراءتها ؛ فقد كانت الكلمات تتباعد عن بعضها أحياناً لتتداخل في بعضها أحياناً أُخرى . وكانت السطور تهبط وتصعد ، وقد ينعقد بعضها ببعض على غير توقع ، فتنطمس الحروف والكلمات لتتحول إلى محض لطخات حبر بنفسجية .

في البداية حسبتُ أن ذلك الشخص كان قد نسخ النص غير المطبوع - وبإلقاء نظرة على فهرست الكتاب تبيّن أن الصفحة الأولى البيضاء كانت تحتوي في الأصل على الفصل السادس والعشرين الذي يحمل عنوان (في الهوية) - لكنني ، وأنا ماضٍ في قراءة تلك الكلمات المبهمة دون نظارة ، أخذ وجيب قلبي يتصاعد من هول المفاجأة ؛ فقد تأكد لديّ أن (ذاكر القيّم) هو الذي كان قد استثمر بياض تلك الصفحات الثماني ليسطّر عليها ليس النص غير المطبوع ،

www.ibtesama.com

إنما كشف فيها سر اتخاذ مخطوط (الراووق) تلك الصيغة الغريبة ، ذلك السر الذي بقيتْ معرفته وقفاً على القيّمين على مزار السيد (نور) ، يكتمونها عن أيّ مخلوق ، ليسدل عليها ستار النسيان عقب انتهاء (ثورة العشرين) واختفاء المخطوط!

أطبقتُ الكتاب وضممته إلى صدري غير مصدق نفسي . لحظتها فقط تنبهتُ إلى أن (يوسف) كان لا يزال يواصل ثرثرته المصحوبة بصليل المقص وخشخشة الأوراق ورائحة (الغراء) اللبنية ، معرجاً هذه المرة إلى التذكير بـ(طيبة قلبه) التي يعرف الآخرون كيف يستغلونها . وصاح بمرارة وهو يلقي المقص على مكتبه بعنف :

- . . . أي والله يا أستاذ . . . يعرفون كيف يستغلونها ؛ وإلا فأي مجنون يفكر في شراء كتاب فيه صفحات بيض؟

- أنا ذلك المجنون!

أجبتُه وقد وثبتُ عن الكرسي غير آبه لصوت تمزق جانب من بنطالي . ونقدته ، دون جدال ، الثمن الذي طلبه ، وانطلقتُ من فوري نحو السلّم مودعاً من يوسف بنظرة شك ؛ فقد أكون خدعته فـ(نهبتُ) منه كتاباً لا يُقدر بثمن مما يحتم عليه تلك الليلة مد يده من على سريره ليلتقط أضخم كتاب!!

وكان الكتاب حقاً لا يُقدّر بثمن ؛ فعلى تلك الصفحات الثماني وقعتُ على تلك المصادفة التي جعلتني أُكرّس أعواماً من عمري من أجل تحقيق (الراووق)!

تُراني عدتُ إلى البيت راكباً أم سيراً على الأقدام؟

لا علم لي بذلك ؛ فكل ما أتذكره هو تشبثي العنيد بذلك الكتاب - كأنني كنتُ أخشى أن يُخطف مني! - وأنا أستميت للوصول إلى البيت بأقصى سرعة ممكنة ، مُطارداً بكلمات استياء كان

www.ibtesama.com

يتعقبني بها مَن كنت أصدمه في سيري العجل، متنبهاً أحياناً إلى أصوات نفير سيارات كانت (تشخط) - تلك (الشخطات) التي حدثني عنها (أبو يعقوب) - وأنا أجتاز الشوارع بتهور!

كان (ذاكر القيّم) قد هيمن على وجداني؛ فأعادني إلى الماضي البعيد، ليس إلى طفولتي فحسب، بل إلى ليلة مولدي؛ فأنا لا أزال أتذكر بوضوح كيف أن المرحوم أبي حدثني أكثر من مرة عن تلك الليلة، وكيف أنه ترك المرحومة أمي وهي في المخاض، ليلتحق بعشرات (البواشق) الذين كانوا يخوضون في الأوحال وهم يتجهون إلى المزار استجابة لصوت (ذاكر القيّم) الذي كان قد علا فوق هدير الرعود وعصف الأمطار، وهو يؤذن - وقد تجاوز الليل منتصفه - داعياً إياهم لأداء صلاة الخوف بعدما استمر هطول الأمطار العاصفة أياماً وليالي، منذراً بأن (ديرة الهشيمة) - هذه التسمية التي كانت تطلق على مدينة (الأسلاف) في الماضي قبل أن تُحوّل إلى ناحية فقضاء فلواء، أو محافظة كما تسمى الآن - مهددة باجتياح سيل من تلك السيول المرعبة التي كانت تؤرخ بها الأحداث، والتي لم تسلم الديرة منها بين عقد وعقد قبل إقامة السد غربي (بزايز الجولان).

لقد بقي صوت (ذاكر القيّم) مرتبطاً بوجداني منذ تلك الليلة الموغلة في البعد والغموض، ليرافق لاحقاً طفولتي وشبابي، فأينما كنتُ - في البيت أو في وادي المرّ أو البزايز أو البساتين - وبأي عمل كنتُ منشغلاً - ألعب مع أصدقائي الصغار، أو أنصب الفخاخ لصيد الطيور أو السمك، أو أرعى الأغنام أو أجمع الحطب - اعتدتُ لحظة سماعي صوته، وهو يؤذن، أن أترك ما بين يدي، لأتحول بوجهي نحو المزار، مفكراً بذلك الرجل الذي اقترن اسمه بأهم ما وقع في تاريخ مدينتي من أحداث، ولا شك أنني كنتُ سأفرد له صفحات عديدة

www.ibtesama.com

في تراجم صوفية الأسلاف لو قيّض لمشاريعي الكتابية تلك أن تُنجز .

لقد بقي (ذاكر القيّم) يمثل أجمل صفحة وأكثرها إشراقاً في تاريخ (الأسلاف) ؛ ما يكاد يُذكر اسمه حتى يفوح الماضي بأريجه العبق ، ذلك الماضي الذي ما من مرة التقيتُ (ذاكر القيّم) إلا تشبثت به محاولاً إحياءه من جديد ، ولكن عبثاً ؛ فكلما لمحت (القيّم) يدبُ في شوارع المدينة وأزقتها بقامته الضامرة وظهره الذي يزداد تحدباً بمرور الزمن ، وهو يستند إلى الجدران ، ويمد زنداً معروقاً إلى الآخرين ، مستعيناً بهم حين عبوره الشارع ، كلّما لمحتُ ذلك شعرتُ بحلقي يتملّح بطعم دمعة لا أملكُ لها منعاً . لكنني على الرغم من ذلك كنتُ أحاول تحقيق المستحيل ؛ فأوقفه على الرصيف ، وأصرخ عالياً - أعلى من صراخي مع (يوسف) - محدثاً إياه عن ذلك الماضي العزيز . بيد أن النتيجة الوحيدة التي كنتُ أخرجُ بها من إثارة كل ذلك الضجيج لم تكن تتجاوز تجميع الناس حولنا رامقين إياي بنظرات دهشة كانت تترجم إلى همهمات استنكار حين كان (ذاكر القيّم) يجيبني بآخر ما يخطر في الذهن ؛ فبعدما يظل يصغي لي وقد فغر فمه الأدرد بابتسامة بلهاء ، متطلعاً إليّ بعينين مضببتين موشكتين على الانطفاء ، وقد ركن كفه خلف أذنه ، مديراً إياها - مثل قمع - في اتجاهي ، كان يجاريني في الصراخ ، فيصيح بصوته المتهدج ، وهو يتمايل على ساقيه الراجفتين :

- أرأيت كم توسّعتِ (الأسلاف)؟

وحين أبتسم له بإشفاق كان يمضي في كلامه الذي لا صلة له بما يشجيني :

- كأن القيامة قامت ؛ إذ يكفي أن اغفل لحظة واحدة ، عند عبور أحد الشوارع ، لتبقر سيارة مندفعة بطني!

www.ibtesama.com

وبغتة كان يلتفت متطلعاً بقلق إلى الناس المتجمهرين حولنا ، ويتركني دون وداع وهو يتمتم :

– لم تكن الأمور تجري على هذه الشاكلة في زمن الشيخ عاصي رحمه الله . . . ولا في أيام فزع الطارش لطّخ الله روحه بالقطران . . . لم تكن الأمور تجري على هذه الشاكلة . . . أبداً . . . إنما كانت . . .

ويكون حينها قد اختفى في زحام الناس مواصلاً ، دون شك ، كلامه عن ذلك الماضي الذي تزيده وطأة الشيخوخة انزلاقاً فيه حتى بات من المحال انتشاله منه ؛ إذ إنه شوهد فجراً – في موعد الآذان – وهو يندفع خارجاً من مرقد السيد (نور) ليبحث عن موضع السلّم القديم ليرتقيه إلى السطح كي يؤذن قبل أن يفوت (البواشق) موعد صلاة الفجر! . . بيد أن هيكل بناء المصرف الجبار ، بطبقاته العديدة التي تعلو المرقد ، سرعان ما كان يعيده إلى الواقع ، فيتراجع داخلاً وهو ينشج في البكاء . وكان المزار – كما هو معروف – قد أخذ في الاندثار عقب انتهاء (ثورة العشرين) ؛ فقد ناصبه الإنكليز وعملاؤهم – ولاسيما هداد فزع الطارش الذي لم يغفر للمدينة مقتل أبيه بتلك الطريقة البشعة – العداء لكونه الموضع الذي حفّز (البواشق)على النضال ؛ فأفرغوا غيظهم فيه بمصادرته بالتقسيط ، مستندين في ذلك إلى فتوى يحلل بموجبها (بيع الوقف إذا خرّب أو تعطلت منفعته ، ولم يكن له مما يُعمّر به) : فأزيلت الحجرة الشرقية عند إقامة المسناة (الكورنيش) في موضع السدة الإنكليزية القديمة ، كما هدم البهو المواجه للضريح عند إقامة الجسر الحديدي ذي البوابات على صدر (وادي المرّ) لتنظيم تدفق المياه . وكانت المحلات التجارية قد أخذت في الظهور تباعاً في تلك المنطقة التي غدت ملتقى أكثر من شارع ؛ فأزيل المصلى ، كما أن حجرة (القيّم) هُدمت عند الشروع في حفر أسس

www.ibtesama.com

المصرف . ومن المؤكد أن مرقد السيد (نور) نفسه كان سينتهي إلى المصير عينه لولا وقوع مصادفة – عدّها بعضهم إحدى كرامات ذلك الولي – تهدّم بسببها حائط على ثلاثة عمال مما دفع بالمهندس المشرف على العمل – وكان من أبناء المدينة – إلى إدخال المرقد ضمن مخططات البناء ؛ فأقيمت عمارة ببضع طبقات على آخر مستجدات فن العمارة ، بيد أن ثمة ضريحاً بقي قائماً عند زاويتها الجنوبية الغربية – في اتجاه القِبلة – حيث دأبت النساء على تلطيخ بابه الحديدي بالحناء وبدماء الأضاحي ، موقدات الشموع عنده ، متناسيات وجود باب آخر أكثر سعة ، يفتح ويغلق بالأجهزة الالكترونية ، لا لكي يخرج الدعاء منه إلى السماء ، بل لتنسل منه أكداس الذهب وأوراق النقد إلى جيوب المترفين!

تلك هي خلاصة الأفكار التي دارت في خلدي وأنا أتأبط ذلك الكتاب يومذاك ، متخذاً طريق العودة إلى البيت ، وكأن تلك الصفحات الثماني التي ملأها (ذاكر القيّم) بخط يده كان لها فعل السحر ؛ فقد أرّخ ذلك اليوم بداية صلتي بتحقيق المخطوط ، حتى أنني ، لحظة دخولي البيت ، سارعت إلى إغلاق باب غرفتي خلفي بالمفتاح ، غير آبه لنظرة الاستهجان التي رمتني بها زوجتي وقد اكتشفت – لا أعلم كيف! – تمزّق بنطالي!

ثبّتُ النظارة على عينيّ ، وبمساعدة ضوء المصباح المنضدي الساطع شرعتُ في قراءة تلك الصفحات الثماني مجدداً ، ولم تكن قراءتها بالأمر اليسير ؛ فقد أفصحتْ تلك الكلمات عن مقدار العناء الذي تكبّده (ذاكر القيّم) وهو يخطّها ، ليس بسبب عجز أصابعه عن تحريك القلم فحسب ، بل لضعف بصره ؛ فمن خلال تداخل الكلمات ، وكتابة بعضها فوق بعض بدا من الجلي أن (القيّم) – وهو تحت وطأة

www.ibtesama.com

حالة غريبة - تلمّس سبيله كالأعمى وسط كلمات لم يستطع لتدفقها منعاً ؛ فاستمات ليصبّها على الورق برغم عجزه!

قرأتُ تلك الصفحات الثماني المحشورة بعشرات السطور ، أو بتعبير أدق عملتُ على حل لغز تلك الكلمات المبهمة خلال ساعات دون أن أتوقف لحظة واحدة ، مغالباً دهشتي التي كانت تزداد بمضي الوقت ، حتى إذا ما انتهيتُ من قراءة آخر كلمة انتزعتُ نظارتي لأحدق إلى الفراغ دقائق وأنا في ذهول من اكتشافي ؛ فكلمات (ذاكر القيّم) تلك برهنت على أحد من أمرين لا ثالث لهما : إما أن كاتبها قد جُنّ فعلاً فأخذ (يهرف بما لا يعرف) ، أو أن ثمة أكثر من نص لمخطوط (الراووق) ؛ فهناك تناقض جوهري بين ما هو شائع عن ذلك المخطوط الضائع - وخير مثال عن ذلك المضمون يتمثل في رواية (الراووق) التي كتبها روائي مدينتنا ، والذي إليه أوجه هذه الكلمات - وبين ما قرأته في تلك الصفحات!

لقد شغلني هذا الأمر إلى الحد الذي دفع بي ، صباح اليوم التالي ، إلى الاتصال هاتفياً ببدر طالباً منه منحي إجازة ، فدوّى صوته في السماعة بـ(ماذا؟) هائلة كنتُ أتوقعها منه ؛ فقد مضت عليّ أعوام لم أطلب فيها منحي إجازتي السنوية بحجة إضافتها إلى خدمتي الوظيفية حين إحالتي على التقاعد ، في حين كان السبب يعود في واقع الأمر إلى أن ارتباطي بالمتحف - ولاسيما مكتبته - فاق بمرور الأعوام ارتباطي ببيتي - وذلك كان أول ما تعيّرني به زوجتي حين احتدام خلافاتنا الطارئة! - حتى أنني لم أكن أتقيّد ببدء الدوام وانتهائه ، بل كنت أبقى أحياناً - بصحبة بدر بطبيعة الحال - حتى حلول الليل . وكان بدر الوحيد الذي يتخطاني في شدة تعلقه بالمتحف ؛ فكان يبيت فيه أغلب لياليه ، متناسياً أن له بيتاً - وهو أمر

www.ibtesama.com

قد يسوّغه بقاؤه عزباً - وكان معذوراً في شعوره ذاك ؛ فإليه وحده يعود أكبر الفضل في تأسيس المتحف ، وإلى أمواله الطائلة وحدها يعود الفضل في اتساع المتحف وتعقده بمرور الأعوام ، واتخاذه تلك الهيئة الغريبة .

كان بدر يجهد نفسه أحياناً مع موظفيه - الذين لم يفهموه يوماً ما - ليتواطأوا معه في تزوير مستندات الصرف ، لا من أجل أن يسرق من أموال الدولة ، بل ليسرّب من أمواله الشخصية الطائلة - تلك الأموال التي كان يصرف منها أحياناً على المتحف أضعاف ما كان يتقاضاه من مرتب - من أجل متابعة توسيع الأجنحة وتطويرها . وكان اقتراب يوم إحالته على التقاعد أشدّ ما يؤرقه ؛ فكان يعمد ، بين عقد وعقد ، إلى تصغير عمره بطريقة غدت فيها صفحته في سجل النفوس خير مثال على تلك الصفحات الرسمية التي تستحيل قراءتها!

حاولتُ أن أُقنعه بأن طلب الإجازة يعود لإصابتي بوعكة ، لكنني سرعان ما تراجعتُ حين أخبرني بأنه (سيطير إليّ ليراني) ، فأخبرته بالحقيقة ؛ قلتُ له إنني منهمك في قراءة مسرد مختصر عن كيفية نمو مخطوط (الراووق) واتخاذه تلك الصيغة التي عُرف بها ، فدوّت ضحكته في السماعة قبل أن يقول :

- ولمَ تُضيّع وقتك في قراءة من هذا النوع؟ فنحن نكاد نحفظ عن ظهر قلب مضمون (الراووق)!

فأنهيتُ الاتصال بأن قلت بدافع غير بريء لإثارة فضوله ، وهو سيد الفضوليين في كل ما يمت إلى الماضي بصلة :

- تلك هي المسألة ؛ فالمسرد الذي أقرؤه يناقض مضمون (الراووق) الشائع لدى الجميع!!

وأطبقتُ السماعة على (ماذا؟) أخرى هائلة جعلتني أغرق في

www.ibtesama.com

ضحكة عقدت زوجتي بسببها حاجبيها استنكاراً ، معيدة إياي إلى زمن الصبا ؛ إذ لم يكن خيط (الحفافة) قد فصل بعد حاجبيها اللذين كانا ينعقدان عند منبت أنفها!

منذ ذلك اليوم تراجعتْ مشاريعي السابقة في تأليف بضعة كتب عن مدينة (الأسلاف) إلى الوراء لتستقطب تلك الصفحات الثماني اهتمامي : كنتُ أنفرد بها ليل نهار ، لا أملّ من إعادة قراءتها عشرات المرات ، مؤملاً نفسي باكتشاف سر حدوث هذا التناقض ؛ فبرغم أن النسخ المنقولة عن (الراووق) - على كثرتها وتعدد صيغها - لا تتطابق مع بعضها تماماً ، غير أن ذلك لا يتخطى اختلافات هامشية بسيطة ، أو تقديم بعض الأحداث وتأخيرها ، فضلاً عن سقوط أوراق وما يترتب على ذلك في النسخ المنقولة من وجود فجوات في النص . أما صفحات (القيّم) فقد ناقضت تماماً بعض الأمور ، أو بتعبير أدق قلبتها رأساً على عقب!

لقد بلغ استغراقي مع تلك الصفحات حداً دفع زوجتي - وهي تدخل غرفتي أكثر من مرة في اليوم ، حاملة وجبات الطعام - إلى أن ترمق ذلك الكتاب المفتوح دائماً ، تحت ضوء المصباح المنضدي الساطع ، بنظرات شك ، شفعتها في الأيام الأخيرة بتمتمات استياء ، استطعتُ أن التقط منها مفردات تدور حول السحر والجن والشياطين وما أشبه! . . ولا أدري بالنتيجة التي كنت سأنتهي إليها معها لولا أن (بدر) أنقذ الموقف ؛ فقد اتصل بي هاتفياً بعد أيام ليطلق لضحكته العنان ، قبل أن يمازحني ، مهدداً بأنه سيقطع راتبي بعدما طالت إجازتي أكثر من اللازم . لكنه سرعان ما استدرك وهو يضحك من جديد :

- ولكن لا . . . لا تصدق إنني سأوقع نفسي بمثل هذه الورطة ؛

www.ibtesama.com

ذلك لأنك ستستدين مني أضعاف ما سأقتطعه من مرتبك اللعين!

واسترسل في كلامه المرح دون أن ينتظر مني رداً :

- لقد طالت غيبتك يا رجل . . . تعال . . . فباستثناء الزلازل لا يوجد من يضاهيك في (لخبطة) كتب المكتبة ؛ تضيّع كتب التاريخ وسط كتب الجغرافية ، وكتب التصوف بين كتب العلوم والتكنولوجيا!

وعادت ضحكته تصرّ في السماعة ، فاضطررت إلى إبعادها قليلاً عن أذني :

- تعال . . . فزلازلك وحدها كفيلة بان تحلل لموظفيك في المكتبة رواتبهم ؛ إذ لا عمل لهم طوال ساعات الدوام سوى التثاؤب خلف مكاتبهم ، وخفض رؤوسهم ورفعها مغالبين النعاس!

انتظرت أن ينتهي من ثرثرته التي كان يمهّد بها ليفصح عما كان يشغله إلى درجة المرض على مدى أيام إجازتي ؛ وفعلاً سرعان ما صمت لحظات قبل أن يعاود الصراخ :

- ها؟ . . . ما لكَ لا تنطق؟

فأجبته ممعناً في تعذيبه :

- لا يوجد لدي ما يستدعي الكلام!

- و(الراووق)؟ أين انتهى بك اكتشافك الجديد مع ذلك المسرد عن المخطوط؟

أخذ بدر يزعق في السماعة وقد نفد صبره ، فأخبرته ، بكل هدوء ، بأنني سأحدثه بذلك في المتحف ، فازداد صراخه ارتفاعاً ، وحذّرني من أنه سيصاب بـ(السكتة) إن لم أخبره من فوري بكل شيء!

ولم أخبره بـ(كل شيء) إلا في غرفته في المتحف حيث ظلت عيناه الزرقاوان المتألقتان وسط وجهه الأسمر مثبتتين على فمي ، وأنا

www.ibtesama.com

أحدثه عن تلك الصفحات الثماني ، مجيلاً نظراتي على تلك الجدران المزدانة بصور ولوحات وتحفيات لا تخرج عن نطاق مدينة الأسلاف ، حتى إذا ما انتهيتُ ، وثب نحوي ليختطف مني دون استئذان الكتاب ، واتجه به نحو مكتبه ليتصفحه بأصابع ولهى ، متفحصاً أوراقه بوساطة عدسات ونظارات مقرّبة يحفل بها سطح مكتبه وأدراجه . وكان قد نسيني تماماً ، حتى أنه جفل لحظة نبهته على وجودي وأنا أحاول أن أستأذنه للصعود إلى المكتبة ؛ فإذا به يثب من كرسيه ثانية ليهجم عليّ مانعاً إياي من مغادرة المقعد الوثير . وأطل برأسه خارج باب الغرفة منادياً الفرّاش ليسعفنا بفنجاني قهوة .

منذ ذلك اليوم أُصيب بدر بحمّى (الراووق) : ما يكاد يلمحني صباحاً داخلاً المتحف حتى (يلقي القبض) عليّ ، ويقودني من يدي إلى غرفته ليدفنني في المقعد الوثير ، مجبراً إياي على احتساء فناجين القهوة وأكواب الشاي ، في حين تبقى صفحات (القيّم) تلك محور أحاديثنا اليومية .

كنا نحاول جهدنا الوقوع على سر حدوث هذا التناقض . وحينما عجزنا عن ذلك عزونا الأمر إلى عدة أسباب منها أن مخطوط (الراووق) – كما هو معروف – لم يكتبه شخص واحد ، بل نما وتشعب بمرور الزمن بما أضاف القيّمون إليه من فصول وأبواب بدءاً بـ (السيد نور) وانتهاءً بـ(ذاكر القيّم) . وضربنا أمثلة على هذا النمط من الكتب – كما هو شأن ألف ليلة وليلة مثلاً – وبسبب ذلك اختلفت النسخ التي نقلت عن بعض القيّمين إلى متنفذي العشيرة ؛ فكلما مضى الزمن ازدادت النسخ المنقولة عن النسخة الأم نمواً وتشعباً . ثم إن اقتصار الإطلاع على مضمون النسخة الأم على عدد من القيّمين – الذين كان من دأبهم التكتم على تلك الأسرار – فضلاً عن ضياع تلك

www.ibtesama.com

النسخة في آخر الأمر ، أديا بالتالي إلى شحذ أذهان الأجيال اللاحقة ؛ فأخذت تختلق عن ذلك المضمون ما أسعفتها بها سعة خيالها!

كان ذلك دأبنا أياماً متلاحقة ، تتخللها وثبات بدر من خلف مكتبه ، ودفني في المقعد ، مانعاً إياي من مغادرته ، وذرعه أرض الغرفة ، ومد رأسه خارج الباب آمراً الفرّاش بالإسراع في تزويدنا بالقهوة والشاي . لكن (بدر) سرعان ما أزاح تلك الاستنتاجات كلها جانباً في أحد الأيام ؛ فقد صاح وهو يضرب سطح مكتبه بجمع يده :

– أتدري أن هذه الصفحات زادت الأمر إبهاماً عوضاً عن أن توضحه؟

وأضاف وقد وقف فوق رأسي مثبّتاً عليّ عينيه الزرقاوين :

– . . . فـ(ذاكر القيم) يكشف فيها عن حقيقة وجود قسم محظور في المخطوط ، ولكن – وكأنما إمعاناً منه في إرباكنا – لم يكشف مضمون ذلك القسم ، إنما نوّه عن كونه يفضح حقيقة أُناس تناقضت الآراء في حقّهم ، أُناس أسهموا في (دكة المدفع) عُدّوا عند بعض أبطالاً وعند آخرين خونة!!

فأوضحتُ وقد انتابني سأم مفاجئ من الأمر كله :

– يبدو أن ما كان يشغل (ذاكر القيّم) هو كشف سر اتخاذ (الراووق) تلك الصيغة التي اشتهر بها دون أن تكون به حاجة إلى كشف أسرار ذلك القسم المحظور ؛ ذلك لأنه كان على معرفة بتلك الأسرار!

فاعترض بدر وهو يعاود ذرع الأرض :

– ولكنه لم يكشف سر تلك الصيغة ، بل إنه زاد الأمر إبهاماً ؛ فمن المعروف أن اسم (الراووق) ارتبط باسم (السيد نور) ، وأن القسم الذي كتبه يُعدّ بمثابة النواة التي نمتْ حولها الفصول والأبواب التي

www.ibtesama.com

أضافها القيّمون إلى المخطوط فيما بعد، فما معنى قول (القيّم) في صفحاته إن (السيد نور) هو رابع رواة السيرة؟ ثم لمَ عمد الرواة الثلاثة الذين عاصروه إلى تأليف (السيرة) شفهياً لتتحول عند الراوي الرابع إلى صيغة كتابية؟

سألني وقد ثبّت نظرته الزرقاء في عينيّ، فلم أجد بداً من التسليم بالأمر الواقع؛ فأجبته بامتعاض:

- من الواضح وجود نصين أُلّفا في زمنين متباينين: أولهما نص غامض غير مُعلن زُعم أن (السيد نور) شرع في كتابته عام ظهور النجم المذنّب قبل وقوع (دكة المدفع)، واستمر في الإضافة إليه بعد ذلك - وهذا أمر غير محسوم بسبب الالتباسات التي رافقت اختفاء (السيد نور) - وهناك نص آخر أُلّف بعد (دكة المدفع) - وهو المتعلق بسيرة (مطلق) - ألّفه شفهياً عبد الله البصير ومدلول اليتيم وعذيب العاشق. لكن الذي حدث فيما بعد هو أن ذينك النصين اندمجا في نص واحد باسم (الراووق) وهو الذي وصلت إلينا أكثر من نسخة منه!

لكن (بدر) عاد يعترض معانداً:

- بيد أن السؤال يبقى هو: لماذا حدث ذلك؟ وكيف حدث؟ ولم عُدّ أول منْ كتب نواة (الراووق) رابع رواة السيرة؟ ثم . . .اسمع . . . ما هي القصيدة النونية التي ذكر (القيّم) في صفحاته ثلاثة أبيات منها؟ إنها المرة الأولى التي أسمع فيها بوجود هذه القصيدة! . . . وأنا على استعداد للتنازل عن نصف ثروتي لقاء أن أحصل عليها كاملة ومكتوبة بخط (السيد نور) نفسه!!

وبغتة هجم عليّ لا ليدفنني في عمق المقعد، بل ليجبرني هذه المرة على النهوض وهو يصيح:

- هيا . . . هيا بنا . . . لا بد لي من اقتحام مرقد (السيد نور)

www.ibtesama.com

عساني أن أُقنع – ولو قسراً – (ذاكر القيّم) بكشف تلك الأسرار!

وتقدمتُه مغادراً الغرفة مجتازاً الممرات المؤدية إلى البوابة الخارجية ، يتعقبني بدر وهو يُطفئ الأضواء بالتناوب ، مغلقاً خلفه الأبواب ، حتى إذا ما انتهينا إلى البوابة الرئيسية سلّم المفاتيح إلى الحارس . وكان الليل قد خيّم ، وأمامنا ، أسفل (تل الأربعين) ، تلألأت آلاف المصابيح الكهربائية في اتجاه الجنوب حيث ينزوي مرقد (السيد نور) على مبعدة كيلومترين أو ثلاثة أسفل عمارة المصرف .

حاولتُ عبثاً ثني بدر عن محاولته العقيمة تلك ، مؤكداً له أن (ذاكر القيّم) لم يعدْ ينتمي إلى الحاضر إلا بجسده الموشك بدوره على الفناء ، لكنه أبى إلا أن يخوض التجربة ، حتى إذا ما فوجئ بباب المرقد موصداً أعلن عن تصميمه على مطاردة (القيّم) مهما كلفه الأمر ، وذلك ما حصل ؛ فمنذ صباح اليوم التالي دأب على التوجه إلى المرقد ، حاملاً إلى (ذاكر القيّم) حفنات تبغ وأوراق لف ، ليراقبه ساعات وهو يلف بأصابعه النحيلة الراجفة سجائر متقنة الصنع ، سرعان ما كان يثبتها في زاوية فمه الأدرد ، نافثاً سحب دخان كثيفة على مقربة من قبر مغطى بقماش حوّل الزمن لونه الأخضر إلى بني .

وقد أخبرني بدر بعد مضي أسابيع – وكانت حمى (الراووق) قد ازدادت لديه حدّة – بأنه بعد بذل عشرات المحاولات كاد ينجح في فك عقدة لسان (ذاكر القيّم) ، لكن المشكلة هي أنه كان يستحيل عليه توجيهه الوجهة المطلوبة ؛ ذلك لأنه يتدفق في سيل متلاطم من هذيان ، يتداخل فيه ماضي عشيرة (البواشق) بشكل يبعث على الدوار : فقد كان (القيّم) يدخل في محاورات مبهمة مع موتى غير مرئيين ، كان يتخللها أحياناً عتاب رقيق يجعله يذرف الدموع ، بيد أن تلك الحوارات كانت تغدو أحياناً أُخرى صاخبة مصحوبة بحركات

www.ibtesama.com

تهديد ووعيد . وكان ثمة حدث مركزي لا يملّ (القيّم) من العودة إليه من حين لآخر يتمثّل بمصير مخطوط (الراووق) ؛ فقد كان يتحدث بحرقة عما جرى في أثناء نشوب (ثورة العشرين) وكيف أن عشيرة (البواشق) انشقت على نفسها فالتفّ رجال فخذ (بيت طارش) حول فزع الطارش الذي مالأ المحتلين فأمسى أداة بأيديهم ، في حين وقف رجال فخذ (آل الغياث) في وجهه مستمدين من مزار (السيد نور) العزم على الصمود والتحدي متسببين بذلك إلى انتهاء مخطوط (الراووق) تلك النهاية الفاجعة!

كان (القيّم) يتحدث عن كل شيء باستثناء ما كان بدر يتحرّق شوقاً إلى معرفته . وكانت النتيجة كما توقعتُ إحباطاً ويأساً أورثا (بدر) الصمت والحسرة لولا أنني حاولتُ إسعافه ؛ فطلبت منه أن يستثمر تلك اللقاءات بتسجيل هذيان (القيّم) عسانا أن نتمكن من حل (شفراته) أو . . . في أبعد تقدير احتمال استثمار ذلك الهذيان في إشباع نزوعي القديم في كتابة روايتي المنتظرة التي كنت سأسبق بموضوعها روائي مدينتنا بأكثر من عقود جاعلاً مهمته الروائية عسيرة فيما بعد!!

لكن النتيجة التي خرج بها بدر لم تخطر على بال ؛ فقد زارني في بيتي ليلاً ، ليتهالك على أقرب أريكة ، معلناً أن كل شيء قد ضاع! . . . وحين طلبتُ منه الإفصاح عمّا يعنيه ، أخبرني ، ودلائل الصدمة لا تزال بادية على وجهه الأسمر ، بأنه لحظة شروع (القيّم) في هذيانه أراد أن يهيئ جهاز تسجيله اللعين الذي كان قد ألقمه (كاسيتاً) في المتحف ، لكنه لشدة ارتباكه أخطأ ، فضغط على زر التشغيل ؛ فإذا بصوت مغنية تصحبها موسيقى صاخبة يملأ بضجيجه المرقد! . . فسارع إلى إطفائه ، معولاً على ثقل سمع (القيّم) ، بيد أن

www.ibtesama.com

أوان تلافي الكارثة كان قد فات ؛ فقد تجمّد (ذاكر القيّم) في موضعه مصعوقاً مفغور الفم ، متأملاً بعينين نصف عمياوين (بدر) . وبغتة وثب في اتجاهه وهو يصيح :

- ماذا؟ (غرامافون) في مزار (السيد نور)؟!

ولم يدرِ بدر كيف استطاع الإفلات منه ؛ إذ إنه لم يتنبه إلا وقد أصبح في الخارج ، يتعقبه (القيّم) بصراخه :

- أبعثكَ (الصاحب)؟ أم دفع بك فزع الطارش للتجسس عليّ؟ قل لهما إنهما لن يفلحا هذه المرة في سرقة (الراووق) . . . لن يفلحا في ذلك . . . فـ(الراووق) محفور هنا . . . هنا في صدري . . . أتسمع؟ إنه محفور في صدري!

وأنهى بدر حديثه بأن قال ، وقد احتوى رأسه بين كفيه بحركة يأس :

- لم يعد في وسعي التوجه إلى هناك . . . من المؤكد أنه سيطردني شر طردة إن غامرتُ مرة أخرى وذهبتُ إلى المرقد!

فحاولت مواساته والتخفيف عنه مؤكداً له أن صحوة (القيّم) المفاجئة تلك لا تعني الكثير ؛ ذلك لأنه - مثل اسطوانة معطوبة تدور على نفسها - سرعان ما يعاود الانغمار في ماضيه ، ولا تكاد تمر أيام حتى يكون قد نسي - إن لم يكن قد نسي كل شيء في اللحظة نفسها! - الأمر ، فيستطيع بدر معاودة محاولاته العقيمة لكشف تلك الأسرار .

لكن نصيحتي تلك جاءت متأخرة ؛ فبعد مرور أيام انتشر خبر موت (ذاكر القيّم) ؛ فحين حمل أحد الصبيان طبق عشائه إليه - فقد كان يقتات على ما تتصدق به عليه الأسر الثرية في المنطقة من وجبات طعام - فوجئ بأن طبق الغداء ، الذي سبق له أن حمله إلى هناك ظهراً ، كان قد بقي على حاله دون أن يُمس . وكان (ذاكر القيّم)

www.ibtesama.com

مضطجعاً في زاويته على رقدته نفسها ، فسارع الصبي إلى الخروج ، مبلّغاً أول شخص لقيه بالأمر ، فتبين أن (القيّم) كان قد مات منذ ليلة على أقرب تقدير .

كان موتاً متوقعاً لم يثر شجون أحد باستثناء بدر ؛ ذلك لأنه لم يغفر لـ(القيّم) كونه قد خذله فمات قبل أن يساعده على كشف بعض أسرار (الراووق) . وبات من دأبه - كلما التقيته في غرفته في المتحف - أن ينحي باللائمة على (القيّم) لأنه تمادى في (دلاله) فضيّع على (التاريخ!) فرصة استثنائية لكشف تلك الأسرار بحكم كونه آخر (قيّم) على مزار (السيد نور) ، فلم أملك في إحدى المرات إلا أن انفجر به صارخاً :

- ما دهاك يا رجل؟ لقد مات . . . هكذا لف رأسه ومات وحيداً في زاويته . . . وأنت . . . أستغفر الله العظيم!

فتأملني لحظات كأنه فوجئ بكلامي ذاك ، أطرق بعدها برأسه ليواصل ذرع أرض غرفته ، فتركته لأصعد نحو المكتبة ؛ فعلى مكتبي ، في غرفتي التي تشرف نافذتها على أغلب مناطق المدينة حتى حدودها البعيدة حيث تلوح أبراج النفط في أقصى الجنوب ، كانت قد تكدّستْ عشرات الكتب الرسمية : كتب تتعلق بإعداد الميزانية الجديدة بالتعاون مع رؤساء الأقسام ، وتقارير فصلية سبق لأقسام المكتبة أن أعدتها ، وكتب تتعلق بالسجلات والفهارس . كما كنت ملزماً بمتابعة مهامي الموزعة بين الرقابة والإشراف على سير الأعمال ، وترؤس اللجنة الخاصة بوضع سياسة المكتبة من أجل ضمان إنجاز أهدافها في اختيار المواد الثقافية ، وتبادل المطبوعات ، والاشتراك في المجلات ، والإشراف على تدريب موظفي المكتبة للحصول على المهارة التي تؤدي بهم إلى إتقان مهامهم .

www.ibtesama.com

كانت جملة أمور كفيلة بأن تنسيني صفحات (ذاكر القيّم) الثماني التي أثارت تلك الزوبعة لولا أن مرأى بدر، الذي كنت أُصادفه أحياناً في الممرات أو الغرف - فنتبادل تحيات مقتضبة - فضلاً عن صوته الذي كان يتناهى إلى سمعي من خلال الجدران، كانا يذكرانني بذلك.

كنتُ خير من يعرفه حين تستقر فكرة ما في رأسه لا بد له من تنفيذها مهما كلّفه الأمر، وذلك ما كنت أحسب له ألف حساب. كنت أعلم أن (حمى الراووق) قد أدخلته في آخر أطوارها؛ وهو طور الصمت الذي ستكون نتيجته نهائية وحاسمة: وهي تنفيذ تلك الفكرة التي طال اختمارها في رأسه، وذلك ما حصل فعلاً؛ فذات صباح ما كدت استقر خلف مكتبي حتى فوجئتُ به يدخل الغرفة ليقول لي بمنتهى الرقة والعذوبة:

- اسمع يا أستاذ... شبيب...

فقاطعته مستنكراً:

- أعوذ بالله!.. فصدور كلمة (أستاذ) من فمك لا يرتاح له سمعي؛ إذ إنه يعني أن ثمة ما ستورطني به!

فأجابني بالنعومة نفسها، والابتسامة لا تفارق فمه:

- لِمَ لا تحاول تحقيق مخطوط (الراووق)؟

لحظتها لعنتُ تلك الساعة المشؤومة التي جعلتني أرتقي سلّم مكتبة يوسف لأقع على ذلك الكتاب!

لم أملكْ إلا أن اضحك مستنكراً. لكن (بدر) واصل كلامه بمنتهى الجدية:

- نعم؛ فأنت خير من تتوافر فيه الشروط التي تؤهله لتحقيق مخطوط من هذا النوع؛ ذلك لأنك مؤرخ مدينة الأسلاف دون منازع،

www.ibtesama.com

وأنك بالتالي عارف تماماً بالضرب الذي ستحققه ، ملمّ بمصطلحاته ، كما أنك مطلع على أنواع الكتابة وتاريخ تطورها في مختلف العصور ، وعارف بأنواع الورق ؛ فقد كرّستَ فصولاً من كتابك (محافظة الأسلاف في ماضيها وحاضرها) لهذه الأمور . . .

فقاطعته متفكهاً :

– كما أنني على معرفة بالتصوّف والعرفان جوهر (الراووق) ، لا يفرّقني عن هؤلاء الذين أضافوا إلى المخطوط الفصول والأبواب إلا هذه السترة والبنطال وربطة العنق!

لكنه أخذ قولي ذاك على محمل الجد ؛ إذ صاح وقد اشتعلتْ عيناه الزرقاوان حماسة :

– تماماً . . . ثم تذكّرْ طموحك الأزلي الأبدي في كتابة رواية عن الأسلاف . . . أتسمع؟ لقد آن لك أن تحقق هذا الطموح من خلال تحقيق المخطوط ، وأنا الذي سأُعينك في هذا الأمر . . . . سأجنّد موظفي المكتبة وموظفاتها للبحث والتنقيب في قاعات الكتب والمخطوطات عن كل ما يمت إلى (الراووق) بصلة ؛ فأنا واثق من وجود نسخ عديدة نُقلت عن النسخة الأم على امتداد حقب زمنية مختلفة لكنها ضاعت وسط آلاف المخطوطات التي كدّستُها ، خلال عملي في إنشاء المتحف ، كيفما اتفق ، وأسهم الموظفون الكسالى بدورهم في إشاعة الفوضى ليس على طريقتك بوضع كتب التاريخ وسط كتب الجغرافية ، وكتب التصوّف بين كتب العلوم والتكنولوجيا ، بل بعدم ترقيمها وإدخال عناوينها في الفهارس ، كما أنني أعرف أكثر من أسرة في المدينة لا تزال تحتفظ بنسخ ورثتها عن أجدادها ، وهي لن تفرط بها لأي سبب كان ، لكني سأقنعهم – وإن اقتضاني الأمر سأهددهم بالقضاء – ليسمحوا لي مرغمين بتصوير نسخهم . . . .

www.ibtesama.com

وواصل بدر ثرثرته وقد تفتقت قريحته ، غير مدرك استحالة مشروعه ذاك ؛ فقد كنت موقناً - كما برهنت التجربة بعد ذلك - أن مخطوط (الراووق) قد يكون المخطوط الوحيد الذي يستحيل تحقيقه ؛ فمنذ البداية تكشّف الأمر عن صعوبات بالغة لم يكن من اليسير تذليلها!

ولكنْ . . ما ضاع أمر وراءه بدر ؛ إذ لم تمضِ أشهر حتى كان بدر قد هيّأ لي (مستلزمات العمل) ، وهي عبارة أخذ يلاحقني بها دون كلل أسابيع عديدة سواء في غرفته ، حين أمرّ بها لأبادله تحية الصباح قبل أن أصعد ، أم في الهاتف حين يتصل أحدنا بالآخر . وقد بلغ به الأمر أنه طرق باب غرفتي ذات يوم - وكنتُ أترأس اجتماعاً لمديري الأقسام - وطالعني بعينيه الزرقاوين ، وثمة ابتسامة اعتذار تعلو فمه ، ناول على أثرها أقرب الجالسين ورقة خرج بعدها مطبقاً الباب وراءه بكل هدوء ، وخشخشت الورقة لحظات في صمت القاعة وهي تنتقل من يد إلى يد لتنتهي في آخر الأمر إلى يدي ، فإذا به وقد كتب فيها كلمات تقطر رقة وعذوبة واعتزازاً بـ(صداقتنا الخالدة) أنهاها بجملة اقشعرّ لها بدني يطلب فيها أن (أتهيّأ) ؛ ذلك لأنه سيمرّ عليّ عقب الاجتماع وذلك لاصطحابي لإلقاء نظرة - محض نظرة عابرة - على (مستلزمات العمل)! . . وكان عند عهده ؛ فحين انفضاض الاجتماع ، وقبل أن يتسنى لي الوقت اللازم للملمة الأوراق المكومة أمامي كان بدر قد (ألقى القبض) عليّ ، وقادني من يدي إلى ذلك الممر الطويل الذي قضيتُ فيه أعواماً عديدة حيث أبواب القاعات والغرف تتراصف على الجانبين ، تعلوها قطع نحاسية حُفرتْ عليها بالأسود الكلمات المعهودة : (قاعة المطالعة) ، (معمل الصيانة) ، (قاعة الفهرسة) ، (قسم التصوير) وماشابهتها من كلمات قادتنا إلى نهاية الممر الذي انتهى بباب تعلوه عبارة (مخازن المخطوطات) ،

www.ibtesama.com

ففاجأتني تلك الرائحة الخانقة التي هي مزيج من هواء فاسد ورائحة مسحوق (النشادر) الذي يوضع عادة لامتصاص الرطوبة الجوية ، فضلاً عن رائحة مبيدات ومساحيق لمكافحة الحشرات والجرذان ، ولو أضفنا إلى ذلك المزيج الثقيل من الروائح رائحة الرقوق والورق القديم والحبر لأمكن تجسيد مبلغ فزعي الذي دفع بي إلى أن أحرن ، وسط تلك الخزانات الحديدية المتراصفة على الجانبين تحت أضواء خافتة تضاء ليل نهار بسبب عدم وجود نوافذ ، لأتساءل برعب :

- أتريدني أن أعمل في مثل هذا المكان؟!

لكن (بدر) لم ينهزم ؛ إنما زاد من إطباق أصابعه القوية - بفعل تعامله الطويل مع القطع الآثار الصخرية - على زندي الواهن ساحباً إياي نحو غرفة صغيرة ، وهو يقول مواصلاً الضحك بنعومة :

- هيا . . . هيا يا رجل . . . لقد سبق لك أن عملتَ في هذا المكان قبل أن تغدو أميناً للمكتبة . . . . هيا يا رجل لا تتنكر لماضيك!

لحظتها حدستُ أنني ضحية مؤامرة كونية ، كان بدر أداتها المنفذة ، ستنتهي بحشري في غرفة منسية تقع في نهاية مخازن المخطوطات في واحدة من أكثر العمارات شذوذاً في العالم!

بيد أنني ، وعلى الرغم من شعوري ذاك ، لم أنسَ أن أعلّق بمرارة باذلاً آخر محاولة لانتشال نفسي من المصير الذي أعده بدر لي :

- يومها كنتُ أصغر سناً . . . . أما الآن فأنا أنحدر إلى السفح الآخر للعمر!

فصاح بدر ، وقد أوقفني بين يديه متأملاً إياي بعينيه اللتين استحالت زرقتهما إلى لون مبهم تحت أنوار المصابيح الخافتة :

- ولا تزال شاباً! . . أتسمع؟ منْ أوهمك بأنك كبرت؟ ستبقى شاباً! . . .أتسمع؟ لأن الشباب الحقيقي هو شباب القلب!

www.ibtesama.com

فتقدمته أنا هذه المرة واضعاً بذلك حداً لإطرائه الزائف الذي لا يخفى عني دافعه . ودخلنا الغرفة المنشودة ، فإذا بها حقاً قد اكتملت فيها (مستلزمات العمل) ؛ فقد تكدّست نسخ خطية متفاوتة الحجوم من (الراووق) على منضدة : نسخ قديمة تبدو كأنها تُركتْ - كما يُترك كل شيء عادة في هذه المدينة - لرحمة الزمن ؛ فأفرغتْ عشرات الأعوام المنصرمة ثأرها منها مخلّفة عليها آثار رطوبة وحرائق وعث ، فضلاً عمّا تركته الأقلام من تشطيب وتعديل وهوامش حاولتْ تغيير مسار أحداث سُطّرتْ بالدم قبل أن تُدوّن بالمداد . وكانت تستقر ، في خزانة صغيرة ، نسخ مصورة بـ(الفوتوستات) وثمة سلايدات (ميكروفيلم) موضوعة في علب بلاستيكية . وعلى سطح مكتب حديدي عريض يتصدّر الغرفة استقرّتْ ، تحت وهج مصباح منضدي ، أكداس ورق وكارتات وعلب (دبابيس) وشرائط لاصقة وقنينتا حبر وصمغ وثاقبة وكابسة . وكانت هناك أقلام بمختلف الأصناف والحجوم : أقلام حبر وجاف ورصاص ، فلم أستطع الامتناع من أن أُعلّق متفكهاً :

- لا ينقصنا سوى ريشة . . . . واحدة تشبه تلك الريشات التي دوّن بها عشرات الرجال صفحات (الراووق)!

ولم يكن بدر قد نسي حتى جلب (حامل معجم) استقرت ، فوق رفوفه ، الأجزاء الخمسة عشر من (لسان العرب)!

منذ ذلك اليوم وجدتني أضيع وسط (مستلزمات عمل) بقي بدر يطعّمها ، بمرور الزمن ، بكل ما يمت إلى (الراووق) بصلة ؛ ذلك لأن عمل موظفي المكتبة الرئيس غدا التدقيق في عشرات الفهارس الخاصة بخزانات مخطوطات المكتبة - تلك الخزانات التي اعتاد أهل المدينة أن يضربوا بها المثل على أن الله سبحانه وتعالى يمهل ولا يهمل ؛ فبعدما جمع فرهود الطارش ثروته الطائلة بطرقه العوجاء المعروفة ، مستنزفاً في

www.ibtesama.com

ذلك شقاء (البواشق) وتعبهم في ذلك الزمن الصعب ، أورثها لابن مبذّر تتلخص مهمته في تبديدها على أكداس الورق البالي! - ليحيلوا إلى غرفتي كل ما يفيدني في عملي ، مستمدين العزم على مواصلة البحث امتثالاً لنصيحة بدر التي تتلخص بوجود مئات المخطوطات التي لم يدخلها المفهرسون الكسالى في سجلاتهم ، أو دفعهم إهمالهم إلى بعثرتها كيفما اتفق في ملفات لا تمتّ إلى موضوعها بصلة مما جعل من المستحيل العثور عليها إلا بحكم مصادفة عمياء .

وكان بدر قد وسّع دائرة بحثه ليشمل بها المكتبات الخاصة - ومن أعرف منه بأصحابها؟ - بل قام بمراسلات مع بعض معارفه من أصحاب المكتبات في المدن الأخرى ؛ فكانت النتيجة تحوّل تلك الغرفة إلى متاهة كان يتجنب أكثر الموظفين حباً للعمل إلقاء نظرة عابرة على محتوياتها ، داعين الله على مسمع مني أن يجنبهم التورط في عمل من هذا النوع!

والحق أنني لم أكن أجازف بدخول تلك الغرفة إلا على مدد متباعدة كنتُ خلالها أستنفد معاذيري وحججي كلها ؛ فبرغم تأكيد بدر الدائم ألا أدع مهامي الوظيفية تشغلني عن تحقيق (الراووق) - مستنداً في ذلك إلى قدرة أي كان على إنجازها نيابة عني على النقيض من تحقيق المخطوط! - كان لا بدّ لي من المرور بغرفتي ملقياً نظرة إشفاق على الكتب الرسمية التي كانت تزداد ازدحاماً على سطح المكتب باستمرار . كما كنت أبدد بعض الوقت بالمرور بغرفة بدر ، ملاحظاً باستمتاع كيف أنه كان لا يألو جهداً للتخلص مني ، مظهراً الغفلة وعدم الفهم حين كنت أُذكّره بتلك الأيام التي لم يكن يكفّ خلالها عن مدّ رأسه خارج باب غرفته ، مهيباً بالفرّاش إسعافنا بالمزيد من الشاي والقهوة!

www.ibtesama.com

كما كنت اشغل جانباً من وقتي بالنبش في الأدراج الخاصة ببطاقات الاستعارة. وأخذتْ بعض مرافق المكتبة ، التي لم أكن أُوليها اهتماماً في الماضي ، تثير انتباهي في تلك الفترة مثل قاعة الدوريات ، وقاعة الأسطوانات والمواد السمعية والبصرية ، ومعمل صيانة المخطوطات وترميمها حيث كنتُ أقضي مدداً طويلة بين المكابس العديدة ، ومنضدة الاستنساخ ، والميزان والأواني والفرش ، والآلة الخاصة بخياطة المخطوطات ، والسخّانة الكهربائية والرولات ، وصندوق التبخير وماكنة قصّ الورق ، فضلاً عن المواد الكيميائية الخاصة بعمل عجينة الورق ، وكأنني بيّتُ النية على تعلّم تلك المهنة ذخراً للمستقبل!

بيد أنه لم يكن لي مفر ، في آخر الأمر ، من أن أتجه نحو نهاية مخازن المخطوطات متنشقاً باستسلام تلك الرائحة الخانقة التي أخذتُ أعتادها – بل أفتقدها أحياناً! – شئتُ أمْ أبيت ، لأحط الرحال في تلك الغرفة التي أخذت تُعرف باسم (متاهة الراووق) ، وكان اسماً على مسمى ؛ فلولا صفحات (ذاكر القيّم) الثماني لاستحال عليّ الخروج من تلك المتاهة بنتيجة ؛ ذلك لأنني اتخذت منها دليلاً يهديني إلى مراحل تطور المخطوط ، لكنني ، في الوقت نفسه ، لم أعتمدها ضمن أصول التحقيق بسبب كونها أحدث نسخة ، فضلاً عن أنها ليست أكثر من مسرد مختصر أوجز فيه (القيّم) مضمون (الراووق) .

بدأتُ عملي في تحقيق المخطوط واضعاً نصب عيني صعوبة المهمة ؛ فـ(الراووق) ينتمي إلى ذلك الصنف من المخطوطات التي تكون عادة شائعة بين العوام ، مما يؤدي – بسبب عدم روايتها من قبل أصحاب التخصص – إلى اختلاف النسخ بعضها عن بعض ؛ إذ إن النسّاخ لم يكونوا أمناء ودقيقين في نقل ما استنسخوه ؛ وذلك لأن

www.ibtesama.com

الدافع وراء عملهم ذاك لم يكن نزيهاً - في الغالب - بل كان طمعاً في الحصول على مكافآت مجزية من رجال كانوا يشغلون مواقع بارزة في عشيرة (البواشق) مما حتّم على هؤلاء النسّاخ تنقيح كل ما يمتّ إلى ماضيهم بصلة وتجميله، وأحياناً تزييفه، وبالنتيجة كان من البديهي أنهم لم يكونوا أمناء في نقل المتن لغة وتركيباً، فأسقَوا وزيّدوا، بل لفّقوا أموراً إرضاءً لهؤلاء المتنفذين الذين لم يشغلهم بدورهم تطابق تلك النسخ مع النسخة التي نُقلت عنها، فلم يتحروا دقة هؤلاء النسّاخ في ما نقلوه، ولم يقلقهم احتمال وجود ما هو مقحم في نسخهم. ولو أضفتُ إلى ما ذكرتُ الأخطاء التي لا مفر من وقوعها لدى النسّاخ: مثل الإخلال، والتقديم والتأخير، والخطأ بين متماثلين، وإدخال الهوامش، التي وردت في النسخة القديمة، إلى متن النسخة المنقولة عنها، والخطأ في قراءة ما هو مكتوب بسبب النقل من خط إلى خط آخر - الكوفي إلى الرقعة، أو النسخ إلى الثلث مثلاً - لو أضفتُ تلك الأمور لتبيّن مدى الفوضى التي كانت قد دبّت في تلك النسخ. ومما زاد الأمر صعوبة استحالة الشروع في التحقيق على أساس معرفة لغة المؤلف وأسلوبه الخاص؛ وذلك لأن (الراووق) كُتب من قبل أشخاص عديدين لم يتخطَّ دورهم كتابة فصولهم تلك فقط. كما كان من العبث تقسيم النسخ إلى مجموعات وإبرازات؛ لأن كل نسخة اتخذت لنفسها هيئة خاصة بها عن أصل لم يحتفظ على مدى تأريخه بهيئة ثابتة، إنما بقي في تطور وتغيّر مستمرين حتى آخر شخص أسهم في الكتابة فيه، مما أدى إلى وجود ليس (راووقاً) واحداً، بل (رواويق) بعدد النسّاخ!

أمر واحد استطعتُ الإمساك به وحاولتُ، عن طريقه، إنجاز التحقيق: وهو انقسام النسخ ـــ برغم التناقضات التي سبق ذكرها -

www.ibtesama.com

في اتجاه سياق مضامينها إلى محورين رئيسيين تمثّل بهما قطبا الصراع وهما (المشيخة) و(المزار) . لكن هذا الأمر سرعان ما بهت في خضم ما هو شائع ؛ ذلك لأن الالتزام به كان يعني أن أميل إلى تصديق كل ما ورد في صفحات (ذاكر القيّم) ، وذلك ما كنتُ أحسبه - آنذاك - يناقض المنطق والعقل ؛ فقد كان مرور الزمن قد أدى إلى هيمنة أمور زائفة كانت (المشيخة) ، على امتداد تاريخها ، قد جنّدتْ كل قواها ووسائلها من أجل هيمنتها .

في تلك الغرفة شرعتُ في عمل كنتُ أحسبُ أنه لا يتطلب من وقتي غير بضعة أشهر ، فإذا به يمتد أعواماً كانت (زلازلي) خلالها تعصف ، من حين إلى حين ، في شتى مرافق المكتبة : فطلب مصدر ما كان يحرّك سلسلة من موظفين وموظفات كان بدر قد شدّد عليهم بضرورة الاستجابة لكل ما أطلب ، مرفقين استجابتهم بكلمة (ادلل) . . . وهكذا ، على وقع كلمة (ادلل) ، كان مزيد من الفوضى يدب في رفوف الكتب وخزاناتها ؛ فتفتح سجلات وفهارس ، وتدقق في أسماء وعناوين ، وتلج مفاتيح في أقفال كاد يأكلها الصدأ . كانت فوضى رهيبة تتمخّض ، في آخر الأمر ، عن كتاب أو (سلايد) أو محض ورقة . . ورقة واحدة سرعان ما تتخذ موقعها في متاهة غرفتي!

كان من المحظور على غيري دخول تلك الغرفة سواءً بحضوري أم غيابي . كنتُ عادة أُطبق الباب خلفي ، وأجتاز بحذر الموانع التي تعترض سبيلي لأصل إلى المكتب - الذي كانت أدراجه بدورها قد امتلأت بأمور تتعلق بمشروع التحقيق - حيث أجلس على الكرسي الدوّار ، مصغياً دقائق لأصوات مكتومة تتناهى إلى سمعي من وراء الجدران : أصوات حوارات خاطفة غير مفهومة ، وأصوات سحب أشياء ثقيلة على الأرض ، وتحريك أخرى من مواضعها ، وأصوات اصطفاق

www.ibtesama.com

أبواب ، فضلاً عن ضجة المدينة التي كانت تأتيني من بُعد سحيق ، بعدها كنتُ أستغرق في عملي ؛ فأنسى كل شيء ، بل أنسى حتى كوني موجوداً في غرفة معزولة في أعلى موضع في متحف المدينة!

كنت أواصل عملي : أقابل أوائل النسخ بأواخرها ، وأتثبّتُ مما فيها من إسقاطات أو زيادات عساني أن أقع على نسخ تشابه بعضها بعضاً . وعن طريق الضبط والتخريج والاستعانة بالمصادر غير المباشرة ، المتمثلة بالكتب والمخطوطات التي نقلت نصوصاً من (الراووق) أو روت نصوصاً اشتركت معه في روايتها ، استطعت الحصول على نص في حدود الأصل - أو ذلك ما افترضته آنذاك - بريء ما وسعتني الحيلة مما تركته أجيال النسّاخ من تشويه وتزوير وتحريف .

لقد بلغ حرصي على الوصول إلى ذلك الهدف أنني لم أهمل حتى أتفه الهوامش والتراجم الخاصة برجال مجهولين ، بل استعنتُ حتى بتواريخ استنساخ بعض النسخ للوصول إلى غايتي ، مجتازاً في طريقي آلاف الصفحات التي يختلف بعضها عن بعض في الألفاظ ، أو في الزيادات والنقص ، أو في الإهمال والإعجام . لقد أيقنتُ ، وأنا في مراحل عملي الأخيرة ، أن تحقيق (الراووق) ما هو ، في حقيقة الأمر ، إلا تركيب أصل من نسخ متعددة كان لنسّاخها أساليبهم وألفاظهم وطرقهم في سرد الأحداث ، يختلف فيها بعضهم عن بعض .

هكذا كنت أقترب حثيثاً من ختام التحقيق ، مخففاً معه من فوضى المتاهة المحيطة بي ؛ فمع كل سطر أُثبّته على الأوراق كنتُ أستغني عن نسخ ومصادر لا تُعد ولا تُحصى ، حتى إذا ما وضعتُ آخر كلمة فرغتِ الغرفة من الفوضى التي كانت قد اجتاحتها ، ولم يبق منها سوى كدس أوراق رتبتُها على المكتب قبل أن أهبط نحو غرفة بدر لأزف إليه البشرى!

www.ibtesama.com

ما أن رآني داخلاً حتى طرف بعينيه الزرقاوين، وتساءل - وكأن الأمر كان مكتوباً على جبيني! - وهو يتحفز للوثوب من خلف مكتبه :

- أنهيتَ التحقيق؟

وقبل أن يتسنى لي الوقت اللازم لفتح فمي كان قد احتواني بين ذراعيه القويتين، مغرقاً وجهي بالقبلات، قفز بعدها نحو الباب منادياً الفرّاش، حتى إذا ما قدم هذا، صرفه من فوره وقد غاب عنه سبب مناداته إياه. وأخذ يحوم حولي، فاركاً كفيه إحداهما بالأخرى، مؤكداً أنه سيتخطى بطبع (الراووق) كتابي عن محافظة الأسلاف جمالاً وأناقة، وأنه سيجعله مثله كبير الحجم (حجم أطلس) وبغلاف مزدوج سميك وورقي. ومضى في تسطير أحلامه عن كمية الطبع، وعن التوزيع، وعن عبارة (منشورات متحف الأسلاف) التي سيطبعها على الغلاف. ولم يغفل حتى عن تحديد سعر النسخة الواحدة. وحين حاولتُ كبح جماح حماسته، مخبراً إياه بأنه لا بد لنا من الانتظار بعض الوقت من أجل إعداد فهارس تفصيلية بالآيات والأحاديث والأعلام فضلاً عن كتابة مقدمة للكتاب، اكتفى بأن رمقني بنظرة عابرة، تابع بعدها حومانه حولي، مكرراً لازمته الجديدة (انتهى التحقيق) التي رفعها شعاراً لتلك المرحلة!

كان من المؤكد أن تسير الأمور على وتيرتها تلك نحو نهايتها لولا وقوع المصادفة الثانية التي قلبتِ القضية رأساً على عقب؛ فذات ليلة - وأنا أستعد للنوم ليتسنى لي الاستيقاظ مبكراً لوضع اللمسات الأخيرة على (الراووق) - رنّ جرس الهاتف في البيت، وإذا بضحكة بدر المعهودة تدوّي في السماعة. بدا غاية في السعادة، يكاد سلك الهاتف يحترق من فرط حماسته!

في البداية لم أفقه منه أيّ شيء؛ فقد تحدث عن جملة أشياء دفعة

www.ibtesama.com

واحدة ، تحدث عن مواصلة تجنيد موظفيه للاستمرار في البحث والتنقيب في خزانات المخطوطات ، ناعتاً هؤلاء الموظفين بالكسل واللامبالاة ، انتقل بعدها إلى ضرورة إعداد فهارس المخطوطات من جديد ، وتنظيمها بالطرق العلمية الحديثة و . . . . فهددته بأنني سأطبق السماعة إن لم يخبرني بسر اتصاله هذا ، فصمت لحظات بدا خلالها وكأنه يلتقط أنفاسه في الطرف الآخر من الخط قبل أن يزأر في السماعة :

– تعال إلى المتحف فوراً . . . فقد عثرنا على ورقة من (الراووق) يُحتمل أن تكون مكتوبة بخط (السيد نور) نفسه!!

فأعداني بحماسته على الفور ؛ فصرختُ في السماعة غير مصدّق الأمر :

– مكتوبة بخط (السيد نور) نفسه؟!

لكنه اكتفى بأن كرر عبارة (تعال فوراً) قبل أن يُطبق السماعة بطريقة فظّة لم أكن سأغفرها له لو أننا كنّا في وضع آخر .

لم تكن بي حاجة إلى التفكير لحظة واحدة في إرجاء ذهابي إلى المتحف إلى صباح الغد ؛ ذلك لأن الهاتف لن يكفّ عن الرنين . وفي حالة رفع السماعة سيكون جرس الباب ضحية بدر . أمر واحد لم أجد له مسوّغاً مقنعاً وهو سر عدم قدوم بدر نفسه بالورقة إلى بيتي! . . . . من أين اكتسب هذا الصبر الذي جعله لا يتصل بي إلا ليلاً؟ فمن المؤكد أن موظفيه عثروا على تلك الورقة نهاراً في أثناء ساعات الدوام!

ركبتُ أول سيارة استجابت لإشارتي أخذتْ تشق سبيلها شمالاً خلال شارع الكورنيش وسط مهرجان من الآلاف المصابيح الكهربائية والإعلانات الضوئية وهي تتفنن في شد الانتباه إلى المحلات والحوانيت والصيدليات والمخازن .

كان بدر في انتظاري عند بوابة المتحف الخارجية ، وبالقرب منه

www.ibtesama.com

حارس أوصاه بإغلاق الباب خلفنا . وكان قد أغفل الرد على تحيتي لينقضّ على يدي ، ساحباً إياي خلال تلك الممرات والسلالم الخاوية التي ملأها بضجيج صوته وصدى وقع خطانا العجلى :

– إنها ورقة واحدة . . لكنها لا تُقدّر بثمن . . لم أُصورها بعد خوفاً من أن تتطاير لقدَمها إلى غبار مع أدنى لمسة غير حذرة . . اسمع . . ستضع صورتها في مقدمة الكتاب . . . لا . . بل سنجعلها على الغلاف . . . نعم . . . إذ لا أجمل أن يزين خط (السيد نور) غلاف (الراووق)! . . . . يا إلهي ما أجمل ذلك!

وفي الطبقة الأخيرة قادني خلال ممر المكتبة الطويل ليستدير بي داخلاً معمل صيانة المخطوطات وترميمها حيث اتخذتُ طريقي وسط تلك الآلات والأدوات التي اعتدتُ أن أقضي بينها جانباً من وقتي وأنا أحاول التهرّب عبثاً من مهمة التحقيق .

تقدمني بدر نحو منضدة يعلوها لوحان من الزجاج الثقيل ، منبهاً إياي :

– حذار . . . ستتلف ما قضيتُ ساعات نهار اليوم في ترميمه!

وشفع تحذيره بإيماءة احتفالية نحو الورقة المنشودة المستقرة تحت اللوح الزجاجي!

– من الأفضل أن ننتظر أياما قبل أن نغامر في تصويرها ؛ فقد رممتها وطليتها بعجينة لاصقة خففتها بإضافة مادة جيلاتينية ستكسبها بعض الطراوة . . . . اُنظر . . . في هذا الموضع من الورقة استطعتُ أن أُشخّص آثار رطوبة غابرة قد تكون جاءت – كما ذكر (القيّم) في صفحاته الثماني – بسبب ذلك اليوم العاصف حين سقط المخطوط من يد ذلك اللص الذي أُصيب بصاعقة قرب (تل العاشق) . . . يا إلهي! . . . . ما أسرع ما يمضي الزمن!

www.ibtesama.com

وصمتَ لحظات وقد وقف وقفة تحفز واستعداد لإيقافي عند حدي إن تماديتُ في انحنائي وأنا أحاول عبثاً قراءة بعض الكلمات دون نظارة من خلال ذلك الزجاج السميك .

- ألم يسبق لي أن أخبرتك بوجود أكثر من ورقة أفلتت من فهرسة هؤلاء الموظفين اللامبالين؟ . . . تفضّل . . . هذه واحدة منها ؛ فلولا مصادفة عمياء لكان من المحال العثور عليها : فقد وقع عليها موظف كان ينقّب بحثاً عن مصادر لا تمت إلى (الراووق) بصلة . . . . عثر عليها في ملف يحمل على غلافه عنوان (ألف ليلة وليلة)!

قضينا يومين في أحاديث محمومة - وكان بدر قد أعداني بحماسته الأزلية - لا تخرج عن نطاق تلك الورقة ، أحاديث لم نكتفِ بتبادلها في غرفة بدر أو معمل الصيانة الذي كان بدر يغلق بابه على (تحفته) النادرة ليحتفظ بالمفتاح في جيبه ، بل كنا نواصلها وثمة ثلاثة كيلومترات أو أربعة تفصل أحدنا عن الآخر ؛ فقد بقي هاتف بيتي يواصل خدماته مما دفع زوجتي إلى أن تتساءل عرضاً - وقد طفح بها الكيل - عن المبلغ الذي ستحمله لنا قائمة الهاتف القادمة؟!

صباح اليوم الثالث صعدتُ نحو غرفتي متجاوزاً المرور بـ(محطة الاستراحة) التقليدية المتمثلة بغرفة بدر ؛ فقد فاجأني الفرّاش مدّعياً أنه لم يحضر بعد!!! . . لم أصدق ما سمعت حتى أنني عمدتُ - تحت وقع نظرة الرجل المستنكرة - إلى إدارة أكرة باب الغرفة لأتأكد من كونه مغلقاً ؛ إذ إنها المرة الأولى التي يتخلّف فيها بدر عن المجيء قبل الجميع ؛ فقد كان من المألوف أن يكون أول من يدخل المتحف ، وآخر من يغادره!

حين صعدتُ إلى غرفتي لفتَ نظري مظروف كبير استقر على المكتب ، كان يحتوي على ورقتين صُوِّر عليهما وجها ورقة (السيد نور) .

www.ibtesama.com

أضأتُ المصباح المنضدي وثبّتُ نظارتي إلى عينيّ لأشرع من فوري في قراءة تلك الكلمات العصية على القراءة بيسر، فإذا بها تصعقني - ومن أول سطورها - بالحقيقة المرّة، تلك الحقيقة التي لم أُصدّقها حين ذكرها (القيّم) في صفحاته ؛ فقد عزوتها إلى كونها صادرة عن رجل (يهرف بما لا يعرف)!

كان (السيد نور) يتحدث دون تمهيد - فالورقة كانت ساقطة من وسط أوراق أخرى - عن (انتهاء طور العلن وبدء طور الكتمان) وذلك بسبب حظر السلطة والمشيخة - التي أشار (السيد نور) إلى أن السلطة هي التي نصبتها على عشيرة (البواشق) عقب (دكة المدفع) - على الرواة إشاعة القسم الرابع من (السيرة) ؛ وذلك حرصاً منهما على طمس بعض الحقائق، وسعياً منهما لتعزيز ذلك الحظر عمدتا إلى إغراء رواة مأجورين من أجل اختلاق أمور مغايرة يغطون من خلالها على جريمة السلطة وعار المشيخة!!

تركتُ الورقتين في موضعهما على المكتب، واتجهت نحو النافذة متطلعاً، من ذلك العلو الشاهق، إلى آلاف الأبنية المتراصفة تحت نظري، تتخللها مئات الأزقة والشوارع وهي تمتد حتى أقصى الجنوب حيث تلوح أبراج النفط على خلفية رمادية مضببة .

لحظتها تكشّفتْ لي مدينة الأسلاف عن حقيقة كونها متاهة لا في جغرافيتها فحسب، بل في تاريخها أيضا!

حين دخل بدر كنتُ لا أزال أمام النافذة، فتبادلنا نظرة سريعة أدركتُ منها على الفور أنه قد سبقني في قراءة تلك الكلمات . كان الإرهاق بادياً على وجهه، وكان يفتح بصعوبة عينيه الزرقاوين كأنه لم ينم ليلته تلك . جلس على كرسيّ، وأخذ يعبث بتينك الورقتين بشرود . ومضتْ دقائق لم ننطق خلالها بكلمة واحدة . كان قد تغيّر

www.ibtesama.com

تماماً ؛ كأنه كبر أعواماً خلال ليلة واحدة!

- إذن . . . لن تطبع الكتاب؟!

تساءل في آخر الأمر متجنباً مبادلتي النظر . لم أجبه ، إنما اكتفيت بإدارة ظهري إلى المدينة مرتفقاً حافة النافذة تاركاً له الوقت الكافي ليفرغ ما يكاد يقتله .

- من المؤكد أنك لن تطبعه ؛ فالنصّ الذي حققته فيه الكثير من التحريف والتزوير!

وأضاف بنبرة عدائية لم يسبق لي سماعها منه :

- كان عليك ألا تقضي هذه المدة كلها في تحقيق مخطوط يستحيل تحقيقه!

فأجبته وقد أعجبني استنتاجه الأخير :

- تماماً . . . إنه مخطوط يستحيل تحقيقه . . . لكنني غير نادم على تلك الفترة التي قضيتها في هذا العمل!

فصاح وقد خرج عن طوره فجأة :

- غير نادم؟ ولكن أنسيت أن تعبك ذاك انتهى إلى كتابة نسخة أخرى من (الراووق) ستضاف إلى عشرات النسخ التي تحفل بها خزانات المكتبة؟

- لا . . . لم أنسَ ذلك ، وفي الوقت نفسه لن أنسى أن نسختي تلك قد وضعتْ نهاية لزيف تلبّس ثوب الحقيقة على امتداد عشرات الأعوام . صحيح أنها لم تكشف ذلك الزيف بكل دقائقه وتفاصيله ، لكنها فتحت الباب لمن سيأتي بعدي ليبحث وينقّب عن المزيد .

فتساءل بدر بمرارة :

ـ أوَ تحسب أن الحقائق ستنكشف بمثل هذه البساطة؟ حاول أن تفضح ذلك الزيف ؛ ستفاجأ بأكثر من واحد يتصدى لك متهماً إياك بالجنون!

www.ibtesama.com

كان قولاً صائباً دفع بي إلى أن أستجمع أفكاري قبل أن أعلّق :

– ما تقوله صحيح ، بيد أن الزمن ، الذي تكفّل بترسيخ أمور زائفة ، قادر على فضحها وترسيخ الحقائق في المستقبل ؛ إذ علينا ألا نحدد حصول هذه التغييرات بأعمارنا .

فاعترف بدر وهو يكاد يبكي :

– المستقبل! . . تلك هي المسألة . . لكنني كنتُ أُمنّي النفس بأن نكون نحن أول من ينجح في طبع (الراووق) وإشاعته بين الناس!

فتركتُ موضعي عند حافة النافذة لأقول وقد وقفت فوق رأسه محاولاً مواساته :

– هنا تكمن المعضلة ؛ فكل منْ تعامل مع (الراووق) حاول الاستحواذ عليه غير مدرك طبيعة هذا المخطوط العصيّ على الاستحواذ ؛ فقد نما نمواً تلقائياً متخطياً دائماً محاولات منْ حاول إيقاف ذلك النمو عند حده ؛ خذ (ذاكر القيّم) مثلاً : فقد توهّم أن في وسعه أن يضع خاتمة له ، وقد فعل ذلك دون تردد عام ظهور النجم المذنّب مرة أخرى . ولكن ما الذي حدث؟ هاهي جملة ظروف تتبلور فجأة بعد عشرات الأعوام لتدفع بي إلى القيام بما قمتُ به مكرراً محاولة (القيّم) بشكل من الأشكال ، وقد يأتي بعدي من يُعيد المحاولة . إنها محاولات تبدو كأنها لا تمت إلى متن (الراووق) بصلة ، بيد أن مرور الزمن وحده هو الكفيل بإدخال تلك المحاولات في ذلك المتن . . . تذكّر أولى تلك المحاولات ، محاولة (حليم الغيّاث) التي أسهب (ذاكر القيّم) في وصفها ، لقد أمستْ تلك المحاولة أحد فصول المخطوط المهمة . . . وعلى هذا المنوال ستستمرّ المحاولات . . . إلى الأبد!

www.ibtesama.com

كتاب الكتب

سِفر الراء

مثلما اتخذ شبيب طاهر الغياث من صفحات (ذاكر القيّم) الثماني دليلاً له في تحقيق مخطوط (الراووق) سأتخذ بدوري من صفحات شبيب التي كتبها إليّ دليلاً في كتابة هذه الرواية ؛ فالنتيجة التي توصل إليها في ختام صفحاته بدأتْ تتبلور لديّ على شكل هذه الرواية ، وكأنني أبرزتُ بمدادي إلى شهود الوجود ما كان لديه في حكم العدم ، مبرهناً بذلك على صحة ما ذكره عن كون (الراووق) نصاً مفتوحاً قابلاً للإضافة والنمو إلى الأبد!

دوّنتُ في دفتر ملاحظاتي تلك الفكرة قبل أن أرفع سماعة الهاتف مديراً رقم صديقي الشاعر . ما كاد يسمع صوتي حتى قال ضاحكاً :

- هيا . . ادخل في الموضوع مباشرة ، ولا تحاول إثارة نخوتي لاستبدال دروس اللغة العربية بدروس الرسم . قل وأوجز : هل تتغيب غداً عن المدرسة؟

فأجبته دون أن أستطيع بدوري منع نفسي عن الضحك :

- لا . . سأُرجئ ذلك إلى المستقبل ؛ فثمة أيام ستأتي ادّخرتك لها ذخراً!

اقترحت عليه اللقاء عصراً في مقهى (أبو بلقيس) ، فلم يجد بداً

www.ibtesama.com

من الموافقة ؛ فقد بات ذلك الموضع أشبه بـ(خلوة) نهرع إليها لنعتكف فيها إذا ما عانت نصوصنا الإبداعية عسراً ؛ وهكذا شهدتْ جدران ذلك المقهى المزدانة بلوحات (أبو بلقيس) الفطرية ولادة العديد من أفكار رواياتي السابقة ، كما أن صوت الشاعر تردد خلالها مرات لا تُعد ولا تُحصى وهو يترنم بمقاطع من قصائده قبل نشرها .

كان المقهى يقع على الحافة الجنوبية لوادي المرّ ، وسط منطقة (البداروة) التي أقام فيها بعض النازحين عن مدينة (بدرة) بيوتهم .

استقبلنا (أبو بلقيس) بعينيه الصفراوين الطافحتين بشباب غابر يحرص على رعايته من مرحلة الستين التي يقترب منها حثيثاً وذلك بصبغ شعره الكثيف بالحناء ، وقصّه (قصة شبابية) أبرز سماتها (الكذلة) المائلة على الجبين . وانصرف حال دخولنا إلى مشاغله الخاصة مدندناً بصوته الخافت بمقطع من أغنية لا يملّ عن تكراره على مدى الليل كله ، وكان مقطع ذلك اليوم (على الرمله . . . . على الرمله . . ضوهْ الكمرهْ . . ضوهْ الكمرهْ)!

جلسنا في الشرفة الخلفية الصغيرة التي تشرف من حالق على وادي المرّ ، متجاوزين حزننا المتوارث بالطريقة الأزلية التي لا بديل لها ؛ إذ سارعنا إلى ترتيب أشيائنا أمامنا ، جالبين من ثلاجة الصالة ما تكون لنا به حاجة دون أن (نغامر) في الاستعانة بـ(أبو بلقيس)!

كان المقهى كدأبه خاوياً ؛ ذلك لأن رواده لا يتجاوزون أصابع اليدين عداً ، وهم حصيلة (ثورات) فجّرها (أبو بلقيس) منذ تسلّمه أمور المقهى عقب موت أبيه ، صفّى خلالها عشرات الرواد غير المرغوب فيهم الذين وجدوا أنفسهم مجبرين على تجنب تخطي عتبة المقهى تحت وطأة تهديد (أبو بلقيس) التقليدي بأنه (سيكسر أرجلهم) مترحمين على ذلك الرجل الذي كان المقهى في زمنه يغصّ بهم فكان

www.ibtesama.com

يضطر إلى عدم الاقتصار على الصالة ، بل كان يرصف (التخوت) إلى جانبي الزقاق أيضاً .

كان يكفي (أبو بلقيس) أن يسمع أحدهم يتذمر بسبب نقص السكر أو سوء (تخدير) الشاي ليطيّر من فوره الكوب مع صحنه نحو الشرفة حيث تبتلعهما مياه الوادي ، أما (الخردة) فكانت سبباً آخر لإطلاق تهديده التقليدي ، معقباً إياه بجملته التي غدت أشبه بحكمة لا ينقصها سوى أن يكتبها هو بخط (الثلث) ويعلقها في صدر الصالة مع الحِكم الأُخرى :

– يفترض بأي رجل أن يكون قد هيأ مسبقاً (الخردة) في جيبه قبل أن يفكر في الجلوس ، واضعاً ساقاً على أخرى ، آمراً إياي بالإسراع في جلب الشاي إلى جنابه!

وهكذا لم يحتفظ (أبو بلقيس) في النهاية إلا بهؤلاء الرواد الذين لا يتجاوزون أصابع اليدين عدّاً ، وهم في الغالب أدباء وفنانون استوعبوا أسلوب الرجل ومزاجه ؛ فأضحى شعارهم (اخدم نفسك بنفسك!) ، مطرين من حين إلى حين موهبة (أبو بلقيس) لكونه فناناً (فطرياً) ، وهي مفردة لم يتقبلها بارتياح في أول الأمر من صديقي الشاعر – وكان أول من أطلقها عليه – وانقطع عن الدندنة بمقطع أغنية ذلك اليوم ، وبدا من الواضح أن التهديد التقليدي يوشك أن يتردد تحت سقف المقهى الذي في سبيله إلى أن يفقد واحداً من أهم رواده المتبقين لولا أن الشاعر استبق (المحنة) ؛ فسأله صراحة عن سبب استيائه ، فإذا به – وهو يتهرّب بعينيه الصفراوين منه – يُبدي عدم ترحيبه بتلك المفردة بسبب اقتران كلمة (الفطري) بـ(الفطارة)!

تساءل وهو يتجنب مبادلته النظر :

– أنا (أبو بلقيس) فطير؟ هل يُرضيك ذلك يا أستاذ؟

www.ibtesama.com

فلم يجد الشاعر بدّاً من أن يزيل هذا الالتباس وذلك بسرد تاريخ مختصر للفن الفطري طعّمه بأسماء فنانين كان آخرهم النحات العراقي (منعم فرات) . . . .

كان (أبو بلقيس) قد زيّن جدران الصالة بلوحات تفتقر إلى المنظور الصحيح ، تكاد تعشي العينين بألوانها البدائية الصارخة . وكان أغلبها مناظر للجرف الشمالي لوادي المرّ حيث قضى أعواماً من عمره وقد نصب حامل لوحاته في الشرفة الصغيرة ، ليجسّد بأسلوبه (الفطري) المصحوب بدندنته لمقطع من أغنية ما ، كل ما يقع تحت عينيه الصفراوين من الجانب الآخر للوادي ، ولاسيما بناية المتحف التي تبدو من هذا الموضع كتلة مبهمة شاخصة في زرقة السماء فوق عشرات الأبنية الواطئة ، وقد منح البعد خطوطها المتنافرة شيئاً من الاتساق والانسجام . وكان صراخ النوارس التي لا تكف عن التخاطف فوق الوادي يضفي عليها منظر لقطة مأخوذة من أحد أفلام الرعب ، وقد عرف (أبو بلقيس) كيف يجسّد هذا الانطباع في واحدة من أكثر اللوحات تعبيراً وأصالة : فقد رسم في مقدمة اللوحة ، وبحجم كبير ، طائر نورس باسط الجناحين مشرع المنقار والمخالب وكأنه في سبيله للانقضاض على عينيّ المشاهد ، تتعقبه دوامة طيور نوارس ، تبدو من خلال أجنحتها المفتوحة – وفي خلفية اللوحة – كتلة غامضة سرعان ما يكتشف المرء ، بعد تأمل ، أنها بناية المتحف التي تبدو وكأنها مصدر انطلاق تلك الطيور في غارتها الوحشية المنذرة بالدمار!

وفي لوحة أخرى اقتحم (أبو بلقيس) ، بضرباته اللونية ، انغلاق القاعة (النورية) على نفسها في المتحف ؛ فأظهرها من الداخل بأقواسها وزخارفها الإسلامية وعتمتها الزرقاء التي تومض خلالها عيون رسم حدقاتها على شكل قلوب دقيقة دلالة كونها عيون عشاق يستجيرون بتلك القاعة!

www.ibtesama.com

وهناك لوحة أخرى تمثّل بضع قلاع ينبع بعضها من بعض بشكل يذكّر المرء بأسوار القلعة القديمة المحيطة بأبنية المتحف وبضمنها القاعة (البصيرية) يتوسطها النموذج المصغّر للقلعة .

وكانت جدران صالة المقهى مزدانة أيضاً بحكم وأبيات شعر كتبها (أبو بلقيس) بأصناف الخطوط الكلاسيكية المعهودة ، فضلاً عن أصناف مبتكرة يغلب عليها الطابع (التكعيبي)! . . وهنا وهناك صور فوتوغرافية أضفى عليها لمسات من عنده كأنْ يركّب صورتين ضمن إطار واحد : فتظهر إحداها - الكعبة مثلاً - حين النظر إليها مباشرة ، والأخرى - المدينة - حين النظر إليها من الجانب ، وثمة صور منسوجة بكاملها بالخرز ، وأخرى بالقواقع ، فضلاً عن تثبيت أغصان في الزوايا استقرت بينها طيور محنّطة يضفي عليها تغريد بلابل محبوسة في أقفاصها شيئاً من حيوية . وهناك (ابن عرس) محنّط أقعى على مؤخرته ، ممسكاً بطرفيه الأماميين الضامرين جوزة ، وأمامه كومة جوز حقيقي - كانت أول ما نغير عليها حينما ينفد معيننا من المقبّلات! - وكانت الصالة حافلة بأشياء أُخرى لا تمتّ إلى الفن بصلة إلا لكونها خرجت من بين أصابع (أبو بلقيس) مثل السلال الخوصية ، والكراسي والأسرّة المعمولة من جريد النخل ، وشبكة صيد تبدو ديكوراً أزلياً لم تخل الصالة منها يوما ما ، وثمة دراجة هوائية مسنودة إلى أحد الجدران لم تنج بدورها من لمسات (أبو بلقيس) ؛ فقد حوّرها لتفي بحاجاته : فثبّتَ سلّة سلكية أمام مقودها ، واستبدل بالمقعد الخلفي صندوقاً مبطناً بالقماش حيث تناوبت بناته - إذ إنه لم يُرزق بغير الإناث - الجلوس في ذينك الموضعين قبل أن يكبرن ويتزوجن ويغدون أمهات : في السلّة وهنّ مازلن في الأشهر الأولى من أعمارهن ، وفي الصندوق بعدما يكبرن بعض الشيء ، مشاركات أباهن الفنان الفطري في

www.ibtesama.com

(حجّه) الأسبوعي إلى الطبيعة خارج مدينة (الأسلاف)، لعل واحدة منهن تعينه في تحمّل المسؤولية فتنوب عنه، من بعده، في حمل الفرشاة!

- على الرملهْ . . . . .على الرملهْ . . . ضوهْ الكمرهْ . . ضوهْ الكمرهْ!

كان (أبو بلقيس) يدخل علينا الشرفة من حين إلى حين، تسبقه دندنته تلك ليأخذ (رشفة) صغيرة من كأسه التي لا تنفد على مدى ساعات - فتقنين الشرب كان ضمن المواصفات الكفيلة بالإبقاء على شبابه أيضاً! - وكان في كل مرة يدخل علينا حاملاً بيده شيئاً ما: فرشاة رسم مرة، وفأساً مرة ثانية، ومفك (براغي) ثالثة! . . . لكنه في جميع الأحوال كان يحرص على الإبقاء على (خفة دمه) محاولاً تبديد جو الكآبة المهيمن على جلستنا؛ فيكتفي بأن يغمزني سائلاً:

- رواية؟ هه؟

ويلتفت نحو صديقي سائلاً إياه مع غمزة أيضاً:

- شِعر؟ هه؟

و . . . . على الرمله . . . على الرمله . . . . كان يعود إلى الصالة ليتابع أشغاله، تاركاً إيّانا نتملى الأصول التي استمد منها مناظر لوحاته: حيث الكازينوهات والملاهي والمتنزهات والمشارب تتراصف أمامنا على الجرف الشمالي لوادي المرّ، ونسمات الربيع التي لا تزال تشوبها لسعة من برد تحمل إلى أسماعنا مقاطع صاخبة من أغانٍ شائعة سرعان ما كانت تتلاشى بسبب هدير القوارب البخارية التي لم تكن تكف عن المروق وسط المياه حيث تتكسر تحت شرفتنا العالية بعد لحظات الأمواج التي تكون قد أثارتها، فتعلو قوارب الصيادين الصغيرة في مواضعها وتهبط، في حين تطير النوارس ناعبة.

كانت الشمس قد غابت، ودوّتْ عشرات المنائر بالأذان لتعاود

www.ibtesama.com

الأصوات المألوفة بعدها إيقاعها المألوف . ومن جهة الشرق ازداد هدير المياه الربيعية المزبدة وضوحاً وهي تندفع بضراوة من تحت بوابات السدة الحديدية نصف المرفوعة ، لتسيل على مهل غرباً حيث تبدو كأنها تكاد تشتعل تحت ألق الشفق الذي لطخ الأفق الغربي .

كانت بناية المتحف محط أنظارنا ، يزيدها الظلام الزاحف جلالاً وغموضاً وهي تعوم في زرقة سماء تزداد عمقاً ، وزجاجاتها الغربية تسطع عاكسة حمرة الشفق .

كان من رأي الشاعر أن أفكار بدر ، العبقرية والجنونة في الوقت نفسه في إقامة متحفه ذاك ، هي الكفيلة بمساعدتي في كتابة روايتي!

قال مع نفثة دخان تبددت ببطء في الجو الربيعي المشبع بالرطوبة :

– لا بد لروايتك من مزيج عبقرية وجنون ؛ إذ إنهما صفتان لا مفر من اقترانهما ببعضهما لينتج عنهما عمل إبداعي خارق!

وحين ضحكتُ مستنكراً ، علّق موضحاً :

– نعم . . . ذلك أمر لا مفر منه ؛ فبعدما حدثتني بدقائق تلك الرواية وأسرارها تأكد لديّ أنها ستغدو على شاكلة ذلك المتحف : مزيجاً من الفوضى والتنافر ظاهرياً ، في حين هي في باطنها بمنتهى الدقة والنظام!

– أتعتقد أن روايتي ستغدو برج بابل جديداً؟

– لم لا؟ فقد تحولت المدن الحديثة كلها إلى أبراج ومتاهات!

وأضاف بعد وقفة قصيرة بدا خلالها كأنه يستجمع أفكاره :

– والغريب أن الصفتين المتناقضتين اللتين أُسندتا قديماً إلى برج بابل قد تجسّدتا في هذه القلاع التي أُقيم بعضها فوق أنقاضِ بعض ليبلغ (تل الأربعين) هذا الارتفاع : فقديماً كان يُشاع أن القلعة أُقيمت من قبل قوى الشر تحدياً منها للآلهة – وما تفجّر من صراع بين (مطلق)

www.ibtesama.com

و(السيد نور) حين حاول الأول بناء القلعة لم يكن إلا صدى لتلك الفكرة - في حين غدت قمة المتحف في زمننا مكتبة أي موضعاً للخير!

هكذا مضينا في أحاديثنا ، والظلام يتكاثف من حولنا ، ونوافذ أبنية الجانب الآخر للوادي وشرفاتها تُضاء بالتتابع لتومض المياه المتدفقة غرباً بألقها الرجراج . وكان (أبو بلقيس) قد غادرنا ، مدندناً (على الرملهْ . . على الرملهْ!) تاركاً على عهدتنا مهمة إغلاق الباب ؛ إذ من ضمن المواصفات التي كان يتبعها أيضا للإبقاء على شبابه الخالد النوم المبكر!

قلتُ ويدي تتلمس سبيلها في الظلام نحو كأسي :

- أنا مثل ذلك النحات (الفلورنسي) الذي كان يقول إن التمثال يكمن في قلب الكتلة الصخرية ، وما عليه سوى إزالة القشور عنه . . . أنا مثله أشعر أن روايتي تكمن في تلك الأشياء المتنافرة : نصوص شفهية ، ووثائق وتواريخ ، وكتابات عرفانية ، وأُخرى أدبية . . . لكنني لا أزال عاجزاً عن إخراجها بالطريقة التي ترضيني .

- لماذا؟

تساءل وهو يسحب نفساً عميقاً من سيجارته التي بلغت جمرتها من توهجها أنها أضاءت زجاجتي نظارته .

- لماذا؟ ولكن ذلك أمر واضح ؛ فما الذي يجمع النصوص الشفهية التي يغلب عليها طابع السير الشعبية بنص شبيب طاهر الغياث؟ وما الذي يجمع نص (ذاكر القيّم) بنصي أنا؟

أجابني ، ويدانا تصطدمان في الظلام وهما في سبيلهما لالتقاط آخر ما تبقى في صحن المقبّلات :

- الذي يجمعها هو الأسلوب الحديث للرواية ؛ فقد قال

www.ibtesama.com

(باختين) : (أسلوب الرواية هو تجميع لأساليب ، ولغة الرواية هي نسق من اللغات) .

وأمامنا ، فوق مئات النوافذ والشرفات المضاءة ، كانت أنوار الكشافات قد جسّدتْ خطوط بناية المتحف ، مضفية عليها هيئة حلمية على شيء من الإبهام والغموض ، هيئة غريبة لاشك أنها بقيت تطالع (أبو بلقيس) أعواماً لا تُعد ولا تُحصى ، وهو يدندن بالمقاطع المختارة من أغنياته ، مفجراً (ثوراته) ، محوّراً كل ما يقع تحت يديه ، ليستنجد في آخر الأمر بفرشاته ليفرّغ كوابيسه على شكل لوحات زيّن بها الصالة القابعة خلفنا في الظلام!

وكان موعد الإغارة على جوزات (ابن العرس) المحنط قد حان ، ومعها جادت قنينتنا بآخر قطرة دون أن تفلح في منحنا العزاء أو السلوى . كنا كائنين فانيين تقربنا كل لحظة تمضي من المصير المحتوم .

- على كل حال يبقى السؤال هو ما جدوى إضافة رواية أخرى إلى ركام الروايات التي لا تكف المطابع عن لفظها كل دقيقة؟

ترجمتُ شعوري باليأس بصيغة ذلك السؤال ، لكن صوت الشاعر جاءني من الظلام :

- لو فكّر كل روائي على هذه الشاكلة لاندثر فن الرواية منذ بلوغه قمة نضجه في أواخر القرن التاسع عشر ، ولما استطاع روائيو القرن العشرين تحدي مستجدات العصر - سينما ، مذياع ، تلفاز - ليبتكروا رواياتهم .

فتساءلت وأنا أضحك بمرارة :

- ولكن . . . هل أبقى لنا هؤلاء الروائيون المجال لابتكار المزيد؟

- اسمع يا صديقي . . . ستبقى كل رواية عظيمة تحمل ملامح مبدعها مثلما يستدل ببصمة الإبهام على هوية كل إنسان . أما ما

www.ibtesama.com

يقلقك بشأن التناص والتشابه وما شاكل ذلك ، فأمر عفا عليه الزمن ؛ ذلك لأنه لا مفرّ للروايات من أن تتشابه في أسطر منها أو صفحات ؛ لأن مادة جميع الروائيين على سطح هذا الكوكب هي الحياة نفسها . وقد سبق لـ(بورخس) أن قال ما معناه إنه لا يوجد أديب يستطيع ادعاء الأصالة ؛ وذلك لأن جميع الكتّاب هم مترجمون ومعلّقون على أنماط سابقة الوجود ، بل إنه حدد الأدب الحديث كله بقيامه على أربع تقنيات أساسية هي : الكتاب داخل الكتاب ، وعدوى الواقع بالحلم ، والسفر في الزمن ، والمضاعفة .

تُرى أفي وسعي استثمار تلك التقنيات الأربع مجتمعة في روايتي هذه؟

فكرة لم أجهر بها ، وأنا أتقدم الشاعر ، مجتازاً الصالة الغارقة في الظلام ، وقد رفعتُ يدي أمامي كالأعمى خوفاً من الاصطدام بأحد فخاخ (أبو بلقيس) الفطرية مدندناً بلسان خدر (على الرمله . . . على الرمله) موقظاً بذلك البلابل التي أخذت ترفرف في أقفاصها فزعة!

كانت الشوارع فارغة ، تمتد بسواد إسفلتها تحت ظلام الليل باستقامة تبعث على الدوار ، تزيدها أضواء إعلانات المخازن والحوانيت والصيدليات المقفلة – وهي تشتعل وتنطفئ بإيقاع متكرر – عزلة ووحشة . وكانت إشارات المرور الضوئية القائمة عند مفترق الشوارع والساحات تتناوب عبثاً في إضاءة ألوانها الصفر والحمر والخضر ؛ إذ ما من سيارات تزاحم بعضها بعضاً اللهم إلا اثنتان أو ثلاث مرت بنا ، ونحن نحث الخطى مثل تائهين ، وأبطأت إحداها من سيرها على أمل أن نومئ لها بالوقوف ، وحين لم نولها اهتماماً هدرت مبتعدة عنا ، شاخطة الإسفلت شخطة بدت أشبه بشتيمة ، وبقي محركها يرن لحظات بجلاء غريب قبل أن يهيمن الليل بصمته الثقيل .

www.ibtesama.com

- ها هي الأسلاف في حزن أواخر الليل .

همس بها الشاعر ليدندن بعدها بصوت خافت بمقطع من إحدى قصائده :

آه لو تبكي على نفسك يا رحمن ساعهْ
أنت قد تحتاج بعد اليوم أن تذكر أيام الشجاعهْ
إنني أنشج خلف الريح أبكي
وأنا أكتشف اليوم الخيانهْ
وأنا أسكت كي آكل خبزي

ولم أدرِ متى افترقنا ؛ فقد تنبهت إلى نفسي ، في إحدى لحظات الصحو المفاجئة ، فإذا بي أكتشف أنني أسير وحدي مخترقاً أسواقاً متشابهة ينسخ بعضها بعضاً بسقوفها المثلثة ، وأبواب حوانيتها المقفلة التي تعلوها مصابيح كهر بائية مضاءة ، وبأكوام النفايات التي تغوص فيها الأقدام فتمرق من بينها القطط بغنائمها . إنها أسواق يؤدي بعضها إلى بعض موهمة إياي بأنني أسير في حلقة مفرغة لولا أنني كنتُ أستهدي سبيلي نحو غايتي عن طريق الروائح . . . روائح عطور . . .أو توابل . . . أو لحوم . . . أو خضر بائتة . . . حيث الحراس الليليون كانوا يستقبلونني بنظرات ارتياب ، ويتعقبونني بدوي صفاراتهم الثاقب .

كنتُ أجتاز تلك الأسواق مبادلاً ظلي لعبة التعقب والمطاردة : فمع كل مصباح أمر به كان ظلي يتقدمني لينمو ويستطيل ، حتى إذا ما اقتربتُ من مصباح آخر استدار ظلي خلفي ليتعقبني بإلحاح في انتظار اجتيازي ذلك المصباح ، ليتقدمني من جديد مكرراً اللعبة نفسها!

وتابعتُ بتوجس مجموعة كلاب لاحت من بعيد وهي تتقدم في اتجاهي مهرولة صامتة مدلاة الألسن . لكنها اجتازتني ، متعقبة كلبة

www.ibtesama.com

كانت تدرك أنها محط اهتمام الجوقة ؛ فقد كانت تتصرف على هواها : تقف لحظات متشممة نفاية ما ، أو تقوّس جسدها بمرونة عجيبة لتعضعض ذيلها مطاردة أحد براغيثها غير آبهة بالكلاب التي كان بعضها يعبّر عن نفاد صبره برفع فخذه والتبول!

هاهي مدينة الأسلاف في وحشة أواخر الليل وقد انسحبت عنها ضجة النهار فعادت متاهات وجزراً منعزلة ، تبعث على اليأس والقنوط .

تُرى هل أستطيع أن أُدخل كل هذه الأمور في روايتي القادمة؟

وكنتُ أقترب حثيثاً من أماكن الطفولة والصبا حيث تزداد الأزقة القديمة ضيقاً وتعرّجاً وهي تمضي على استحياء بين تلك البيوت القديمة ذات الطبقتين التي تعلو الشناشيل المعهودة أبوابها ، بيوت جابهت تقلبات الزمان وجور الإنسان بنبل طابوقاتها المنقّرة التي رصّفتْ بعضها فوق بعض أيدي بنائين عظام كانوا يستهدون بالشرف والقيم والأخلاق في تطويع الجدران الصمّ ، موجهين إياها نحو مسارات توفر للجميع الراحة والستر ؛ فما من باب بيت يقابل مباشرة باب بيت آخر منتهكاً بذلك حرمة قاطنيه ، وما من كوّة يمكن اختلاس النظر منها في غفلة من امرأة مسترسلة مع أحلامها ، وما من سطح يُشرف على سطح مؤرقاً نوم عذراء تمعن في دفن رأسها في وسادتها الريش .

بيوت خرجت منها الجنائز أكثر مما دخلت إليها الأعراس ، بيوت كهلة غارقة في الظلام باستثناء بصيص ضوء خافت يتسلل حذراً من خصاص شباك أو من خلال شقّ باب ، بيوت صامتة لا يصدر عنها إلا سعلة جافة أو أنّة توّجع ، بيوت ميّتة مالتْ سقوفها جانباً وتقببتْ حيطانها إلى الخارج مبقورة الأحشاء . . . . بيوت عمياء فقدت فتحاتُها المستطيلة والمربعة الأبوابَ والشبابيكَ فأمستْ تُرمى من خلالها

www.ibtesama.com

النفايات إلى الداخل ، بيوت مستباحة عارية يفرغ السكارى مثاناتهم على مرمى حجر من غرف نوم وأجنحة حريم كانت حصانتها تجعل أصحابها يميّلون (عُقُلهم) فوق كوفياتهم بكبرياء وهم يتهادون في مشي وقور مصحوب بحفيف العباءات الفاخرة ، متجهين نحو مقهى الطرف ، بيوت تبدو كأنها لم تتدفأ بأنفاس إنسان ، ولم تتردد تحت سقوفها ضحكة طفل!

وعاد ظلي يتقدمني وأنا أمر بعامود الكهرباء القائم على رأس زقاقي ، وأخذ يمتد ويمتد حتى وصل إلى باب بيتي المغلق .

هناك . . . خلف تلك الشناشيل المظلمة يقبع دفتر ملاحظاتي في انتظار أن أُسطّر فيه المزيد من كلمات روايتي وسطورها التي تطمح إلى أن تدخل كل هذه الأمور بين غلافيها!

استندتُ إلى الباب الخشبي ذي الزخارف البارزة ، هذا الباب الذي صنعه أبي النجار بنفسه مودعاً مع كل مسمار دقّه فيه حرصه علينا وخوفه من (هادم اللذّات ومفرّق الجماعات) هذه العبارة التي كانت ترعبني وتشعرني باليأس كلما طالعت عيني في ختام إحدى حكايات (ألف ليلة وليلة) .

ارتجفتُ فجأة ، فغالبتُ شعوراً مباغتاً بالدوار ، وشعرت بجسدي كله يبرد ، فأيقنتُ أنني في سبيلي إلى أن أتقيأ ؛ فتنشّقتُ الهواء بعمق ، والتفتُ إلى الوراء كالمستغيث ، فشعرتُ بضوء مصباح عامود الكهرباء وكأنه انفجر في عينيّ الخدرتين بألف شظية!

عدتُ أتلمّس الخشب النخر كمن ينتظر حصول معجزة تؤدي إلى أن تدبّ الحياة فيه ، ووقعتْ أصابعي على المطرقة البرونزية التي على هيئة كف مضمومة الأصابع . وبعد لحظة تردد رفعتها لأدق بها دقتين تعقبتُ بخيالي صداهما وهو يدوّي في الغرف الخاوية بإيقاع موحش .

www.ibtesama.com

وانتظرتُ لحظات قبل أن أعاود الطرق بعنف أشد وقد راقت لي اللعبة. لكنني سرعان ما تنبهت إلى نفسي حين لاحظتُ شناشيل البيت الملاصق تضاء، وتنطلق منها ضحكة متهكمة، فسارعتُ في إدخال المفتاح في موضعه.

دفعتُ الباب إلى الداخل، فارتسم ظلي العملاق على امتداد أرض (المجاز) ليتسلق الشباك المقابل المطل على (الليوان). وحين ضغطتُ على مفتاح النور ومض المصباح الكهربائي فوق رأسي ومضة خاطفة لينطفئ محترقاً، فتلمستُ الحيطان من حولي متحسساً باب (الديوخانة) الذي لم يُفتح منذ أعوام لاستقبال أحد. استدرتُ يساراً داخلاً (الحوش) حيث منحتني آلاف النجوم التي ترقّط مربع (الحجّر) الواسع بصيص ضوء خافت استطعتُ أن أُشخّص به خطوط السدرة الهرمة في ارتفاعها الهائل على امتداد طبقتين وثمة طائر عكّرتُ عليه إنفراده بنفسه فرفّ بجناحيه متنقلاً من غصن إلى آخر.

وقفتُ في موضعي مجيلاً عينيّ في ظلام هذا البيت الحافل بالأصداء، مرهفاً السمع لتكتكة الساعة الجدارية وهي تتواصل برتابة.

كنتُ أشعرّ بهم من حولي في كل مكان: في (الليوان) القريب، وفي المطبخ، وفي الحمّام والغرف، وفوق رأسي في الطبقة الثانية. كانوا يتنفسون بعمق، متلمسين وجهي الساخن بأصابع باردة.

كنتُ أرى عيونهم تومض في الظلام، وأفواههم تفغر بضحكات صامتة... كنت أراهم يزاحمون بعضهم بعضاً على أرائك (الليوان) وهي يتحدثون دون كلام عن أشغال النهار الراحل: الرجال يتحدثون عن الشوارع والأسواق والدوائر والمقاهي. والنساء يتحدثن عن الطبخ والغسيل والكنس وقط الجيران الذي أغار مرة أخرى على اللحم. وكان يأتيني رنين وعاء معدني يصدم قعر الحوض في الحمام، وخرير الماء

www.ibtesama.com

وهو يندفع من أحد الصنابير . كانوا حولي ألصق بجلدي من رائحة عرقي ، يخنقون عليّ حاضري بثقل الماضي الذي لا يرحم . كانوا يحملون لي ، بوجودهم الأثيري ، العزاء واليأس .

ضغطتُ على مفتاح الضوء فغمر وهج المصباح الساطع (الليوان) حيث لاحت ، من خلال عيني المخضلتين بالدموع ، الأرائك خاوية على عروشها . وعلى الجدار المقابل ، تحت بندول الساعة الذي لا يكفّ عن التأرجح إلى الجانبين ، تراصفتْ صورهم : صورة أبي وأمي وأختيّ الاثنتين ، وقد تقاطعتْ على امتداد زواياها العليا شرائط سود . وعلى الجدارين الآخرين توزعت صور إخوتي الثلاثة الذين هاجروا نحو المدن البعيدة ، وصورة أختي الوحيدة التي هاجرت بأسرتها أيضاً . وهنا وهناك تدلّتْ لوحات مائية رسمها أخي الفنان مودعاً فيها عشقه لمدينة (الأسلاف) . وكانت صورتي - أنا العزب الأبدي - هي الوحيدة التي تنقص تلك المجموعة!

ارتقيتُ السلم نحو الطبقة الثانية ، وساقاي تكادان تعجزان عن حملي ، ودخلت غرفة (الأرسي) ، وعلى سريري الخشبي الذي مات عليه أبي وأمي وأختاي تهالكت بملابسي لأنام كالجثة!

استيقظتُ صباحاً برأس ينبض بالصداع وفم متيبس ، إلا أن أصداء لقاء (الخلوة) كانت لا تزال ماثلة في ذهني حتى إنني كرست ، في المدرسة ، دروس الرسم في الاتجاه عينه ؛ فاقترحت على الطلاب رسم المتحف . وكانت النتيجة أمراً لا يخطر على بال : فقد حفلتْ كراسات الرسم برسومات اختزل الطلاب بها تاريخ نشوء المتحف وما ارتبطت به من أساطير وأحداث مذ كان محض قلعة حتى الوقت الحاضر .

كانت رسومات تتباين في قوة التعبير . لكنها كانت تجسّد

www.ibtesama.com

مجتمعة نظرة التهيّب والتقديس التي يحيط بها هؤلاء الطلاب تاريخ القلعة ، لا يشذ عنهم سوى اثنين أو ثلاثة دلّت رسوماتهم على كونهم يمرون بمرحلة مراهقة عنيفة ؛ إذ إنهم كانوا قد ركّزوا على القاعة (النورية) وما ارتبطت بها من قصص العشاق والمتيّمين!

لقد بلغ افتتاني بتلك الرسومات حداً دفع بي إلى تجميع الكراسات لأريها الشاعر ، فاستغرق في تأمّلها في غرفة المدرسين على امتداد درس شاغر ، دخّن خلاله أكثر من سيجارة . وفي النهاية انتزع نظارته ، لينظف عدستيها السميكتين . وعلّق وهو يطالعني بعينين مرهقتين محاطتين بهالتين حمراوين .

- ألم أقل لك ليلة البارحة أن أفكار بدر في إقامة متحفه هي الكفيلة بمساعدتك في كتابة روايتك؟ انظر . . . لقد غدت تلك الأفكار تشغل جانباً من (اللاوعي الجماعي) لطلابك . . . جيل المستقبل!

وهكذا عاودتُ التسلل من المدرسة متخذاً طريقي نحو المتحف حيث محلات الحدادة كانت تستقبلني بضجة احتجاج مطارقها التي بدت كأنها تدينني مع كل خطوة أخطوها نحو الشارع ، في حين كانت الآلات والمكائن ومئات الأشياء التي يعلوها الصدأ تعترض سبيلي على امتداد الزقاق وثمة برك زيت ذات ألوان قزحية تنساب من تحتها ملطخة الإسفلت والأقدام ووجوه فتيان منهمكين في تصليح تلك الأشياء لقاء أجور لا مفر لهم دون شك من أن يستهلكوا معظمها في شراء الصابون!

في مكتبة المتحف تألقت عينا ورقاء ، من خلف الحاجز الخشبي ، بنظرة فرح حقيقي لحظة لمحتني داخلاً بدفتر ملاحظاتي بعد انقطاع طويل . قالت لي مداعبة ، وهي تسلمني مخطوط (الراووق) :

- ألم تحفظ هذا المخطوط عن ظهر قلب؟

www.ibtesama.com

وأضافت بمكر نافضة شعرها إلى الوراء بحركتها الخاصة :

- يبدو أنك لست بصدد كتابة رواية جديدة عن (الراووق) ، بل إنك عقدت العزم على سلوك طريق العرفان : ذلك لأنه لم يبق أمامك سوى إطلاق لحيتك ، والاعتكاف في إحدى الزوايا ، ليلتحق بك المريدون!

- والمريدات أيضاً ؛ إذ يبدو أنك سلكتِ الطريق نفسه قبلي!

أجبتها من فوري وأنا أشير إلى حليتها الذهبية ، فسارعت إلى الإمساك بها ، وقربتها من عينيها قائلة :

- إنها محض حلية على شكل مصحف أهدتها لي أمي .

فمددتُ عنقي نحو الحاجز الخشبي محاولاً قراءة تلك الكتابة الدقيقة المحفورة بـ(المينا) على اصفرار الذهب . لكن ورقاء تراجعت مذعورة مجيلة حولها نظرة محاذرة . وحينما اطمأنت إلى خلو المكان إلا من طالب منهمك في النبش في أدراج البطاقات ، همست متهكمة :

- أنّى لعينيك اللتين أتلفتهما القراءة تشخيص كلمات هذه الآية القرآنية؟

وأردفتْ وهي تقرأ نص تلك الآية :

- (بل هو قرآن مجيد . في لوح محفوظ) .

وشدّتِ المفارقة من فورها انتباهي ؛ فاسم ورقاء يعني ، بحسب المصطلحات الصوفية ، (اللوح المحفوظ)!

غمغمتُ دهشاً :

- اسم على مسمّى!

- المهم أن اسمك ليس (عقاب)!

أجابتني وقد غطت بمنديلها الورقي فمها خجلى ، وانفلتت داخلة الباب المفتوح خلفها وكأنها شعرت بأنها تخطت الحدود معي ، تاركة

www.ibtesama.com

إياي أُشيعها بنظرة ذهول ؛ ذلك لأن آخر ما كان يدور في خلدي أن ورقاء على علم بأن اسم (عقاب) يعني صوفيا (القلم الأعلى)!

في قاعة المطالعة ، التي كادت تكون خالية في مثل هذا الوقت من النهار ، جلست على أقرب كرسي واضعاً المخطوط ودفتر الملاحظات على المنضدة وأنا أفكر بورقاء .

لا شك أنها ذات ثقافة رفيعة ؛ فما من مرة داعبتها إلا كشفتْ عن جانب من ثقافتها تلك .

تُراها تتقصد في ذلك محاولة شد انتباهي بمجاراتي في ما تشغلني من هموم ثقافية؟ أم تلك هي طبيعة ثقافتها حقاً؟

سؤالان لم تشغلني الإجابة عنهما طويلاً ؛ إذ إن مخطوط (الراووق) سرعان ما أخذني بدوامته المدوخة ؛ فقد انهمكتُ في قراءته في ضوء المعلومات التي دوّنها لي شبيب طاهر الغياث في أوراقه ـ وكنتُ قد لخّصتها في دفتر الملاحظات ـ

قرأته بإمعان على مدى أيام كنت أتفنن خلالها في ابتكار شتى المعاذير والحجج للإفلات من المدرسة : أمراض طارئة تقتضي مراجعة أقرب مستشفى ، اتصالات هاتفية ومراسلات عن حدوث وفيات وزيجات وولادات لدى أسر اكتشفتُ ، دون سابق إنذار ، إنها تمتّ بصلة قربى لأسرتي مما تطلب الأمر مني (القيام بالواجب) . وحينما تنفد الحجج كان صديقي الشاعر على أهبة الاستعداد لإسعافي بعقد اتفاقياتنا المعهودة من خلف ظهر المدير!

وكان بدر قد وجدها فرصة لا تفوّت من أجل تسجيل القسم الثاني من (السيرة) : فأخذ يلاحقني بإصرار مبرهناً بذلك على صدق انطباعات شبيب التي دوّنها عنه في أوراقه . كان يفاتحني بذلك لحظة مروري بغرفته قبل صعودي إلى المكتبة . وإن صادف ولم نلتقِ تجشّم

www.ibtesama.com

عناء صعود عشرات السلالم ليقتحم عليّ ، بحركته العاصفة ، قاعة المطالعة طارحاً عليّ الأمر نفسه . ولم يكن يفوّت استثمار الهاتف من أجل هذه الغاية ، أو يجنّد أحد موظفيه ليتعقبني حتى منضدتي داساً تحت أنفي - وأنا مستغرق في قراءة المخطوط - ورقة دوّن عليها سبع كلمات تعقبها علامات تعجب كان عددها يزداد بمرور الأيام :

- لا تنس تسجيل القسم الثاني من (السيرة)!

وهكذا ، كان لا بدّ لي ، في آخر الأمر ، من الاستسلام ؛ فتعقبّته نحو القاعة المنشودة مرتقيين سلالم ومجتازين ممرات وقاعات كانت تضج بأصداء صوت بدر وهو يحدّثني بحماسته عن ميزات هذا القسم ، واختلافه عن القسم الأول ، وضرورة أن أُعيد الاستماع إليه أكثر من مرة لأقع على ما ذكر .

وكان محط رحالنا القاعة (اليتيمية) القائمة في الزاوية الجنوبية الشرقية للمتحف ، حيث كان في انتظارنا (قصخون) مزود برباب وقد تربّع في أبرز مكان وسط ديكورات جسّدتْ المرحلة الثانية من تاريخ مدينة (الأسلاف) وأبرزها نموذج من القصب لأول مضيف أُقيم لـ(مطلق) . ومن خلال الواجهتين الزجاجيتين الشرقية والجنوبية لاحت لي مياه البحيرة تمتد إلى مدى البصر ، مذّكرة إياي بـ(بزايز الجولان) والأهوار الجنوبية التي أقام فيها (المعيدي) جبّاشات جماعته اللصوص حيث بدأت قصة عشق طارش الابن البكر لـ(مطلق) ، تلك القصة التي مهّد لها (القصخون) بمقدمة طويلة تاركاً (كاسيت) المسجّل يطوي ، على امتداد شريطه المرهف ، تلك الأحداث التي ألّفها (مدلول اليتيم) .

www.ibtesama.com

www.ibtesama.com

إشراق الصفات

أخبرني (شبيب طاهر الغياث) في ما كتب به إليّ قال : وجدتُ بخط (ذاكر القيّم) عن بعض القيّمين على المزار عن (السيد نور) قال : سمعتُ (عذيب العاشق) قال : سمعتُ (مدلول اليتيم) قال :

لم تكن يداي هما اللتان التقطتا الرباب في غفلة عن شيخي (عبدالله البصير) ، ولم تكن قدماي هما اللتان سعتا بي نحو ذلك الراوي الذي كان يحفظ أحداثاً تعقب عام الطاعون ؛ إنما وجّهني للقيام بما قمتُ به مَنْ أفناني عن نفسي ، ذلك الذي سلبني عن وجودي ، وأقام في هيكلي الفاني روحاً منه ، فقبلتْ ذاتي الاتصاف بصفاته ، وهو العليم بأسرار (السيرة) التي فاضتْ عنه هو أول ما فاضت لتتوزع شذرات منها في صدور الآخرين .

تلك كانت بداية شروعي في تأليف القسم الثاني من (السيرة) ، وهي بداية تركتْ في القلب غصّة ؛ إذ أنّى لشيخي أن يدرك حقيقة ما جرى؟ لقد نغّص هذا الأمر عليّ حماستي وأنا أمضي من راوٍ إلى آخر جامعاً منهم الأخبار والحكايات ، مستمداً من ذلك المقيم فيّ الهمّة التي كفلتْ لي المضيّ في إنجاز ما نُذرتُ من أجل إنجازه ، وثمة صوت في داخلي يهيب بي ألا أحزن ؛ فاليوم الموعود سيأتي وسيدرك شيخي أنني لم أكن مخيّراً في أن أنوب عنه في إكمال ما بدأ به هو .

كنتُ أتهيّب ، في أول أمري ، الخوض في بحر لم أكن قد أدركتُ

www.ibtesama.com

ساحله ؛ إذ كيف لي ، أنا (مدلول اليتيم) ، أن أنسج على منوال شيخي (عبد الله البصير) ، محاولاً مضاهاته في ذلك؟ كنت أنا على النقيض منه : صموتاً أعجز عن النطق بكلمتين دون أن أتلكأ في إحداهما ، خجولاً يحمرّ وجهي إن كلّمني الآخرون ، أركن إلى العزلة والانفراد ، فكيف ستتأتى لي القدرة على العزف أمام الآخرين على الرباب سارداً أحداث (السيرة) على مسامعهم؟!

هكذا بدأتُ عملي محاطاً بالشكوك والهواجس والأحزان ، لا أملك إلا أن أهرع إلى كوخ (السيد نور) مناجياً إياه لعله يشرق عليّ من غيبته بنور وجهه الكريم ماداً لي يدأ تهديني سواء السبيل ، حتى إذا ما حلّ اليوم الموعود تنفستُ الصعداء ؛ فقد بعث (عبد الله البصير) إليّ من يستدعيني للمثول بين يديه ، فالتقينا في ذلك الكوخ الذي شهدت جدرانه اللبنية أعوام صباي وشبابي ، فبقينا نواجه أحدنا الآخر صامتين : أنا بقلبي الخافق إلى درجة الألم ، وهو ببصيرته النفاذة برغم فقده البصر .

قال لي في آخر الأمر واضعاً حداً لعذابي :

- لا تحدّثني عمّا جرى ؛ ذلك لأنه لم تكن لك فيه يد ؛ فثمة من ندبك للأمر ، إنما أريدك أن تعلم أنك في حلٍّ من عهد المريد لشيخه ، فامضِ في حمل الأمانة ، وأكمل ما عجزتُ أنا عن إنجازه ، شريطة أن تُسمعني ما يُفتح به عليك حين يحين الوقت .

وأردف وهو يلتقط الرباب من كوّته ليناولني إياه :

- أنجزْ ما تستطيع إنجازه دون أن تنسى المرور عليّ من حين إلى آخر ليس من أجل أن أُلقّنك (السيرة) - فأنا واثق من أنك حفظتها عن ظهر قلب - بل لأكشف لك كيفية شروعي في الأمر لتدرك أنني مثلك لم أكن مخيّراً في ذلك ؛ فثمة من اختارنا لهذه المهمة منذ الأزل

www.ibtesama.com

وقبل أن يحصل ما حصل .

وهكذا زالتِ الغصّة ، وأشرقت الأنوار على القلب ؛ فأخذتُ ألازم كوخي ، لا أغادره إلا لجمع ما تكون بي حاجة إلى جمعه للمضي في عملي ، مرسّخاً بذلك طابع العزلة الذي عُرفتُ به منذ صباي ، لا شيء يدلّ على وجودي سوى نغمات الرباب : أطلقها أحياناً في سماء الديرة مردداً معها مقاطع مما سبق لشيخي أن ألّفها ، عساها أن تلهمني كيفية الإضافة إليها . لكنني سرعان ما كنت أدع الرباب جانباً معترفاً لنفسي بعجزي عن الإتيان بما أتى (عبد الله البصير) به . كنت قد ألممتُ بكل ما أنا بصدد تأليفه ، إلا أن ما كان يعوزني هو صياغة ذلك بالشكل الذي أضاهي به صياغة شيخي للقسم الأول من (السيرة) .

وكان يُفتح عليّ أحياناً بأمور خارقة لا تخطر على بال كأنني كنت أُلهم بها إلهاماً وأنا في غيب عن نفسي ؛ إذ إنني ، حينما كنت أصحو وأحاول استعادتها ، كان يستحيل عليّ الأمر وكأنما كُتب لي أن أظلّ عاجزاً عن عمل ذلك باختياري . وبقي ذلك دأبي مدة طويلة : آتي في غيبي بما يعجز البشر عن الإتيان به ، وذلك الذي أفناني عن نفسي يتنقل بي من صفة إلى صفة ، كاشفاً لبصيرتي الدقائق والأسرار ، جاعلاً إياي أرى سريان الحياة في موجودات (السيرة) ، كأنني عايشتُ تلك الأحداث وعانيت منها ، مدركاً إياها من المبدأ إلى المعاد ، مبصراً موجوداتها كما هي عليها في غيب الغيب ، سامعاً فيها نطق الجمادات والنباتات والحيوانات واختلاف اللغات ، حتى إذا ما تجلّى لي بصفة الكلام غدتْ موجودات (السيرة) كلها كلامي ؛ فزالت حبسة لساني ، وترسخ في ما أنا مقبل عليه جناني . حينها أخذتْ مقاطع القسم الثاني من (السيرة) تتشكّل ، فأنجزتُ خلال مدة قصيرة ما أنجزه شيخي في أعوام!

www.ibtesama.com

في تلك الفترة بعث (عبد الله البصير) إليّ من يأمرني بالحضور مصطحباً معي الرباب ، فصدعت لأمره من فوري ، فإذا بي أراه وقد مُدد في كوخه في اتجاه (القِبلة) ، يحيط به جمع من (البواشق) ، فترددتُ في الدخول ، بيد أن شيخي رفع صوته قبل أن يخبره أحد بحضوري :

- ادخل يا (مدلول) ؛ فقد أزف الوقت ، وقرب موعد الالتحاق بالركب .

حينها ازداد يقيني في كونه قد رُفع عنه الحجاب ؛ وإلا كيف أدرك أنني كنت قد شرعتُ في تأليف القسم الخاص بي من (السيرة)؟

جلستُ على طرف فراشه منكّس الرأس طاوياً ذراعاً راجفة على الرباب ، فبادرني (عبد الله البصير) قائلاً :

- والآن برهن على أنك أهل لحمل الأمانة ؛ وذلك بأن تُسمعنا في أول الأمر ما سبق لي أن أسمعت (البواشق) مرات لا تعد ولا تحصى .

فرفعتُ رأسي مجيلاً في المتطلعين إليّ نظرة تهيب ، وهرعت إلى الرباب مدارياً به خجلي وارتباكي ، فداعبتُ بالوتر الأسود الوتر الأبيض مشنّفاً الأسماع بالنغمات التي اعتاد (عبد الله البصير) أن يشنفها بها ، سارداً ما سبق للجميع سماعه من شيخي من قبل .

بدأتُ في أول الأمر هيّاباً غير واثق من نفسي ، لكن صوتي أخذ يزداد ثباتاً وأنا ألاحظ الجالسين يبادلون بعضهم بعضاً نظرات ذهول مصحوبة بهمهمات استحسان . وازداد صوتي ارتفاعاً ، وعلت النغمات أكثر ، وأخذ آخرون يتقاطرون على الكوخ حتى ضاق بحشدهم فتجمعوا في الخارج .

كنت ألاحظ كل ذلك وأنا ماضٍ في سرد الأحداث المعروفة ، لا

www.ibtesama.com

يهمني مما يجري حولي سوى انطباع شيخي عما يسمع . كنت ألحظه بطرف خفي ، فألمحه منصرفاً إليّ بكل جوارحه ، يهز رأسه حيناً ، ويعقد ما بين حاجبيه الأشيبين حيناً ، حتى إذا ما أنهيتُ ذلك القسم بزواج (مطلق) برازقية علّق (عبد الله البصير) مستبشراً :

- حمداً لله . . . ألم يسبق لي أن أخبرتكم بأنكم لن تعدموا الوقوع على من سيضاهيني في هذا الأمر؟

والتفتَ نحوي ليردف وهو يربت على ركبتي :

- والآن أسمعنا ما فُتح به عليك .

عدتُ أنحني على الرباب باعثاً هذه المرة نغمات عجيبة لم يسبق للبواشق سماع مثلها من قبل . وكنت قد غبتُ عن نفسي ؛ فهجستُ كأنني لا أعزف بمسّ الوتر الأسود للوتر الأبيض ، إنما كنت أبدو كأنني أعزف بكل جوارحي . كنتُ أرتجف بكل كياني كمن أصابته الحمى . وكان جسدي يتصبب عرقاً حتى استحال عليّ أن أميّز إن كان ما يتساقط على الرباب عرقي أم دموعي! . . . .

وكان الجميع قد حبسوا أنفاسهم في صدورهم وهم يصغون لي وأنا أسرد أحداثاً جديدة لم يسبق لهم سماعها من (عبد الله البصير) ، أحداثاً تبدأ بقطع (مطلق) علاقته بالسلطة الأجنبية ، ومحاولته رأب الصدع مع أبناء عشيرته ؛ وذلك بمساعدتهم في أعوام القحط ، وكيف أن السلطة لم تغفر له ذلك ؛ فحاولتْ إذلاله بسطوة بنادقها التي تضرب وتقتل من بعيد .

كنت لا أزال في بداية سردي لتلك الأحداث حين لم يعد المستمعون يطيقون صبراً ؛ فأخذوا يعبّرون عن استحسانهم علناً حتى كادوا يطغون بلغطهم على صوتي ، فسكتُ لألتفت نحو شيخي في انتظار سماع القول الفصل منه ، فإذا به قد مات وثمة ابتسامة رضا قد

www.ibtesama.com

ارتسمت على شفتيه!

وهكذا، حمّلني (عبد الله البصير) بموته مسؤولية المضيّ في تأليف القسم الثاني من (السيرة) وفي ظني أنني سأصل به إلى واقعة (دكة المدفع)؛ فتركتُ تلك الروح التي سكنتْ هيكلي الفاني تأخذني في غيبي خلال تلك الأحداث التي تبلغ الذروة بقصة عشق طارش، حتى إذا ما انتهت تلك القصة بالزواج صحوتُ إلى نفسي؛ فإذا بي أعجز عن إضافة شيء آخر إلى (السيرة) وكأنما قُدّر لي منذ الأزل الوصول إلى ذلك الحد.

منذ ذلك اليوم اكتفيتُ بترديد تلك الأحداث حاذفاً منها أو مغيراً فيها، مواصلاً صقلها لأستقر بها في آخر الأمر على هذه الصيغة التي سأترك الرواة يرددونها من بعدي:

مثلما بقيتْ ذكرى النجم المذنّب مقترنة في الأذهان بمرارة عام الطاعون، بقي صدى أول عيار ناري دوّى في سماء (دير الهشيمة) مقترناً بموقف (مطلق) الجديد من رجال السلطة.

قال الراوي: وكان (مطلق) بعد زواجه برازقية قد تغيّر تماماً عمّا كان عليه في الماضي، وكانت ذروة هذا التغيير يوم اتخذ سبيله جنوباً نحو كوخ (السيد نور). دقّ على الباب طويلاً برغم معرفته أنه لم يُفتح يوماً في وجه طارق. لكنه بقي يواصل الدقّ أملاً في أن يشرق ذلك الولي عليه بنور وجهه، ويمد إليه يده مثلما فعل يوم جاء زاحفاً وقد أُصيب بالطاعون. دقّ حتى كلّت قبضتاه، وتجمّع الصبيان من حوله، رامقين إياه بنظرات استنكار: فقد ألفوا أن ينظروا إلى ذلك البناء نظرة تقديس مشوبة بالخوف؛ إذ ارتبط وجوده باسم ذلك الولي الذي اختفى يوم أُقيم ذلك الكوخ من أجله!

دار (مطلق) حول الكوخ ثلاثاً، كأنه يبحث عن منفذ آخر إلى

www.ibtesama.com

الداخل ، حتى إذا ما أدرك غباء فكرته عاد إلى جناح القلعة منكساً رأسه ، فسألته رازقية ، وهي تمنع ابنه الصغير جناح عن إزعاجه ، عمّا يحزنه؟ فأجابها وهو يتأمل وجهها الجميل الذي وسمه الحزن بميسمه الأبدي :

- لو أن (السيد نور) كان قد هجرنا منذ وضعتُ أول آجرّة في أسس القلعة لغدا كل شيء باطلاً وقبض ريح!

تلك الليلة حلم (مطلق) بـ(السيد نور) . لم يره رؤية العيان ؛ فالدموع التي ملأت مقلتيه منعته عن رؤية أي شيء ، إنما سمع صوته يأتيه من كل مكان :

- ما الذي يبكيك يا(مطلق)؟

فتساءل (مطلق) وهو يكاد يغصّ بدموعه :

- أتسألني بعد كل هذا البلاء عما يُبكيني؟

فأجابه (السيد نور) بنبرة إشفاق :

- وفّر دموعك ليوم لن تسعفك فيه دموع الناس أجمعين!

فصاح (مطلق) مصعوقاً :

- أفي انتظاري يا مولاي أحزان أكثر مرارة من هذه الأحزان؟

فقرّعه (السيد نور) بقوله :

- أنسيتَ كيف تركتَ شيطان الطمع يوسوس إليك؟ منذ ذلك اليوم كتبتَ على نفسك وعلى ذريّتك من بعدك الشقاء والنصب .

فاعتذر (مطلق) وهو يشرق بدموعه من جديد :

- لن يقرّ لي قرار إلا بعدما أُكفّر عن خطيئتي تلك ، وقد بدأت ذلك بالزواج بأرملة لا مُعيل لها في هذه الدنيا سواي .

فخاطبه (السيد نور) مشجعاً :

- لقد فعلتَ الصواب عينه ، فامضِ في التكفير عن خطيئتك دون

www.ibtesama.com

أن تنسى أن تضع الحق نصب عينيك أناء الليل وأطراف النهار سواء أكنت في حلّك أم ترحالك ، وكفّ عن الطمع في متاع الدنيا الفانية تضمن بذلك عفوه ؛ فقد وسعتْ رحمته ، جلّ وعلا ، كل شيء .

فأقسم (مطلق) أنه سيبدأ توبته بقطع علاقته بالمسؤولين في البلدة والاعتكاف في هذه البقعة لمدّ يد العون إلى الأيتام والأرامل ؛ وذلك بإنجادهم بما اختزن من بضائع وحبوب .

قال الراوي : وكان ذلك أنسب قرار يتخذه (مطلق) في حياته ؛ فقد كان مَنْ نجا من الوباء في أمسّ الحاجة إلى المساعدة ؛ فعلى الرغم من أن الطاعون كان قد رحل ، لكنه خلّف وراءه القحط ؛ فأغلب الفلاحين كانوا قد ماتوا ؛ فبقيت الحقول في ذلك الموسم دون حصاد ، فجفت السنابل على سيقانها ، وانفرطت حبوبها وسقطت لتغدو طعماً للطيور والنمال ، فاضطر من بقي على قيد الحياة إلى طحن بقايا حبوب البذار القليلة ؛ وبذلك لم تبذر الحقول في الموسم التالي ، حتى إذا ما حل الشتاء لم تكن الجداول و(الشاخات) المهملة تحتاج إلى أكثر من سيل عابر لتنغمر مجاريها بالطمى . وبقدوم الصيف بات من العبث إشعال النيران في المواقد ؛ فأخذت أعمدة الدخان تتبدد من فوق سقوف البيوت واحدة عقب الأخرى . وكان من المؤكد أن يموت العديدون جوعاً لولا شروع (مطلق) في توزيع حفنات مما اختزن في جناح قلعته . ولكن ما العمل وقد قيل قديماً : من لم يتدبر العواقب ما الدهر له بصاحب؟ فقد كان الشتاء التالي رهيباً ذكّر الأحياء بصيف الوباء الأسود ؛ فقد حبست السماء أمطارها : ما تكاد تتلبد بالغيوم ، وتشرع البروق في الومض والرعود في القصف حتى تنتهي تلك الضجة بسقوط قطرات شحيحة ترقط الأرض ببللها العابر مشيعة رائحة التراب . وتعود السماء بعدها كعهدهم بها زرقاء لا تشوبها شائبة

www.ibtesama.com

حيث تتوسطها الشمس التي سرعان ما تجهز، بوهج يخطف الأبصار، على زغب الأعشاب الشاحبة. وبحلول صيف جديد أخذت المياه في الانحسار؛ فتحولت الأهوار الشرقية إلى برك عامرة بدعاميص الضفادع وبالأسماك التي تبقى تلبط ساعات في محيطها الضيق، قبل أن تطفو منتفخة فوق المياه الآسنة تتناهبها مناقير النوارس. يومذاك أطلق اسم (بزايز الجولان) على تلك الأهوار؛ فقد تحولت تلك المساحات المائية الشاسعة التي كانت تفصل اليابسة عن جزيرة (البطيحة) إلى مستنقعات وبزايز لا ينمو فيها سوى نباتات الجولان، وكانت مناسيب المياه قد هبطت بطبيعة الحال في الأهوار الجنوبية أيضاً: فلم يعد في المستطاع سقي البساتين في الجانب الجنوبي من وادي المرّ؛ فجفت الأعشاب في أول الأمر، لتعقبها الأشجار، وبقيت النخيل وحدها تشرئب بأعناقها النحيلة على امتداد تلك المساحات الجرد المغمورة بهشيم أشجار متيبسة حيث يُسمع للريح صوت غريب عند هبوبها؛ فعوضاً عن ارتفاع حفيف الأغصان النضرة كان يُسمع صوت تقصف الفروع والجذوع التي كانت قد اسودّت بفعل الجفاف!

قال الراوي: في ذلك الزمن الذي لا يُنسى وجد الجوعى أن كل ما يحيط بهم قد تحوّل إلى هشيم تذروه الرياح؛ فأطلقوا اسم (ديرة الهشيمة) على تلك البقعة المعزولة تذكاراً لأعوام القحط الرهيبة التي تعاقبت تباعاً واستمرت مدة زمنية طويلة تسنّى خلالها لجناح، ثاني أبناء (مطلق)، أن يتجرّع على مهل طعم طفولة أمرّ من الحنظل؛ فاهتمام رازقية به وحدبها عليه تبددا مع ولادتها قاصد - أول أبنائها من (مطلق) - فقد فاح معه أريج أمومة كانت تظن أنها دفنتها في ذلك اللحد الصغير الذي دست فيه فلذة كبدها بجانب قبر أبيه مجبل؛ فأهملت جناح تماماً؛ فبات يتقلب في بوله وغائطه لا يجد

www.ibtesama.com

الرعاية إلا من شقيقه الأكبر طارش الذي كان يهرع إلى تنظيفه واستبدال ملابسه القذرة متقبلاً بجبين مقطّب وفم مزموم سخريات امرأة أبيه وهي تناديه باسم (طارشه)!

كان جناح، في أول الأمر، يبدي التذمر والنقمة لانصراف امرأة أبيه إلى رعاية قاصد. وحينما كان يجابه بالإهمال أخذ يثأر من أخيه الرضيع؛ فيؤذيه كلما سنحت له الفرصة. لكن امرأة أبيه كانت له بالمرصاد: أهون عقوباتها له كان الكيّ بالنار. وهكذا كبر جناح قبل أوانه، ونشأ نفوراً، يراقب الجميع بنظرات ارتياب، ووجد في التمثيل بالطيور التي يصطادها خير فرصة للتنفيس عن أحقاده الدفينة؛ فشرع يجاري الآخرين في نصب أول فخاخه وشباكه.

والحق أن البحث عمّا يسكن آلام الجوع غدا شغل الجميع الشاغل: ينصبون الفخاخ والشباك في البساتين وجزيرة (البطيحة)، ويطاردون الغزلان والحباري وطيور الدراج في التلال الشمالية. ولم يتركوا وسيلة لم يجربوها في صيد السمك سواء بالفالة أم الشباك أم الزهر أم غيرها من الوسائل.

لكن القحط كان يزداد وطأة مع مرور الزمن؛ فالحيوانات التي كانوا يصطادونها بيسر في أول الأمر غدت نادرة. وكانوا قد نافسوا النوارس في الإجهاز على أسماك (برايز الجولان)، وحتى الطيور لم يعد يتردد لها رفيف جناح في سماء الديرة خلا الغربان التي كانت تأتي أسراباً متلاحقة من خط الأفق، يسبقها نعيبها الكريه، وسرعان ما كانت تغطي بسواد ريشها رؤوس النخيل التي لم تسلم بدورها من غارات الجياع: تنهب عذوقها قبل نضجها، والسعيد هو من استطاع اختطاف خلالات خضر فجة تملأ الفم بمرارتها، لكنها تسكن آلام الجوع مؤقتاً. وعزّ الطعام على ماشية الفلاحين ودوابهم أيضاً؛ ذلك لأن الخراف

www.ibtesama.com

والماعز والأبقار عجزت عن العثور على حزمة عشب واحدة مهما جدّت في نفخ الأرض المشققة ولحسها . وفي حظائرها وإسطبلاتها كان من المألوف أن تجد نفسها تقف متراجفة الأطراف أمام معالف تخلو من الشعير والتبن ؛ فأخذت تنفق بدورها : تشاهد جثثها على جوانب الطرق المتشابكة على امتداد الحقول الجرد وقد انتفخت وتصلّبت قوائمها في الهواء ، ينفجر بعضها بصوت مكتوم مشيعاً روائح كريهة لا تطاق . وكانت طيور الرخمة وأسراب الذباب تنافس الضواري في الإجهاز على تلك الجثث : يحتدم ، من حين إلى حين ، صراع عنيف بين حيوانين ينتهي بهرب أحدهما ، ساحباً خلفه قطعة أحشاء دامية تقطر قيحاً وصديداً .

ودفع الجوع الناس إلى طبخ الأعشاب وطحن نوى التمر والجذور مع حفنات من ثمار برية مجهولة الأصناف مسببين بذلك في إصابة أنفسهم بأمراض غريبة قد يتباين بعضها مع بعض في الأعراض لكنها تتفق جميعاً بالحمى والإسهال الشديد الذي أخذ يفتك بهم دون رحمة ولاسيما الأطفال الذين كانت بطونهم تنتفخ كالقرب فوق سيقان هزيلة سرعان ما كانت تنطوي تحتهم وهم يسقطون سقطتهم الأخيرة .

قال الراوي : وبقي (مطلق) وفياً لوعده بالاعتكاف في ديرته ومد يد العون للآخرين مجابهاً الأعوام العجاف بجَلَد غدا مضرب الأمثال . كان يتفقد البيوت والأكواخ والخصاص ، يساعد المحتاجين ، ويعود المرضى ، ويشيع الموتى إلى مثواهم الأخير . وكان قد زهد في طموحاته القديمة بالثراء والنفوذ والصيت الذائع ، يجابه كل من يذكّره بها بتعقيدة تعكّر ما بين حاجبيه الكثين ، يشفعها بقوله :

- لا تحرّك عليّ ساكن الجرح .

www.ibtesama.com

وكان الأمر الوحيد الذي لم يزهد به هو أن يغدو أباً للعديد من الذكور . ولم تخذله رازقية في طموحه هذا ؛ ففضلاً عن ولديه اللذين رُزق بهما من امرأته المتوفاة ، منحته خلال أعوام معدودة ثلاثة ذكور أطلق على أكبرهم اسم قاصد ، وذلك تيمناً منه بذلك الزمن الذي أضحى فيه – في بداية القحط – مقصد الجميع ظناً منه أنها أزمة ستنتهي بمرور موسم أو موسمين ، وحين ازدادت المحنة قسوة رُزق بذكر آخر تميّز بجمال لافت للانتباه ؛ مما جعل الأب يعتقد أن مقدمه فاتحة خير ؛ فسماه باسم خضر ، حتى إذا ما بلغ القحط ذروته وأخذ الجوع يفتك بالناس أعلن (مطلق) ، وسط الرجال الذين كانوا متحلقين حوله لحظة بُشّر بولادة ابنه الخامس ، أعلن متهكماً هذه المرة أنه سيسميه باسم ربيع ، هذا الاسم الذي جوبه بابتسامات إشفاق ؛ فأين هم من الربيع الذي أنساهم القحط إياه؟

لقد جابه (مطلق) المصائب بشجاعة ، ولم تثبط من همته ضراوة المحنة وطول مدتها ، ولا نكران الآخرين وسرعة انقلابهم ضده حتى بلغ الأمر ببعضهم أن أخذوا يجابهونه بنظرات حقد ، وطرقت سمعه شائعة باحتمال أن يهاجم الجائعون جناح قلعته ليغتالوه سعياً وراء الاستحواذ على آخر ما اختزن من حفنات قمح ؛ فسارع إلى تدارك الأمر بالاستنجاد بمن يثق بهم من رجال الديرة من أجل معاونته في حراثة حقل مشترك وبذره قبل أن ينفد آخر ما يملك من حفنات قمح مؤكداً أن البيدر الناتج سيوزع على شكل حصص بعدد أفراد الأسر راجياً أن تكون آخر الحصص من نصيبه .

وعاد النشاط يدبّ من جديد في (ديرة الهشيمة) : فقد شمّر الرجال عن السواعد ، وشدوا الأحزمة إلى الظهور ، وضجّت الأرض الخلاء بصرخاتهم وهم يهيبون بما تبقى من دوابهم الإسراع في سحب

www.ibtesama.com

المحاريث الخشبية ، حتى إذا ما انتهوا من الحراثة والبذار كان عليهم القيام بحراسات دورية خوفاً من أن يعمد الجائعون إلى غرابيلهم للنبش عن حبوب البذار . وكانوا قد انتهوا من كري الجداول والشاخات ، وعمّقوا مجاريها المغمورة بالطين المتراكم منذ أعوام . كما حصّنوا ضفة النهر الجنوبية بالمزيد من حزم الصفصاف والغرب والطرفاء تحسباً من قدوم سيل مباغت .

وكانوا يصغون هلعين لكل قصف رعد يعكّر عليهم هدوءهم ، ويراقبون بقلق منسوب المياه كلما تصاعد عن الحد المعهود عقب سقوط أية زخة مطر . بيد أن المحنة انجلت وشرعت النباتات في الإزهار .

قال الراوي : وهكذا عاد الزمن يبتسم لـ(مطلق) من جديد ؛ فبات في وسعه هذه المرة أن يسمّي ابنه السادس الذي وُلد آنذاك باسم حاصود تيمناً بانجلاء محنة القحط . وتعزّز صيته في (ديرة الهشيمة) أكثر من السابق ؛ ذلك لأنه لم تعد به حاجة إلى اللجوء إلى الوسائل العوجاء – من ترغيب وترهيب – لتحقيق هذا الأمر ؛ فقد التفّ الناس حوله تلقائياً ، وعدّوه كبيرهم ، بل استشفّ (مطلق) رغبة العديدين منهم في نصبه شيخاً عليهم ؛ فقد كثر حديثهم أمامه عن ضرورة أن يجمعوا أمرهم على مواجهة ما تحيط بهم من أخطار وذلك بأن يزدادوا اتحاداً وتكاتفاً تحت زعامة رجل يركن إليه في المصائب والملمات . وحينما بقي (مطلق) يشاركهم بآراء محايدة ، متجاهلاً ما يلمّحون إليه ، أفصحوا عن رغبتهم في أن يبنوا له مضيفاً يليق به ، معلنين بذلك دون لبس عن اختيارهم إياه شيخاً لهم – بحسب ما يقتضي العرف العشائري – لكن (مطلق) رفض هذا الأمر صراحة ، مستعيداً مع نفسه تحذيرات (السيد نور) القديمة في أن يدع الطمع جانباً . لكن الرجال لم ينهزموا : فبعد مضي أسابيع – وعلى أثر وقوع منازعة بين

www.ibtesama.com

أسرتين كادت تسيل بسببها الدماء مما اقتضى الرجوع إلى (عارفه) لحلها – عادوا يلحّون عليه بالطلب، ضاربين بتلك المشكلة مثلاً: ففي حالة انتظام أمورهم يصعب حدوث مثل هذه المشكلات، فضلاً عن وجود المرجع المعنيّ بحلها في حالة وقوعها، فصارحهم (مطلق) هذه المرة بتطيّره، وذكّرهم بتحذيرات (السيد نور). لكنهم زيّنوا له الأمر قائلين إن الحالة تختلف هذه المرة؛ إذ إنهم هم الذين يرجونه القبول. وأفحمه أحدهم بقوله:

– ثم عن أي طمع تتحدث؟ ذلك لأنك ستكون الخاسر الأكبر فينا: لا عمل لك سوى صدع رأسك بحل مشكلاتنا وتنظيم أمورنا، فضلاً عن أنك ستكون المسؤول الأول أمام السلطة حينما يجدّ الجد!

وعلّق آخر مداعباً:

– كدت تجعلني أذرف الدموع على محنة (مطلق) المنتظرة!

ووسط ضحكات الآخرين اكتفى (مطلق) بأن ابتسم باسطاً كفيه إلى جانبيه بحركة تسليم.

قال الراوي: منذ ذلك اليوم غدتِ البقعة الممتدة أسفل التل موضعاً لتجمّع عشرات الرجال: يتقاطرون عليها من شتى الأرجاء محملين بالمساحي والفؤوس والمناجل والحبال، في حين ينطلق آخرون بمشاحيفهم في عمق الأهوار ليعودوا بها بعد ساعات وقد حمّلوها بحزم القصب. ولا يشرعون في العمل عادة إلا عند هبوط (مطلق) من جناح قلعته، يتعقبه أبناؤه؛ فيستقبلونه بـ(هوسات) يمجّدون بها شهامته وكرمه، بعدها تتلقف الأيدي سيقان القصب لإقامة (الطزل) التي تُفرش فوق كل واحدة منها حزمة قصب بطول (الشبّه) المطلوبة وعرضها لتحزم حزماً قوياً قبل أن تربط بـ(البنود).

وكان يوم (التشجيخ) يوماً مشهوداً في تاريخ (ديرة الهشيمة)؛ فقد

www.ibtesama.com

كادت تلك البقعة تضيق بالحشود التي انهمكت في عمل حفر عميقة في صفين متقابلين بطول المضيف . وكان رفع كل (شبّه) وغرز قاعدتها السميكة في حفرة يقتضي تعاون العديدين ؛ إذ تجمّع العشرات حول كل (شبّه) ورفعوها بالحبال واحدة عقب الأخرى ليغرزوها في حفرها التي سرعان ما مُلئتْ بالتراب ، ودُكّت دكّاً جيداً . وبقيت رؤوس (الشبّات) الشاخصة على ارتفاع شاهق تصفر في الريح .

وبحلول اليوم الأساس في بناء المضيف - يوم (البنيان) - لم تبق أسرة لم تسهم في العمل ؛ فحني رؤوس (الشبّات) يُعدّ من أصعب أمور البناء ؛ فقد كان لا بد لهم من الاستعانة بـ(الهوسات) الحماسية فضلاً عن قوة سواعدهم وهي تسحب الحبال المتينة المشدودة إلى رأس كل (شبّه) لتطقطق حزمة القصب وتئن مرسلة صريراً جافاً قبل أن تنحني في آخر الأمر ، فيسارع اثنان من الفتيان ، المشهود لهم بخفة الحركة والنشاط ، إلى تسلق كل (شبّتين) متقابلتين حيث يجلس كل واحد منهما على عنق (الشبّه) المحني ليفك عنه (البنود) ويعمل ، مع زميله المستقر على عنق (الشبّه) المقابلة ، في ربط الرأسين أحدهما بالآخر لتغدو (الشبتان) قوساً واحدة يستقر على قمتها ذانك الشابان اللذان لا يخلو أحدهما ، في الغالب ، من شيء من المكر والمرح : فإذا به يفاجىء الحشد المتكاثف في الأسفل بقذف نفسه من ذلك العلو الشاهق ، فتنفغر عشرات الأفواه مطلقة شهقات فزع سرعان ما تتحول إلى لعنات استحسان لحظة تنتهي تلك القفزة المرعبة بتأرجح الفتى فوق الرؤوس وهو يمطّ وجهه المقلوب ساخراً لأنهم لم يدركوا إلا في اللحظة الأخيرة أنه كان ممسكاً بطرف أحد الحبال المشدودة إلى رأس تلك (الشبّه)!

قال الراوي : هكذا تعاقبت الأيام والأسابيع والجميع منهمكون في

www.ibtesama.com

بناء المضيف الذي سرعان ما شمخ هيكله الهائل فوق البيوت والأكواخ ، لا يكاد يضاهيه في العلوّ سوى التل القائم إلى الجانب الشمالي منه يعلوه جناح القلعة التي لم يكن بناؤها قد اكتمل بعد .

كانت أياماً لا تنسى في تاريخ (ديرة الهشيمة) بدا الناس خلالها كأنهم يحاولون أن يثأروا من أعوام القحط التي كانت ذكراها لا تزال طرية في الأذهان وذلك بالمبالغة في إظهار مرحهم وسعادتهم ، لا شيء يذكّرهم بتلك المحنة سوى استدراك بعض عجائزهم الذين سرعان ما كانوا يتنبهون إلى أنفسهم ؛ فيطبقون أفواههم الدرد على بقايا ضحكة نابعة من القلب ، مرددين بتسليم :

- اللهم اجعل عاقبة الأمور خيراً .

وكان (مطلق) نفسه يبالغ في كرمه : ينحر يومياً الذبائح ليُتحف المشتغلين في إقامة المضيف بوجبات دسمة كانت تهبط لهم مرتين من أعلى التل حيث يتناوب أبناؤه الخمسة - إذ إن سادسهم حاصود كان لا يزال أصغر من أن يشارك في مثل هذه الأمور - في حمل الصواني النحاسية المتخمة بتلال الرز وقد توّجتها قطع اللحم . وكان طارش يمر على حلقات الرجال المجتمعين حول تلك الصواني خوفاً من أن يكون بعضها يفتقد الكمية اللازمة من الرز أو اللحم أو الثريد . وكان جناح هو المسؤول عن جلب (قِرَب) اللبن ليوزع عليهم الطاسات دون أن يغادر عبوسه الدائم وجهه المكفهر ، حتى إن بعض الخبثاء كانوا يعلقون حال ابتعاده عنهم بقربته الراشحة :

- يبدو أنه يتحسر على شباكه وفخاخه المنصوبة في شتى بساتين الديرة وأدغالها بعدما أجبره والده على القيام بهذا العمل البغيض إلى نفسه!

فيعقبه آخر قائلاً :

www.ibtesama.com

- إنه ابن بَرّ يصعب ترويضه ؛ يعيش دائماً في البساتين ، ويندر أن يُشاهد في الديرة!

وكان قاصد موضع ترحيب الجميع ؛ فعلى الرغم من حداثة سنّه لكنه اشتهر باستقامته وسلوكه طريق التديّن . وكان جمال خضر موضع تعليقات الجميع ولاسيما أن أمه كانت قد أطالتْ شعره مثل البنات تماماً ؛ ولذا فقد يفاجئه أحد الشباب بالإمساك به من شعره ، مداعباً إياه بقوله :

- أخبرني بعدد الحسان اللائي ستوقع بهن بجمالك هذا حينما تكبر!

فيجيبه وهو يحرر بحركة مباغتة شعره المسترسل من بين أصابعه :

- ستكون أولاهن أختك!

فكان الآخرون يضجون في الضحك .

أما ابن (مطلق) الخامس ربيع فكان أصغر من أن يسمح للآخرين بالتمادي في مداعبته ؛ فما أسرع ما كان يهددهم بأبيه!

هكذا مضت الأسابيع ، وشدّتْ فوق تقويسة (الشبّات) (الهطر) حتى غطت هيكل المضيف كله . كما سدوا فتحتي المضيف الأمامية والخلفية بـ(الكواسر) حيث توسط الأمامية منها الباب المفتوح غرباً في اتجاه (القِبلة) ، كما عملوا في أعلى الباب وعلى جانبي المضيف - على مستوى الأرض - (مشبجات) تسمح بنفاذ الهواء صيفاً إلى الداخل . وكان آخر ما قاموا به هو أكساء الهيكل بثلاث طبقات من (باريات) هائلة الحجم حاكوها خصيصاً لهذه الغاية ، ليثبتوها بـ(الهطر) من الخارج .

وكان يوماً مشهوداً أخذت تؤرخ به الأحداث - من ولادات وزيجات ووفيات - يوم بدأ الهاون النحاسيّ الثقيل يرسل دقاته المتناغمة من جوف المضيف معلناً انتهاء حقبة من تاريخ (ديرة

www.ibtesama.com

الهشيمة) وابتداء حقبة جديدة . وكان (القهوجي) الأسود يتفنن في تنغيم دقاته ، تاركاً قطرات العرق تتكور على جبينه الفاحم لتنساب نحو زاويتي فمه الغليظ : كان يستهدف حبات البن المحمّصة في جوف الهاون بدقة ، يعقبها بدقتين على جوانب الهاون تتناغمان بإيقاع جميل مع الدقة الأولى ؛ فتتردد الأصداء على امتداد (ديرة الهشيمة) متسللة إلى جوف كل بيت ، داعية الرجال إلى التوجه إلى أول مضيف يقام في ديرتهم ، بل إن الأصداء كانت تنداح على امتداد المساحات المائية لـ(بزايز الجولان) ؛ فكانت أيدي الصيادين تسقط الشباك في مواضعها ، ليصغوا ملياً لتلك الدقات البعيدة التي كانت تجعل أفواههم تنفرج تلقائياً عن ابتسامات عريضة ، يديرون على أثرها مقدمات مشاحيفهم غرباً ليعودوا بها إلى الديرة مرجئين الاهتمام بصيد الطيور والأسماك إلى وقت آخر ؛ فالأولى بهم مشاركة شيخهم في حضور أولى جلسات المضيف حيث كانت الأرض قد فرشت بالباريات والحصران والبسط ، وقد توسط (مطلق) حشود الجالسين ، وعلى يمينه جلس ابنه البكر طارش يليه أبناؤه الآخرون ، في حين تدخّن (دلّة) القهوة في اليد اليسرى لـ(القهوجي) والفناجين البيض تتراقص في يمناه وهو يناول أولها لـ(مطلق) الذي لم يملك إلا أن يشكر الله في سره ؛ إذ إنه جلّ وعلا منحه كل ما يتمنى : ففي تلك الأيام كان قد رزق بابنه السابع نايف .

قال الراوي : لكن السلطة التي قطع (مطلق) علاقته بها لم تنسه ؛ فذات نهار ارتفعت سحابة غبار من جهة الغرب سرعان ما انجلت عن كوكبة جنود ، يتقدمهم آمرهم الذي بقي يتلفت حوله بانتباه ، راصداً الحقول والبساتين بنظرات جشع . وكان المضيف آخر ما ثبت عينيه عليه ، متأملاً إياه بنظرة وعيد .

www.ibtesama.com

كان (مطلق) وابنه طارش وبعض رجال الديرة في استقبـاله عند باب المضيف . لكن (الآمر) تجاهل الجميع وهو يترجل عن صهوة حصانه ، واكتفى بأن حيا (مطلق) بفتور ، وتنازل بتقديم أطراف أنامله إليه ، مصافحاً إياه على مضض ، فدقّ قلب (مطلق) متوجساً من أن ساعة المواجهة التي أرجأتها الظروف أعواماً قد أزفت . وأيقن أن ثمة أمراً غير مريح وراء هذه الزيارة ؛ فانتابه ارتباك حاول تلافيه بالمبالغة في الترحيب بضيفه ، فأهاب بـ(القهوجي) تحميص حبات بنّ جديد على نيران الموقد وطحنها احتفاء بالمناسبة . ومع ارتفاع دقات الهاون أخذ الرجال يتقاطرون على المضيف مستهدفين الجنود المنتشرين قرب الباب بنظرات توجس . وبقي الصمت مخيماً في الداخل لا يتبدد إلا حين دخول وافد جديد : فما يكاد يلقي السلام ويجلس حتى يجابه بعاصفة من (الله بالخير) تطوقه من شتى الزوايا وكأن الجميع يظهرون بذلك تبرمهم من هذا الصمت المتوتر .

وانتهى انتظارهم مع شروع (القهوجي) في الدوران عليهم بدلته ، فما كاد (الآمر) يجهز على فنجانه بحسوة واحدة حتى هزّه معلناً اكتفاءه ، وجال بنظرة متباطئة في أرجاء المضيف مدققاً في تفحصه بشكل مبالغ فيه . وقال وقد انفرج فمه عن ابتسامة متهكمة :

– ما شاء الله . . . ما شاء الله . . مضيف على إحدى عشرة (شبّه)!

فتنحنح (مطلق) وهو يدير في الجالسين نظرة محرجة :

– يشهد الله أن بناء المضيف جاء استجابة لإلحاح أبناء ديرتي لا سعياً مني إلى ذلك .

فارتفعت أصوات مؤيدة . لكن (الآمر) واصل كلامه وكأنه لم يسمع ما قيل :

www.ibtesama.com

- وحقول تمتد على مدى البصر!

فأجابه (مطلق) بكل هدوء :

- والحقول ليست ملك أحد إنما هي ملك الجميع : نزرعها مشتركين لنوزع بيننا الناتج بالطريقة العشائرية التي لا شك أنكم على علم بها .

واسترسل (الآمر) في كلامه بالطريقة البغيضة عينها :

- . . والنخيل . . . أشجار النخيل المنتشرة على الحافة الأخرى للوادي تكاد تنوء بثقل عذوقها ؛ إذ إنني لاحظت - على الرغم من بعد المسافة - أنها لا تكاد تتأرجح في الريح!

- والنخيل لها أصحابها أيضاً ؛ فأنا لا أملكها كلها .

- لها أصحابها! . . أهذا ما قلتَ يا (مطلق)؟

تساءل (الآمر) وقد ثبّتَ عينيه على (مطلق) متفرساً فيه بضراوة كأنه تنبه إلى وجوده اللحظة فقط ليعوي فجأة على غير انتظار :

- والحكومة؟ أنسيتَ أنها صاحبة كل شيء؟

فاستغفر (مطلق) الله ، وأطرق برأسه ليردد بخشوع :

- (ولله ملك السماوات والأرض وإلى الله المصير) .

وواصل (الآمر) صراخه :

- نعم . . . هناك حكومة لا تنسى حقوقها إن حاول بعضهم تناسيها!

فالتفت (مطلق) نحو الجالسين مخاطباً إياهم بنبرة متهكمة لم يستطع لها منعاً :

- لقد عرفنا هذه الحكومة جيداً في أعوام القحط!

وخيّم صمت متوتر تبادل الرجلان خلاله نظرات طوالاً أنهاها (الآمر) بأن قال بقسوة :

www.ibtesama.com

- اسمع . . . دعك من هذا الكلام ؛ فالحكومة تبقى حكومة لا تناقش في ما تأخذ أو تعطي ؛ لأنها لو شاءت الحصول على أي شيء في ديرتك لما عجزت عن ذلك!

وأضاف مفصّلاً كلماته واحدةً واحدة :

- عليك أن تتذكر أن هناك طريقاً يربط مضيفك هذا بالسراي في البلدة ، وهو طريق سبق لقدميك أنت أن مهدتاه في ذلك الزمن الذي كنت تبالغ فيه بإتحافنا بهداياك!

وأردف مفصحاً هذه المرة عن غايته دون لبس :

- لا تنس أن هناك سجلاّت يدوّن فيها الضرائب وبقايا الديون موظفون يأكلون خبزهم لقاء قيامهم بهذه المهمة ، فالمطلوب منك دفع ما تراكم عليك من ضرائب الأعوام الماضية!

فتساءل (مطلق) بنبرة جارحة :

- ضرائب أعوام القحط؟!

فتابع (الآمر) متجاهلاً مغزى ذلك الكلام :

- كما عليك أن تختار عدداً من شباب ديرتك لتلحقهم بالعسكرية ؛ فثمة حرب على وشك النشوب مع أعدائنا!

وفشل (مطلق) هذه المرة في السيطرة على نفسه ؛ فصاح مستنكراً :

- ولكننا غير مشمولين بالخدمة العسكرية بحكم كوننا من أبناء العشائر!

فتأمله (الآمر) وقد سكن في موضعه لا يريم حراكاً . وبغتة وثب لينطلق خارجاً ، فتعقبه (مطلق) وهو يقدم رجلاً ويؤخر أخرى . وقال (الآمر) وهو يشير نحو حمار هزيل رُبط قرب بيت صاحبه على مبعدة من المضيف بدا منشغلاً بتحريك ذنبه مبعداً الذباب عن مؤخرته الضامرة :

www.ibtesama.com

- أترى ذاك الحمار يا (مطلق)؟

واختطف من كتف أقرب رجاله إليه أداة طويلة ذات أنبوبة حديدية ، سكب في فوهتها مسحوقاً ناعماً من كيس أخرجه من أحد جيوبه . وأسقط في الموضع نفسه كرة حديدية صغيرة ، أعقبها بخرقة أخذ يدقها بقضيب حديدي تناوله من الجندي نفسه . بعدها أسند عقب تلك الأداة إلى كتفه اليمنى ، وأغمض إحدى عينيه . وما كاد يضغط على موضع ما حتى جفل (مطلق) على دويّ هائل جعل أسراب الطيور تمرق نحو السماء الزرقاء فزعة ، وفي الوقت نفسه سقط الحمار على جنبه ، وقام ببضع رفسات في الهواء قبل أن ينفق!

- أرأيت يا (مطلق)؟ لقد انتهى زمن السيف والرمح ، ولم تعد كثرة الرجال تجدي نفعاً ؛ فقد امتلكنا هذه الأداة المستحدثة التي تعرف باسم (البندقية) وهي - كما رأيت بنفسك - تقتل من بعيد!

خاطبه (الآمر) منذراً . واعتلى سرج الحصان بقفزة واحدة . وتابع وهو يربت على عنق الحصان بالعنان :

- سنعود إلى زيارتك بعد أسبوع ، فيجدر بك أن تكون حينذاك قد هيأت بعضاً مما في ذمتك من بقايا الديون المستحقة ، فضلاً عن إعدادك لقسم من شباب ديرتك وإلا . . .

وأنهى كلامه بإيماءة مبهمة نخس على أثرها الحصان ، فمرق به نحو الغرب وفي أعقابه الخيول الأخرى .

قال الراوي : وطوال الأسبوع الذي أمهل فيه (مطلق) أضحت تلك الأداة الشيطانية الراعدة التي تقتل من بعيد حديث الديرة الوحيد . وتناقضت التخمينات حول موقف (مطلق) المنتظر : تُرى أيقبل بالتحدي؟ أم سيستجيب صاغراً للإنذار؟ إلا أن سؤالاً آخر سرعان ما كان يسفّه هذه التخمينات ؛ فأنّى لرجل عاقل الوقوف في وجه جنود

www.ibtesama.com

مسلحين بمثل هذه الأدوات؟ ذلك ليس سوى ضرب من جنون مطبق!

وهكذا بدا من الطبيعي أن يتحجج (مطلق) ، في اليوم الموعود ، بعذر ما ليتغيب عن الديرة تاركاً ابنه طارش ينوب عنه في استقبال (الآمر) وجنوده . وقد تم الأمر دون حدوث ما يعكّر ذلك الهدوء المتوتر الذي زاد من وطأته انطلاق الأمهات بالعويل والبكاء نادبات أبناءهن الراحلين بـ(عدودات) تستدر دموع أصلب الرجال قلباً .

مساء ذلك اليوم ضجّ جناح القلعة بصراخ (مطلق) الذي أخذ يختلق مختلف الأعذار ليفرغ ما تراكم في قلبه من غيظ ؛ فملح وجبة عشائه مثلاً كان أكثر من اللازم ، فركل الصينية النحاسية التي دارت حول نفسها عدة دورات مالئة الحجرة ضجيجاً لتستقر في آخر الأمر مخلّفة وراءها رشاش مرق وبضعة صحون موزعة هنا وهناك . أما ثوبه . . . يا إلهي! . . . لقد بلغ من قدمه ووساخته أنه لا يليق بأن يوضع على هيكل (فزاعة)! . . وكانت امرأته قد اعتصمت بحجرتها مغلقة الباب وراءها في انتظار انحسار هذه النوبة ، في حين بقي أبناؤه يراقبونه من بعيد بنظرات متهيبة ، محاذرين الاقتراب منه باستثناء سابعهم نايف الذي كان أثيراً لديه ؛ فقد تماسك بصعوبة على ساقيه اللتين كان قد تعلّم بهما المشي حديثاً ، واندفع نحوه بخطى متعثرة وهو يلوي وجهه المتورد مرسلاً أصواتاً مبهمة من فمه الدبق مقلداً إيّاه في ثورته ، حتى أن بعض إخوته أخفوا ابتساماتهم بصعوبة . لكن حركاته الطفولية تلك فعلت فعلها في أبيه ؛ فبعدما تأمله طويلاً مقّطب الأسارير وقد تقارب حاجباه فوق منبت أنفه ، غادر الحجرة مصفّقاً الباب وراءه ، فتنفّس أبناؤه الصعداء ، وكافأوا نايف بإمطاره بالقبل ، وأضحى في وسع رازقية إخراج رأسها من فرجة باب حجرتها قبل أن تمرق خارجة بخطى خفيفة .

www.ibtesama.com

قال الراوي : منذ ذلك اليوم أضحى هاجس (مطلق) الدائم الحصول على البنادق . كان يفكر بهذا الأمر ليل نهار . وكان مرور الأيام والأسابيع والأشهر يزيده إصراراً ؛ فقد أخذتْ حملات جباية الضرائب تتلاحق مما جعله يوقن أن احتدام الصراع الدامي واقع لا محالة . وكان هذا الأمر يملؤه هلعاً على أبنائه السبعة ؛ فكان يتأملهم بإشفاق ، سواء في القلعة أم المضيف ، وقد ولج بعضهم مرحلة الشباب . وكان ينفرد أحياناً بطارش ليسأله بقسوته المصطنعة عن سر امتناعه عن الزواج؟ وكان يسوّغ سؤاله ذاك بحرصه على أن يختار له الفتاة الجديرة به لكونه ابنه البكر ، في حين كان في واقع الأمر يسعى إلى أن يكحّل عينيه سريعاً بمرأى حفيد له ضامناً بذلك استمرار نسله من بعده ، فكان طارش يجيبه متهرباً بعينيه منه :

- لم يحن أوان ذلك بعد يا أبتاه!

كانت تدهشه سرعة نسيان أبيه للمحن التي تلاحقت على امتداد عمره مجهزة على أي شعور لديه بالبهجة والأمل . لقد ظلت المحن تلاحقه منذ ولادته ؛ فما أكثر ما حدّثه والده عن ذلك المنجل الذي قطع به حبله السري ، وكيف أنه كان ملطخاً بدماء أغنام كان قد نحرها في سورة غضب . كما أنه يتذكر كالحلم محنة الطوفان واحتماءهم بالتل . ومن المؤكد أن هول الطاعون سيظل مهيمناً على وجدانه إلى الأبد ؛ فقد كانت أمه من جملة ضحاياه . أما القحط فذكراه لا تزال قريبة لم يجهز عليها مرور الأعوام بعد . كان يتذكر كل تلك الأمور ، لكنه سرعان ما يزيحها جانباً مسوّغاً تأخره في الزواج بقوله :

- لقد علمتني الاعتماد على نفسي منذ الصغر ؛ لذا لن أتزوج إلا بعدما أطمئن إلى أنني مهيأ لمثل هذا الأمر .

www.ibtesama.com

وكان الأب يعلم أن ابنه البكر بدأ في اتباع خطاه في تكوين نفسه سواء عن طريق الزراعة ، أم رعي الأغنام والاتجار بها . لكنه برغم إكباره لموقف ابنه هذا كان ما يخشاه أن تنال تلك الأداة الشيطانية منه يوماً ما . وكان انطلاق دويّ عيار ناري يعمّق من شعوره بالتشاؤم . وكان سماع أصوات إطلاق الرصاص قد بات أمراً مألوفاً خلال تلك الأعوام التي أعادت السلطة فيها سطوتها على ديرة (الهشيمة) بقوة بنادقها التي لا تقهر : ما تكاد تمر أيام حتى يقدم (آمر ما) على رأس جنوده متذرعاً بإحدى الحجج : سوق المزيد من الشباب إلى العسكرية ، أو من أجل استيفاء ضرائب قديمة وقعوا عليها مصادفة في أحد السجلات المهملة . وكانوا يقدمون أيضاً بحجة الصيد والقنص ، فكان الأطفال ينكمشون في أحضان أمهاتهم وقد سكنت عيونهم وفغروا أفواههم مرهفين الأسماع لأصداء تلك الرصاصات التي كان الجنود يبالغون في إطلاقها ، وكأن هدفهم يتخطى اقتناص الطرائد إلى إرعاب الناس . وكانت الحملات المعهودة على (المعيدي) تمر بهم من حين إلى حين لاصطحاب أدلاء من الديرة يتقدمون الجنود بمشاحيفهم الخفيفة خلال الأهوار . وكانت حملات فاشلة يعودون منها خائبين ، بل انتهت إحداها بعودتهم حاملين جرحى سارعوا إلى نقلهم بمنتهى السرية إلى البلدة مبالغين في تكتمهم على ما جرى ، لكن الأدلاء نشروا بعد رحيلهم شائعات عن احتمال امتلاك (المعيدي) بدوره للبنادق ؛ ففي اللحظة التي اكتشفوا فيها (الجباشات) التي اتخذ اللصوص منها مكمناً سرياً في أكثر الأهوار عمقاً وعزلة ، في تلك اللحظة التي كان الجنود فيها في سبيلهم للإطباق على تلك (الجباشات) ، جوبهوا بعيارات نارية كانت تربض في انتظارهم!

وكان هذا الأمر يتخطى قدرة (مطلق) على الصبر والتحمل ؛ فيوم

www.ibtesama.com

سمع به صاح برجال الديرة المتحلقين حوله في المضيف وقد خرج عن طوره :

- أيعقل أن يملك هذا اللص الوضيع مثل هذه الأداة النادرة في الوقت الذي لا نستطيع نحن الحصول عليها؟!

فهوّن الرجال الأمر ، وواسوا (مطلق) مدّعين أن القضية لا تتخطى محض شائعات يتناقلها أدلاء مرعوبون قد يهذرون بأشياء لا تصدق وهم يرون أنفسهم مقودين تحت تهديد بنادق الجنود وسط أهوار منعزلة لا يقربها الجن الأزرق!

لكن (مطلق) لم يقتنع بما قيل ؛ ففي سورة غضبه تلك عاهد المجتمعين على أنه لن يحلق شعر رأسه ولن يشذّب لحيته ، ولن يتضمخ بطيب إلا يوم يحصل فيه على بندقية!

قال الراوي : بيد أن مرور الزمن سرعان ما أكد صدق تلك الشائعات ؛ فقد كفّ الجنود عن المجازفة في القيام بحملات مداهمة معروفة النتائج سلفاً ، كما أن الناس في الديرة باتوا يجفلون من نومهم في بعض الليالي على دويّ إطلاقة يتيمة ، وارتفاع صراخ شخص ما من أحد البيوت وهو يستنجد مدعياً أنه قد سرق . ولم تكن بالرجال حاجة إلى التأكد من شخصية الجاني ؛ فقصاصو الأثر سرعان ما كانوا يؤكدون أن الدلائل كلها تشير إلى أن اللصوص قدموا من (بزايز الجولان) وعادوا إليها!

- ومنْ يكون الجاني غير (المعيدي) وهو سيد الأهوار؟

كان (مطلق) يتساءل صارفاً بأسنانه حقداً ؛ فبالرغم من أن ذلك اللص الأفّاق كان يحرص على عدم التعرض لممتلكات (مطلق) - إنما يسرق الآخرين من رجال الديرة - لكن الغيظ كان يأخذ بخناق (مطلق) ليس بسبب السرقة ؛ فهو يعرف جيداً أن اللصوصية دأب

www.ibtesama.com

المعدان وموضع فخرهم ، بل لامتلاك ذلك الرجل للبندقية . كان حقد (مطلق) على (المعيدي) لما قام به في عام الطاعون من اعتداءات على ديرته لا يُقاس بحقده عليه لكونه سبقه في امتلاك تلك الأداة!

كان يقول مخاطباً رجال الديرة المجتمعين في المضيف :

- علينا ألا نحذر جنود السلطة فحسب ، بل المعيدي أيضاً . . نعم . . . علينا أن نحذره أكثر ؛ فامتلاكه البنادق سيجعله يطمح يوماً ما إلى أن يمد سطوته على ديرتنا هذه!

فكان الرجال يعاودون طمأنته من جديد ، مؤكدين استحالة تمكّنه من امتلاك البنادق التي لا تزال محدودة الانتشار . لكن (طارش) أيّد أباه في أحد الأيام بحماسة غريبة لفتت انتباه الجميع ؛ حتى أن (مطلق) سأله بفضول لم يستطع مقاومته :

- ما سر تأكدك من هذا الأمر؟

فتلجلج طارش كأنما ضُبط متلبساً بالجرم المشهود . لكنه أفلح في السيطرة على نفسه ليسوّغ الأمر قائلاً :

- لقد صادف أن مررت بمشحوفي بالقرب من (جباشات) هؤلاء اللصوص ، فسمعتُ إطلاق رصاص!

فسأله أبوه مستنكراً وقد عقد حاجبيه الكثيفين ببعضهما :

- وما الذي دفعك إلى أن تمر بمشحوفك بالقرب من (جباشاتهم) اللعينة؟

فتلفت طارش حوله كمن يبحث عن معين ، وحينما وجد أنه مستهدف من عشرات العيون تابع يقول :

- ذهبتُ . . . إلى هناك . . . لشأن من شؤوني!

- ذهبتَ إلى هناك لشأن من شؤونك؟

تساءل (مطلق) مستنكراً ، وبغتة تذكر أمراً كان قد غاب عن ذهنه

www.ibtesama.com

حتى الآن ؛ فعاد يسأل هذه المرة بنبرة أقرب ما تكون إلى الاتهام :

- بالمناسبة . . لمَ لمْ تخبرني بنتيجة تقصّيك عمّن سرق بعض أغنامك؟

وارتفعت همهمات الجالسين وقد تذكروا تلك السرقة التي حدثت منذ أسابيع ، وكيف أن (المعيدي) كان المتهم الأكيد فيها . لكن (طارش) قال وهو يسارع إلى النهوض :

- لقد كنت واهماً في ذلك ؛ فأغنامي لم تسرق ، إنما افترست الذئاب بعضها!

إنه يكذب! . . فكر (مطلق) وهو يتطلع نحو باب المضيف الذي غادره ابنه . أما لماذا؟ فذلك هو السر الذي قد يكون وراء تأكيد طارش امتلاك (المعيدي) للبنادق!

توصل (مطلق) إلى هذا الاستنتاج الذي دعمه تذكّره أن ابنه أخذ يتغيّب في المدة الأخيرة عن حضور أغلب جلسات المضيف ، بل بدأ يتغيب عن القلعة أياماً!

- ثمة ما يريب في الأمر!

قالها (مطلق) وهو يجيل بنظرة حائرة على أبنائه الآخرين الجالسين بالقرب منه .

قال الراوي : ولكن السر سرعان ما انكشف ؛ فعصر أحد الأيام فوجئ (مطلق) برجل ملثّم يرفل بعباءة ملقاة على كتفيه يدخل المضيف رافعاً إحدى ذراعيه بالسلام ، فرحب به ، ودعاه للتفضل بالجلوس . لكن الرجل تجاهل دعوته ؛ فقد بقي واقفاً قرب الباب ، يتفرس فيه بعينين تومضان بشكل غريب من فوق طية اللثام ،

فكفّ (القهوجي) الأسود عن توزيع فناجين القهوة ، وارتفع لغط الجالسين ، مبدين دهشتهم لسوء أدب هذا الرجل الملثّم الذي بقي واقفاً

www.ibtesama.com

بقامته الطويلة وضفائر شعر رأسه التي تلوح أطرافها من تحت طية كوفيته . ونهض (مطلق) وقد أوشك صبره على النفاد ؛ ذلك لأن آخر ما يطيقه هو أن يهان في مضيفه تحت سمع الآخرين وأبصارهم . لكنه ما كاد يفتح فمه ، ليسأل الرجل عن سر إهانته إياه برفضه الجلوس في مضيفه ، حتى بوغت به يخرج يده من تحت العباءة ممسكاً بها ببندقية!

وعاد لغط الجالسين يزداد ارتفاعاً ، في حين اقترب (مطلق) كالمأخوذ ، متأملاً تلك البندقية بين مصدّق ومكذّب . وتلمّسها بوله ، حتى إذا مستْ أصابعه ذلك الموضع الذي أبصر (الآمر) يضغط عليه في ذلك اليوم المشهود قبل أعوام مسبباً في انطلاق أول رصاصة في سماء ديرة (الهشيمة) ، ارتدّ بيده إلى الوراء . لكن الرجل الملثّم طمأنه بقوله :

- لا تخشَ من أن تنطلق ؛ فهي غير محشوة .

وحينما لم يحر (مطلق) جواباً مكتفياً بالبقاء واقفاً في مواجهته ، مبادلاً إياه النظر ، أكمل الرجل كلامه :

- . . . وذلك لأبرهن لك على سلامة نيتي!

وتغلب (مطلق) على وقع المفاجأة ، فعاد يتربع في صدر المضيف ، مكرراً على الرجل دعوته له بالجلوس ، مهيباً بـ(القهوجي) الإسراع في سقيه القهوة . لكن الرجل الغريب عاد يفاجئه بآخر ما كان يخطر في ذهنه :

- لن أشرب قهوتك يا شيخ الديرة!

وتحولت همهمات الجالسين إلى أصوات سخط واستنكار ؛ فأنى لرجل مهما بلغ من جسارة ووقاحة أن يعلن عن امتناعه شرب قهوة (مطلق) وسط مضيفه؟!

لكن الرجل بدد توتر الجو نهائياً حينما استطرد قائلاً :

www.ibtesama.com

- لن أشربها إلا بعدما تنصفني . . . وقبلها تدخلني في حمايتك!
وانبسطت أسارير (مطلق) وهو يجيبه :
- ابشر . . .ابشر يا رجل ؛ لن يمسّ ظفرك مخلوق وأنا موجود!
وشرع الجالسون يتساءلون هذه المرة عمّن يكون الرجل ، فسارع هذا إلى إشباع فضولهم ؛ فأسقط بهزة من رأسه اللثام تاركاً ضفائره المسترسلة تتدلى على جانبي وجه أسمر تميّز بعينين نفاذتين ، وشاربين كثين متهدلي الطرفين حول فم غليظ . وعادت التساؤلات تنطلق ثانية عمّن يكون الرجل؟ فقد بدا من المؤكد أنه لم يسبق لهم رؤيته من قبل!
- أنا ذياب!
أعلن الرجل ، وأضاف موضحاً ، مجيلاً حوله بنظرة حذرة :
- ذياب الذي تعرفونه باسم (المعيدي)!!
وتلقفتِ الاسمَ عشراتُ الأفواه ، ولاكته من وراء أسنان مطبقة من شدة الحنق . وتحفّز أكثر من واحد للوثوب عليه وقد شخصت في أذهانهم الآلام التي تجرعوها على يديه في عام الطاعون . وشكر (مطلق) الله كثيراً فيما بعد لأنه سبحانه وتعالى ألهمه الصبر في تلك اللحظة القاتلة فلم يبطش بالرجل ملطخاً بذلك سمعة عشيرته إلى الأبد ؛ إذ كيف يعتدي في مضيفه على مَنْ منحه الأمان قبل لحظات؟!
جال في الرجال بنظرة محذرة ، شفعها بأن قال بصوت بدا وقعه غريباً على سمعه :
- دعوه . . . فهو في حمايتي!
وكان لا بد من مرور لحظات قبل أن يتمكن (مطلق) من مغالبة نفسه ، محاولاً إيجاد التسويغات الكفيلة بالتخفيف من جريرة (المعيدي) ؛ فهو بدوره أسهم بإيقاع الأذى به وبرجاله ؛ ذلك لأنه سبق

www.ibtesama.com

له أن بعث الأدلاء مع الحملات التي كانت تجدّ في أثره من حين إلى حين ، ثم إن ما اقترفه في عام الطاعون ليس بالمستغرب ؛ فذلك هو دأب (المعدان) : يقولون بافتخار عمّن لا يجارى في السطو والقسوة : (يحوف بالكَمرة) ، أو (يسرق الكحل من العين) . وعلى كل حال يبقى هذا الرجل سيد الأهوار مثلما هو سيد الديرة ، هذا أمر لا بد لـ(مطلق) من أن يقرّ به في دخيلته شاء أم أبى!

ونجح (مطلق) في السيطرة على انفعاله ، فعاد يدعو ضيفه مجدداً للجلوس . لكن (المعيدي) عاد يكرر بإصرار :

– لن أشرب قهوتك إلا بعدما تنصفني!

فتساءل (مطلق) بمرارة مشيراً في الوقت نفسه نحو البندقية :

– أتطلب مني أن أنصفك وعلى كتفك مثل هذه الأداة؟

– تلك هي المشكلة ؛ فالبندقية هي آخر شيء قادر على أن ينصفني مما دفعني للاستنجاد بك!

أجابه (المعيدي) ليردف متسائلاً :

– قل لي يا كبير الديرة : ما الذي يستطيع المرء فعله حين يجد الشبل يحوم حول بيته؟

فأجابه (مطلق) مجارياً إياه في طريقته في الكلام :

– يحذر الأسد!

– أحسنتَ . . وذلك ما جئتك من أجله!

– لكنني لا أزال غير مدرك مغزى ما ترمي إليه بكلامك الغامض هذا!

– ستفهمه لو أنك شمّرت عن ساعديك ، ورافقتني في طرّادتي المهلة في انتظاري عند (بزايز الجولان)!

خاطبه (المعيدي) بصيغة أقرب ما تكون إلى التحدي ، فأجابه

www.ibtesama.com

(مطلق) على الرغم من تحذير الجالسين :

- سأرافقك من فوري!

ونهض ليلتفت نحو أبنائه مخاطباً جناح بقوله :

- أجلس في موضعي ، وأحط المضيف برعايتك طوال مدة غيابي ، لكنك في حلّ من ذلك حين يقدم شقيقك الأكبر طارش .

قال الراوي : وغادر الاثنان المضيف مشيعين بنظرات دهشة وتوجس . واتجها شرقاً مخترقين الأزقة الملتوية بين البيوت والأكواخ . وانحدرا من الجرف حيث كانت في انتظارهما طرادة تزين رؤوس المسامير البارزة جوانبها ، وهي تصعد وتهبط في موضعها . وكانت مشدودة إلى شجرة غرب تفجرت غصونها بزهورها الحمر العنقودية الصغيرة التي تسبق تفتق البراعم عن أوراق الربيع ، والمياه تزبد متلاطمة بضراوة حول جذعها المشقق المملوء بالندوب .

وازن (مطلق) ثقل جسده بصعوبة وهو يرتقي الطرادة مفكراً في تحذيرات الرجال من مرافقة هذا اللص الذي لا يؤمن على شيء . لكنه ما كاد يستقر جالساً في المقدمة مديراً ظهره للديرة ، مستقبلاً المساحات المائية اللانهائية بعينيه ، حتى هز رأسه باستهانة ؛ فما الذي يخشاه رجل مثله ليست حياته سوى سلسلة من المخاطر والمجازفات المتعاقبة؟

وكان (المعيدي) قد حرر الطرادة دافعاً إياها وسط (بزايز الجولان) بضربات من (المردي) كانت تجعل فوهة بندقيته المعلقة خلف ظهره تتحرك بمحاذاة عنقه بحركات تنذر بالشر!

اتجهت الطرادة بهما شرقاً حيث توضحت معالم جزيرة (البطيحة) المغطاة بأدغال بدت زرقاً مضببة تحت سطوع قرص الشمس الذي كان قد مال وراءهما نحو الأفق الغربي . وأخذت سيقان نباتات (الجولان) ترسل الحفيف وهي تنشق أمام المقدمة الرشيقة المندفعة عالياً وثمة

www.ibtesama.com

رؤوس مسامير ترصّعها بكثافة .

لم يتكلم الرجلان إلا بعدما دخلت الطرادة بهما المياه الخضر العميقة : فقد سحب (المعيدي) (المردي) ومدده في جوف الطرادة مع رشقة ماء أحسّ (مطلق) برذاذه يمسّ وجهه . والتقط الرجل مجدافين قصيرين من تحت قدميه بدأ يجدف بهما بمهارة موجّهاً الطرادة في اتجاه الجنوب حيث تمتد المياه على مدى البصر وهي تموج برقة بفعل نسيم ربيعي لا ينقطع عن الهبوب .

- قل لي يا كبير الديرة : أتستطيع أن تشخّص صنف ذلك الطائر الذي انقضّ نحو المياه خطفاً قبل أن يعلو بصيده؟

تساءل (المعيدي) وهو يومىء برأسه في اتجاه الغرب حيث خلّفا الديرة وراءهما ، فظلل (مطلق) عينيه بكفه متطلعاً بنظرة دامعة إلى ألق الشمس وقد انعكس على المياه بشكل يعشي الأبصار :

- لا . . . لكنني أظنه عقاباً ؛ فمن دأب هذا الطائر الجارح اقتناص فريسته بتلك الطريقة ، والدوران في السماء بهذا الشكل .

أجابه (مطلق) وقد عاد يراقبه بنظرة متسائلة في انتظار أن يفصح عن مغزى سؤاله الغريب ذاك ، فرآه وقد سحب المجدافين وألقى بهما بين قدميه ، لينهمك بتعبئة البندقية من فوهتها ، حتى إذا ما انتهى ثبّتَ أخمصها إلى كتفه وقد ركع ثانياً إحدى ركبتيه مستنداً بالأخرى إلى حافة الطرادة . ودبتْ مرونة عجيبة في نصفه السفلي ؛ فقد بدا كأنه انفصل عن نصفه العلوي : ففي الوقت الذي كان فيه ذلك النصف يستجيب لتأرجح الطرادة ، كان النصف الآخر قد جمد تماماً في وضعية لم تضاعف الحركة المستمرة من صعوبتها فحسب ، بل زاد الأمر تعقيداً أن الرجل كان يصوّب نحو هدف لا يستقر في موضعه لحظة واحدة ، حتى أن (مطلق) عدّ إصابته ضرباً من معجزة . لكن

www.ibtesama.com

المعجزة سرعان ما تحققت ؛ إذ ما كاد الدويّ الأصم ينفجر ، مسبباً في اندفاع الطرادة تحتهما ، حتى لمح (مطلق) العقاب يسقط من حالق ليرتطم بالمياه مبسوط الجناحين ، وفي الوقت نفسه ترددت الأصداء على امتداد مساحات المياه اللانهائية ؛ فانطلقت آلاف الطيور من أجمات (الجولان) والبردي المتوزعة على مسافات متباعدة ، مرقطة زرقة سماء الغروب ببياض لونها .

– أجئتَ بي في (طرادتك) هذه لتشهدني على مهارتك في التصويب؟ أم لكي تخيفني؟

تساءل (مطلق) متهكماً ، فأجابه (المعيدي) وقد انهمك في تعبئة بندقيته من جديد :

– أما أن أريك مهارتي . . . . فنعم . . أما أن أخيفك فحاشا أن أفكر في ذلك ؛ فأنت لست كبير الديرة فحسب ، بل أنت سيد الرجال!

– حسن . . . وما شأني بمهارتك؟ ففي ظني أنه يفترض بي أنا أن أحذر منك لا أنت!

وأعاد (المعيدي) البندقية إلى كتفه ، وواصل التجديف لحظات قبل أن يقول :

– الذي أعنيه هو أن في وسعي أن أقتل خصمي من بعيد!

فصاح (مطلق) نافد الصبر :

– ولكنك أنت الذي اخترت أن تصبح لي خصماً منذ عام الطاعون ؛ فما الذي يدفعك الآن إلى تهديدي؟

فأجابه (المعيدي) وهو يجدّ في تجديفه :

– حاشا لله من أن أجعلك لي خصماً يوماً ما . . . أبداً . . . أنا أجلّك يا كبير الديرة . . . أما ما قمنا به في عام الطاعون و . . . . وما

www.ibtesama.com

نقوم به أحيانا من سرقات في . . . . في ديرتك فذلك أمر طبيعي ؛ لأن . . . اللصوصية هي العمل الوحيد الذي نجيده!

وكتم (مطلق) ابتسامة كادت ترتسم على شفتيه ، ولولا دقة الموقف لما استطاع الامتناع عن الانفجار في الضحك . وكان (المعيدي) قد عاد يسترسل في كلامه الغريب :

– اللصوصية شيء . . . وثلم شرف الآخرين شيء آخر!

– ثلم شرف الآخرين؟ ما هذا الكلام؟ أفصح عما تعنيه يا رجل!

صاح (مطلق) غير مصدق سمعه ؛ إذ ما علاقته هو بثلم شرف الآخرين؟ لكن (المعيدي) أجابه بكل هدوء :

– صبراً . . . صبراً يا كبير الديرة ؛ فالمثل يقول : ليس الخبر كالعيان . . . . صبراً وسترى بعينيك أمراً لو حدّثتك عنه لما صدقتني ، ولعددته كلام لص لا يوثق به .

وخيّم الصمت عليهما من جديد . وكانت الطرادة قد اقتربت بهما من منابت القصب ؛ فأوشكت معالم اليابسة على الاختفاء . وبقيت بساتين النخيل ترافقهما مسافة قبل أن تتراجع بدورها تاركة المياه تفترش كل ما يقع عليه البصر . . . . لا شيء يلوح سوى مياه عميقة الزرقة تتغضن برفق عاكسة صور السحب البرتقالية الشاهقة وثمة نقاط بيض منفردة هنا وهناك أو متجمّعة على نفسها في بعض المواضع ، سرعان ما كان (مطلق) يكتشف ، عند اقتراب الطرادة منها ، أنها ليست سوى طيور مائية كانت تصفق بأجنحتها لتطير فوق رأسيهما على ارتفاع خفيض قبل أن تحلق عاليا . وطارت بضعة غربان بتثاقل لحظة ولج (المعيدي) بطرادته أحد الممرات الضيقة المتعرجة وسط تشابك أدغال القصب والحلفاء ، وتعقبتهما بنعيقها الكريه وقد احتوتهما طراوة الظلال المتكاثفة المثقلة برطوبة المياه . وبات يُسمع

www.ibtesama.com

لهبوب النسيم صفير وهو يمر برؤوس القصب التي لا تكف عن التأرجح . وعلى جانبي الممر تكدست طبقات من قشور القصب الذهبية ، وقد تعفن بعضها وتغضن بعد تشعبه بالماء . وكان قرص الشمس الأحمر يرافقهما في انحدارهما جنوباً فيلوح بين فينة وأخرى ، من خلال السيقان المتشابكة ، على شكل ومضات ساطعة سرعان ما تختفي خلف دغل متماسك تاركة ألقها ينعكس على المساحات المكشوفة للمياه .

قال الراوي : وفي النهاية سحب (المعيدي) المجدافين فانزلقت الطرادة وحدها برفق على امتداد تلك المسافة المتبقية من الممر الذي كان ينفتح على بركة خضراء واسعة ، تحيط بها أدغال القصب من كل جانب ، وقد توزعت وسطها (جباشات) تعلوها أكواخ قصبية ذات سقوف محدبة ، كستها الشمس الغاربة بلون الذهب ، وثمة سحب دخان تتصاعد من بعضها ، في حين تنفث (التنانير) القائمة قريباً من الحافات لهباً أحمر ينعكس وهجه بشكل أخّاذ على خضرة المياه .

- ذلك هو كوخي .

قالها (المعيدي) مشيراً إلى أقرب الأكواخ ، وكان يقوم منفرداً فوق (جباشة) في الطرف الشمالي من البركة .

- وما شأني أنا بكوخك؟ أحملتني على ظهر (طرادتك) اللعينة هذه المسافة كلها لتريني كوخك وأكواخ صحبك اللصوص؟

انفجر (مطلق) صارخاً مطلقاً لغضبه العنان ، لكنه فوجئ بـ(المعيدي) يلوي فمه الرمادي بابتسامة متوسلة وهو يقول :

- صبرك . . . صبرك يا كبير الديرة ؛ فمن المؤكد أن رحلتنا هذه لم نقم بها من أجل أن أُريك أكواخنا نحن اللصوص!

وبعد لحظة صمت أضاف بصوت حزين :

www.ibtesama.com

- أنا أعلم بأنني لص و . . . مهرّب . . . نعم . . . أعلم ذلك ، وإلا أكنت أعيش مع صحبي في هذه البقعة المعزولة وسط الأهوار عيشة الخنازير؟

وتصلّب صوته وهو يضيف :

- أعلم كل هذا ، إلا أن ذلك لا يعني أنني لست رجلاً شريفاً!

فجنح (مطلق) بوجهه جانباً ، وتمتم بيأس كمن يكلّم نفسه :

- لا حول ولا قوة إلا بالله . . . عاد يتكلم عن الشرف!

وأضاف متسائلاً مغالباً ، في الوقت نفسه ، شعوراً طارئاً بتعب مفاجئ ندم بسببه لأنه لم يمتثل لتحذيرات رجاله بالامتناع عن مرافقة هذا اللص :

- قل لي : متى تفصح عن مغزى كلامك الملتبس هذا؟

- سترى ذلك بعينيك ؛ فالخبر ليس كالعيان!

همهم (المعيدي) بغموض متهرباً بعينيه من (مطلق) . وكانت الشمس قد غابت ؛ فتغطى كل ما حولهما بلون رمادي منطفئ . وخيّم سكون عميق كان يُسمع ، من خلاله ، صوت اصطفاق المياه على جانبي الطرادة التي لم تكن تكف عن التأرجح في موضعها عند نهاية الممر القصبي . وكانت صرخات أسراب البط والطيور المائية الأخرى تتردد ، من حين إلى حين ، فوق رأسيهما وهي تطير ، في عمق السماء ، جماعات وفرادى ، عائدة إلى أعشاشها المختفية بين منابت القصب البعيدة عن مساكن البشر . وبدأت سحب البق بالهجوم ؛ فانهمك (مطلق) في صفع الأجزاء المكشوفة من جسده . وشعر بواحدة منها تطنّ بشكل مزعج في تجويف أذنه ، فتعقبها بسبابته ، مفرغاً فيها غيظه ، وفتح فمه ليقرّع (المعيدي) من جديد ، بيد أن شيئاً ما في ذلك الوجه الحزين المنكّس جعله يحجم عن ذلك ؛ ترى ما الذي يجعل هذا

www.ibtesama.com

الرجل المعروف بشراسته - والذي أذاق جنود السلطة الأمرّين عشرات المرات - ما الذي جعله يستنجد به على الرغم من امتلاكه لهذه البندقية التي تقتل من بعيد؟!

ورفع (المعيدي) رأسه ليتكلم على غير توقع وكأنه يستجيب لأفكار (مطلق) :

- على الرغم من كوني لصاً لكنني أكنّ لك الاحترام كله ، كما أبجّل ، في الوقت نفسه ، (السيد نور) ؛ فهو وليّ كُشف عنه الحجاب ، لذا فقد أجازف ، أنا أو واحد من رجالي ، بسرقة شيء ما من ديرتك ، أما أن أُلوّث يدي بدم رجل يمتّ لك أنت بصلة ما ، فذلك ما لن أقدم عليه لقاء كنوز الدنيا كلها!

- تلوّث يدك بدم رجل يمتّ لي بصلة مـــا؟ ولماذا؟ ومن هو ذلك الرجل؟

تساءل (مطلق) بنبرة أقرب ما تكون إلى التوسل . لكن (المعيدي) عاد ينكفئ برأسه متأملاً مدة طويلة البندقية المهملة بين كفيه تاركاً الطرادة تؤرجحهما لبعض الوقت قبل أن يتابع :

- في البداية تنبهت لفتنة . . . ابنتي الوحيدة فتنة التي ربيتها بنفسي منذ مقتل أمها عقب قيام الجنود بغارة علينا في موضع غير حصين كنا قد أقمنا فيه أكواخنا في الماضي ، تنبهتُ لها وقد أخذت تتغير في المدة الأخيرة ؛ تهتم بزينتها - لاسيما حين أكون في سبيلي مع رجالي للقيام بغارة - لا تكفّ عن غسل وجهها ، ولا تحرر أطرافها من حليها ، يرنّ حجلاها الفضيان في ساقيها ، وتوسوس المعاضد في زنديها كلما تحركتْ ، وأنا لغبائي أقول لنفسي : دعها وشأنها يا رجل . . . هكذا خلقت النساء . . .لا شيء يعادل لديهن شعورهن بجمالهن . . . ولكن لا . . . يبدو أنني كنت مغفلاً ؛ فذات يوم لم

www.ibtesama.com

أُصدق عيني وأنا أرى منديلاً يسقط منها . . . كان منديل حرير أبيض ، سارعتُ إلى التقاطه ، وقربتُه من أنفي لأبعده فوراً كالملدوغ ؛ فقد كان مضمخاً برائحة عطرة لا عهد لي بها! . . سألتها . . . سألت ابنتي فتنة من أين لها ذلك المنديل؟ في البداية لم تنطق ؛ وكيف لها أن تسوّغ امتلاكها للمنديل وأنا الذي أزوّدها بما تحتاجه منذ صغرها؟ شعرتُ بدمي يغلي في عروقي ، وبعناد المعدان الذي جُبلت عليه مع الحليب الذي رضعته من ثدي أمي أمرتها أن تجيبني على سؤالي . ولأنها تعرفني ، وتعرف نوبات جنوني ، اكتفت بأن رمقتني بنظرة خاطفة أدركتْ بعدها أنها لا بد لها من إجابتي ؛ فقد رأتني وقد غرزتُ أظفاري في باطن كفي الثانية ، وتلك علامة على قرب انفجاري بنوبة جنون . . . وهكذا اصفرّ وجهها ، وفتحتْ فمها المتيبس مدعية أنها اشترت المنديل من بائع متجول مرّ بمشحوفه قبل أيام ، فلم أشعر إلا ويدي تنخطف عالياً لأصفعها صفعة كافرة شعرتُ بوقعها على قلبي ؛ فمن لي في هذه الدنيا الغادرة غير فتنة؟ إنها ليست ابنتي فحسب ، بل هي أمي وأبي وزوجتي وكل أفراحي وأحزاني في دنياي هذه المغلقة مثل دورة الخاتم بين الماء والقصب ، هذه الدنيا التي ما من مرة غادرتها للقيام بغارة إلا حسبتُ أنني لن أعود إليها بل سأقتل أو يُمسك بي ، فينصرف ذهني إلى فتنة ؛ إذ كيف ستعيش وحدها بعدي وسط أصحابي اللصوص؟

وتهدج صوته انفعالاً ، فصمتَ لحظات قبل أن يسترسل في كلامه وقد سيطر على نفسه :

– قلت لفتنة وأنا أكاد أبكي : أذكري عذراً أكثر إقناعاً ؛ ذلك لأنه ما وجد على وجه الأرض بائع متجول يجازف بقطع هذه المسافة ببضاعته ليبيعها لمن؟ لنا نحن اللصوص!! . . حينها اضطرت إلى أن

www.ibtesama.com

تخبرني باسمه ؛ فلم أملك هذه المرة إلا أن ألطم رأسي ؛ فمن دون بنات الدنيا لم يجد ذلك الفتى سوى ابنتي ليعشقها!!

- ولكن من هو هذا العاشق؟

تساءل (مطلق) . وكما توقع فوجئ بـ(المعيدي) يجيبه بأمر آخر :

- لقد عرف كيف يوقّت مجيئه ؛ فقد رصد عيوناً حولي : فما أن يعرف بأنني في سبيلي للقيام بغارة حتى يأتي ليحوم بمشحوفه حول كوخي أنا المسكين . . . وسيأتي اليوم . . . من المؤكد أنه سيأتي ؛ فمنذ يومين وأنا أُشيع بين رجالي أنني في سبيلي للقيام بغارة هذه الليلة . . . وفعلاً : فقد قدتُ مجموعة من رجالي منذ فجر هذا اليوم إلى موضع سبق لي رصده ، وتركتهم هناك في رعاية واحد هو موضع ثقتي ، وودعتهم زاعماً أن ثمة أمراً ما اقتضى مني التغيب عنهم طوال هذا النهار والليل ، وبادرتُ من فوري في توجيه (طرادتي) نحو ديرتك!

وتبدد الصمت العامر باصطفاق المياه على جوانب الطرادة بنقيق ضفدعة أو اثنتين . وبدا ذلك كأنه كان إيذاناً لآلاف الضفادع لكي تشرع في النقيق ؛ فقد ضجت منابت القصب من حولهما في نقيق جماعي هائل يكاد يصم الأسماع .

قال الراوي : وعلى الرغم من تلك الضجة المتواصلة لاحظ (مطلق) كيف أن سمع (المعيدي) - سمع المهرّب واللص - قد التقط نأمة ما ؛ فقد رآه وقد تصلّب في موضعه جانحاً بوجهه . وفغر (مطلق) فمه مرهفاً بدوره السمع ، وسرعان ما استطاع أن يخمّن أن أمراً ما يجري على مسافة منهما ؛ فقد صمتت الضفادع في ذلك الجانب ، كما بات في المستطاع سماع حفيف سيقان القصب في احتكاكها بجسم صلب يمرق وسطها . وما مرّت سوى لحظات حتى شاهد (مطلق) مشحوفاً يندفع على مبعدة منهما من بين أجمة القصب ،

www.ibtesama.com

لينطلق خلال مياه البركة الساكنة متجهاً نحو أول الأكواخ وثمة رجل جالس فيه وهو يجدف بحماسة!

- ألم أقل لك؟ إنه هو!

همس (المعيدي) مطبقاً أصابعه على البندقية بعنف . وشخّص (مطلق) ، في الضوء الرمادي الذي تعكسه سماء ازدادت زرقتها عمقاً ، الرجل يحوم بمشحوفه حول كوخ (المعيدي) . وظهرت فتاة من فتحة الباب ، ترفل بثوب أحمر تألّق لونه بجلاء بإزاء خضرة ما تحيط بها من مياه ونباتات ، لمحها (مطلق) وهي تجيل بنظراتها حولها قبل أن تومىء إلى صاحب المشحوف . وأنّ (المعيدي) ألماً ليفحّ من خلال أسنانه :

- سأذبحها هذه المرة! . . . أرأيت؟ إنها تحذره من الاقتراب ؛ متوجسة من احتمال كوني أراقب كوخي بعدما كشفتُ سرهما!!

فلم يملك (مطلق) إلا أن يهمس متسائلاً :

- ولكن . . . لم لا تقتله يا رجل؟

فأجابه (المعيدي) بنبرة باكية :

- ذلك لأنه ابنك البكر طارش!!

- ابني طارش؟!

همس (مطلق) غير مصدق سمعه . وتنقل بعينين مجنونتين بين (المعيدي) وصاحب المشحوف الذي بدا وكأنه لم يفقه مغزى إيماءات فتنة الحذرة ؛ فقد واصل اقترابه من حافة (الجباشة) .

- نعم . . ابنك طارش . . . وإلاّ أكنتُ أتردد عن قتله لحظة واحدة؟!

قالها (المعيدي) بحرقة ، ليتابع بعد لحظة صمت :

- تكفيني مطاردات الجنود وغاراتهم عليّ ، فكيف تريدني أن أثير عداوتك أنت الذي تطوّق بديرتك مسلكي الوحيد إلى البر؟

www.ibtesama.com

- حسن . . دع الأمر لي!!

همس (مطلق) وقد قرّ عزمه على أمر لا رجعة له فيه . وبحركة مباغتة اختطف البندقية من بين يدي (المعيدي) الذاهل ليسدد فوهتها نحو ابنه ، وضغط على الموضع الذي شاهد (المعيدي) يضغط عليه عند اقتناصه للعقاب . ودوّت إطلاقة تردد صداها من حولهما في مثل هذا الوقت من المساء بشكل مخيف . وانطلقت آلاف الطيور بأجنحتها ، وهي تمرق فزعة من الأجمات . وكان (مطلق) قد سقط على ظهره في جوف الطرادة بفعل قوة ارتداد البندقية ، وقد غطت سحابة دخان بصره . والتقط (المعيدي) المجدافين بيدين مرتعدين ، وأخذ يجدف بالطرادة نحو كوخه وهو يئن متفجعاً :

- ما هكذا . . . . ما هكذا ظننتك تفعل يا كبير الديرة!

فصاح (مطلق) به بصوت قاسٍ وهو يعاود الجلوس في موضعه :

- وكيف تريدني أن أتصرف وقد استغثتَ بي؟

- ولكنه ابنك . . . كبدك . . . فكيف تحركتْ سبابتك على الزناد يا جابر عثرات الكرام؟

فعاد (مطلق) يصرخ به :

- هيا . . . كفى . . . أطبق فمك ، وسارع إلى توجيه (طرادتك) اللعينة ؛ فما فعلت إلا ما يفعله أي رجل شريف يجد نفسه في مثل هذا الموقف!

وارتفعت صرخات من الأكواخ . ونادى أكثر من صوت محذراً من أن الجنود قد هاجموهم ، فصاح (المعيدي) بدوره وقد ألصق طرادته بمشحوف طارش :

- إنه أنا صاحبكم ذياب يا رجال . . فحذار من إطلاق الرصاص!

وقفز إلى المشحوف نائحاً بصوت باكٍ :

www.ibtesama.com

- لقد ضعتُ . . . افتضحتُ وتلطخ شرفي إلى الأبد!

وانحنى فوق طارش المنكفئ بوجهه في جوف المشحوف . وانهمك في تحسسه وفي ظنه أنه قُتل . لكنه فوجئ به يتحامل على نفسه ، ليجلس في موضعه ساحباً ذراعاً تقطر دماً . وزمجر وهو يدفعه بيده السليمة ليلقي به في الماء حيث غطس (المعيدي) مرتين أو ثلاثاً قبل أن يفلح في إخراج رأسه . وسعل وقد شرق بالماء . لكن ذلك لم يمنعه من أن يصيح مستبشراً :

- لقد نجا . . . . حمداً لله لأنك لم تتقن التهديف بعد يا كبير الديرة ؛ فلم تصبه إلا بجرح في ذراعه!

وكان (مطلق) يحاول الانتقال إلى مشحوف ابنه موازناً جسده بصعوبة خلال تأرجحه فوق المياه ، حتى إذا ما اطمأن إلى صحة قول (المعيدي) سارع إلى تمزيق قطعة من ثوبه ليلفّ بها بيد راجفة ذراع ابنه محاولاً إيقاف النزيف . وفحّ قرب أذن طارش الذي أذهله وجود أبيه فوق رأسه :

- لا تحسب أنك ستفلت من العقاب ؛ فأنا لن أسمح حتى لابني بأن يفرط في سمعتي!

والتقط المجدافين ليوجّه المشحوف نحو ديرته دون أن يولي أدنى اهتمام للرجال الذين أخذوا يتقاطرون بمشاحيفهم ، لكنه لم ينسَ أن يصيح قبل أن يدفع المشحوف خلال منابت القصب :

- تأكد يا ذياب أنني سأنصفك مهما يكن الثمن!

وواصل التجديف بغضب وسط الظلام الذي تماسك تماماً لولا نبض النجوم وانعكاس ألقها على المياه حيث لا صوت يسمع سوى نداءات الوز الحزينة النائية .

وكان قد أهمل ابنه تاركاً إياه يتقلّب على هواه بين قدميه ناطحاً

www.ibtesama.com

برأسه جوانب المشحوف من فرط شعوره بالألم . ولم يكلّمه إلا لحظة انسحبت مقدمة المشحوف على اليابسة ؛ فبعدما التقطه وألقاه على كتفه بحركة عنيفة جعلت صرخة تضرّع تفلت من فم طارش ، همس (مطلق) صارفاً أسنانه ببعضها :

- أهكذا كنت تصرّف شؤونك يا ابن العاهرة؟

وأضاف بعدما أفلح في تسلّق الجرف تحت ثقل حمله :

- الآن فقط عرفتُ سر تغيّبك عن المضيف والقلعة!

وحمد الله في سره لأن الظلام ستره من عار الفضيحة وهو في مثل هذا الموقف المخزي الذي كادت الكلاب تفضحه بنباحها المتواصل . وكاد يتخاذل تحت ثقل طارش حين أخذ يرتقي به سفح التل داخلاً القلعة ، وركل بقدمه الباب وهو يلهث ملتقطاً أنفاسه ، حتى إذا ما توسط الحجرة ألقى بابنه على الأرض المفروشة بالسجاجيد والبسط ، ونهر بقسوة امرأته التي أفلتت منها صرخة رعب وهي ترى ، في ضوء القنديل ، ابن زوجها سابحاً في دمه . وهرع أبناء (مطلق) الآخرون من الحجرة القريبة ، متنقلين بنظراتهم الذاهلة بين أبيهم وأخيهم الذي لم يكفّ عن التقلّب في موضعه ، عاضّاً السجاجيد ، تاركاً دمه ينزف ملطخاً كل شيء . وكان الأب قد قرفص قربه ليفك عن ذراعه قطعة القماش المشبعة بالدم ، فهاله عمق الجرح ، فكاد يخطئ فيفصح عن شفقته لولا أنه تدارك الأمر في آخر لحظة ؛ فصاح وقد غدت عيناه أشبه بجمرتين :

- حمداً لله لأن أمك العاهرة اختطفها الطاعون فلم ترَ العار الذي سأكلل به رأسي ؛ إذ منْ كان يصدق أنني سأضطر إلى مصاهرة المعدان واللصوص بسبب نزوة ابنها الطائش؟!

قال الراوي : وكانت قصة عشق طارش لفتنة من أعجب

www.ibtesama.com

القصص ؛ فقد حدثت بسبب إحدى سرقات (المعيدي) : ففي صباح أحد الأيام فوجئ طارش براعي غنمه يخبره باختفاء ثلاثة من أغنامه : كبش وشاة مع حملها . ولم تكن بطارش حاجة للبحث والتقصي عمن يكون السارق ؛ فالدلائل كلها تشير إلى أنه قدم من الأهوار . وهكذا سارع من وقته وساعته إلى دس خنجر في حزامه ، واستقل مشحوفه دافعاً به نحو المكان المنشود ؛ فمنذ قيام الجنود بآخر غارة ، تمّ على أثرها اكتشاف الموضع الذي اتخذ منه (المعيدي) مكمناً لرجاله وأسرهم ، بات من المألوف أن يمر طارش بتلك (الجباشات) على مدد متباعدة جعلته يوثق صلته بالعديد من هؤلاء اللصوص ، بل إنه تجاوز العداء الموروث منذ عام الطاعون فارتبط بـ(المعيدي) نفسه بصداقة كانت تأتي على الاثنين بالنفع : يبادل أحدهما الآخر السلع المهرّبة بخيرات ديرة (الهشيمة) الوفيرة .

وهكذا شعر طارش بأن (المعيدي) غدر به سواء أكان السارق هو نفسه أم أحد رجاله ؛ فاندفع بمشحوفه ليطوي الأهوار بسرعة لا تصدق ، حتى إذا ما اخترق منابت القصب صاح بصوت رددت المساحات المائية صداه :

- يا (معيدي) . . . دي . . . دي . . . دي!

ودار بمشحوفه حول (الجباشة) التي يقوم عليها كوخ (المعيدي) مكرراً نداءه بعنف أشد ، حتى إذا ما مرق هذا خارجاً من الباب محني الرأس ، عاود طارش الصياح :

- لي معك حساب لا بد لنا من تصفيته!

واستقبله (المعيدي) بكل هدوء مجابهاً ثورته بالترحيب به :

- أهلاً . . . أهلاً بابن كبير الديرة!

بل إنه ساعد (طارش) في شد حبل المشحوف ومدّ يده ليعينه

www.ibtesama.com

على النزول ، بيد أن (طارش) تجاهل تلك اليد رامقاً غريمه بنظرة ضارية لم تمنع (المعيدي) من مواصلة ترحيبه به وثمة ابتسامة خجلى قد ارتسمت تحت شاربيه المتهدلي الطرفين . وتقدمه نحو كوخه وهو ينادي :

- فتنة . . . هيا يا ابنتي افرشي بساطاً جديداً ؛ فلدينا اليوم ضيف قلّ نظيره بين الضيوف .

وقد سأل طارش نفسه فيما بعد عن سرّ انصياعه لإلحاح (المعيدي) بـ(تشريف) كوخه؟ ذلك لأنه تعقبه داخلاً الكوخ حيث فوجئ بعيني فتنة ، اللتين زادهما الكحل المحيط بهما اتساعاً ، وهما تصعقانه بنظرة خاطفة لحظة فرشها البساط لتنسحب بعدها وراء الستارة القصبية التي تقسم الكوخ إلى قسمين . وكانت نظرة ثانية حُظي بها من تينك العينين كفيلة بأن تخفف من غضبه ؛ فقد أطلّتْ بوجهها من جانب الستارة سائلة أباها إن كان يحتاجها في شيء؟ فأمرها بإعداد (الطابك) ، ليلتفت نحو طارش معاوداً الترحيب به ، حتى إذا ما شرعت رائحة الدخان والسمن في الارتفاع عاد يسأله بمكر :

- حسن . . . ما هو ذلك الحساب الذي بيننا يا ابن كبير الديرة؟

فأجابه طارش وهو يجيل بعينيه في أرجاء الكوخ القصبي على غير هدى :

- فيما بعد . . سنتحدث عن ذلك لاحقاً!

ووجد نفسه في موقف محيِّر شعر معه بعجزه عن التصرف بالشكل المناسب ، فأخذ يدقق النظر حوله ، وكأن دافعه لتلك الرحلة المضنية لا يتخطى جرد محتويات الكوخ التي لا تتجاوز بندقية معلقة على الجدار القصبي وتحتها (فالة) ، فضلاً عن مجاديف و(مرادي)

www.ibtesama.com

مركونة في إحدى الزوايا ، وبالقرب منها بضعة أكياس رز وقمح ، وخصاصيف تمر كان قد بادلها مع (المعيدي) مؤخراً لقاء مشحوفه الذي تركه يختض عند حافة (الجباشة) . بيد أن النظرة الثالثة التي حُظي بها من فتنة - وهي تضع بين يديه طبق (الطابك) - كانت كفيلة بإرشاده إلى التصرف السليم ؛ فقد اكتشف - وهو منهمك في التهام ذلك القرص السميك المعمول من عجين الرز - أن غضبه قد تلاشى تماماً ؛ فقال ، محركاً القطع الساخنة في فمه من جانب إلى آخر :

- لا شيء . . فقد صادف أنني كنت في طريقي إلى جهة ما لأمر من الأمور ، فأحببتُ أن أمرّ بك!

وازدادت ترحيبات (المعيدي) حماسة . وكانت النظرة الرابعة التي اقتنصها طارش من فتنة ، وهي تطلّ من جانب الستارة لحظة الوداع ، كفيلة بأن تجعله يتعثر بشيء ما كان مرمياً خارج الباب - يبدو أنه لم يتنبه له عند دخوله لفرط غضبه - تبيّن طارش أنه ليس سوى جلد كبش تُرك تحت أشعة الشمس ليجف . ولم تكن به حاجة ليتأكد من أنه لم يكن سوى جلد كبشه غير المأسوف عليه ؛ فقد لاحت له بوضوح (الدمغة) الخاصة به وقد انطبعت على موضع منه . لكن اكتشافه ذاك لم يمنعه من أن يرفع صوته لحظة حرر المشحوف ووثب فيه :

- سأعود لزيارتك يا أبا فتنة عساك ألا تبخل عليّ بـ(طابك) آخر!

فأجابه (المعيدي) وهو يعدل بقدمه جلد الكبش بصورة أفضل :

- على الرحب والسعة . . . . في وسعك أن تعدّ بيتي بيتك .

قال الراوي : ويبدو أن (طارش) بالغ في استثمار هذه الدعوة بالطريقة التي غدا بيت (المعيدي) في آخر الأمر حقاً بيته ؛ فقد تمّ زفاف فتنة إليه على الرغم من ذراعه المضمدة والمعلقة في عنقه .

www.ibtesama.com

وضجّت منابت القصب بدويّ العيارات النارية التي أسرف المعدان في إطلاقها وكأنهم بذلك يتحدون جنود السلطة علناً ؛ فها هو أرفع الناس شأناً وأكثرهم رجالاً وقوة يصاهرهم!

وكان ذياب – هكذا عاد الآخرون يسمون (المعيدي) باسمه الحقيقي احتراماً لـ(مطلق)! – قد حمل ابنته في طرادته التي كادت تغطس تحت ثقل (جهازها) الذي بقي مصدر التعليقات الفكهة على امتداد الوقت الذي استغرقته الرحلة إلى ديرة (الهشيمة) .

– أترى ذلك الإبريق النحاسي الذي يطل من بين جهاز العروس شامخاً بأنبوبته بكبرياء؟

يتساءل شخص ما وهو يلكز صاحبه الذي تكاد أضلاعه تتحطم من فرط تزاحم الناس في إحدى الطرادات . وحينما لا يحظى الرجل بجواب يجيب عن سؤاله بنفسه :

– إنه الإبريق الذي ورثته عن أمي . . . ولا شك أن (المعيدي) . . . . أقصد (ذياب) قد سرقه في إحدى غاراته على ديرتنا ، نعم . . . فأنا واثق من هذا الأمر ؛ فذلك الانبعاج الذي تراه في أحد جوانبه حدث لأن المرحوم أبي رماني به بضربة سديدة خرج منها رأسي سالماً!

فيصحح صاحبه قوله وهو يحاول عبثاً أن يستنشق نفساً واحداً من بين تلك الصدور والظهور والخواصر التي تطوقه من كل جانب :

– قلْ استعاره يا رجل ؛ أنسيت أن شيخنا قد صاهره؟

ويصيح رجل في طرادة أخرى :

– ذلك الطشت طشتي . . . أقسم على ذلك ؛ فحمرة نحاسه لم تلمع بهذا السطوع إلا لكثرة استحمامي فيه!

فيعلق آخر بكلام فاضح :

www.ibtesama.com

- وذلك الإزار الأحمر الذي يخفق في الريح، أتتصوره من حلال ذياب؟ أبداً.. فأم أولادي أدرى الناس بصاحبه؛ إذ كانت لي معها صولات وجولات تحته!

وكانت المشاحيف والطرادات المحمّلة بالنساء والاطفال على نقيض مشاحيف الرجال وطراداتهم: تشق سبيلها نحو الديرة على إيقاع الزغاريد الثاقبة المصحوبة بضجيج الأطفال. وكانت نساء المعدان قد بالغن في زينتهن - مستثمرات هذه الفرصة النادرة بعد حياة حصار ونبذ طويلة مهددة بغارات الجنود - فكنّ يخطفن بحركاتهن الأبصار: فتعديل إحداهن لفوطتها مثلاً كان يجعل المعاضد والأساور والقلائد تتفجر تحت وهج الشمس بعشرات الأضواء!

وانحرفتِ الطرادات والمشاحيف في آخر الأمر غرباً لتنسحب مقدماتها على اليابسة مفرغات حملها من رجال وفتيان - كانوا يتخذون سبيلهم تلقائياً نحو المضيف - ونساء يرتقين التل نحو جناح القلعة، محتضنات أطفالاً هزيلين، في حين يتعثر خلفهن أطفال أكبر سناً يتشبثون بإحكام بأذيال أثوابهن وهم يتطلعون، بنظرات متوجسة، إلى هؤلاء الناس من سكان البرّ الذين يبدون أكثر ضجيجاً ومرحاً لكونهم غير مهددين بالغارات!

قال الراوي: كانت زفة لا تنسى قدم فيها الطعام والشراب بسخاء، وتمزق أكثر من جلد رقبة طائر (نعيج الماي) الذي تعمل منه الدفوف عادة. ولحظة دُفع فيها طارش دفعاً لمغادرة المضيف وهو يرفل بثوبه الأبيض من أجل (إنجاز المهمة) أبى أحد الخبثاء إلا أن يتساءل بمكر:

- ولكن أيستطيع أن (يعملها) وذراعه مشدودة إلى عنقه؟

فأجابه آخر لا يقل خبثاً عنه:

www.ibtesama.com

- وهل (يعملها) بيده يا رجل؟

لكن (طارش) سـرعـان مـا(عـملهـا) . ولحظة وصـول الخـبـر إلى المضيف وثب (مطلق) وذياب ليتعانقا وسط صدح (الهوسات) . وخرج الاثنان ليقفا عند الباب حيث سارع ذياب إلى تلقيم بندقيته مرشداً (مطلق) إلى كيفية الإطلاق الصحيح بالضغط على الزناد . وحين دوّت الإطلاقة في الفضاء لتتردد الأصـداء من كل جانب تساءل أكثر من واحد بنبرة ذات مغزى :

- ها هي سطوة (مطلق) تتعزز ببندقية ذياب ؛ فأنّى لجنود السلطة السبيل إلى الوقوف في وجهه الآن؟!

www.ibtesama.com

كتاب الكتب

سِفر الحاء

لعل الإطلاقة التي دوّتْ في ختام القسم الثاني من (السيرة المطلقية) لم تنبّه على اتجاه الأحداث القادمة نحو الصراع المحتوم فحسب ، بل نبهتني أنا بدوري على أنني وصلت إلى قلب مدينة (الأسلاف) ، مدينة الحروف والكلمات حيث صفحات (دفتر الملاحظات) السابقة قادتني إلى منتصف هذه الرواية محددة ، في الوقت نفسه ، إطارها حتى نهايتها : فبين النص الشفهي للراوي الأول ونصي الكتابي ، الذي مازال في طور التشكل والنمو ، ستتخذ النصوص الأُخرى مواقعها : فنص (عبد الله البصير) يقود إلى نص (مدلول اليتيم) الذي يقود بدوره إلى نص (عذيب العاشق) ، في حين أستند أنا في نصي هذا - إنْ استطعتُ أن أُبرهن في ختام هذه الرواية على جدارتي بأن أغدو سابع الرواة - إلى نص الراوي الخامس (ذاكر القيّم)!

ويبقى نص الراوي الرابع (السيد نور) هو النص المعضلة ؛ ليس بسبب كونه النص المحظور فحسب ، بل لضياع ذلك النص - يومها لم أكن قد عثرتُ بعد على أهم أوراق ذلك النص باستثناء تلك الورقة التي عُثر عليها قبل ربع قرن والتي كانت السبب المباشر في إجهاض مشروع شبيب في تحقيق المخطوط - وكان قد تم العثور على أوراق عديدة

www.ibtesama.com

لم يبتّ بعد في صحة انتسابها إلى (السيد نور) .

إنها نصوص تنطوي بدورها على عشرات النصوص الأخرى التي نسيتْ أسماء مؤلفيها أو أُهملت ؛ فالنصوص الشفهية الثلاثة ما هي في واقع الحال إلاّ خلاصة جهود عشرات الرواة المجهولين الذين طعّموها بشذرات من أخيلتهم . كما أن النصوص الكتابية تتضمن بدورها جهود عشرات القيّمين على المزار .

هكذا وجدتُ نفسي فجأة بإزاء حشد نصوص تفتقد الاتساق والانسجام شكلاً ومضموناً - كاسيتات ، وأوراق مكتوبة ، نصوص عرفانية ، وسير شعبية ، وأساليب تتعلق بكيفية تحقيق المخطوطات - نصوص ليس من اليسير تطويعها على نسق فني ينتج رواية معاصرة تسوّغ أن (يضيّع) قارئ ما جزءاً من وقته يمضيه معها في هذا الزمن الذي توشك القراءة فيه على الاندثار!

كانت البداية هي أهم ما تشغلني : كيف لي أن أمسك برأس الخيط الملائم الذي سيقودني خلال تلك المتاهة؟ أأبدأ بقسم (عبد الله البصير) وأعقبه بالأقسام الأُخرى لأختمها بقسم (شبيب طاهر الغياث)؟

ولكن ذلك أول اختيار يخطر في الذهن ، وهو بالتالي أبعد الاختيارات أصالة وتفرداً ، فضلاً عن كونه سيؤدي بي إلى أن أعمل حقاً خارج متن (الراووق) : إذ ما مسوّغ سفح مداد قلمي هذا في تجسيد جهود رواة أوجدوا نصوصهم دون أن تخطر روايتي لهم على بال؟

وهنا يأتي دور نص (السيد نور) المحظور ؛ فالوصول إليه من خلال الصفحات القادمة هو الذي سيمنح روايتي الوجود ، وسيجعلها بالنتيجة مقروءة ، ليس بسبب ما جُبل عليه الإنسان برغبته الأزلية

www.ibtesama.com

في كشف كل مستور فحسب ، بل بسبب اتجاه النصوص نفسها نحو ذلك النص المفقود : فالنصوص الشفهية الثلاثة تتجه في سرد الأحداث نحو واقعة (دكة المدفع) التي من الواضح أن (السيد نور) هو الوحيد الذي (جرؤ) على سرد أحداثها مثلما وقعت . كما أن النصوص الكتابية انبثقت من ذلك النص ، ثم إن أهم انعطافة حدثت في طريقة سرد (السيرة) من المرحلة الشفهية إلى المرحلة الكتابية تكمن في ذلك النص أيضاً!

وهكذا ، توجهتُ في أحد الأيام إلى المتحف متأبطاً دفتر ملاحظاتي سعياً مني للحصول على نص (ذاكر القيّم) ؛ ففضلاً عما أثاره (شبيب طاهر الغياث) حوله من اهتمام ، يقتضي ترتيب المتن الجديد لمخطوط (الراووق) الذي اتبعته حتى الآن – نص شفهي يعقبه نص كتابي – هذا السياق .

استقبلني بدر في غرفته بحماسته المعهودة معلناً عن (وضع) نفسه طوع أمري للشروع في تسجيل القسم الثالث من السيرة - وبرهن على قراره ذاك بانتزاع نظارته عن عينيه ملقياً إياها فوق الكتب الرسمية التي كان يقرؤها لحظة دخولي .

وحين أخبرته بغرضي من الزيارة علّق وهو يثب من وراء مكتبه نحو باب الغرفة ليوصي الفراش بإعداد فنجاني قهوة :

– لا حاجة بك إلى أن تتعب نفسك بحثاً وتدقيقاً في القاعة (القيّميّة) ذلك لأنني سأوصي أحد الموظفين ليصور لك تلك الصفحات .

فأجبته وأنا أتأمل لوحة معلقة في مواجهتي تمثّل أحد انطباعات (أبو بلقيس) الفطرية عن القلعة :

– من المؤكد أن بي حاجة ملحة إلى تصوير هذه الصفحات . لكن

www.ibtesama.com

ذلك لا يعفيني من مهمة (اتعاب نفسي بحثاً وتدقيقاً) في تلك القاعة ؛ فأنا لستُ باحثاً فولكلورياً أو أنثربولوجياً يهدف إلى كتابة بحث محايد ، بل أنا روائي قد يثير خيالي أمر لا يخطر على بال : ظل ديكور قد يأخذ امتداده على خلفية ما أهمية أكثر من الديكور نفسه ، أو اقتحام نحلة بطنينها هدوء تلك القاعة دائرة فوق محتوياتها لتحطّ في النهاية على أكرة الباب وفي ظنها أنها زهرة!

فصفق بدر كفيه إحداهما بأخرى استحساناً :

- رائع . . . ظل ديكور . . . ونحلة تحط على أكرة باب . . . رائع!

وتركني لينسلّ خلف مكتبه حيث أعاد تثبيت النظارة على أرنبة أنفه متابعاً قراءة تلك الكتب الرسمية المكوّمة أمامه موقّعاً على بعضها ، حتى إذا ما قدم الفراش بفنجاني القهوة قال وهو يتخلّص من نظارته ملقياً إياها مجدداً على الأوراق بحركة برمة :

- لقد عبّرتَ خير تعبير عن تلك اللذة التي لا يحس بمذاقها إلا منْ يستهدي بالروح في سعيها إلى تحقيق أحلام قد لا تعادلها ثروات الدنيا كلها .

وأضاف بعد لحظات صمت ارتشف خلالها من فنجانه حسوات كنتُ أحس بحرارتها ونكهة قهوتها حسنة الإعداد على لساني وأنا أرتشف من فنجاني :

- وذلك هو ما دفعني إلى تأسيس هذا المتحف مستعيضاً به عن الزوجة والولد .

وتحصّن بالصمت من جديد وكأن كلامه قد أثار لديه شجوناً سرعان ما أفصح عنها :

- أنا أعلم بأن معظم الناس في هذه المدينة يتهمني بالجنون ، بل ثمة من يعدني الأداة التي ينتقم بها الله سبحانه وتعالى عما اقترفه أبي

www.ibtesama.com

في حق عشيرة (البواشق) في الماضي حين جمع ثروته الطائلة من شقاء أبنائها وتعبهم ؛ فأنا أبدد على المتحف في الشهر الواحد أكثر مما أتقاضاه على عملي من مرتب على مدى شهور السنة . . نعم . . أنا أعلم بكل ذلك دون أن آبه له ، بل إمعاناً مني في عدم المبالاة أُصارحك بأنني رصدتُ في وصيّتي الجانب الأكبر من ثروتي بعد موتي للمتحف!

وكان ، في إثناء كلامه قد أجهز على قهوته ، فاستغرق لحظات في تأمل ما تركته في جوف الفنجان من خطوط وعلامات وكأنه يستطلع حظه!

– تلك أمور لم تعد خافية عني ، بيد أن ما يسفهها هو ذلك الذي عبّرتَ عنه بظل الديكور والنحلة التي تحط على أكرة باب . إن لذتي الوحيدة في هذه الدنيا تكمن في عشقي للتاريخ ، التاريخ الذي لا تملك البشرية غيره ؛ فالحاضر ليس أكثر من لحظة ما نكاد نفكر فيها حتى تغدو ماضياً . . .

وبغتة شرعت عيناه الزرقاوان في الاختفاء وسط شبكة غضون نتجت بفعل ضحكة أخذ يغرغر بها حلقه :

– ثمة فكرة مجنونة تراودني منذ أعوام ، فكرة تتلخص بأن تتفق حكومات الكرة الأرضية جمعاء على تأسيس متحف مشترك لا يضم العينات التاريخية المعهودة للشعوب كافة فحسب ، بل يضم أيضا آخر مستجدات العصر ، بما فيها نموذج لأول قمر صناعي حمل كلبة ليدور بها حول الأرض ، والكبسولة التي عادت بأول رائدي فضاء تركا آثار أقدامهما إلى الأبد على سطح القمر ، وبعض مستجدات حرب النجوم ، وآخر صيحات الحاسبات الالكترونية . . . الخ .

وصمتَ متطلعاً إليّ بانتباه ، كمن ينتظر مني اعتراضاً . وحينما لم

www.ibtesama.com

أنطق انبرى مدافعاً عن فكرته تلك :

– نعم . . لم لا؟ فكل هذه الأشياء ستغدو في ذمة التاريخ ؛ فمثلما لا يمكن مقارنة السيارات التي صنعت في بداية القرن العشرين بأحدث السيارات الفارهة التي تمرق في شوارع المدينة بسرعة الصواريخ ، سيأتي اليوم الذي تبدو فيه الأجهزة التي حملت ذينك الرائدين إلى القمر وأعادتهما إلى الأرض بدائية مضحكة تبعث على السخرية والاستهجان مثلما يضحكنا الآن منظر الدراجات الهوائية القديمة ذات الدواليب الأمامية العملاقة قياساً إلى دواليبها الخلفية الصغيرة!

فسألته مماحكاً :

– معنى ذلك أنه سيأتي اليوم الذي سيدخل فيه النفط بعد نضوبه التاريخ ، مما يحتم عليك وضع أحد أبراجه في متحفك!

– أكيد . . . سيأتي ذلك اليوم!

وأضاف بمكر وقد اختفت عيناه ثانية وسط شبكة غضون :

– لكن غيري هو الذي سيكون مسؤولاً عن القيام بذلك ؛ لأنني يومها سأكون قد غدوت غباراً!

تساءلتُ وأنا ألتقط من الطاولة التي أمامي ختماً اسطوانياً بحجم قبضة اليد :

– أليس من المفجع أن يكون مآل كل شيء إلى فناء؟

وأمعنتُ النظر في تلك الصور والنقوش والكتابات الدقيقة التي حفرتها يد ما ، منذ آلاف السنين ، على ذلك الختم مفكراً ، في الوقت نفسه ، بذلك الكلام الباعث على القلق والذي قد يكون الدافع الحقيقي وراء أي عمل إبداعي .

وحينما لم يحر بدر جواباً تساءلتُ ثانية وأنا أعيد الختم

www.ibtesama.com

الاسطواني إلى موضعه على الطاولة قرب فنجان القهوة والدفتر، محاذراً أن أتسبب بحركة غير مقصودة في تهشيم لُقية خرجتْ سالمة من تعاقب آلاف السنوات وتراكم أطنان التراب لتنتهي إلى هذه الغرفة وقد نُظِّفتْ وعولجت بالمواد الكيميائية اللازمة :

- تُرى كيف السبيل إلى إنجاز عمل إبداعي يزيده مضيّ الزمن جودة وأصالة؟

لكن (بدر) اعترض قائلاً :

- لكنك أسعد حظاً ؛ فقد اخترتَ المهنة الوحيدة التي لا يستطيع الزمن التحكم فيها .

- ما من مهنة تفلت من قبضة الزمن .

- كيف تقول ذلك وأنت أدرى الناس بأنه لا يوجد عمل إبداعي معاصر قادر على أن يلغي أهمية عمل إبداعي قديم مثلما تلغي المخترعات العلمية الحديثة أهمية التي سبقتها؟

- أأنت على ثقة من ذلك؟

سألته وأنا أبادله النظر شاعراً بأن ثمة قسوة ليست من طبعي أخذت تسيطر على أفكاري حتى إنني استرسلت ممعناً في إحباط الرجل :

- ما تقوله يبدو صحيحاً أول وهلة ؛ ذلك لأنه لا يوجد إنسان يختلف معك في أن الأعمال الإبداعية الاستثنائية - على النقيض من المخترعات العلمية - لا تفقد أهميتها بمرور الزمن ، لكن ذلك الاختلاف ما هو إلا أمر نسبي يبدو كذلك لأننا نقيسه بأعمارنا نحن أو بأعمار جيلين أو بضعة أجيال سبقتنا . بيد أن الزمن لن يتوقف عن الجريان ، وهو بذلك سيكتسح في طريقه كل شيء ؛ فمثلما سيكتسح كل هذه المخترعات التي ستغدو في زمن ما - كما قلت أنت منذ دقائق

www.ibtesama.com

- بدائية تبعث على الضحك : السيارات ، الطائرات ، القاطرات ، والصواريخ والبواخر ومركبات الفضاء ومكوكاته وأقماره الصناعية ، سيكتسح الأعمال الإبداعية أيضاً ، بل ستحلّ حقبة زمنية ينظر فيها معاصروها إلى حقبتنا هذه على أنها لحظة عابرة في فجر الحضارة الإنسانية ؛ إذ ما قيمة عامنا هذا في سنة مليون للميلاد مثلاً؟!

- ولكن الكتب هي غير المخترعات ؛ خذ (ألف ليلة وليلة) مثلاً . . .

فسارعت إلى مقاطعته :

- دعْ (ألف ليلة وليلة) جانباً ؛ ذلك لأنني ضعيف بإزاء هذا الكتاب ، وكان من الممكن أن أستثنيه من ذلك المصير الحتمي ؛ وذلك لكونه دون مؤلف : فهو نتاج أجيال متعاقبة من مختلف الشعوب والقوميات ، إلا أن ما يلحقه بالمصير نفسه كونه كتاباً مطبوعاً سيضيع في المستقبل في ركام مليارات الكتب المطبوعة ، وتلك جريرة يتحمل وزرها (جالان) ؛ فلو لم يعمد إلى طبعه وأبقاه كما كان يُنقل من قبل النسّاخ لبقي يواصل نموه وتشعبه إلى الأبد بما تضيف إليه الأجيال اللاحقة من قصص وحكايات!

- ولكنك تطلب المستحيل ؛ فزمن الاستنساخ انتهى منذ عهد شيوع الطباعة التي من المؤكد أنك لا تستطيع إنكار فضلها في انتشار (ألف ليلة وليلة) وغيره من الكتب بين الناس!

- صحيح . . .لا أنكر ذلك . . . لكنني كنت أتمنّى أمنية مستحيلة قد تشبه أمنيتك في تأسيس متحفك العالمي ، أمنية أن تُستثنى بعض المخطوطات من (فضل) الطباعة ؛ ذلك لأنني أشعر أحياناً بان المخترعات العلمية لم تكن كلها خيراً على الإنسانية!

وأضفتُ ضاحكاً :

www.ibtesama.com

- أحياناً أحقد على بعض المخترعات حقد ثكلى على الكهرباء مثلاً متمنية لو أن هذا الاختراع ما وُجد قط على وجه الأرض، وذلك لان ابنها مات بصعقة منه!

- حسن . . . لندع (ألف ليلة وليلة) جانباً، فهناك مسرحيات (شكسبير) و(الكوميديا الإلهية) لـ(دانتي) وأشعار المتنبي والخيام والمعري ولوحات (دافنشي) وتماثيل (مايكل أنجلو) وسمفونيات (بتهوفن)، وأعمال عظماء المبدعين الآخرين . . . أيعقل أن تفقد أهميتها في زمن ما؟!

- بل ستنسى على الرغم من عظمتها!!

أجبته بطريقة أفزعتني أنا شخصياً؛ فلحظتها تنبهتُ إلى أنني أجلس في غرفة مكيفة ومضاءة جيداً، تتشابك فوقها عشرات الغرف والقاعات والممرات والسلالم التي ما أُقيمت إلا لكي لا يُنسى الماضي!

لكنني سرعان ما حركتُ رأسي باستهانة؛ فما أُقيمتْ تلك المرافق في اعتقادي إلا للإيهام بقدرة الإنسان على الانتصار على الزمن، وهو انتصار أشبه ما يكون بهزيمة؛ فهل المتحف أكثر من مقبرة للماضي؟!

- نعم . . . ستنسى؛ خذ (شكسبير) مثلا: أسألك جدلاً كم يحتاج الزمان من أعوام ليجود بواحد بعظمته؟ . . . أرجو ألا تنسى أنني لا أعني بسؤالي هذا وجود مبدعين ينسخون بعضهم بعضاً؛ فالإبداع العظيم لا يتكرر.

- لنقل . . . كل ألف عام.

- حسن . . . معنى ذلك أنه سيظهر ألف مبدع بعظمة (شكسبير) بعد مليون عام - هذا إن استمرت الحياة على هذا الكوكب حتى ذلك

www.ibtesama.com

التاريخ - أيعقل وجود قارئ جاد سنة مليون قادر على قراءة إبداعات هؤلاء العظماء الألف؟ مؤكد لا ؛ ذلك لأنه لا بد له من الانتقاء . . . . وهنا يلعب الزمن لعبته فتندثر أسماء مهما بلغت إبداعاتها من عظمة ، وتغيب عن ذاكرة الإنسانية ، ويلحقها المصير نفسه الذي لحق ببابل وتمثال (رودس) ومدينة (طروادة) و . . .

فقاطعني بدر وقد سكنت عيناه الزرقاوان في وجهه من فرط الذهول :

- يا للمزاج السوداوي! . . . قل لي : في هذه الحالة لمَ تكتب؟!

فنهضتُ ملتقطاً الدفتر من على الطاولة مطلقاً في الوقت عينه ضحكة أعترف بأن وقعها بدا كريهاً في سمعي ؛ ذلك لأنني لحظتها كنتُ أفكر بجمجمتي يوم تتعرى من الجلد واللحم فتكشر أسناني في ظلمة القبر عن ضحكة (خالدة)!!

غادرتُ الغرفة مودعاً من بدر بنظرة من يشك في سلامة قواي العقلية . . . لكن . . لا بأس ؛ فالجنون ليس وقفاً عليه وحده!

ما كدتُ أشرع في صعود سلم (المفتول) الشرقي داخلاً أولى قاعات العرض حتى عاد سؤال بدر ذاك يتردد في ذهني . . حقاً . . . في هذه الحالة لمَ أكتب؟

لعلني حاولتُ بكتابة رواياتي السابقة أن أبرهن لصديق . . . أو جملة أصدقاء على كوني قادراً على مضاهاتهم في الكتابة . . . أو لأحظى بنظرة إعجاب من قارئ مجهول قد أصادفه في شارع ما لينساني حالما أدير له ظهري . . . أو لعلني أكتب لكي أجعل لحياتي معنى . . . أو . . . ما أدراني؟ . . . قد أكتب لأكبت نزوعاً دفيناً أخشى أن يدفع بي إلى الانتحار!

وشددتُ أصابعي على الدفتر .

www.ibtesama.com

لكن الأمر يختلف مع هذه الرواية ؛ لعلني أكتبها من أجل أن تحبني ورقاء!

وقررتُ فجأة مواصلة الصعود إلى المكتبة أولاً قبل الهبوط إلى القاعة (القيمية) .

ما كادت ورقاء تلمحني داخلاً حتى كشفت بابتسامتها العريضة عن ذلك الالتواء العذب في إحدى أسنانها ، بدت غاية في السعادة حتى أنها سارعت إلى التقاط يدي التي كنتُ قد مددتها لأضع الدفتر فوق الحاجز الخشبي ، مصافحة إياي بحرارة ، فاحتفظتُ بكفها الصغيرة الساخنة بين أصابعي لحظات . وكلّمتها ، معناً النظر في سطوع تينك العينين المؤطرتين بسواد الكحل :

– إنها أول مرة تستقبلينني فيها بمصافحة!

فأجابتني ساحبة كفها من بين أصابعي برقة :

– لعلها مصافحة وداع!

– أأنت مقبلة على سفر؟

أجابتني مبتسمة :

– مسافرة إلى . . . بيتي!

وأضافتْ موضحة :

– كل ما هنالك هو أنني أفكر في الاستمتاع ، بعد أسابيع ، بإجازتي السنوية متخلصة بذلك من حرّ الصيف الذي أخذ يطبق على أنفاسنا .

فسألتها مازحاً ، رافعاً سبابتي في جو المكتبة المكيّف الذي يبدد أي إحساس بالحر :

– وهل بيتكم يفضل هذه المكتبة تكييفاً لترّجحيه عليها؟

فبادلتني مزاحاً بمزاح :

www.ibtesama.com

- ومن أوهمك بأن التيار الكهربائي قد شرّف بيتنا بعد؟

- ظننت ذلك!

- لا . . . لم يكن ظنك في محله ؛ ذلك لأنني لن أطلب الإجازة إلا من أجل مساعدة أمي في حياكة المراوح الخوصية!

- وهل مراوحكم تعمل بـ(الثري فيس)؟

فسارعت ورقاء تغطي فمها بمنديل ، منبهة إياي ، بإيماءة من رأسها ، على موظفة جالسة وراء الطرف الآخر من الحاجز الخشبي ، وهي منهمكة في حياكتها .

فهمستُ وقد قرّبتُ وجهي منها :

- لا تأبهي لها ؛ فلو كانت تملك ذرة من ذوق لما تركتْ يديها المسكينتين تبارزان إحداهما الأخرى بأبرتين طويلتين مبارزة حامية تتمخض عن (بلوزة) صوفية في عزّ الصيف!

فانفجرت ورقاء في ضحكة مجلجلة جعلتْ تلك الموظفة تكف عن مواصلة مبارزتها الحماسية لتلتفت نحونا رامقة إيانا بنظرة استنكار جعلتني أنفلت خارجاً قبل أن تطاردني بأبرتيها المخيفتين!

ما كدتُ أشرع في هبوط أول سلّم حتى خُيّل إليّ أنني سمعتُ ورقاء تناديني ، فتلكأتُ في موضعي لحظات قبل أن أواصل السير وقد عزوتُ سماعي لذلك النداء إلى وهم ، لكنه سرعان ما تكرر ثانية ، حتى إذا ما اجتزت رواقاً طويلاً تراصفت إلى جانبيه أبواب مغلقة ، وثمة مضخات حريق معلقة على الجدران البيض ، تكرر النداء ثالثة ، فتوقفت في موضعي حائراً ، تغمرني (النيونات) المثبتة بالسقف بأضوائها الباهتة التي تضفي على كل ما حولي انطباعاً غير واقعي .

عدتُ أواصل السير وقد انتابني شعور مفاجئ بأنني ضيّعت سبيلي نحو القاعة (القيمية) . وقد تعزّز ذلك الشعور عقب هبوط سلم

www.ibtesama.com

جديد أدى بي إلى اجتياز ممر تحيط به واجهات زجاجية تلوح وراءها تماثيل انتصبت في الظلام الشفيف بهيئة تنذر بالخطر والتهديد .

بدا من الواضح أنني أجتاز جناحاً جديداً لم يُفتح بعد لاستقبال الجمهور . وتلبّسني هاجس مقلق بأنني مطارد ؛ فبعدما انقطع ذلك النداء الذي قد يكون من وحي خيالي ، أخذت أسمع هذه المرة نقر خطى تجدّ في أثري ، خطى كانت تقترب مني أحيانا إلى الحد الذي كان يدفعني إلى الوقوف متحفزاً . لكنها كانت تجتازني في النهاية ، لا يفصلني عنها سوى سمك جدار .

لعل من يتعقبني ليس إلا واحداً مثلي أضاع سبيله نحو هدفه . . لا بل إنه وقع خطى امرأة ؛ فهذا النقر المنغوم الذي يتردد عادة بجلاء في الأماكن المغلقة لا يصدر إلاّ عن حذاء بكعب عال .

هكذا بقيتْ تلك الخطى تقترب مني بنقرها المنغوم وتبتعد ، وأنا أواصل هبوط السلالم واجتياز تلك الممرات الخادعة التي يزيدها الصمت المخيم رهبة ، وكنتُ قد ضقت ذرعاً بلعبة المطاردة هذه لحظة ولجتُ باباً انتهى إلى قاعة شبه مظلمة لأفاجأ بورقاء داخلة من باب آخر وهي تكاد تلهث لفرط ما أجهدت نفسها .

تأمل أحدنا الآخر لحظات صامتين مثل عاشقين أفناهما الحب عن نفسيهما فعجزا عن النطق!

لكن ذلك الوهم سرعان ما تبدد حينما سلمتني ورقاء دفتر ملاحظاتي الذي كنت قد نسيته أمامها على الحاجز الخشبي . قالت وحليتها الذهبية تومض في ظلام القاعة :

– لعل بك إليه حاجة في سفرتك الوداعية هذه!

– ليس إليه وحده بل بي إليك حاجة أيضا يا ورقاء ؛ إذ يبدو أنني ضيّعت سبيلي نحو القاعة (القيّميّة) .

www.ibtesama.com

فهتفت مازحة :

- من الواضح أنه قدّر لي منذ الأزل أن أقوم بإرشادك إلى مكان ما من حين إلى حين ؛ فسبق لي أن أرشدتك - في أول لقاء لنا - إلى المكتبة!

- وكان ذلك اللقاء المبارك قد حصل في القاعة (النورية) قاعة العشاق والمتيّمين!

أجبتها وأنا أُجيل حولي النظر لأكتشف أننا كنا نقف في القاعة نفسها حيث عشرات المرايا الطويلة الضيقة بدت - بعدما اعتادت عيناي الجو شبه المعتم - تعكس صورتينا واقفين في مواجهة بعضنا بين أعمدة ترتفع من حولنا برشاقة ، عاقدة فوق رأسينا أقواسها المزدانة بقطع المرايا الهندسية ، تتوسطها تجويفة القبة ، وثمة رائحة بخور وحناء تضوع بوضوح في تلك القاعة التي تستدعي الصمت والتأمل .

- إنه ثاني لقاء لنا يتم مصادفة في هذه القاعة!

كلّمتها كالمأخوذ ، فجالت ورقاء حولها بنظرة سريعة ، استدارت بعدها خارجة وهي تقول :

- وهل تصدّق الأساطير؟

فأجبتها همساً وأنا أتعقبها :

- في وسعنا نحن أن نحيل الأساطير إلى وقائع .

فأجابتني بدلال وسط موسيقى خطواتها المتناغمة المصحوبة بحفيف ملابسها :

- ولكن لي أنا شرطي أيضاً ؛ ذلك لأنه لا بد من لقاء ثالث ليتم الأمر!

فقلتُ ممسكاً إياها من يدها :

- إذن . . . هيا بنا نعد إلى القاعة لنكمل شرطك أنت هذه المرة!

www.ibtesama.com

فأفلتت يدها وقد احمرّ وجهها خجلاً، لكن ذلك لم يمنعها من أن تعلق مازحة :

- شرطي أن يتم اللقاء الثالث مصادفة أيضاً!

وعند باب القاعة (القيّميّة) غادرتني قائلة :

- إلى اللقاء في زمن ما . . . في القاعة (النورية)!

وأصغيتُ لحظات لنقر خطواتها الرشيقة وهو يخفت كلما أمعنت في الابتعاد ليخيم في النهاية صمت تناهت من خلاله جلبة المدينة إلى سمعي بصوت مكتوم، المدينة التي بدتْ، من خلال إحدى واجهات القاعة الزجاجية، وهي تمتد تحت بصري في اتجاه الجنوب حيث كان يقوم مزار السيد (نور) في الماضي، معتكف (ذاكر القيّم) لاحقاً.

تجولتُ بين الديكورات التي تمثّل تلك المرحلة من تاريخ المدينة دون أن أطمح إلى العثور على ذلك الظل ولا على تلك النحلة التي في وسعها أن تحول الأكرة إلى وردة؛ فانشغال ذهني بورقاء صرفني عما قدمت لأجله، حتى أنني، لحظة وقفتُ أمام تلك الخزانة الزجاجية التي ضمت نسخاً مصوّرة عن صفحات (ذاكر القيّم) الثماني - وهي أبرز معالم القاعة - اكتفيتُ بإلقاء نظرة عابرة عليها؛ فقد بدا من المحال أن تفلح تلك الصفحات المملوءة بخربشات تستحيل قراءتها في إثارة خيالي . . . أين هذه النفاية العصرية - نسخ مصوّرة! - من تلك الصفحات الصفر من ذلك الكتاب الذي أسهب (شبيب طاهر الغياث) في الحديث عنه في أوراقه؟

في طريق الخروج مررتُ ببدر في غرفته لأبلغه بنتيجة جولتي، فوجدته قد صوّر لي تلك الصفحات. قلت له وأنا في سبيلي إلى مغادرته :

www.ibtesama.com

- لا بد لي من الحصول على النسخة الأصلية من كتاب (الإنسان الكامل في معرفة الأواخر والأوائل) تلك النسخة التي ملأ (ذاكر القيّم) صفحاتها البيض بكتاباته ؛ فذلك وحده كفيل بشحذ خيالي .

وأضفتُ وأنا أطوي الأوراق الثماني وأدسها بين دفتي الدفتر :

- أما الصفحات المصورة عن تلك النسخة الأصلية فهي أشبه بشاهدة قبر غير قادرة على منح الحياة لتلك الحقبة المحصورة بين التاريخيين المحفورين عليها : تاريخ الولادة وتاريخ الوفاة!

فسألني بدر متأملاً إياي بنظرة غير مصدقة :

- أتطمح حقاً إلى الحصول على تلك النسخة من الكتاب؟

وأردف سؤاله بآخر ظننته لا يمت إليه بصلة :

- أتدري ما هو أكثر ما يثير جزعي في هذه الدنيا؟

فأجبته بأول فكرة خطرت لي :

- أن تُحال على التقاعد فتودع متحفك إلى الأبد!

- وغير ذلك؟

وحينما عجزتُ عن الجواب أسعفني بقوله :

- أنْ يموت صديق عمري شبيب طاهر الغياث!

وأضاف وقد شرعت عيناه الزرقاوان في الاختفاء وسط عشرات الغضون :

- لكن ما يخفف عني ذلك المصاب ، ويجعلني أجد فيه شيئاً من العزاء هو احتمال أن يكون شبيب قد أوصى بنسخته تلك من الكتاب إلى المتحف!

وأكمل بصعوبة وقد أخذ جسده كله يهتز خلف مكتبه بفعل ضحكة :

www.ibtesama.com

- أخبرك بذلك لتعلم باستحالة الحصول على تلك النسخة من الكتاب!

وهكذا، عدتُ إلى بيتي محبطاً لأقضي أياماً عديدة مع تلك الأوراق دون أن أخرج منها بنتيجة. كنتُ أنفرد بها عادة حال عودتي من المدرسة وانتهائي من الاستحمام وتناول غداء مرتجل في المطبخ كنت أعمدُ فيه إلى (ابتكار) ما تسعفني به (مهارة العزب الأبدي) في إعداد (خلطات) كنتُ ألتقطها من الثلاجة بشكل عشوائي لأضعها في (المقلاة) معولاً على الزيت والملح وجوعي الكافر في التهامها بوصفها (وجبات غداء) وأنا واقف أمام (الموقد الغازي) مصغياً لصفير الماء وهو يغلي في الوعاء المعدني الموضوع على النار باعثاً رائحة الشاي النفاذة، في حين تأتيني من الحوش ضجة العصافير التي لا تكف عن مواصلة اعتراكها بين أغصان السدرة وتكتكة ساعة (الليوان) الجدارية التي كنتُ أهجس بها وكأنها تحصي عليّ أنفاسي!

كنتُ أصعد بعدها إلى غرفة (الأرسي) لأبسط تلك الأوراق على سطح المكتب محاولاً، بمعونة ضوء المصباح المنضدي، فكّ طلاسم كلمات (ذاكر القيّم) التي لم يكن من اليسير عليّ قراءتها؛ ففضلاً عن كونها مصوّرة عن كتابات كانت قد دُونت أصلاً بقلم (القوبيا) - مما أدى إلى عدم وضوحها - كانت دقيقة استوعبت كل صفحة منها أكثر من ضعف الصفحة الاعتيادية. كما أنها كانت مملوءة بتشطيبات وبأنصاف كلمات يؤدي عدم وضوح حرف منها أو حرفين إلى طمس مغزاها أو إبهامه.

ومما زاد مهمتي صعوبة أن جهاز الهاتف أخذ يكثر من رنينه في تلك الأيام ولاسيما في ساعات متأخرة من الليل، وحين أرفع السماعة كنت لا أحظى في أول الأمر بجواب: أسمعُ لهاثاً وهمساً

www.ibtesama.com

أنثوياً في الجانب الآخر من الخط ، مع نغمات موسيقية قد تكون صادرة من مذياع . كان في وسعي بطبيعة الحال وضع حد لهذا العبث وذلك بإطباق السماعة ، لكن فضولي كان قد غلبني ؛ فأخذتُ أنساق للعبة : أقضي دقائق في إرهاف السمع راجياً المرأة المجهولة أن تبادلني كلمة أو كلمتين . وقد كوفئت على صبري في آخر الأمر ؛ فقد أمست تلك المرأة المجهولة تجرؤ على أن تهمس لي بتحية المساء لتسارع من فورها إلى إطباق السماعة!

وفي الواقع أنني كنتُ أجد في تلك الاتصالات الغامضة خير عذر للتهرّب من مواصلة العمل في إعداد هذه الرواية ؛ إذ إنني لم أكن أدخر ما في وسعي لعرقلة عملي متشبثاً بأيّة حجة تعينني على ذلك ، وكأنني محكوم بالكتابة ، ولولا إلحاح صديقي الشاعر ومتابعته لما كنت أدري بالنتيجة التي سأنتهي إليها .

كان يستقبلني في المدرسة بابتسامة ماكرة مدركاً من سحنتي أن الأمور لا تسير على ما يرام ، فكان يأخذ على عاتقه مهمة تذليل العقبات مؤكداً أنني لستُ مؤرخاً لأربط مصير روايتي بتلك المصادر إن وجدتُ أنها أخذتْ تثقل عليها . كان يرفع صوته فوق لغط الطلاب المتسلل من وراء باب غرفة المدرسين الموارب ، وفوق ضجة مطارق الحدادين التي لا تهدأ :

– لا بأس بأن تمنحك تلك الوثائق الجو المناسب لروايتك ، ولكن حذار من أن تصبح أسيراً لها . طوّعها لخدمة روايتك قبل أن تطوّع هي روايتك في اتجاه السياقات التي أوجدتها والتي هي بالضرورة سياقات غير إبداعية .

لكنني لم أكن أنهزم ؛ فقد وجدتُ في عدم حصولي على النسخة الأصلية من ذلك الكتاب خير حجة لعرقلة عملي . كنتُ أتشبث بهذا

www.ibtesama.com

العذر مؤكداً أن روايتي لن تقوم لها قائمة من دونه مما دفع الشاعر إلى أن يعلن في الهاتف في أحد الأيام – وكنت قد اتصلتُ به لنلتقي مساء في مقهى (أبو بلقيس) – أنه سيمتنع عن ارتياد ذلك المكان معي إن لم أكف عن ترديد تلك الحجة . صاح في السماعة بحرقة الصديق المحب :

– كفّ عن دلالك يا أخي ، وجازف بزيارة شبيب ؛ فما أدراك أنه سيبخل عليك بنسخته تلك؟

وحينما ذكرتُ له تأكيد بدر باستحالة أن يفرط شبيب بكتابه ذاك صاح مقاطعاً إياي :

– أنت غير بدر ؛ فسبق لك أن أخبرتني بإعجاب شبيب الكبير برواياتك ، هيا . . آن لك أن تستثمر إعجابه ذاك . . . زُره مساء اليوم ، ودعْ مقهى (أبو بلقيس) إلى يوم آخر .

لكنني أرجأتُ القيام بالزيارة إلى عصر اليوم التالي ، وحين اتصلت هاتفياً ببدر اعتذر عن مرافقتي في زيارة معروفة النتيجة سلفاً ، فتوجهتُ إلى هناك وأنا بين تردد وإحجام . لكن الترحيب الذي تلقاني به الرجل العجوز سرعان ما خفف من شعوري بالحرج .

بدا غاية في السعادة ، لا يكف عن الابتسام ، كاشفاً لي عن أسنانه الصناعية وقد جلس على أريكة في مواجهتي في تلك الغرفة سيئة الإضاءة ، وهو يرفل في ثوب أبيض زاد جسده رقة ونحولاً . وكانت ثمة مروحة سقفية تئز دائرة فوق رأسينا بأقصى سرعتها دون أن تفلح في تبديد حرارة ما بعد الظهيرة حين تغدو كل ذرة تراب وكأنها تشرّبتْ بومض الشمس الباعثة على الدوار!

قال كالمعتذر وقد لاحظني أروّح يدي أمام وجهي المخضل بالعرق :

– إن رقة صحتي لا تسمح باستعمال (مبردة) .

www.ibtesama.com

وأردف وهو يبتسم من جديد :

- كما أن (رقة) حال جيبي لا تسمح باقتناء جهاز (تكييف) .

لكن كأس عصير الرمان التي دخل بها علينا أحد أحفاده سرعان ما خففت بعض الشيء من إحساسي الشديد بالحر .

سألني عن سر عدم مرافقة بدر لي؟ فوجدتها فرصة سانحة لأخبره بغرضي من هذه الزيارة ، فحدثته بما أخبرني به بدر في غرفته في المتحف يوم كاشفته بأمنيتي في استعارة تلك النسخة من كتاب (الإنسان الكامل في معرفة الأواخر والأوائل) وكيف أن (بدر) عدّ تلك الأمنية ضرباً من المستحيل لا يتحقق إلا بعد موت شبيب ، فأغرق في ضحكة عميقة انتهت بنوبة سعال ، حتى إذا ما سيطر على نفسه قال محركاً يده في الهواء :

- ذلك أمر قديم مضى عليه ربع قرن من الزمان .

فأحيا بكلامه ذاك آمالي : فاعترفتُ له بفضله عليّ ، وذكّرته بتلك الطرفة المتداولة بين مثقفي مدينتنا عن كونه يقف خلف كل سطر خطه حملة شهادات (الماجستير) و(الدكتوراه) في كل ما يمت إلى التاريخ أو التصوف بصلة برغم خلو فهارس إطروحاتهم من أيّ ذكر لاسمه . قلتُ وقد اشتعلت حماسة :

- . . وأنت ، في روايتي التي لا تزال قيد الإنجاز ، لا تقف خلف كل سطر فيها فحسب ، بل أنت تقف في صميمها ؛ فلولاك ، ولولا الأوراق التي كتبتها إليّ لما جرؤتُ على كتابة حرف واحد منها ، بل لا أكتمك أن ذلك السطر الذي كتبته على المظروف الذي احتوى أوراقك - والذي تجيز لي بموجبه ما كتبته إليّ - قد يساعدني على استلهام طريقة (الإسناد) التراثية شكلاً أربط به النصوص بعضها ببعض ؛ فمما يعزز هذا الأمر كون تلك النصوص رُويتْ أو كُتبتْ من قبل عدة

www.ibtesama.com

رواة ، فضلاً عن اتخاذ طبيعة سرد تلك الأحداث هذا الاتجاه .

فذكر شبيب ملاحظة جديدة حسمتْ لديّ فيما بعد اختيار تلك الطريقة شكلاً لروايتي :

- في هذه الحالة أخوّلك أن تضيف إلى (إجازتي) أنني استفدتُ بدوري من صفحات (ذاكر القيّم) بالطريقة المسماة بـ(الوجادة) والتي تعني (أن يسوق الراوي ما يرويه على أنه وجده في كتاب) . كما أن (القيّم) نفسه يعترف في صفحاته تلك باستناده في ما كتبه إلى كتابات القيّمين السابقين عليه انتهاءً بالسيد (نور) الذي لا يُخفى على أحد كونه دوّن النصوص الشفهية للرواة الثلاثة الذين عاصروه ، وبذلك تتم لديك سلسلة الأسانيد!

وهكذا ، تبلور لديّ ذلك اليوم نهائياً الشكل الذي سأسوق به نصوص المتن الجديد لـ(الراووق) . لقد بلغ امتناني لشبيب في تلك اللحظة حداً لم أملك معه إلا أن أخبره بأنني كافأته بالطريقة الوحيدة التي يُسعد هو بها أيضاً وهي أنني جعلتُ منه أحد الأشخاص المهمين لروايتي ، بل البطل المحوري الذي يعتمد عليه وجود متن (الراووق) الجديد ، فسألني متفكهاً :

- و(وثيج لازم)؟

- (وثيج لازم) أمسى في ذمة التاريخ ؛ إذ سأسمّي بطل روايتي الجديدة باسمه الحقيقي (شبيب طاهر الغياث)!

- وبذلك ستدخلني في ذمة التاريخ أيضاً!

علّق شبيب ضاحكاً وهو يتحامل على نفسه لينهض والحبور بادٍ على وجهه العجوز المتورد سعادة . وسار بهدوئه وأناته نحو إحدى خزانات الكتب وهو يقول :

- سيبقى الإنسان أسير ما أُبتلي به منذ زمن أبينا (آدم) عليه

www.ibtesama.com

السلام ؛ فالله سبحانه وتعالى ابتلاه - دون مخلوقاته الأُخرى - ببلاء الفكر والعقل والخيال ، وذلك ليسعده أو يشقيه - بحسب ما كتب له في عالم الذرّ - ذلك لأننا نحاول عبثاً التشبّث بهذه الحياة الفانية عن طريق الصحة والعافية في أول الأمر ، فعن طريق النسل ، ومن ثم عن طريق المال والجاه ، وأخيراً عن طريق بقاء الذكر ، محض الذكر . . . فأيّ ابتلاء هذا الذي أُبتلي به العقل؟!

وكان في إثناء كلامه قد انهمك في تقليب كتب تلك الخزانة ، حتى إذا ما اهتدى إلى بغيته رتب كل شيء في موضعه قبل أن يقفل الباب الزجاجي ليعود بخطاه المتمهلة الحذرة ليجلس على أريكته التي لم تصدر عنها نأمة ، وناولني الكتاب قائلاً :

- ها هو مستحيل بدر وقد تحقق . خذْ . . . إنه الكتاب الذي اقتنيته قبل ربع قرن من مكتبة (أبو يعقوب) رحمه الله ، والذي ملأ (ذاكر القيّم) رحمه الله صفحاته البيض بكتاباته . خذه . . . وفي وسعك الاحتفاظ به الوقت الذي ترغب فيه . ويوم لا تعود بك إليه حاجة تستطيع أن تهديه نيابة عني إلى المتحف ليحتل موضعه المناسب في الخزانة الزجاجية في القاعة (القيّميّة) عوضاً عن تلك الصفحات المصوّرة حارماً بذلك (بدر) من العزاء الوحيد الذي كان سيخفف عنه فجيعة موتي!

في طريق العودة إلى البيت تذكرتُ - وأنا متشبث بالكتاب - تلك الأسطر التي جسّد بها شبيب ، في أوراقه ، مشاعره لحظة غادر بالكتاب نفسه - قبل خمسة وعشرين عاماً - مكتبة (أبو يعقوب) ، وكيف أنه لفرط لهفته لقراءة تلك الصفحات لم يدر أوصل إلى بيته راكباً أم راجلاً؟

كنت مثله أتحرّق شوقاً للوصول إلى البيت لا لقراءة الصفحات

www.ibtesama.com

فحسب ، بل لتصفّح ذلك الكتاب الذي مرّ بين أيدٍ عديدة أهمها يدا (ذاكر القيّم) . كنتُ أطمح إلى أن أقع في تلك الصفحات على ظل الديكور والنحلة التي تحطّ على أكرة باب ، وذلك ما حصل فعلاً ؛ فتلك النسخة النفيسة من الكتاب ألهمتني مضمون هذه الرواية : فالموضع الذي صادف وجود تلك الصفحات البيض فيه نبهني على فكرة غاية في الخطورة والأهمية ، فسارعتُ إلى الاتصال بالشاعر . قلتُ له بعدما حدثته عن زيارتي لشبيب وحصولي على تلك النسخة من الكتاب :

– سأُعيرك الكتاب غداً لتقرأ تلك الصفحات معوّلاً على ما ستخرج به من قراءتك تلك .

– وهل وقعتَ على ما يثير الانتباه؟

– لا تستدرجني لأكشف لك أمراً سيفقد قيمته إن لم تعززه بانطباعك التلقائي .

صباحاً بكّرتُ في الذهاب إلى المدرسة مثيراً بذلك انتباه زملائي ؛ فقد اعتادوا أن يروني آخر الواصلين وأول المتسللين ، فإذا بهم يفاجأون بي وقد سبقتهم في القدوم في وقت غدت الامتحانات النهائية فيه على الأبواب ، وهو وقت اعتدتُ أن أتغيب خلاله عن المدرسة تاركاً لزملائي فرصة استثمار دروس الرسم لإكمال موادهم . وكان الشاعر الوحيد الذي بدا أكثر مني لهفة لهذا اللقاء ؛ إذ إنه سارع إلى اختطاف الكتاب من يدي ليقلب في أوراقه من فوره .

في ساعة متأخرة من الليل رنّ جرس الهاتف ، فالتقطت السماعة من فوري مؤملاً نفسي سماع ذاك الهمس الأنثوي . لكنني فوجئتُ بصوت الشاعر يبادرني بتحية المساء ، فأدركتُ أنه وقع على ما لفت انتباهي ؛ فقد صاح في سماعة الهاتف بحماسة ليست من طبعه :

www.ibtesama.com

- هل تنبهتَ إلى ما تنبهتُ إليه؟

- وما الذي تنبهتَ إليه؟

- اسمع . . . من البديهي أن تلك الصفحات البيض جاءت في ذلك الموضع بفعل مصادفة ، لكن الغريب أن كلمات (ذاكر القيّم) ، بل مضمون الصفحات التي ملأها بكتاباته يكاد يتطابق مع مضمون الموضوع غير المطبوع ، وهو الفصل السادس والعشرون الذي يحمل عنوان (في الهوية) الذي يليه فصل (في الإنيّة) ؛ وقد تأكدتُ من ذلك بالرجوع إلى نسختي من ذلك الكتاب . . . راجع نسخة كاملة . . . وإن لم تملكها فأعرني سمعك لأقرأ لك ذلك الفصل . . .

فسارعتُ إلى مقاطعته :

- لقد تأكدتُ من ذلك .

- ولمَ لمْ تخبرني بذلك إذن؟

- أردتك أن تقع على الأمر نفسه دون إيحاء مني لأعزّز بذلك ما خرجتُ به ، وذلك ما حصل!

- إن مضمون كلمات (ذاكر القيّم) لا يخرج عن موضوع (الهوية) تلك المرحلة الصوفية . . .

فعدتُ أقاطعه ثانية :

- أعلم . . . أعلم . . . لا يوجد ثمة داعٍ لأن تشرح لي ذلك .

فتساءل ضاحكاً :

- ماذا؟ أتخشى أن يكون ثمة مَنْ يصغي على اتصالنا هذا فيسرق الفكرة منك؟

وحينما لم أجبه استرسل في كلامه جاداً هذه المرة :

- في الواقع أنت معذور في حرصك هذا ؛ فقد وقعتَ على فكرة استثنائية تُحسد عليها ، ولو عرفتَ كيف تستثمرها لصدق على

www.ibtesama.com

روايتك ما قاله واحد من كبار المفكّرين العالميين : (كل نظرية للرواية يجب أن تكون هي نفسها رواية)!

فأجبته بشيء من التردد :

- لكن مشكلتي تكمن في غلبة جانب الغيبيات على تلك النظرية الصوفية فضلاً عن أن تلك النصوص التي كُتبتْ من قبل الآخرين ستحدّ من حريتي .

فعاد يصيح في السماعة بتلك الحرقة العذبة :

- أعدت إلى اختلاق الحجج والمعاذير؟ ألا تستطيع أن تسترسل في كتابتك دون هذا الدلال؟ أم لعل ذلك غدا ضرباً من الطقوس اللازمة لك؟

وأضاف ضاحكاً :

ـــ اسمع . . . سأطاردك مثلما طارد بدر (شبيب) حتى أجبره على الشروع في تحقيق (الراووق) . سأُجبرك على كتابة روايتك ولو اقتضى الأمر الاستعانة بالشرطة . . . شرطة الإبداع بطبيعة الحال!

وعاد يقول بكل جدية :

- دعِ الغيبيات جانباً . . . واستعض عنها بعلاقة الروائي بشخصياته ، أما حرصك على حرفية تلك النصوص فأمر لا معنى له ؛ ذلك لأنك - كما سبق لي أن أخبرتك أكثر من مرة - لست مؤرخاً ، بل أنت مبدع . . . (خالق) شخصيات ، تستطيع أن تحوّر هنا وهناك وصولاً إلى هدفك .

وهكذا اتجه مضمون هذه الرواية بشكل تلقائي نحو استثمار تلك النظرية الصوفية التي تتوضح مرحلتها الثانية المسماة بـ(الهويّة) بتلك الصفحات البيض التي ملأها (ذاكر القيّم) بكتاباته .

www.ibtesama.com

www.ibtesama.com

كتاب الهويّة

أخبرني (شبيب طاهر الغياث) في ما كتب به إليّ قال : وجدتُ بخط (ذاكر القيّم) قال : كأنه حاضر برغم غيابه ، يتجلى في أسماء مريديه وأحبابه : فما من مرة تصفّحتُ فيها مخطوط (الراووق) إلا هجستُ به يتراءى لي من خلال الحروف والكلمات ، وكأنه هو الذي بقي يحرّك أيدي القيّمين على المزار ليضيفوا إلى المخطوط الفصول والأبواب ؛ فما من اسم أو وصف أو نعت فاض به مدادهم إلا كان إشارة إليه ، هو الذي ما ظهر غيبه إلا باعتبار أسمائه وصفاته .

كان (حليم الغياث) هو أول (قيّم) أضاف إلى المخطوط فصلاً كرّسه لسرد تلك الأحداث الخارقة للعادة التي كانت السبب المباشر لشيوع أمر المخطوط ؛ فقد دوّن – نقلاً عن جده (غياث) أهم شهود تلك الأحداث – ما حدث ليلة السابع والعشرين من رمضان : فقد اصطفق باب كوخ (السيد نور) صفقة تردد صداها في كل بيت من بيوت (ديرة الهشيمة) ، فهبّ الجميع من النوم هلعين ، هاجسين بقرب وقوع حدث عظيم ستبقى الأجيال تردد أخباره إلى الأبد ؛ فقد مرت أعوام طوال على ذلك اليوم الذي أُقيم فيه ذلك الكوخ لساكن لم يقطنه ؛ فذلك اليوم كان آخر عهدهم بالسيد (نور) ، لاشيء يذكّرهم به سوى باب كوخ موارب ما شوهد ينفرج قط في وجه أحد ، تزيده الأتربة المتراكمة التحاماً بالعتبة .

ما مرّتْ سوى لحظات حتى برز رجل من هذا الزقاق ، أعقبه ظهور

www.ibtesama.com

رجلين من زقاق قريب ، فثلاثة من زقاق آخر . وسرعان ما تكاثر جمع اتخذ سبيله تلقائياً نحو كوخ السيد (نور) ، ففوجئوا ببابه مفتوحاً ، ينيره وهج باهت أضاء جوف الكوخ في ظلام ليل غاب عنه القمر . وبغتة فاحت رائحة مسك نفّاذة ، وصرّ الباب ليتوارب على نفسه ببطء قبل أن يسود الظلام!

تُرى ما سرّ انفتاح هذا الباب بعد مرور كل هذه الأعوام؟

سؤال دار في خلدهم دون أن يحظوا عليه بجواب ؛ إذ لم يجرؤ أي منهم على الاقتراب من الكوخ لكشف السر ، فلبثوا في مواضعهم واقفين حتى انبلاج ضوء الفجر .

- سآتيكم بالخبر اليقين .

قالها (غياث) ، المشهود له بالجسارة والإقدام ، وهو يتجه نحو الكوخ . وما مرت سوى لحظات حتى أطلّ برأسه ليومئ لهم داعياً إياهم إلى الالتحاق به ، وهناك في الداخل لم يبصروا ، في الضوء الباهت ، سوى أوراق متناثرة على الأرض كيفما اتفق ، تلقفتها أيديهم ، وقرّبوها من عيونهم مدققين فيها النظر ، فوجدوها مملوءة بكتابات لم يفقهوا منها حرفاً : فباستثناء (السيد نور) ما وُجد شخص في تاريخ الديرة يعرف القراءة والكتابة .

تلفتوا مطالعين بعضهم بعضاً بنظرات دهشة ترجمتها ألسنتهم إلى أسئلة ليس لها جواب :

- تُرى ما كان مصدر ذلك النور الباهت المصحوب برائحة مسك نفاذة؟

- لعل أحد (الدراويش) الذين يمرون عادة بالديرة في سياحاتهم ومجاهداتهم هو الذي آوى إلى الكوخ ليلته هذه قبل أن يواصل سياحته!

www.ibtesama.com

- وهذه الأوراق من الذي كتبها؟
- وما الذي جاء بها إلى الكوخ؟
- وما مغزى كتاباتها؟
وزاد أحدهم الأمر إبهاماً حين سأل :
- ومتى كُتبتْ؟

فقد بدتْ تلك الأوراق تنتمي لأزمنة مختلفة ؛ قد اصفرّ بعضها بفعل القدم ، في حين لا يزال بعضها الآخر أبيض لم تشبه شائبة!

لكن (غياث) سارع إلى وضع حد لذلك اللغط الذي أُثير من حوله ؛ فقد استلّ الأوراق من بين الأصابع ، وجمعها على بعضها ليركنها في إحدى الزوايا . والتقط من كوة قفلاً وجده مهملاً هناك وقد تراكم عليه الغبار ، وتقدمهم مغادراً الكوخ ليسحب الباب في أثر آخر الخارجين مطبقاً إياه على ذلك السر الغامض . وثبّتَ سلسلة الباب بالعروة التي أدخل فيها القفل . قال وهو يدير المفتاح :

- دعوا أسئلتكم خلف هذا الباب الذي يُقفل أول مرة منذ إنشائه ؛ فما كان كان ، أما ما سيكون . . . .

واستعاض عن إتمام كلامه بأن أخرج المفتاح من فتحة القفل وألقاه من فوق الجرف في (وادي المر) حيث شرعت صور أشجار نخيل الجانب الآخر تتراقص على مرآة الماء وقد ترجرجت بفعل دوائر أخذت في الاتساع قبل أن تتلاشى تحت خفق أجنحة النوارس التي لم تكن تكف عن تخاطفها مستقبلة بزعيقها بزوغ الشمس من خلف الجبال الزرق .

رمقوا الباب المقفل بآخر نظرة قبل أن يستديروا عائدين حيث تفرقوا ليدخل كل واحد منهم بيته مستقبلاً متاعب يوم جديد سرعان ما أنسته أحداث تلك الليلة المباركة .

www.ibtesama.com

وعادت الحياة تمضي بـ(البواشق) على وتيرتها المعهودة موقعة بهم المزيد من الشقاء والنصب تحت سطوة (مشيخة) جائرة اعتادتِ السلطة أن تنصب شيوخها وتعزلهم متى شاءت مستهدفة من ذلك الحفاظ على مصالحها ؛ فعقب واقعة (دكة المدفع) كانت قد أباحت الديرة لضباطها وجنودها وجباتها وموظفيها الذين لم يكونوا يكفون عن التوافد على مدار الفصول الأربعة لنهب المزيد سواء عن طريق استيفاء الضرائب المعهودة ، أو ابتكار ضرائب جديدة ، أو عن طريق المصادرة ووضع اليد ، أو بوساطة هدايا كانت تشمل كل ما في أرض الديرة وسمائها ومائها من فواكه وحبوب وخضر وأسماك وطيور و . . . وحتى الأصنام الحجرية والهياكل الممسوخة المطمورة منذ حقب بعيدة في التلال - فضلاً عن حلى ذهبية وأوانٍ خزفية - لم تكن تنجو من نبشهم وعبثهم!

كانت حياة لا تطاق ، تكاد تسحق (البواشق) تحت وطأتها ، لولا أنهم كانوا يخففون من معاناتهم بتذكّر أيام مجدهم حين كان رجال الدرك يلوون أعنة خيولهم عائدين إلى البلدة مع صدى أول عيار ناري يستهدفهم (مطلق) به من مفتول قلعته .

كانوا يستعيدون تلك الأمجاد بالاستماع إلى (السيرة المطلقية) التي أسهم (عبد الله البصير) و(مدلول اليتيم) و(عذيب العاشق) في تأليفها . وكانوا يقومون بذلك سراً ؛ فالمشيخة - بإيعاز من السلطة - كانت قد حظرتْ على الجميع التحدث علناً بتلك الأحداث زاعمة أن ذلك سيؤدي إلى حصول الشقاق بين أبناء العشيرة الواحدة!

والحق أن (البواشق) كانوا يدركون جيداً أن (المشيخة) لم تقدم على اتخاذ ذلك الإجراء الشاذ - فأحداث (السيرة) مكرّسة لأمجاد (مطلق) جد هؤلاء الشيوخ! - إلا تحسّباً من ظهور راوٍ جديد قد يكشف

www.ibtesama.com

بتأليفه القسم الرابع الوقائع على حقيقتها ؛ فقد تعددت روايات تلك الأحداث وتناقضت : فثمة من عدّ بعض المساهمين في (دكة المدفع) أبطالاً ، في حين عدّهم آخرون خونة ومتخاذلين!

كان (البواشق) يمنّون أنفسهم بظهور ذلك الراوي المنتظر الذي يستطيع تأليف القسم المحظور من (السيرة) ؛ فالزمن كان يعمل عمله : فشهود تلك الوقائع كانوا قد ماتوا ، وأتى النسيان على الكثير من الأحداث ، فضلاً عن أن الرواة المأجورين والمدفوعين من قبل (المشيخة) استطاعوا تزييف وقائع عديدة مغيّرين إياها إلى النقيض!

وسط ذلك الجو المأتمي الباعث على اليأس حصلتْ إحدى الكرامات التي كانت السبب المباشر لخلود مخطوط (الراووق) حتى يوم اختفائه ؛ فذات فجر تراءى (السيد نور) لـ(غياث) في رؤيا صادقة - إذ كان قد نام على وضوء - ليقول له بضع كلمات بقي (آل غياث) يتناقلونها شفهياً جيلاً بعد جيل :

- يا عبد الله . . (غياث) . . أجلِ عن ذكر السيد (نور) الغبار . . . واستنطق (راووق) الأسرار!

فهبّ من نومه مذعوراً مردداً العبارة برغم كونه لم يفقه مغزاها . وحينما عاود الاضطجاع ، محاولاً مواصلة نومه ، أبت أجفانه على الانطباق ؛ فقد أقلقته تلك الرؤيا ، فنهض وأدى صلاة الفجر ، غادر بعدها البيت ملاحظاً أن الجوّ الربيعيّ المتقلّب ينذر بقرب هبوب عاصفة ؛ فقد كانت البروق تومض عند حافة الأفق دون صوت .

توجّه نحو كوخ (السيد نور) الذي كان قد أُهمل منذ ذلك الفجر الذي لا يُنسى حتى أوشك على الاندثار بفعل العواصف والأمطار لولا أن النساء كن يتذكرنه - لاسيما في أوقات الشدة - فينذرن له النذور ملطخات بابه بالحناء ، عاقدات الخرق بسلسلته الصدئة ، موقدات

www.ibtesama.com

الشموع في كوّة كان قد عملها شخص ما قرب الباب!

فوجئ (غياث) بقائمة الباب وقد أُخرجت من سنارتها الحجرية ، فأطلّ برأسه من خلال الفرجة الضيّقة التي كانت قد نشأتْ بفعل تحريك الباب من موضعه ، فجفل على صوت اصطفاق جناحي طائر مرق إلى الخارج . وفي الداخل لم يشخّص ، في وهج البروق التي كانت تزداد اقتراباً ، أيّ شيء باستثناء نباتات شوكية نمت هنا وهناك ؛ فأيقن أن ما تراءى له لم يكن أكثر من أضغاث أحلام ، ولا بد أن الفضول هو الذي دفع شخصاً غريباً عن الديرة – أو لعله فعل فعلته طلباً للمأوى – إلى تحريك الباب من موضعه ؛ إذ لا يوجد في ذلك الكوخ الآيل إلى الانهيار ما يغري بالسرقة!

عاد إلى بيته سريعاً ؛ فالعاصفة كانت تواصل اقترابها دافعة كتل غيوم داكنة أخذت تتألق بخيوط البرق قبل أن يقصف الرعد . وما كاد يطبق باب بيته خلفه حتى انهمر مطر عاصف جعل المزاريب تزأر خلال لحظات . وبغتة انخطف برق على امتداد السماء أضاء البيوت مثل شمس الظهيرة ، أعقبه قصف رعد جبار بدأ متقطّعاً وبطيئاً كأنه قادم من أعماق السماء لتعقبه سلسلة قرقعات انتهت بدوّي هائل هزّ الأرض تحت الأقدام ، فانفتح أكثر من باب ، وأطلت الرؤوس إلى الخارج . وذكر العديدون أن صاعقة شوهدت تسقط إلى الغرب ضاربة (تل العاشق)!

ما كادتِ العاصفة تنجلي حتى خاض بعض الرجال في الأوحال متجهين نحو (تل العاشق) خوفاً على أبنائهم الذين اعتادوا رعي أغنامهم في تلك البرية المحيطة بالتل ، فاكتشفوا أن الصاعقة كانت قد أصابت واحداً من هؤلاء الأجانب الذين دأبوا على النبش في تلك المواضع ، فأحرقته تماماً ، ولم يسلم جزء واحد منه باستثناء كدس أوراق

www.ibtesama.com

كان قد سقط قربه ، وقد أصاب بعضه شيء من بلل .

- لا شك أنها الأوراق التي وجدَتْ من قبل في كوخ (السيد نور)!

صاح أحد الرجال . وسرعان ما انتشر الخبر في الديرة ؛ فتذكّر (غياث) أن تلك الأوراق كانت غائبة عن ذهنه لحظة أطلّ برأسه من خلال فرجة الباب ، ومن المؤكد أنها هي التي دفعت بذلك الرجل المنكود إلى الإقدام على فعلته النكراء طمعاً في سرقتها ، ولا شك في أنها هي التي عناها (السيد نور) في رؤياه ، مطلقاً عليها اسم (الراووق)!

وهكذا أُعيد المخطوط ، الذي أخذ يُعرف منذ ذلك اليوم باسم (الراووق) ، إلى الكوخ وسط مظاهر احتفاء نحرت فيه الذبائح . وكفّر (البواشق) عن إهمالهم السابق لذلك المزار ؛ فبالغوا في رعايته ، وشمّروا عن السواعد ، وجددوا بناء الكوخ مقيمين في منتصفه دكة على هيئة قبر غطّوه بقماش أخضر ، وألحقوا بمقدمة الكوخ حجرة لإيواء من سيتولى خدمة المزار الجديد ، وعملوا في حائطٍ كوة حصّنوها بقضبان حديدية متعامدة حيث أصبح من المألوف أن ترمى النذور من خلالها إلى الداخل . وبتعاقب الأعوام اشتهر أمر المزار ، وغدا قبلة أنظار الناس يقصدونه من أبعد الأماكن ، بل من البلدة نفسها ، ناذرين له النذور . وأوصى بعض الأغنياء بوقف بساتينهم باسم (السيد نور) عقب موتهم . وبلغت شهرة الولي الجديد حداً انتهى بصدور أمر حكومي تقرر بموجبه جعل سدانة المزار وقفاً على (غياث) وأبنائه وأحفاده من بعده .

تلك هي خلاصة ما كتبه (حليم الغياث) في المخطوط ، لخّصتها بأوجز العبارات ، ودوّنتها بأدق الحروف والكلمات مستثمراً هذه الصفحات البيض من هذا الكتاب العرفاني الذي قيّض له أن يكون

www.ibtesama.com

الموضع الملائم لكشف أسرار آن لها أن تكشف بعدما انتهى (الراووق) إلى مصيره ذاك، عساها أن تعين من كُتب له أن يتمّ على يده الأمر، فيرفع عن وجهه المخفي الأستار، مشيعاً بين الجميع الأسرار. والحق أن تلك الأسرار كانت تشغلني - شأن (البواشق) كلهم - قبل أن أغدو (قيّماً) على المزار. وكانت الدافع الرئيس وراء حماستي في تعلم القراءة والكتابة وحفظ القرآن على يد (القيّم) السابق رحمه الله آملاً في أن تسنح لي الفرصة للاطلاع عليها.

لكن أملي خاب؛ فذلك (القيّم) كان قد حظر عليّ الاقتراب من صندوق الكتب المركون في الضريح، فكيف كان يسمح لي بتصفح (الراووق)؟ كما أن محاولاتي في استدراجه لكشف تلك الأسرار لم تثمر أيضاً؛ فقد كان يتحجج بأنه ليس من (القيّمين) الذين أذن لهم بالكتابة في المخطوط والإضافة إليه ليعرف مثل هذه الأمور، فكنتُ أسأله عن سر حرمانه من التمتع بهذا الامتياز؟ فكان جوابه أنه لا يفترض بكل (قيّم) الإضافة إلى (الراووق)؛ إنما يعمد إلى ذلك من يتم له الفتح!

لقد تبيّن لي وجود تقليد غير معلن يقتضي من (القيمين) كتمان أسرار (الراووق)، والامتناع عن إفشائها، وهو تقليد بلغ من الرسوخ حداً لم يستطع معه حتى من استجاب لدواعي الطمع - فعمد إلى استنساخ فصول أو أقسام من المخطوط إلى بعض المتنفذين من رجال العشيرة لقاء مبالغ مغرية - كشف تلك الأسرار!.. لقد بدا ذلك الأمر محيّراً لم أملك أن أعزوه إلى سبب مقنع اللهم إلا إلى ذلك الحظر الذي بات أشبه بقانون يحرص شيوخ العشيرة تباعاً على الالتزام به، ذلك الحظر المتعلق بكل ما يمت إلى واقعة (دكة المدفع) بصلة، وأنا هنا، بكشفي لتلك الأسرار، أعلن عن خروجي على ذلك التقليد

www.ibtesama.com

مطمئناً إلى صحة قراري هذا : فمنذ اختفاء (الراووق) بات التكتم على أسراره دون معنى . وهكذا ، كان من الطبيعي ، يوم تسلمت سدانة المزار عقب موت القيم السابق ، أن أهرع من فوري إلى الصندوق مختطفاً ، من بين الكتب ، ذلك المخطوط الضخم ذا الغلاف الأسود لأشرع في تصفّح أوراقه الصفر التي تبدأ بأصناف قديمة أشبه ما تكون بالرق ، لملمسها صرير وقعقعة ، لتغدو أكثر مرونة وصفاء كلما اقترب المخطوط من ختامه ، فبدأتُ من وقتي وساعتي في قراءة تلك الفصول التي افتتحها السيد (نور) بخط (الرقعة) ، ليعقبه (حليم الغياث) مدوناً فصله بخط (النسخ) حيث تناوب من بعده القيّمون اللاحقون في كتابة فصولهم بأصناف الخطوط المختلفة .

كان (فرج الغياث) - ثالث من كتب في (الراووق) - هو أول من كشف جانباً من أهم تلك الأسرار : ففي الصفحات التي دوّن فيها فصله ذكر كيفية اتخاذ المخطوط هذه البنية الغريبة التي ازدادت تشابكاً وتداخلاً بمرور الزمن : وذلك أن (غياث) كان قد نذر حفيده (حليم) منذ طفولته لخدمة المزار ، وكان قد وُلد يتيماً بعد موت أبيه بأشهر ، فتعهّد الجد بتربيته ملقّناً إياه الأقسام الثلاثة الشائعة من (السيرة) التي أضحى من المألوف لدى (البواشق) الحرص على حفظها وصونها من النسيان تحدياً منهم للمشيخة الخاضعة لسلطة المحتلين ؛ فمنذ حظرت تلك المشيخة ذكر اسم (مطلق) ، مانعة إياهم بالتالي من ترديد أحداث (السيرة) في المضايف والدواوين ، بات من تقاليدهم تناقلها شفهياً أباً عن جد . لكن (حليم الغياث) لم يكتف باستظهار أحداث (السيرة) ، بل انهمك في البحث والتقصي عن سر استمرار القطيعة بين (البواشق) والمشيخة ؛ إذ يفترض بتلك الأحداث أن تدفع بالطرفين إلى أن يعودا كما كانا أيام (مطلق) . لكن جده بيّن استحالة ذلك . قال

www.ibtesama.com

له ، وهو يقوم بسبابته بإشارة عريضة تنقل بها بين أطلال القلعة القائمة شمالاً فوق (تل الأربعين) وبين المزار القائم جنوباً على حافة (وادي المر) :

– هيهات . . . لقد تباعد الطرفان أحدهما عن الآخر تباعد هذين!

وأردف وهو يشير هذه المرة نحو المزار :

– وذلك هو سر سلوك العديد من (البواشق) طريق العرفان .

منذ ذلك اليوم انكفأ (حليم الغياث) على نفسه وقد أيقن بوجود خطأ في ما يجري حوله ، حتى إذا ما دخل طور الشباب أخذ يعتزل الناس ؛ إذ آوى إلى التلال الشمالية ليقيم في سياحاته ليله ونهاره ، مخضعاً نفسه لأنواع الرياضات والمجاهدات عسى أن يحصل له الفتح فتشرق على النفس أنوار العرفان . في ذلك الوقت مات جده (غياث) فعُدّ (حليم) تلقائياً قيّماً على المزار ، وهذا أمر لم يشغله كثيراً عن تجرده وسياحاته ؛ إذ لم يتطلب الأمر منه غير كنس الضريح من حين إلى حين ، وتجميع النذور واضعاً نصب عينيه ضرورة الحفاظ على مخطوط (الراووق) ؛ فبرغم أنه لم يوجد في الديرة من يعرف القراءة والكتابة ، لكن صيانة المخطوط وحمايته من السرقة أو التلف غدت شغل (البواشق) الشاغل : فلو لم يكن (الراووق) ذا أهمية استثنائية في تاريخ (البواشق) أكان السيد (نور) يجترح كرامته تلك بإحراق من حاول سرقته؟!

وهكذا تعاقبت الأعوام و(حليم الغياث) مقيم على رياضاته ومجاهداته دون أن تفضي به إلى الكشف . كان يقضي أغلب أيامه في تلك التلال متأملاً عظمة الخالق في كل ما يحيط به ، متتبعاً الشمس لحظة شروقها من خلف الجبال الزرق مضيئة المياه بومضها الخاطف قبل أن تتسلق قبة السماء الزرقاء حيث العصافير ترفرف بأجنحة مرهفة غير

www.ibtesama.com

متنبهة لظلال النسور وهي تحوم عالياً متهيئة للانقضاض عليها . وكان يتعقب الشمس بعينيه وهي تنحدر نحو مستقرها ، فتستطيل ظلال التلال من حوله بشكل أخاذ .

عصر ذات يوم تنبه (حليم الغياث) من أفكاره تلك إلى ظل يسقط عليه ، فرفع رأسه ليرى درويشاً قادماً من جهة الغرب وهو يصيح من بعيد :

- أولم يُفتح عليك بعد يا (حليم)؟

فتأمله (حليم) وهو يقترب منه بمرقعته وفي ظنه أنه ليس أكثر من متسول امتهن حرفة الدروشة كسباً للرزق ، ولا شك في أنه على علم بقصة طول تجرده - فقد اشتهرت بين الجميع - فجاءه سعياً وراء ما يقيتُ به نفسه .

لكنه فوجئ بالدرويش يصيح وكأنه قرأ كل ما جال في خلده :

- لا . . . لستُ كما تظن يا (حليم الغياث)!

ورفع يده نحو السماء منادياً :

- يا رزّاق!

فأخذت قطع النقود تتناثر من بين أصابعه مثل قطرات المطر ، فلم يملك (حليم) إلا أن يثب مختطفاً يد الدرويش لاثماً إياها ، معتذراً إليه لسوء ظنه به ؛ فقد أدرك أنه أحد أولياء الله الذين رُفع عنهم الحجاب ، فسأله وقد أشرق بدموعه :

- ومتى يحصل لي الكشف يا مولاي؟

فوضع الدرويش كفه على رأس (حليم) ليخاطبه بحنوٍ :

- لا تجزع لما أقامك الحق فيه ؛ فجزاء الصبر إنما يتم بما يليه .

وأردف وهو يمسّ ذقن (حليم) برقة رافعاً وجهه نحوه :

- لن يفتح عليك بشيء في هذه التلال يا بني ، إنما يحصل لك

www.ibtesama.com

الكشف في مزار السيد (نور) وبعدما تغترب عن ديرتك أعواماً طوالاً تُهان خلالها وتُذلّ!

فردد (حليم) كلام الدرويش كالصدى :

- أغترب عن ديرتي أعواماً طوالاً؟

لكن الدرويش استرسل في كلامه كأنه لم يسمعه :

- لقد اصطفاك (السيد نور) له مريداً وحبيباً قبل أن تولد!

فعاد (حليم) يتساءل والدهشة تكاد تلجمه :

- وكيف ذلك يا مولاي؟

فأجابه الدرويش وهو في سبيله إلى الانصراف :

- لقد كتب اسمك في (الراووق) ، واختارك أنت دون (البواشق) أجمعين لتكون أول من يضيف إلى مخطوطه بما يفتح الحق به عليك!

فخرّ (حليم الغياث) في موضعه مصعوقاً وقد أدرك أنه آن له الظفر بالقرب ، حتى إذا ما سيطر على نفسه عاد يردد كلام الدرويش :

- كتب اسمي في (الراووق)؟!

لكنه لم يتلق عن سؤاله رداً ؛ فالدرويش كان قد غاب وكأن الأرض انشقت من تحته وابتلعته! . . فسارع (حليم الغياث) من فوره إلى العودة إلى الديرة ، وهو في لهفة للتأكد من صدق ما سمع . لكنه تنبه إلى نفسه لحظة اعترض النهر سبيله ، فتوقف في موضعه متأملاً باستغراق (ديرة الهشيمة) الممتدة في الجانب الآخر ، والتي تبدأ بأطلال القلعة القائمة على (تل الأربعين) لتنتهي بتلك البيوت والأكواخ القائمة جنوباً ، حاجبة عنه المزار حيث لاحت إلى الوراء منها بساتين النخيل تؤطر (وادي المر) .

وقف طويلاً وقد داخله اليأس ؛ كيف له أن يتأكد من كون اسمه مكتوباً في المخطوط في ديرة لا يوجد فيها من يقرأ أو يكتب؟

www.ibtesama.com

وتحوّل يأسه إلى شك وهو يتذكر قول الدرويش أن (السيد نور) اختاره (هو دون البواشق أجمعين ليضيف إلى المخطوط ما يفتحه الحق به عليه) . تُرى كيف غاب عنه لحظتها أن ما ذكره الدرويش ضرب من المحال؟ فهو كالآخرين في الديرة لا يعرف القراءة والكتابة ، فكيف يستطيع أن يضيف إلى المخطوط؟ لا شك أن الدرويش لم يظهر له حقيقة إنما تهيأ له أنه رآه وكلّمه لطول تجرده وسياحته في تلك التلال الموحشة البعيدة عن العمران!

وتعاقبت أيام و(حليم الغياث) بين الشك واليقين . وكان قد انقطع عن سياحته في التلال الشمالية ليعتكف في حجرته في المزار ، داخلاً الضريح من حين إلى حين ، متصفحاً أوراق المخطوط التي كانت قد اصفرّت وتجعدت لما نالها من بلل يوم حاول ذلك الرجل سرقتها . كان يتأمل كتابات (السيد نور) وكأنه في انتظار حصول كرامة تعينه على فك أسرار الحروف والكلمات السود المسطّرة كالنقوش . وكان يتذكر كلام الدرويش عن أن الفتح لن يحصل له إلا بعدما يغترب عن ديرته أعواماً طوالاً ، وهكذا قرّ عزمه على التوجه إلى البلدة إن لم يكن من أجل شيء فمن أجل معرفة ما احتوته تلك الأوراق من أخبار ؛ فكل ما كان يشاع عن مضمون (الراووق) حتى ذلك الوقت لم يتجاوز التخمين والحدس المبهم والرجم بالغيب .

اجتمع (حليم الغياث) ببعض الرجال من (آل غياث) وحصل على موافقتهم على رحلته الغريبة إلى البلدة مصطحباً معه المخطوط . وأوصوه بأمر واحد هو ألا يفرط بـ(الراووق) لأي سبب كان ، فعاهدهم (حليم) وهو يحز بسبابته على جوزة عنقه :

– قطع هذه أيسر من التفريط بالمخطوط!

في البلدة وقع (حليم الغياث) على اكتشاف مذهل كاد ينسيه

www.ibtesama.com

سبب سفرته تلك ؛ فبعدما أثار شكوك العديدين وهم يرونه يتقدم منهم بلحيته النامية وشعر رأسه المسترسل وملابسه الخلقة ، داساً تحت أنوفهم مجموعة أوراق قديمة ، طالباً منهم قراءتها ، استطاع الوقوع على رجل دفعه الفضول أكثر من أي شيء ليضحي بجانب من وقته في قراءة تلك الأوراق ، فقاد (حليم الغياث) نحو مسجد قريب حيث تربع الاثنان على حصيرة مفروشة في إحدى الزوايا ، وشرع الرجل في القراءة ؛ فإذا بالأقسام الثلاثة التي ألفها (عبد الله البصير) و(مدلول اليتيم) و(عذيب العاشق) مسطّرة على تلك الأوراق ؛ حتى إن (حليم الغياث) قاطع الرجل أكثر من مرة ، حاثاً إياه على تجاوز بعض الأحداث المعروفة لديه وصولاً إلى بغيته ، فلم يملك الرجل إلا أن يتساءل مستنكراً :

- في هذه الحالة لم تتعبني في قراءة أمور حفظتها عن ظهر قلب؟!

- واصل . . . واصل قراءتك!

أمره (حليم الغياث) بنبرة أقرب ما تكون إلى الخشونة ناقراً بسبابته على الصفحة المفتوحة ، فتأمله الرجل بشيء من الدهشة ، وكان من المؤكد أن يحجم عن الاسترسال في القراءة لولا أنه شغف بتلك الأحداث ؛ فقد علّق قبل أن يواصل القراءة :

- كأنني أقرأ (ألف ليلة وليلة) جديدة!

فعاد (حليم) يأمره :

- واصل القراءة!

فواصل الرجل القراءة وهو يغالب ضحكه ؛ فإذا بـ(حليم الغياث) يقع على ذلك الاكتشاف المذهل : فـ(السيد نور) لم يكتف بتسطير الأقسام الثلاثة الشائعة من (السيرة) ؛ إنما أعقبها بكتابة القسم الرابع

www.ibtesama.com

(المحظور) ذاكراً فيه الحقائق كما جرت في واقعة (دكة المدفع) ، تلك الحقائق التي لم تأل (المشيخة) جهدها محاولة طمس معالمها وتزييفها على مدى أعوام ، مشيعة روايات تلائم غاياتها في محاولة منها للتكتم على الأحداث الدامية!!

لقد صعق (حليم الغياث) لما يسمع ، فنسي نفسه وبقي يتأمل مفغور الفم شفتي الرجل وهما تنفرجان وتنطبقان لتنبثق من بينهما تلك الأسرار ، حتى إذا ما انتهى الرجل من القراءة تذكّر سبب رحلته هذه ؛ فسأل الرجل :

- واسمي؟ لمَ لمْ تقرأ اسمي في المخطوط؟!

فسأله الرجل بدوره وقد وثق أنه أمام مخبول :

- وما اسمك؟

- (حليم الغياث) .

فأكد الرجل ، وهو يقلّب سريعاً الأوراق ، أنه قرأ له كل ما رآه مدوناً من أخبار وأحداث وحكايات تتخللها أبيات شعر غامضة مملوءة بالأسرار . وأضاف وهو ينعم النظر في هامش سُطِّر بخط دقيق أسفل آخر ورقة :

- ولم أقرأ لك سوى هذه العبارة ؛ وذلك لكونها تدلّ على أن هذه الأوراق تشكّل مخطوطاً بعنوان (الراووق) موقوف على مزار رجل يقال له (السيد نور) يشترط فيه ألا يخرج من ذلك الموضع أبداً لا برهن ولا بغيره!

ما كاد (حليم الغياث) يسمع تلك العبارة حتى وثب واقفاً مختطفاً المخطوط من يد الرجل ، وغادره شاعراً في دخيلته وكأنه يقبض على جمر ؛ فقد هاله أنه بإخراجه المخطوط من موضعه قد اقترف إثماً لا يغتفر ، فعاد من يومه وساعته إلى الديرة معوضاً خيبته بعدم وجود

www.ibtesama.com

اسمه في (الراووق) بإعلام الرجال بخبر اكتشافه المذهل بكون السيد (نور) قد فوّت على (المشيخة) محاولاتها الدائبة لطمس الحقائق ؛ وذلك بتثبيت القسم المحظور من (السيرة) في المخطوط!

كان خبراً مذهلاً جعل حجرة (حليم الغياث) في المزار ملتقى عشرات الرجال من (آل غياث) الذين ازداد تبجيلهم لتلك الأوراق الصفر الجعدة ، فطلبوا من (حليم) أن يسرد لهم أحداث ذلك القسم ، فأخبرهم بما علق بذهنه معتذراً عن استحالة تمكنه من سردها بتفاصيلها وحيويتها التي كانت تتبدى بكل عبارة كانت تنبثق من فم ذلك الرجل وهو يقرؤها له!

وبغتة صمت (حليم) ليجيل عينيه في المتحلقين حوله مصارحاً إياهم بقوله :

- ألا تلاحظون مدى أهمية القراءة والكتابة؟ فبوساطة الكلمات - تلك النقوش المبهمة التي كنا نعتقد أنها لا تضر ولا تنفع - تمكن (السيد نور) من الانتصار على محاولات (المشيخة) الدائبة في طمس الحقائق وتزييفها . لقد انتصر بمداده على جبروت (المشيخة) المسنودة ببنادق السلطة ومدافعها!

وصمتَ لحظات قبل أن يعلن بعزم :

- لا بد لنا إذن من أن نتسلح بمثل هذا السلاح الخطير ؛ فبالكلمات وحدها سننتصر على مشيختنا الجائرة!

وهكذا سرعان ما شدّ (حليم الغياث) الرحال مجدداً إلى البلدة ، وقد عقد العزم على تعلم القراءة والكتابة ، تاركاً لـ(آل غياث) مهمة إحاطة المزار برعايتهم والمحافظة على المخطوط .

لكن المشكلة التي جابهته في البلدة اكتشافه أن الأمر لم يكن بالسهولة التي تصورها ؛ فأنّى لرجل يكاد يتخطى طور الشباب الوقوع

www.ibtesama.com

على من يأخذ على عاتقه مهمة من هذا النوع؟

وكان مما يضاعف الأمر صعوبة نظرة التوجس والحذر التي اعتاد الحضريون أن ينظروا بها إلى (البواشق) منذ واقعة (دكة المدفع) ؛ إذ بات من نافلة القول لديهم أن (ديرة الهشيمة) ليست إلا موضعاً للمتمردين والخارجين على السلطة!

وعزا بعضهم إلحاحه على التعلّم إلى كونه ممسوساً - وكان منظره المنفر غير المألوف يعزز ذلك الانطباع - وعدّه آخرون أبله ، يسهل خداعه ، فكانوا يكلفونه بمختلف الأعمال - تكسير الحطب ، جلب الماء من النهر ، رعي الأغنام - لقاء وعد بتحقيق أمنيته . بل إن واحداً منهم - اشتهر بينهم بكونه صاحب (مقالب) - قاد (حليم) في أحد الأيام وسط قهقهاتهم إلى المسجد حيث اعتاد (الملا) أن يتخذ من إحدى زواياه موضعاً لتعليم الصغار ، ليعلن بأبهة مبالغ فيها أنه جاءه بطالب علم نذر أهله أن يعملوا له ، حين انتهائه من (ختمة القرآن) ، زفة استثنائية . فأجابه (الملا) مجارياً إياه في لعبته :

- على الرحب والسعة . . . هيا . . . هيا يا صغار . . أوسعوا لطالب العلم المجال!

ونال القريبين منه بضربات سريعة من (خيزرانته) مذيباً القهقهات في حلوقهم . واستدرك وهو يمشط بأصابعه لحيته المسترسلة :

- ولكن . . . صبراً . . . ألا يبدو صاحبنا أكبر قليلاً مما يجب؟

وبعدما رازه (الملا) بنظرة طويلة أعلن باندفاع :

- ليكن . . . . فليعدّ نفسه منذ اليوم مساعداً لي . . . نعم . . . سأجعل منه (خلفة) تقتصر مهمته في الوقت الحاضر على المحافظة على هدوء الطلاب - فضلاً عن مساعدتي في بعض الأمور اليسيرة -

www.ibtesama.com

حتى إذا ما تعلّم القراءة والكتابة سأجعله يعاونني في مراجعة الدروس!

ولم تنطلِ اللعبة على (حليم الغياث) بطبيعة الحال ؛ إذ لم تفته ملاحظة الغمزات التي تبادلها الرجلان . لكنه ، من أجل التعلّم ، لم يكن على استعداد لغض طرفه عن ذلك فحسب ، بل إنه انساق صاغراً لاستعباد (الملا) إياه ؛ لا يكفّ عن تكليفه بمختلف الأعمال : الكنس ، وفرش الباريات والحصران ، ورشق السطح بالطين . كما كان عليه اجتياز الباب الخلفي للمسجد أكثر من مرة في اليوم ، هابطاً تلك الدرجات المحفورة في الجرف الجنوبي للوادي ، صاعداً إياها مرات لا تعد ولا تحصى ، وهو محمّل بقرب ماء كان يفرغها في الحباب وحوض الوضوء . كان يقوم بكل تلك الأعمال دون إبداء التذمر ، مجدداً نشاطه في أثناء تحركه في شتى أرجاء المسجد بالإصغاء إلى (الملا) وهو يتهجّى بصوت منغوم الحروف التي يرددها الطلاب من بعده بأصوات عالية مصحوبة بتحريك جذوعهم إلى الأمام والخلف :

– أليف . . . لام . . . زبر . . . أل . . . حـــا مـــيم . . . زبر . . . حم . . . الحم . . . دال . . . بيش . . . الحمد .

وكان يجازف أحياناً – قبل حضور (الملا) – في مخالطة الطلاب محاولاً مجاراتهم في رسم الحروف ، يعينه في ذلك غلام صبوح الوجه متورد الخدين ، لا يكاد (حليم) يتأمله لحظات حتى يغضّ طرفه حياءً لفرط جماله .

كان (حليم) يجد في ذلك الغلام خير عون ؛ فكان يكافئه بدوره على مساعدته إياه بمنحه حبات تين وحفنات عناب كان يحرص على أن يملأ بها جيوبه كلما مر بالبساتين . كان يتملّى بشغف ذلك الفم المتورد وهو ينفرج وينطبق على تلك الأشياء ، مردداً في سره (سبحان

www.ibtesama.com

الله) عشرات المرات . كما أنه كان يتواطأ معه ليفلت من العقاب : ذلك لأن (الملا) اعتاد أن يختم سيقان الطلاب أو أذرعهم بـ(طمغة) خاصة به كل يوم خميس من أيام الصيف ليمنعهم من السباحة في مياه الوادي يوم الجمعة . لكن الغلام كان يعشق السباحة ؛ فكان يهرع إلى (حليم) صباح كل سبت مستبقاً (الملا) في الحضور، ليعيد له ختم ساقه ، مغطياً بذلك على جريمته!

هكذا مضتِ الأيام بـ(حليم الغياث) ، لاشيء ينغّص عليه حياته سوى ارتفاع صرخات طالب من يوم إلى يوم تحت وقع ضربات خيزرانة (الملا) وهو ينزل به (الفلقة) عقاباً لجرم اقترفه ، فكان (حليم) يسارع إلى الهرب ملتقطاً في طريقه القربة الفارغة لينشغل طويلاً في ملئها مفكراً في (ديرة الهشيمة) التي يبدأ منها صدر الوادي نفسه ليخترق صحراء شاسعة وبساتين غنّاء قبل أن يحف بالحافة الشمالية لهذه البلدة وقد غدا ماؤه ممجوجاً لا يقارن بصفائه وعذوبته هناك في ديرته البعيدة الواقعة شرقاً .

وصادف في أحد الأيام أن غدا ذلك الغلام ضحية (فلقة) (الملا) ؛ فهرع (حليم) نحو قربته ، لكن (الملا) ناداه طالباً منه مساعدته في شد (الفلقة) حول ساقي الغلام ، فرمقه (حليم) بنظرة غير مصدقة ، وحينما رآه جاداً تنطق أساريره بالشر ، تجمد في موضعه لا يريم حراكاً وقد شحب وجهه ، فلسعه (الملا) بابتسامة جارحة ، وصاح وهو يشمّر عن كميه ملتقطاً (خيزرانته) المرهفة :

- إذن صحيح ما يشاع عنكما بين الطلاب!!

وكان الغلام قد اضطجع على ظهره باستسلام تاركاً اثنين من زملائه يرفعان ساقيه البيضاوين النحيفتين عالياً مشنّطين إياهما بالفلقة ، في حين أخذ زميل ثالث يضبط صارخاً عدد الضربات التي

www.ibtesama.com

شرع (الملا) في إنزالها بكل قوته على باطن تينك القدمين المتوردتين .

كان جسد (حليم) ينتفض مع كل ضربة يتردد صداها في أرجاء المسجد ملاحظاً بنظرة غير مصدقة كيف أن (الملا) كان يزداد غيظاً لصمود الغلام ، فكان ينفخ ويلهث مواصلاً إنزال ضرباته التي لم يعد هناك من يضبط عددها بعدما تجاوزت الحد المقرر!

وكان الغلام يتلقى العقاب بجلد وصبر عجيبين . ولكنْ لم يكد يستدير بوجهه في لحظة ضعف - وهو على وضعيته المخزية تلك - لتلتقي عيناه عيني (حليم) حتى انخرط في البكاء ؛ فاندفع (حليم) نحو (الملا) دون وعي ليختطف خيزرانته صارخاً به :

- كفى!

فعاد (الملا) يكرر كلامه السابق بانتصار ، وصدره يعلو ويهبط :

- من المؤكد أنه صحيح!

فتساءل (حليم) خافق القلب :

- ما هو الصحيح؟

- سلْ نفسك!

أجابه (الملا) قبل أن يضيف ، وهو يعدل طيات ملابسه حول جسده الذي اخضلّ بالعرق :

- الآن تبين سر حبات التين وحفنات العناب و(الطمغة) التي ائتمنك عليها!

فتأمله (حليم) لحظات غير مصدق سمعه . وكان من المستحيل عليه أن يفلح في مواجهة كلام على هذا الحد من الرخص ، فلم يملك إلا أن يفرغ غيظه بـ(الخيزرانة) فهشمها على ركبته ، وغادر المسجد وهو لا يكاد يبصر سبيله مشيّعاً بضحكة (الملا) المتهكمة .

تجول ساعات طوالاً في أرجاء البلدة ، حتى إذا ما آذنت الشمس

www.ibtesama.com

بالمغيب عاد إلى المسجد - حيث اعتاد المبيت كل ليلة - وقد هدأ بعض الشيء . لكنه فوجئ بـ(الملا) ، على غير المألوف ، لا يزال مرابطاً في المسجد ؛ إذ ما كاد يلمحه حتى وقف في الباب معترضاً سبيله ، يحفّ به جمع من رجال عرف بينهم آباء بعض الطلاب .

- لا تدنس بيت الله يا فاسق!

صاح به (الملا) والرذاذ يتطاير من فمه ، فتوسّل إليه (حليم) وهو يكاد يبكي :

- دعِ الله بين عينيك ؛ فوحقّه ما تمليّتُ وجه ذلك الغلام بنظرة إلا وأنا أفكر بِحسن خالقه ، ذلك الذي جل سبحانه وتعالى عن التشبيه وتقدّس عن التمثيل .

فصاح (الملا) وقد جنّ جنونه :

- ولم لا تتملى وجهي يا زنديق بواحدة من نظراتك الولهى تلك ؛ فهو بدوره من صنع الخالق؟!

فانفجر الجميع في الضحك ، فلم يملك (حليم) إلا أن ينسحب منكس الرأس ، ليقضي ليلته تلك باحثاً عن مأوى تاركاً للأيام القادمة أن تكشف فداحة الظلم الذي أُنزل به دون حق . لكن أمله خاب ؛ فما مرّ يومان أو ثلاثة حتى كان أمره قد شاع في البلدة : يُستقبل ويُودع أينما توجه بنظرات ارتياب!

وذات يوم اعترض رجل سبيله في السوق ليسأله متهكماً إن كان لا يزال حريصاً على تعلم القراءة والكتابة؟ وما كاد (حليم الغياث) يفتح فمه حتى فوجئ بالرجل يعالجه بصفعة رنانة أطارت الشرر من عينيه ، أعقبها بأن صاح في الناس :

- خذوا حذركم منه ؛ ذلك لأنه لم يغادر ديرته التي تعج بالأشرار للتعلم ، إنما سعياً منه وراء غلام جميل!

www.ibtesama.com

فتحلّق الناس حوله مرغين مزبدين ، ولم يعرف كيف استطاع الإفلات منهم لينزوي في إحدى الخرائب ، ما أن يغادرها حتى يستقبل بالتصفيق والدق على الدفوف . وأخذ الأطفال يرمونه بالأحجار ؛ فغدا (حليم) في ركض دائم : ما يكاد يسمع أصوات الأطفال حتى يمرق بين الأزقة كالمطارد ليخفي نفسه في الزوايا المظلمة أو خلف الأبواب أو في الخرائب ، شأنه شأن الكلاب الضالة . واضطر في آخر الأمر إلى اللجوء إلى (تكية) قائمة في ظاهر البلدة .

كانت (التكية) محض بناء لبني واسع قائم وسط بساتين النخيل ، تشرف على مقبرة يحفّ بها جدول صغير ، يكاد مجراه يختفي تحت أغصان أشجار الصفصاف والغرب وأدغال العليق والحلفاء ، حتى يُخيّل إلى من يتخطاه بوثبة واحدة أنه خال من المياه ، بيد أن ذلك الخرير ، الذي أمسى من المألوف أن ينام (حليم الغياث) على وقعه الرتيب كل ليلة ، سرعان ما كان يبدد ذلك الظن .

في تلك (التكية) قضى (حليم الغياث) أعواماً من عمره ، واضعاً نصب عينيه تعلم القراءة والكتابة دون أن يردعه عن ذلك استحالة الانسجام مع هؤلاء (الدراويش) ؛ ذلك لأنهم كانوا يغادرون (التكية) مع شروق الشمس تاركين (حليم الغياث) وحده يتجول في ذلك البناء الباعث على الوحشة ، والذي تتوسط ساحته شجرة سدر هائلة تضج بصخب العصافير على مدى ساعات النهار . وكان ثمة (أيوان) يشرف على الساحة ، تسند عشرات الأعمدة سقفه ، ينفتح عليه باب مصلّى وحجرة تضم قبر مؤسس (التكية) .

كان (حليم) يذرع تلك المواضع عشرات المرات متأمّلاً الكوى المسودّة بالدخان وقد انتصبت فيها بقايا شموع مطفأة ، متصفّحاً بفضول الكتب الصفر القليلة المهملة في مواضعها . وكانت الجدران

www.ibtesama.com

مزدانة بالدفوف والدرابش والسيوف والمسابح ذات الأطوال المختلفة بدءاً بمسابح ذات تسع وتسعين حبة - بعدد أسماء الله الحسنى - انتهاءً بالمسابح الألفية التي يقتضي تعليقها على الجدران طيها بضع طيات . وكان يضاف إلى تلك الزينة (الكشاكيل) التي يشرع (الدراويش) في تعليقها حال عودتهم مع غروب الشمس ، محمّلين بكل ما لذ وطاب من أطعمة وفاكهة ، مسندين إلى الزوايا (طربزوناتهم) المزدانة بمختلف النقوش والطلاسم والتي تنتهي بأنصال معدنية مرهفة تسطع تحت أضواء الشموع التي يكون (حليم) قد أوقدها .

كان الصمت دأب هؤلاء الدراويش ، لا يخالفون ذلك التقليد إلا ليلة واحدة في الأسبوع ؛ كانوا يحيونها بحلقات ذكر يحضرها الناس من البلدة ، ليعودوا بعدها إلى التزام الصمت ، لا ينطقون إلا حينما يكونون تحت سلطان الحال ؛ فيرددون أحزابهم وأورادهم وأشعارهم الغامضة التي هي مزيج من عربية وفارسية وتركية!

في ذلك الموضع استطاع (حليم الغياث) أن يحلّ على مهل لغز الكلمات ؛ فبعزم ذلك الفتى الذي قضى أعوام شبابه وهو مقيم على رياضاته ومجاهداته استطاع أن يتعلم حرفاً من هذا الدرويش وحرفاً من الآخر . وأسعفه الحظ فمرض أكبر الدراويش سناً أياماً ، حتى إذا ما شفي لم يعد ، بسبب الشيخوخة ، قادراً على معاودة سياحاته ؛ فلازم (التكية) ، وغدا بذلك خير عون لـ(حليم الغياث) في تعلّم الحروف والكلمات . وذات ليلة انتبه (حليم) وهو بين اليقظة والنوم إلى صوت درويش يترنم بأشعار لم يجدها غريبة على سمعه . وحينما أمعن الفكر تذكّر أنه سمعها من ذلك الرجل الذي قرأ له (الراووق) في مسجد البلدة ؛ فوثب مغادراً زاويته باحثاً عن ذلك الدرويش . ولكن عبثاً ؛ فالدراويش كانوا بين نائم أو واقع أسير الوجد ، لا يعي ما

www.ibtesama.com

حوله ، فعاد إلى زاويته وقد أتعبت أضواء الشموع الخافقة عينيه ، وخدّرته روائح البخور والحناء ، شاعراً بالرياح تنوح في هبوبها بين الأشجار .

تلك الليلة بكى (حليم الغياث) طويلاً وقد تذكّر (ديرة الهشيمة) وقرّ عزمه على العودة إليها صباح اليوم التالي لولا تذكره قول ذلك الدرويش إن الفتح لن يتم له إلا بعدما يغترب عن ديرته أعواماً يُهان خلالها ويُذلّ . وهكذا هرع مع شروق الشمس إلى صاحبه الدرويش العجوز ، وأطعمه وسقاه مما خلّفه له صحبه الدراويش قبل أن يغادروا (التكية) كدأبهم كل يوم . وأخبره في آخر الأمر بما طرق سمعه البارحة . وحينما لم يحر الدرويش جواباً ، أردف (حليم) محاولاً إثارة فضوله :

- إنها أبيات معدودة تنتهي بحرف النون .

فأجابه الدرويش بأن طلبه في معرفة قائل تلك الأبيات محال ؛ ذلك لأن الدراويش لا يتذكرون ما ينطقون به وهم في تلك الأحوال ، إذ إنهم لحظتئذ يكونون بين يدي الحق أشبه بالميت بين يدي غاسله!

فعلّق (حليم) محاولاً توضيح سر إلحاحه :

- تلك الأبيات تعود لوليّ مبارك اسمه (السيد نور) ، كتبها في مخطوط موقوف على مزاره ، فكيف تسنى لذلك الدرويش العلم بها؟

فأجابه الرجل وهو يسبل جفنيه تعباً :

- أنفاس العارفين مثل أريج المسك تتنقل مع الريح ؛ فالحجب مرفوعة بينهم ، مسدلة دون الآخرين!

وهكذا مضى (حليم الغياث) يتنقل من حرف إلى حرف آخر حتى انتهى من تعلمها كلها ، وبات في استطاعته القراءة بطلاقة ؛ فقرأ كتب الدراويش بنهم ، سائلاً صاحبه عما يشكل عليه .

www.ibtesama.com

والحق أنه لم يكن يعجز عن فهم ما يطالع عينيه باستثناء عبارات ذات معانٍ ملغزة ، فضلاً عن أبيات شعر كانت تنتهي بكلمات ذات دلالات أبعد ما تكون عن ألفاظها الواضحة . وقد واجهته الصعوبة عينها في فهم عجز البيت الأخير من بضعة أبيات مكتوبة بـ(الكاشاني) الأبيض والأزرق فوق باب (التكية) الخارجي ؛ فبرغم أنها لم تكن تخرج عن الصيغ المألوفة التي لا تتعدى الثناء على الأنبياء والرسل ، ومدح مؤسس (التكية) ، إلا أن (حليم الغياث) عجز عن إدراك مغزى عجز البيت الأخير ، فهرع إلى الدرويش سائلاً ، فأخبره هذا أن ذلك البيت يؤرخ لتاريخ إنشاء (التكية) ، فتساءل (حليم) بفضول :

– وكيف ذلك؟

فأجابه الدرويش :

– يتم ذلك بطريقة (حساب الجمّل) وهي طريقة تعتمد على ترتيب حروف الهجاء أبجدياً ؛ إذ لكل حرف قيمة عددية معروفة .

فهتف (حليم) يائساً :

– إذن هناك ما لم أتعلمه بعد في اللغة العربية؟

فصاح الدرويش مستنكراً :

– وأنّى لك أن تعلم أسرار لغة هي كالبحر المحيط لا يحده ساحل؟

منذ ذلك اليوم عاد (حليم الغياث) يتلقى على يد ذلك الدرويش أسرار علم الحروف المسمى بـ(السيمياء) ، هذا العلم الذي يستند إلى خصائص سرية للحروف والأسماء القدسية والملائكية ، كما علّمه الدرويش كيف أن حروف الأبجدية الثمانية والعشرين تتوزع إلى أربع فئات ، تتكون كل فئة من سبعة حروف تطابق عناصر الطبيعة الرئيسية وهي النار والهواء والماء والتراب .

www.ibtesama.com

ما كاد (حليم غياث) يتقن علم الحروف حتى شدّ الرحال عائداً إلى (ديرة الهشيمة) وهو على ثقة من أن ما تعلمه من علم الحروف سيكفل له كشف أسرار فاتت ذلك الرجل الذي قرأ له (الراووق) في ذلك العام البعيد . وكانت ثقته تلك في موضعها ؛ فحين انفرد بالمخطوط في المزار وقع على بغيته في القسم الرابع المحظور الذي كان آخر فصل كتبه (السيد نور) ؛ كانت هناك القصيدة النونية التي سمع ذلك الدرويش المجهول يترنم بها ذات ليلة في (التكية) ، كانت واحدة من بضع قصائد وزعها السيد (نور) في ثنايا فصول المخطوط ، وكانت الأبيات الثلاثة تشير إلى اسمه دون لبس :

أفصحتُ باسميَ عن اسم جهرتُ به
وثمَّ اسمٌ سيأتي بعد جيلينِ
اسمان اثنان لم يجمعهما عبثاً
الحقُّ إلا ليهدي الخلقَ للدينِ
فعنهما تنجلي الأسرارُ ثانيةً
وفيهما يُجمع (الراووقُ) في اثنينِ

فقيمة اسمه (حليم) عن طريق (حساب الجمّل) تبلغ ثمانية وثمانين ، وبإضافتها إلى قيمة اسم (نور) البالغة مئتين وستة وخمسين ينتج ثلاث مئة وأربعة وأربعين ؛ وهي قيمة حروف (الراووق) ، كما أن عدد حروف اسميهما مجتمعين هو سبعة حروف بعدد حروف (الراووق)!

وهكذا حظي (حليم الغياث) بالقرب حينما قوي حبه وتسرمد في الشرب ؛ فتوالى عليه الفتح : فعرف ما فات (مطلق) ومن جاء بعده من أسباب الخلود ؛ ذلك لأنهم حسبوا أنها تكمن في ربط أسبابهم بذوي السطوة والنفوذ ، أو بالاحتماء بالقلاع والمفاتيل والبنادق ، أو

www.ibtesama.com

بامتلاك الذهب والفضة ، في حين أنها تكمن في هذه الرموز التي انتصر (السيد نور) بها وحدها على جبروت السلطة الغازية وظلم (المشيخة) المستبدة!

منذ ذلك اليوم رفع (حليم الغياث) ريشة الكتابة سلاحاً يقارع به بنادق (المشيخة) ، مكرساً لمن جاء بعده نهج (السيد نور) طريقة في مجابهة الظلم والطغيان ؛ فدوّن تلك الأحداث التي اعتاد جده (غياث) أن يقصها عليه في صباه والتي كانت السبب المباشر في شيوع أمر (الراووق) .

ذلك ما يسعني ذكره بإيجاز ؛ فقد أسهب (فرج الغياث) في شرح أهمية دور (حليم الغياث) ليس لأنه كشف وجود ذلك القسم المحظور ، أو لكونه أول قيّم أضاف إلى المخطوط فحسب ، بل لأنه يعود إليه وحده الفضل في شيوع القراءة والكتابة في عشيرة (البواشق) - ولاسيما أحفاد (غياث) ـــ فقد اتخذ من حجرته في المزار موضعاً لتعليم الأطفال ، مردداً على مسامعهم قولاً لم يكن يملّ من تكراره :

- لنجابه رصاص الظلم بكلمات الرحمة!

والحق أن (فرج الغياث) نفسه أسهم في اتخاذ المخطوط تلك الصيغة التي عُرف بها فيما بعد ؛ فقبله كان (الراووق) محض أوراق منفصلة عن بعضها غير مجمّعة بين دفتي غلاف ؛ ذلك لأن (حليم الغياث) - وتبجيلاً منه لـ(لسيد نور) - لم يجرؤ على إضافة أوراقه إلى (الراووق) ، بل أبقاها في معزل عنه ، حتى إذا ما حل دور (فرج الغياث) عمد هذا إلى ترتيب الأوراق بحسب قدمها ملصقاً إياها ببعضها قبل أن يغلّفها ، ليشرع بعدها في كتابة فصله الذي كرسه لسلوك (حليم الغياث) طريق العرفان الذي أفضى به إلى الكشف ، تاركاً لمن يأتي بعده مهمة إضافة أوراقه تلك إلى المخطوط ، شارعاً بذلك

www.ibtesama.com

تقليداً كرّسه من جاء من بعده : فبنكران الذات الذي عُرف به هؤلاء (القيّمون) الذين فازوا بنعمة الإضافة إلى (الراووق) - مخلدين بذلك لهم ذكراً في تاريخ (البواشق) - اعتاد اللاحق أن يضيف أوراق السابق إلى المخطوط غافلاً أي ذكر لنفسه ، مقتصراً في كتابته على تدوين دور سلفه - إنْ استحق ذلك الدور الذكر - فضلاً عما يفتح به عليه من ذكر أحداث وأمور تعاقبت في تاريخ العشيرة تباعاً في سلسلة لانهائية على مدى صفحات لا تعد ولا تحصى ، مضفية على المخطوط ذلك المنظر الغريب الذي لا يخلو من سحر : فقد تعددت الخطوط ، وتباينت جمالاً أو قبحاً ، وضوحاً أو غموضاً ، وازدانت الهوامش بعبارات مطموسة ، وآثار أختام وقف متراصفة على أوراق مختلفة الأصناف!

لقد خرج (الراووق) بتلك الهيئة الغريبة من تحت أيدي رجال كرسوا كلماتهم لتاريخ عشيرة (البواشق) ، مستمدين منه الدروس والعبر ، طامحين إلى أن تكون كتاباتهم جديرة بأن تضاف إلى مخطوط يحمل ذلك العنوان .

بيد أن طول المعاناة تحت وطأة (مشيخة) جائرة لا ترحم ، وقسوة كوارث الحياة وضراوتها ، دفعتْ ببعض القيّمين إلى الانسياق لأهوائهم في تسطير صفحات قد لا تنسجم مع الغاية التي حدت بالسيد (نور) إلى كتابة فصوله ؛ فثمة من اشتط في الاستعانة بـ(السيمياء) للنجاة من الأوبئة والحروب التي أجهزت على العديد من (البواشق) فجمع الحروف سعياً للحصول على كل ما يتصف بخواص تؤدي إلى النتائج المطلوبة مثل الكشف عن الغيب ، كما عمد آخرون إلى تفريق أسماء معينة مأخوذة من أحد الكتب المقدسة ، ترتبط بصفة خفية ، من أجل تشكيل عناصرها الساكنة بطرق مركبة تستند إلى عوامل عددية وكمية وتنجيمية وسحرية ؛ وذلك لوجود صلات خفية بين الحروف

www.ibtesama.com

وقيمها العددية . وقد لجأ بعض آخر إلى توزيع الحروف على العناصر الأربعة : فعن طريق أحرف النار حاول التنبؤ والسحر من أجل منع الشرور المتمثلة بالبرد ، أو من أجل زيادة الحرارة سواء في الميدان الطبيعي أم التنجيمي ، وثمة من حاول زيادة أثر كوكب المريخ وذلك بتجميع حروف النار في أثناء نشوب إحدى الحروب المهلكة . واستعمل آخر حروف الماء للتنبؤ بالأمراض والحميات المختلفة . وحاول آخرون ، عن طريق الحروف أيضاً ، أن يجعلوا المؤثرات القمرية تسود ، وقد توسّل بعضهم بخوارق الحروف للنفوذ إلى إدراك الحقائق القدسية جاعلين من الأسماء الحسنى مادة لذلك الضرب السحري وصولاً إلى الكشف!

لقد وصلتْ هذه الضروب السحرية من تغلغلها في (الراووق) حداً لم أستطع معه الإفلات بكلماتي منها ، ولاسيما أنني حظيتُ بنعمة الكشف في زمن لم يبق فيه للقوس منزع : فبعدما عقدت عشيرة (البواشق) آمالها على الشيخ (عاصي) - الذي أحيا بوقوفه في وجه السلطة تلك الذكريات المجيدة عن جده الأكبر (مطلق) - أُغتيل بدس السم في قهوته بتواطؤ من ابن عمه (فزع طارش) مع (قهوجي) المضيف ، فكان بارقة أمل خبت ، ومزنة مطر تبددت ؛ إذ عاد (فزع الطارش) يتحكم في العشيرة ، مبيحاً الديرة لذوي السلطة والنفوذ ، فعم الفساد ، وساد علينا أسوأ العباد ، فكان أن بزغ النجم المذنّب كرّة أخرى ، فختمتُ المخطوط بآخر هامش لي ، عسى أن يُقيّض له بعد عشرات السنين عبد من عبيد الخالق فيستثمره إن حاول أن يكتب تاريخ عشيرة (البواشق)!

ولكن هيهات . . هيهات ؛ فالمخطوط الذي بدأ على شكل مجموعة أوراق مبعثرة في كوخ (السيد نور) انتهى بالطريقة نفسها وفي المكان

www.ibtesama.com

عينه : فمادام الله سبحانه وتعالى يمهل ولا يهمل كان لا بد لـ(فزع الطارش) من أن ينال الجزاء الذي يستحقه ؛ فقد هشم رجل مجنون رأسه بقدّوم في أثناء الأحداث التي اجتاحت مدينة (الأسلاف) في (ثورة العشرين) ، فكان أن جنّ جنون ابنه (هداد فزع الطارش) ، فأقسم - وهو يتقدم برجاله وأبناء حمولة (بيت طارش) القوات الغازية في زحفها على المدينة من جديد - أنه سيثأر لأبيه ثأراً سيترك غصة في قلوب أعدائه كلهم ولاسيما (آل غياث) الذين كانوا السبب المباشر في تأجيج المشاعر ضد أبيه!

ونفّذ (هداد) وعيده بأبشع طريقة ؛ فعقب عودته (الظافرة) إلى المدينة - تسنده بنادق (الشبانة) - لم يكتف بالاقتصاص من قاتل أبيه - وذلك بإدخال خيزرانة في إحدى أذنيه وإخراجها من الأخرى!! - بل أخذ يعلن في كل مكان أنه آن الأوان لوضع حد لخرافة مخطوط كرّسه (آل غياث) لمصلحتهم بتسطير تاريخ العشيرة فيه على هواهم!!

وكان يضيف متهكماً :

- لا يصح الاكتفاء بنفي (العصاة) إلى جزيرة (هنجام) وغيرها من الأماكن ، بل يجب نفي (الراووق) إلى . . . . (لندن)!

وكان يتباهى دون حياء أنه هو وحده من سيحقق لـ(الصاحب) أمنيته القديمة التي لم يستطع تحقيقها يوم كان يشغل منصب مساعد الحاكم العسكري لقضاء (الأسلاف) ، وذلك بمنحه مخطوط (الراووق) عن طيب خاطر!

وهكذا دأب العديد من رجال (آل غياث) على المرابطة معي في المزار طوال أيام المحنة وهم بين مصدّق ومكذّب من أن ينفذ (هداد) وعيده ؛ فما وُجد في عشيرة (البواشق) من قبل ولن يوجد فيها من بعد من يفكر - محض تفكير - في أن يمسّ بسوء مخطوطاً لم تسطّر

www.ibtesama.com

كلماته بالمداد فحسب ، بل بالدم والدموع!

لكنني كنت أُحذرهم من أن (هداد) طالب دم ، وهو لذلك أعمى لا يرى سبيله ، وأصم لا يسمع النصح إلا بعدما يشفي غليله ، وذلك ما حصل : فعصر أحد الأيام ، وبعدما استتب الوضع للإنكليز تماماً ، اصطفق الباب الخارجي لحظة وشحت شمس الخريف سعفات نخلة المزار بآخر وهج لها ، واندفع (هداد) داخلاً علينا وعيناه تنطقان بالشر . بدا وجهه يحاكي وجوه الموتى بياضاً وقد تهدّل طرفا شاربيه حول فمه الراجف ، فشابه لحظتها أباه شبهاً عجيباً!

قال بصوت متهدج مخاطباً إيانا ، وقد صالب ذراعيه إلى جانبيه مانعاً بعض رجاله المتحمسين من (بيت طارش) من الهجوم :

- تنحو جانباً ؛ فلا شأن لي بكم!

فصحتُ به من وسط الرجال الذين تراصفوا من حولي :

- لا تلوث يدك يا (هداد) بعمل ستندم عليه العمر كله!

فاقتحم صفوفنا صارخاً :

- وهل أبقيتم أياديكم مطهرة من دم أبي يا أولاد السفلة؟

واندفع نحو الضريح ، فتعقبته بدوري محاولاً تهدئته :

- نحن لم نقتل أباك ؛ بل قتله مجنون فتكتَ به بدورك بأبشع طريقة ممكنة ، فلا تكن أكثر جنوناً منه بالإقدام على هذا العمل المخزي من أجل إرضاء (الصاحب)!

فكان جوابه أن هشّم صندوق الكتب بركلة واحدة وقد أعماه الغضب . وصرخ وهو يبكي بدموع مثل قطرات المطر :

- أعيدوا إليّ أبي الذي تعدل شعرة واحدة منه كلكم مجتمعين ، لأدع مخطوطكم وشأنه!

وانقضّ على المخطوط الضخم الذي تميّز غلافه بلونه الأسود وسط

www.ibtesama.com

ركام الكتب المبعثرة قرب الضريح ، فانحنيت بدوري نحوه بيدي الاثنتين محاولاً أن أسبق (هداد) في انتشاله منه ، لكنني فوجئت بعشرات الأيدي تشتبك حوله ، وكل واحد من الرجال - سواء أكان من (بيت طارش) أم (آل غياث) - يحاول الإفلات به!

وارتفعت الأيدي بـ(الراووق) وانخفضت ، وسحبته يميناً وشمالاً وسط زمجرات ذكّرتني لحظتها - ويا للمفارقة! - بتمتمات العديد من القيّمين وهم يهمسون لأنفسهم بكلماتهم ، مسطرين إياها على مدى عشرات الأعوام على صفحات ما مسّوها إلا وهم على وضوء!

لحظتها تراجعتُ إلى الوراء ، وكدتُ أصرخ برجال (آل غياث) آمراً إياهم بأن يدعوا الآخرين ليفوزوا بـ(غنيمتهم)! . . لكن لساني لم يتحرك في فمي ، شعرتُ وكأنني فقدتُ القدرة على النطق ، فلبثتُ واقفاً في ركني متأملاً بنظرة غير مصدّقة (الراووق) وقد تحول إلى أوراق متطايرة سابقت الأيدي بعضها بعضاً في اختطافها قبل أن تمس الأرض ، مفكراً في مغزى تلك الحكمة الربانية في تفريق أوراق مخطوط سبق لها أن جُمّعتْ في المكان عينه منذ عشرات الأعوام!

www.ibtesama.com

كتاب الكتب

سِفر الميم

لو لم (تُفرّق) أوراق المخطوط بتلك الطريقة (الميلودرامية) التي تحدّث عنها (ذاكر القيّم) في ختام صفحاته، أكانت (تجمع) في روايتي بهذه الطريقة التي لا زلتُ أتعقبها منذ عشرات الصفحات؟

سؤال قد يكون في الوقت نفسه جواباً ليس عن مغزى تلك (الحكمة الربانيّة) التي خطرتْ لـ(القيّم) يومذاك فحسب، بل لعله يفصح بعض الشيء عن دلالة السر الكامن في صميم هذه الرواية: فثمة أفكار عديدة تبدو - بحكم أسبقيتها في الظهور، أو صدورها عن أشخاص عديدين - وكأنها لا تمتُّ إلى بعضها بصلة، حتى إذا ما تعاقبتِ الأحداث تكشّفتْ عن وجود صلات خفية كانت تربطها ببعضها تلقائياً؛ فها أنذا - وبمعونة دفتر الملاحظات - أتذكر ما حدّثني به بدر، يوم زارني في بيتي هذا، عن ذلك الشعور المبهم الذي ينتاب كل مبدع - ضارباً بنفسه ومتحفه مثلاً - بوجود (نقص) في عمله، وهو أمر لم أتذكّره إلا بعد قراءتي تلك الصفحات البيض من كتاب (الإنسان الكامل في معرفة الأواخر والأوائل) التي ملأها (القيّم) بكتاباته، فضلاً عن قراءة النص الأصلي المحذوف وذلك بالرجوع إلى نسخة قديمة من الكتاب نفسه كانت مهملة على أحد رفوف مكتبتي.

والواقع أنني لم أُولِ ذلك في البداية أهمية تذكر؛ فقد عزوته إلى

www.ibtesama.com

جانب شكلي بحت قد تكون محاولة (القيّم) في ملء الصفحات البيض هي التي أثارته لديّ ؛ ذلك لأنه بعمله ذاك بدا كأنه حاول تلافي ما حصل في نسخته من نقص . بيد أن تلك الفكرة سرعان ما اتخذتْ بمرور الأيام بُعداً آخر : فبفضل ملاحظة كنتُ قد دوّنتها في الدفتر تذكرت أنني وجدتُ مخطوط (الراووق) يخطر في ذهني ؛ فالنقص بدوره بقي سمة ملازمة له ، وقد يكون ذلك هو السبب الحقيقي في اتخاذ المخطوط بنيته المفتوحة التي بقيتْ تنمو حتى الوقت الحاضر!

في هذه الحالة ألا تبدو روايتي هذه أشبه بمحاولة أخرى لتلافي ذلك (النقص)؟ فما دام المتحف والمخطوط وجهين لتاريخ مدينة (الأسلاف) مكانياً وزمانياً ، ألستُ في سبيلي إذن لتلافي (النقص) الكامن فيهما عن طريق الكلمات؟

إنها فكرة لا أملك سوى الاعتراف بأنها أثارتني ، فسارعت إلى تدوينها في دفتر الملاحظات ، حتى إذا ما التقيت صديقي الشاعر في المدرسة بعد أيام – لتسلّم الراتب – كان لا بد لي من أن أطلعه عليها ، بيد أن الفرصة الملائمة لم تسنح وذلك بسبب تلك المجاملات التي يفرضها فراق أسابيع مرّت على بدء العطلة الصيفية – مبادلة الزملاء العناق والقبلات ، والقهقهة بانطلاق لأتفه طرفة تذكر ، والاستفسارات المعهودة عن كيفية ملء أوقات الفراغ التي لا تطاق – حتى إذا ما كنا في طريق العودة ، وقد اتخذنا موضعنا في الطبقة العليا من (الحافلة) – حيث أفضّل الجلوس عادة في ذلك الموضع منذ صباي ، متطلعاً من خلال الزجاجة الأمامية أو الجانبية إلى ما تمر به الحافلة ، هاجساً بي أطير فوق مستوى الشوارع! – سألني كالعادة عن عملي في الرواية ، فأخبرته بتلك الفكرة ، فعلّق وهو يتسلم من (المحصّل) الذي مر بنا البطاقتين :

www.ibtesama.com

- إنها فكرة (أدبية) أكثر من اللازم!

فأدرتُ وجهي متأمّلاً ، من خلف زجاج النافذة الجانبية ، واجهات المحلات التي نمر بها وهي تحاول عبثاً التحصّن من لهب الشمس بنشر مظلاتها الملونة .

قلتُ بعد صمت طويل :

- لقد سبق لك أن ذكرتَ ، ونحن جالسان في شرفة مقهى (أبو بلقيس) في الربيع المنصرم ، أن روايتي ستكون على شاكلة المتحف شكلاً ومضموناً ، وقد تكون فكرتي تلك عن (النقص) امتداداً لقولك ذاك ، فأين هي (أدبيتها) في هذه الحالة؟

فتساءل بجزع حقيقي ، وقد التفت نحوي محاولاً أن يتأملني من خلال عدستي نظارته عن قرب :

- أساءك كلامي؟

وحينما لم أجبه ، أردف وهو يربت على ركبتي بحنو :

- أنت آخر إنسان على هذا الكوكب أُفكر في الإساءة إليه .

وتابع بعد لحظة صمت :

- ما ذكرته في المقهى تلك الليلة جاء ضمن كلام تبادلناه ، و(كلام المثقفين) يحفل عادة بالكثير من الأفكار الأدبية ، أما فكرتك هذه فإنها من صميم نص إبداعي .

فقلتُ محاولاً طرح الفكرة نفسها بشكل آخر :

- أنا أشعر بوجود تماثل بيني وبين بدر في ما نقوم به ؛ فمثلما يحاول هو إيقاف تسرب الزمن عن طريق العيّنات الآثارية ، أُحاول أنا القيام بالعمل نفسه بوساطة الكلمات .

فأجابني إجابة محايدة حاول بها التخفيف من وقع كلامه السابق :

www.ibtesama.com

- ذلك صحيح ؛ فخلف كل عمل إبداعي تكمن عشبة جلجامش ، وحتى عبث بعض المراهقين بمقاعد هذه الحافلة - انظر - بكتابة أسمائهم مشفوعة بكلمة (للذكرى) هو ضرب من البحث عن الخلود .

وكان لكلمة (الخلود) وقع غريب على سمعي ؛ فلحظتها كنا محاطين بأمور كثيرة تبعث على اليأس لعل أكثرها جلاء تلك (الحافلة) التي أحالها الحر إلى فرن متنقل ، تجأر بحملها في عزّ الظهيرة في شوارع يكاد أسفلتها يغلي ، وثمة من يخرج منها في محطات الوقوف إلى لهيب الشمس التي لا ترحم ، وآخرون يستجيرون بجحيمها وقد أعمتهم قطرات العرق المتسربة إلى عيونهم فأخذوا يصدمون بعضهم بعضاً وهم يشقون سبيلهم نحو مقاعد دبقة ، يتهالكون عليها بإعياء ، باعثين من حولهم حرارة أجساد تبدو كأنها تلسع كالمكواة إن مُسّتْ عرضاً!

قلتُ وأنا أتجنب مبادلة صديقي النظر :

- ما أكثر ما ندين به للموت ؛ فلولاه لبقينا مطمئنين إلى وجودنا نجتر كالأبقار ما يقدم إلينا دون أن نرهق أنفسنا بالبحث عن الوسائل الكفيلة بإبقاء ذكر لنا من بعدنا . . . محض ذكر لا غير .

- ليس الموت وحده ؛ فقبله هناك الحياة التي تستحق أن تعاش : إذ إننا لا نملك عنها بديلاً .

فأجبته بشيء من عناد :

- بل نحن ندين للموت وحده . . الموت فقط!

لحظتها تنبهتُ إلى طرقات مطرقة كنتُ أحسب أن صداها تلاشى من ذاكرتي منذ أعوام طوال فإذا بها تعود فجأة لتتردد من جديد ، غارزة مع كل مسمار وجعاً في القلب ، وجدتني أستعيد ذكرى عصر يوم

www.ibtesama.com

شتوي بعيد بقي فيه بيتنا في نهاية الزقاق محط التقاء الجارات الرافلات بالسواد ، وهن يخترقن (الجاز) صامتات في طريقهن إلى (الليوان) رامقات بنظرات استياء أبي المنهمك في دق ألواح خشبية إلى عوارض لا أزال أتذكر أنها كانت فروع شجرة صفصاف ، في حين تترك أمي الغارقة بدورها في السواد (الليوان) بين فينة وأخرى ، وهي تدق كفاً بكف ، لتطلب من أبي هامسة أن يخفف قليلاً من طرقاته خوفاً من أن يتناهى وقعها إلى (سمعها)!

هكذا ، حين سمعتها في تلك اللحظة تشير إلى أختي بضمير الغائب آمنتُ بأن نهايتها باتت وشيكة . وكانت يومذاك قد دخلت طور الاحتضار بعد مرض طويل جعلها أسيرة فراشها محيلاً إياها على مهل إلى مومياء : تساقطت أسنانها ، وغارت عيناها في محجريهما ، وذبلت وجنتاها المتوردتان ، وخف شعرها الذي كان موضع فخرها ، ترجّله يومياً بمشطها الخشبي فيصل إلى منتصف ظهرها .

وكان أبي يكتفي بأن يجيبها بهمهمة مبهمة - بسبب قبضة مسامير مغروزة بين شفتيه - وبعدما يرمق شريط السماء الضيق الظاهر من خلال شناشيل البيوت المتقابلة بنظرة خشوع كان يواصل دق المسامير في تابوت ابنته!

وجدتُ تلك الذكرى تخطر لي بدقائقها . لكنني فضّلتُ الاحتفاظ بها لنفسي . قلت تاركاً جسدي يستسلم لارتجاج الحافلة الرتيب :

- لقد عرفتُ الموت منذ صغري ، عرفته في سن يغرق فيها الأطفال عادة بالألعاب والدمى ، فأيقنت بأنني سأموت يوماً ما وقبلي سيموت أبي وأمي وإخوتي الذين يكبرونني في العمر ؛ فقد اعتدت أن أرى أمي غارقة في ثياب حداد أزلي لم تتخل عنه قط ، تتربع عصر كل

www.ibtesama.com

يوم في (الليوان) ، فتشمّر ذيل فوطتها على وجهها ، مشاركة الحمائم الهادلة في (برج الطيور) في ترديد (عدودات) كانت تجعل يديّ تجمدان على ألعابي التي كنت أصنعها بنفسي - مستلهماً في ذلك عِرْق النجارة الذي ورثته عن أبي - فأصغي لحظات لذلك الصوت الذي كان يلخّص لي حزن الكون كله قبل أن أعمد إلى الهرب إلى الزقاق لأستطيع التنفس خوفاً من الاختناق!

تابعتُ بعد لحظات صمت :

- لكن الموت كان في انتظاري في الخارج أيضاً ؛ فذات يوم قدتُ صحبي الصغار إلى (وادي المر) حاملين معنا سنارات لصيد السمك . لكننا - كما هو متوقع ممن هو في عمرنا - سرعان ما تخلينا عن فكرة الصيد ؛ إذ ما كادت سناراتنا تخرج من الماء مرتين أو ثلاثاً عارية من الطعم حتى أصابنا الملل ، فطوينا الخيوط ، واجتزنا الجسر الحديدي نحو الجانب الشمالي للوادي لنهبط الجرف نحو خط المياه الصاخبة ، حيث يمتد شريط يضيق في أماكن ويتسع في أماكن ، تتشابك خلاله شجيرات الصفصاف والغرب والطرفاء والقصب ، سرنا على غير هدى مع انحدار المياه في تدفقها المهيب غرباً ، ترافقنا العمارات والقصور الشامخة على يميننا فوق الجرف ، وعلى يسارنا تنداح المياه نحو الجرف الجنوبي الذي تعلوه العمارات بدوره ، حيث النوارس لا تكف عن الترنيق في الهواء منقضّة على فرائسها التي سرعان ما تعلو بها وهي تلبط بين مناقيرها ، في حين يسحب الصيادون ، الجاثمون في قواربهم ، شباكهم . وكنا قد توغلنا إلى مسافة مديدة غرباً حتى أننا وصلنا إلى المقبرة القديمة ، تلك التي ضاقت عن استيعاب الموتى في عام الطاعون الأسود في زمن (مطلق) ، فأُهملت لتبنى في موقعها العمارات والأسواق ، لا شيء يدل على أنها كانت يوماً ما مقبرة اللهم إلا حين

www.ibtesama.com

تُرفع بوابات الجسر الحديدي للتخفيف من ضغط المياه في البحيرة ، فتنحت التيارات الحادة الجرف مسقطة كتلاً منه ، كاشفة عظام الموتى. في تلك البقعة ، وفي جوف نصف حفرة كان لا يزال يحتفظ بهيئة قبر ، رأيتُ منظراً لن أنساه أبداً : رأيتُ ، لصق الأرض الرطبة ، النصف العلوي لجمجمة وقد التصق قحفها بالأرض وثمة نبتة شوكية اخترقتها لتمد فروعها المتعرجة الشاحبة في تجويف الجمجمة . . . يا إلهي! . . . لقد صعقني ذلك المنظر ، وأصابني على الرغم من صغري باليأس ، وبقيتْ ذكراه ترافقني حتى الوقت الحاضر ، ومعها خطرتْ لي آلاف الأفكار عن صاحب تلك الجمجمة ؛ فسواء كانت تعود لرجل أو امرأة فمن المؤكد أن صاحبها كان قد تجاوز عمر الصبا بالتأكيد ، مرت به آلاف . . . بل ملايين العواطف الحزينة أو المفرحة . . . فكرتُ في لحظات الخوف وارتفاع نبضات قلب صاحب تلك الجمجمة وهو في انتظار حبيبته مثلاً . لقد مرت ملايين الأفكار برأسه خلال سنوات عمره ، فكّر في كل شيء باستثناء فكرة واحدة هي أن يأتي اليوم الذي ستنبت فيه نبتة شوكية وسط جمجمته . . . ذلك ما لم يخطر لصاحب تلك الجمجمة قط!!

وأنهيتُ كلامي قائلاً :

– منذ ذلك اليوم ، أو بالأحرى بعده بأعوام ؛ فحينها كنت لا أزال أصغر من أن تخطر لي مثل هذه الأمور ، وأنا أفكر – كلما طالعني وجهي في المرآة – بحتمية المصير نفسه الذي ستنتهي إليه جمجمتي يوماً ما!

ومرت بنا لحظات صمت تابعنا خلالها ، بنظرات شاردة ، الشوارع والأسواق والعمارات التي لم تكف عن التراجع إلى الوراء ، متجنبين أن يبادل أحدنا الآخر النظر . كنت قد فقدت الرغبة في الكلام ، تاركاً

www.ibtesama.com

للشاعر فرصة الإفصاح عما يشغله :

- أنا قد لا أقلّ عنك زهداً في الخلود ، لكن ذلك لا يمنعني من أن أقلب المسألة إلى وجهها الآخر ؛ إذ ما قيمة تلك الجمجمة التي نبتت فيها تلك النبتة؟ لا شيء . . فشأنها شأن التراب الذي كانت ملتصقة به . أما الحياة فأمر آخر . أحياناً تخطر لي فكرة غريبة : ترى كيف كانت الأمور تمضي بالأرض في دورانها حول نفسها ، والشمس تشرق عليها وتغيب ، والكواكب والنجوم في حركتها الأزلية ، لو لم يوجد كائن اسمه الإنسان؟ إنه سؤال يجعلني أرتجف ذهولاً . . . محال . . . كان لا بد لنا من أن نوجد بشكل من الأشكال ليصبح للكون معنى . . . . نعم . . . . فنحن الذين نمنح ما يحيط بنا من أشياء مدلولاتها ودوننا تغدو بحكم العدم بالرغم من وجودها!

ورفع كفه نحوي :

- أترى هاتين البطاقتين؟ أستطيع بوساطة واحدة منهما أن أختصر حياة كاملة ؛ فهي تذكّرني بغابة نائية وثمة شجرة معمّرة مرتْ عليها آلاف الأيام والليالي ، وتركت عليها الأحداث والأنواء والطيور والحيوانات آثارها على شكل شقوق وندوب وأعشاش مهجورة وجحور محفورة في خشبها وغصون مبتورة وما شاكل ذلك . وفجأة يتردد أزيز منشار كهربائي ، وتتساقط الأشجار واحدة إثر الأخرى ، ليحلّ دور تلك الشجرة ، فيميل رأسها أول ما يميل قبل أن تهوى بكتلتها الهائلة مهشمة أشجاراً أصغر منها . وتُحمل تلك الشجرة مع الأشجار المقطوعة الأخرى في شاحنة عملاقة تجأر وتنفث الدخان وهي تهبط جبلاً صاعدة آخر لتنتهي إلى مصنع يقع بالقرب من مدينة حيث تُقطع تلك الشجرة وتطحن وتعجن ، وتعامل كيميائياً ليصنع منها رزم ورق تعبأ في صناديق ، تشحن بدورها إلى مرفأ حيث يبدأ دور الرافعات العملاقة

www.ibtesama.com

في تحميل باخرة سرعان ما تشق المحيطات والبحار قبل أن تحط الرحال في مرفأ يبعد عن الأول آلاف المسافات ، فتبدأ رافعات أُخرى عملها مفرغة الباخرة ، وفي النهاية ستجد بعض الصناديق سبيلها إلى المطبعة التي ستطبع على بعض الأوراق شعار مديرية مصلحة نقل الركاب العامة والعبارات المعهودة ، لتقطع في النهاية بهذا الحجم .

ورمقني بنظرة منتبهة قبل أن يواصل كلامه :

– حسن . . . ما ذكرتُه ليس سوى نزر يسير من تاريخ هذه البطاقة ؛ إذ إنني تجاوزت عشرات الأمور بل المئات والآلاف . . . تجاوزت تاريخ المنشار الذي قطع تلك الشجرة ، والمعدن الذي صيغ منه ، ومن أي منجم جُلب ، والعصور الجيولوجية التي مرت قبل أن يتكون ذلك المعدن في باطن الأرض ، وسلسلة العمليات التي أوجدت بقية أجزاء ذلك المنشار ، كما تجاوزت دقائق أجزاء الشاحنة أو الباخرة أو الرافعات والمعامل التي أوجدتها ، فضلاً عن المحيطات والبحار التي مخرتها تلك الباخرة ، والعوالم المخفية تحت المياه بحيتانها وأسماكها وثعابينها ونباتاتها الطحلبية ، والسماء التي مرت تحتها الباخرة ، وما تحتوي من غيوم وطيور وأقمار صناعية وأضواء نجوم مضت آلاف الأعوام على اندثارها . . . أترى؟ هذا ما أخرج به من محض رصد الجانب الميكانيكي لهذه العملية . أما لو رصدنا الجانب البشري فحدّث ولا حرج : ذلك لأن عشرات الأيدي أسهمت في إيجاد هذه الورقة قبل أن تنتهي بيد (المحصّل) ومن ثم يدي أنا ، وما رافق هذا من فعاليات حياتية : جوع وعطش وألم ومرض ورغبة وكراهية وتعب وموت . . . إنها حياة كاملة تختصرها لي هذه البطاقة!

وتابع بعد لحظات صمت :

– قس على ذلك ما تحيط بنا من أشياء : زر قميصي ، وإطار

www.ibtesama.com

نظارتي ، وهذه (الحافلة) التي تحملنا نحو غايتنا ، والمحلات والبيوت والشوارع التي نمر بها ، وذلك الهوائي المنصوب فوق ذلك البيت - أو لعله ليس هوائياً ؛ فنظري لا يسعفني للتأكد من ذلك - وهذا الجسر الذي يؤدي بنا إلى الضفة الجنوبية لوادي المر .

وختم كلامه ونحن نتهيأ لمغادرة الحافلة :

- إن حياة على هذه الشاكلة ثراءً وعمقاً وتداخلاً لا تستدعي اليأس ؛ إنما تدفع المبدع إلى أن يغترف منها مادة إبداعه معوّلاً على موهبته في تجسيدها بطريقة استثنائية لا بطريقة ميكانيكية بليدة .

غادرنا (الحافلة) عند نهاية الخط حيث ملتقى أسواق منطقة (البداروة) ، واستدرنا يساراً مخترقين تلك الأزقة الضيقة في اتجاه الشرق . ومررنا بمقهى (أبو بلقيس) ، فأغرانا بابه المفتوح بالدخول لنستريح دقائق قبل أن يتوجه كل واحد منا إلى غايته : هو إلى بيته القريب من السدة ، وأنا إلى بيتي القائم جنوباً .

فكرت مع نفسي ، وأنا أطفئ عطشي بكأس ماء بارد تناولتها من الثلاجة ، بأن (أبو بلقيس) بدوره يبدو امتداداً لفكرتي (الأدبية) تلك ؛ فهو أيضاً يحاول ، عن طريق الألوان والخطوط ، تلافي ذلك (النقص) الذي شخّصه في المتحف .

كانت صالة المقهى خاوية ، تبدو اللوحات التي تزين جدرانها في وهج الظهيرة أقل إبهاماً وغموضاً . وكانت البلابل وحدها تبدد الصمت المخيّم وهي ترفرف في أقفاصها المعلقة ، متنقلة من جانب إلى جانب ، مبادلة بعضها بعضاً تغريداً بدا في منتهى العذوبة في تلك اللحظة . ونبهنا صفير وعاء الشاي في (الأوجاق) على أن (أبو بلقيس) لا شك في الجوار ، فخرجنا إلى الشرفة حيث طالعنا امتداد مياه (وادي المر) وأبنية الجرف الشمالي المستسلمة لشمس الظهيرة ، تعلوها بناية المتحف

www.ibtesama.com

عزلاء منفردة في زرقة سماء لا تتردد فيها خفقة جناح . وسرعان ما استطعنا أن نميّز ، وسط هدير الأمواج المتكسرة أسفل الشرفة ، دندنة (أبو بلقيس) بمقطع هذا اليوم من أغنيته :

- يا صيّاد السمجْ . . . صِدْ لي بنيّهْ!

وكان موفّقاً في اختياره لهذا المقطع ؛ إذ إنه كان يرتدي طقم ملابس الصيد التي كان قد عملها بنفسه : قميص وبنطال (جينز) قصير وقبعة رخوة معمولة من مخلفات قماش خيمة!

كان جالساً القرفصاء قرب خط المياه ، يتدلى من يده خيط سنارته ، في حين تتلاطم الأمواج حول قدميه العاريتين .

ناديناه بأعلى صوتينا ، فاكتفى بأن استدار رافعاً وجهه نحو الشرفة بوقار صياد محترف قرر الإجهاز على أسماك (وادي المر) كلها . وبعدما قام بإيماءة مبهمة شمل بها ملابسه وخيط سنارته والمياه المتدفقة غرباً ، أجابنا وقد عاد يراقب الخيط بانتباه :

- سمك . . . سأغديكما اليوم سمكاً . . . انتظراني!

وعاد يدندن :

- يا صيّاد السمجْ . . صِدْ لي بنيّهْ!

رجعنا إلى الصالة هاربين من لفح الشمس التي لا ترحم . وفي انتظار سمك (أبو بلقيس) جهزنا كوبي شاي .

- من يراه بملابس صيده العتيدة تلك يظن أن المرحومة أمه ولدته صياداً!

علّق الشاعر مع أول رشفة من شايه ، فصححتُ له قائلاً :

- أو أنها وهي حامل به توحّمت بالسمك!

وأضفتُ مغالباً ضحكي :

- لا شك أنه شاهد في الأيام الأخيرة فلماً ما عن صيد

www.ibtesama.com

السمك . . . أو لعله شاهد في التلفاز أحد أفلام (الكابتن كوستو) الوثائقية عن البحار . . . انظر . . .

وأشرتُ إلى موضع شبكة الصيد التي كانت تشكّل ديكوراً أزلياً في الصالة ؛ إذ يبدو أن (أبو بلقيس) قد نشرها في مياه الوادي غير مكتف بالسنارة وحدها!

لكنَّ (الفكرة الأدبية) نفسها راقت لبدر ؛ فحين ذكرتها له بعد أيام في غرفته في المتحف سكنتْ عيناه الزرقاوان لحظات ، تأملني خلالها بصمت ، سحب بعدها أحد أدراج مكتبه ليستل منه (كاسيتاً) حمله إليّ ليضعه إمامي على الطاولة وهو يقول :

- ها أنت ذا ترى أنني سجّلتُ لك القسم الثالث من (السيرة المطلقية) دون طلب منك ، لأبرهن لك بذلك على صدق فكرتك بأن أحدنا يكمل عمل الآخر!

وتابع وقد بقي منتصباً فوق رأسي :

- أنا رجل تعوزني القدرة على التعبير عن أفكاري بوساطة الكلمات ؛ ذلك لأن مهمتي لا تتخطى انتشال العينات الآثارية من عوادي الزمن ، والإطالة في عمرها أعواماً أُخرى .

وبرهن على قوله بأن دسّ كفيه تحت أنفي لأتأمل ندوبهما وآثار حروق المواد الكيمياوية عليهما ، وصلابة بشرتهما بفعل طول تعاملهما مع القطع الحجرية .

- لكنني أفهمك تماماً . . . وأدرك أهمية ما أنت مقبل على تأليفه ، ولا أكتمك أن حماستي لروايتك القادمة لا تقل عن تلك الحماسة التي كنت أوليها لمشروع شبيب في تحقيق المخطوط . . . وأعذرني لو كشفتُ لك سراً ؛ فقد أوصيت موظفي المتحف وموظفاته ألا يألوا جهداً لمساعدتك متى ما وجدوك في حاجة إلى مساعدة .

www.ibtesama.com

فاختلطت أصواتنا ببعضها في موجة من مشاعر عاطفية فجّرها الموقف ، حتى إذا ما أفرغنا معيننا من الكلمات المناسبة عاد بدر إلى المحور الذي أثار اهتمامه :

– أنا أعلم بمدى انشغالك بروايتك الجديدة ، وذلك ما دفعني إلى تسجيل القسم الثالث في انتظار أن تطلبه مني في الوقت المناسب ، كما أُطمئنك بأنني كلفت أحد الموظفين بأن يجمع لك تلك الأوراق التي يحتمل أن يكون بعضها مكتوباً بخط (السيد نور) ، موصياً إياه بتصويرها كلها بعد ترميمها وصيانتها ، بل أنا على استعداد – حين تنهي روايتك – للتحايل على بعض الأصول الرسمية المتبعة فأصدرها ضمن منشورات المتحف برغم كونها عملاً إبداعياً!

هذه الفكرة أحيتْ في ذهني بومضة خاطفة تاريخ نمو (الراووق) وتطوره الغريب من محض حكايات تروى على نغمات الرباب في المضايف والدواوين إلى ضرب من كتابة عرفانية محاطة بالحظر والأسرار ، مروراً بالإيغال في الشؤون الباطنية مع ازدياد سطوة المشيخة على البواشق – سيمياء ، حساب جمّل ، أوفاق ، جفر – وصولاً إلى هوامش وأسطر مقتبسة كان (ذاكر القيّم) يدوّنها على أوراق المخطوط كيفما اتفق ، ومن ثم محاولة شبيب الجبارة في تحقيق (الراووق) ، انتهاءً بي أنا الذي أحاول استثمار تلك الأمور مجتمعة لكتابة رواية يحاول بدر تحفيزي على الإسراع في إنجازها بإغرائي باحتمال أن يطبعها ضمن منشورات المتحف!

نهضتُ ملتقطاً (الكاسيت) ، وقلتُ وأنا أصافح (بدر) مودعاً :

– أنت تملك أفكاراً رائعة يا أستاذ بدر ، فدع جانباً عدم قدرتك على التعبير عنها بالكلمات ؛ فقد أثريتني اللحظة بأفكار لا تخطر على بال!

www.ibtesama.com

صعدتُ إلى المكتبة - كما هو دأبي كلما زرتُ المتحف - ففوجئتُ بغياب ورقاء من خلف الحاجز الخشبي . كانت تقف في موضعها موظفة أخرى أجابتني بجفاء حين سألتها عنها :

- إنها في إجازة .

حينها فقط تذكرتُ آخر زيارة لي إلى المكتبة ، وكيف أن ورقاء أخبرتني بأنها بصدد الاستمتاع بإجازتها السنوية هرباً من حر الصيف الذي لا يطاق .

- ومتى تنتهي إجازتها وتعود؟

- وما أدراني؟ لعلها لا تعود!

عادت تجيبني بطريقتها الفظّة ، فتأملتها لحظات حائراً ، فانصرفتْ عني بوجهها المثقل بقناع من الأصباغ ، لتنهمك في تقليب أوراق السجل . وفوجئتُ بصوت موظفة أخرى ، لم أكن قد تنبهتُ لها ، تجيبني من خلف الطرف الآخر للحاجز الخشبي :

- لعل أموراً أهم تشغلها عن التفكير في العودة!

فبادلتها موظفة السجل نظرة متواطئة ، وتمتمت على أثرها وهي تبتسم :

- أمور خاصة تتعلق بالمستقبل!

وبقيتُ أتنقل بين الموظفتين بنظراتي الحيرى ، محاولاً أن أفهم سر استيائهما مني ، حينها فقط تنبهتُ إلى أمور عديدة كان انشغالي بورقاء يمنعني عن ملاحظتها في الماضي : فثمة موظفون آخرون كانوا يدخلون باب مخازن الكتب ويخرجون منه ، وشباب - لعلهم طلاب جامعيون - منهمكون في النبش في أدراج البطاقات ، فضلاً عن موظف جالس خلف مكتب قرب باب الخروج . وغادر قاعة المطالعة رجل بدا شكله مألوفاً لديّ حياني بإيماءة من رأسه ، ليسلّم الكتاب

www.ibtesama.com

الذي كان يحمله إلى الموظفة قبل أن يخرج .

تلك كانت أول مرة أتنبه فيها إلى مثل هذه الأمور ؛ ذلك لأنني اعتدتُ من قبل أن أتجه من فوري نحو ورقاء لأبادرها بإحدى (حرشاتي) المهذبة التي إن كانت قد فاتت الآخرين فمن المؤكد أنها لم تفت تينك الموظفتين!

لم أكد أغادر المكتبة وأشرع في هبوط أول سلّم حتى عادت كلمات تينك الموظفتين تتردد في ذهني .

ما معنى قول إحداهما إن ورقاء قد لا تعود؟ وتأكيد الأخرى أن أموراً أهم تشغلها عن التفكير في العودة؟ ثم . . . . بماذا أجابت الأولى؟ نعم . . تذكرت . . . (أمور خاصة تتعلق بالمستقبل)!

وتوقفتُ في منتصف السلّم .

لعل ورقاء خُطبتْ! . . . أو لعلها لم تحصل على إجازتها إلا لكي تتزوج!

ورقاء متزوجة؟

وتخيلتني أصادفها ذات يوم في أحد شوارع المدينة وهي متعلقة بذراع رجل غيري!

وفكرتُ بالعودة إلى المكتبة لأستنطق الموظفتين عن حقيقة الأمر ، وسر غموض كلامهما الكريه!

لكنني سرعان ما أدركتُ عبث ذلك ؛ فمن المؤكد أنني لن أخرج منهما بطائل ؛ فطريقة تعاملهما معي برهنت على أنهما أصدرتا حكمهما عليّ غيابياً ، وقررتا إدانتي لا لشيء سوى كوني قد فضّلتُ أخرى عليهما!

وعلى كل حال سأبقى أنا الملوم في الالتباس الحاصل ؛ ذلك لأن علاقتي بورقاء بقيتْ غير جادة ، لا تكاد تخطر لي إلا حين أكون في

www.ibtesama.com

زيارة المتحف ، لتراوح بعدها في موضعها أو في أفضل الأحوال لتنمو وتتطور بنمو فصول هذه الرواية وتطورها وكأنها غدت أشبه بلازمة تتكرر بين فصل وآخر في انتظار الوصول إلى خاتمة مقنعة!

ووفرتِ الرواية لي العزاء الوحيد عن الهواجس التي أثارها غياب ورقاء ؛ فانشغلتُ بها على امتداد أسابيع استقطب انتباهي خلالها ذلك الاقتراح الذي طرحه عليّ بدر بـ(التحايل على بعض الأصول الرسمية المتبعة ، وإصدار روايتي ضمن منشورات المتحف) . تُرى أتشكّل تلك العبارة صيغة معاصرة لمختلف الإغراءات والأعذار والحجج التي تدين لها هذه الرواية منذ بدأتْ مع أول نغمة أطلقها (عبد الله البصير) من ربابه في سماء (ديرة الهشيمة) حتى الوقت الحاضر؟!

لقد كان عذر ذلك الراوي الأعمى في تكريس حياته لتجميع حكايات القسم الأول من السيرة أن ثمة من ندبه لذلك الأمر ، أما (مدلول اليتيم) فقد تحجج بأنه مدفوع بقوى خفية ألهمته (الهمّة) التي كفّلتْ له القيام بما قام به وهو في غيب من نفسه . وعذر (عذيب العاشق) كان أن فتحه سبق سلوكه الطريق ؛ فتحوّل من لص إلى متصوّف نذر نفسه لإكمال السيرة . وكذلك الأمر مع بقية من أسهم في الإضافة إلى (الراووق) انتهاءً بي أنا : فما الذي يدفعني إلى تكريس معظم أيامي لإنجاز هذه الرواية غير أن أجعل لحياتي معنى؟!

لقد مضى كل شيء إلى مصيره المحتوم - كما سأمضي أنا بدوري يوماً ما - مات من مات من أفراد الأسرة ، وهاجر من هاجر ، وتلاشت أصداء أصواتهم في هذا البيت ، كأنهم ما وجدوا تحت سقفه قط ، لم يبقَ منهم سوى صور معلقة على جدران (الليوان) تحت رحمة ساعة جدارية لا تكف عن إرسال تكتكاتها الرتيبة القاتلة .

ذلك هو مصير أسرة واحدة ، كما هو مصير أسر ، فمصير مدينة

www.ibtesama.com

(الأسلاف) ، بل العالم كله ، فهل أملك سوى الاستنجاد بقلمي هذا للإبقاء على ما يمكن الإبقاء عليه بوساطة الكلمات ، ليس طمعاً في الخلود ، بل لأجد مسوّغاً لوجودي؟

وهكذا ؛ وجدتُ في العطلة الصيفية خير فرصة للاعتكاف في البيت من أجل تفريغ (الكاسيتات) الثلاثة : فبعد حصولي على الفصلين الخاصين بـ(شبيب طاهر الغياث) و(ذاكر القيّم) لم يبق أمامي سوى تفريغ تلك (الكاسيتات) لأُجنّد بعدها جهودي كلها للعثور على ما يمكن العثور عليه من أوراق (السيد نور) ، وهي مهمة لم أدرك صعوبتها من قبل ؛ إذ إن الإصغاء أسابيع متلاحقة إلى أحداث وحكايات لي علم مسبق بها بدا غاية في الصعوبة والإرهاق : فمن حين إلى حين كان عليّ إيقاف جهاز التسجيل ، وإعادة الشريط أكثر من مرة إلى الوراء ، لا من أجل شيء سوى التأكد من صحة لفظة مفردة ضاعت في ضجة أنغام رباب (القصخون) .

كنت قد تحولت بكل كياني إلى حاسة سمع ؛ لا عمل لي سوى إرهاف أذني محاولاً أن ألاحق بقلمي صوت ذلك (القصخون) المحترف وهو ينفعل بما يرويه ، ويصيح ويغضب ، ويرقّ صوته إلى درجة البكاء ، وينفجر مقهقهاً مثل ممثل عريق تماماً!

وحينما أصل إلى درجة الإرهاق كنت أُسقط القلم على الورقة لأهرع إلى السرير القريب من أجل أخذ قسط من الراحة . لكنني كنت أحس بطنين ذلك الصوت يدوّي داخل رأسي ، بل كنت أسمعه وهو يلاحقني في أحلامي ، محرّكاً وتر قوسه على أوتار ربابته التي كان يصدر عنها أحياناً - عوضاً عن النغمات الشجية المألوفة - رنين مزعج يتلاحق بإلحاح ، فكنت أجفل من نومي ، فإذا بالهاتف المهمل على الطاولة القريبة يرسل رنينه منذ لحظات ؛ فكنت أُسارع إلى التقاط

www.ibtesama.com

السماعة لأفاجأ بلهاث تلك الأنثى المجهولة يتلاحق وسط همسها وهي تبادرني بتحية المساء ، فكنت أُشفق على أذني المسكينتين اللتين كُتب عليهما أن تؤديا مهمتهما مضاعفة!

وكانت تلك المرأة تتصل بي في الغالب بعد انتصاف الليل ، متخلصة بذلك من رقابة أسرتها كما يبدو ؛ فقد كانت تظل تتكلم هامسة لتسارع إلى إطباق السماعة حال ارتفاع صوت ما في الطرف الآخر من الخط!

كانت بدايتها معي محيِّرة ؛ فبعدما استطعتُ بإلحاح إقناعها بأن تبادلني كلمات معدودة تكاد تقتصر على تحية المساء ، اعتادت – لخجلها – أن تعوّل على الأغاني لتنيب عنها في الإفصاح عن مشاعرها نحوي ؛ ذلك لأنها لم تترك أغنية عاطفية إلا أسمعتني إياها ، حتى بتُّ على معرفة قد تضاهي معرفة مراهقي مدينة (الأسلاف) بآخر الأغاني الشائعة ، هذه الأغاني التي تتميز بموسيقى صاخبة ذات إيقاعات سريعة تجعل المرء يحرك أعضاءه في رقصة مرتجلة لا يستطيع لها منعاً!

وفي الواقع أن ما كانت بي إليه حاجة في تلك الليالي هو النوم وليس (هز الكتفين) في سريري مما اضطرني إلى أن أعمد إلى رفع سماعة الهاتف . لكنني سرعان ما كنت أعيدها إلى موضعها ؛ فكيف بي أن أجد إلى النوم سبيلاً وثمة شعور يملؤني بوجود أنثى في الطرف الآخر من الخط تتحين فرصة الإفلات من رقابة أسرتها لتتصل بي؟

ولم أدرِ ما الذي ألهمني في إحدى الليالي إلى أن أرجوها أن تكف عن اللعب بمشاعري ؛ فأنا رجل مرهق لدي مشاغل لا تُعد ولا تحصى ، ففوجئت بها ترد عليّ هامسة :

– أعلم أنك مشغول بكتاباتك!

www.ibtesama.com

أغلقتْ بعدها السماعة من فورها تاركة إياي في دهشة من أمرها ، حتى إذا ما اتصلتْ بي في الليلة التالية سارعتُ أسألها :

- وما أدراك بانشغالي بكتاباتي؟

وبعد مضي لحظات سمعتُ همسها وسط أنفاسها اللاهثة :

- وكيف لا أعلم وأنا أشعر بأنني إحدى شخصياتك الروائية؟

- إحدى شخصياتي الروائية؟

سألتها مستنكراً شاعراً باللعبة وقد تجاوزت حدودها ، فكان جوابها إغلاق السماعة . وانقطعت عن الاتصال أسبوعاً كاملاً كنت لا أنام خلاله - عقب إنهاء عملي في تفريغ مضمون (الكاسيتات) الثلاثة - ألا بعدما أضع جهاز الهاتف في متناول يدي ، حتى إذا ما جفلت من نومي في إحدى الليالي على الرنين المنتظر سارعتُ إلى اختطاف السماعة لأهمس فيها من فوري :

- لِمَ انقطعتِ عن الاتصال هذه المدة كلها؟

ففوجئتُ بصوت الشاعر يسألني من الطرف الآخر عما دهاني لأخاطبه بصيغة أنثوية؟

فأنقذتُ الموقف بافتعال الغضب سائلاً إياه بجفاء :

- وهل هذا وقت مناسب للاتصال هاتفياً؟

فأجابني وقد تضاعفت دهشته :

- ومتى كانت بيننا أوقات مناسبة للاتصالات الهاتفية؟

وهكذا أنهينا هذا الأمر بضحكة مشتركة .

لكن المرأة المجهولة عاودت الاتصال أخيراً . وكانت هي التي ابتدرتني بالكلام ؛ قالت بهمسها المعهود :

- أتدري بأنني لم أتصل بك إلا بعدما أعدتُ قراءة رواياتك كلها؟

www.ibtesama.com

فسألتها مندهشاً :

- أعدتِ قراءتها كلها خلال هذه الأيام المعدودة؟ يا لك من معجبة لا تُضارع!

فهذلت بضحكة رقيقة قبل أن تقول :

- ألم أخبرك من قبل بشعوري بأنني إحدى شخصياتك الروائية؟

وأضافت بعد وقفة قصيرة :

- اسمع . . . لم لا تدخلني في روايتك الجديدة؟

- أتعلمين بأنني أكتب رواية جديدة؟

- وهل تظن أن العجوز (بدر فرهود الطارش) هو الوحيد الذي يعلم بهذا الأمر؟

تساءلتْ ضاحكة ، فغالبتُ دهشتي بصعوبة لأسالها بدوري ماحكاً :

- وكيف لي أن أجعلك إحدى شخصيات روايتي الجديدة وأنا لم أركِ بعد؟

لكنها لم تنهزم ؛ فقد أجابتني من فورها :

- ستراني في الوقت المناسب .

وأضافتْ قبل أن تطبق السماعة :

- ثقْ بأن روايتك لن تكتمل دوني!

حتى إذا ما عاودتِ الاتصال في الليلة التالية بادرتها أنا بالكلام هذه المرة :

- يبدو أنك بدورك تؤمنين بوهم الخلود .

- وكيف ذلك؟

- بأن تصبحي إحدى شخصيات روايتي؟

- يا للغرور! . . . ومن أوهمك بأن روايتك ستُخلّد؟

www.ibtesama.com

- أنا لا أؤمن بالخلود ؛ فقد قلتُ لك (وهم) الخلود . وعلى كل حال من حقي أن أسألك عن دافعك لتصبحي إحدى شخصيات روايتي؟

فأجابتني إجابة ذكّرتني بكلام صديقي الشاعر :

- ذلك نزوع أزلي جُبل عليه الإنسان ؛ أما ترى كيف يخط الأطفال أسماءهم على الأرصفة الإسمنتية التي صُبّت حديثاً؟ أو يحفرونها على جذوع الأشجار؟

- حسن . . ولكن صارحيني : في أيهما تتمنين إدخال اسمك؟ في مخطوط (الراووق)؟ أم في روايتي؟

فأجابتني بذكاء مثقفة :

- في الاثنين معاً ؛ ففي اعتقادي أن روايتك القادمة ستستوعب نص (الراووق)!

فخامرني شك مفاجئ عمّن تكون تلك المرأة ؛ فسألتها بعد لحظة تردد محاولاً استدراجها بحذر :

- خبريني كيف تريدين أن أدخل اسمك في روايتي وأنا لا أزال أجهل ذلك الاسم؟

- إلهام!

نطقت باسمها قبل أن تطبق السماعة .

هكذا قضيتُ أشهر العطلة في تفريغ مضمون (الكاسيتات) والتحدث إلى إلهام ، لأُنهي في آخر الأمر تفريغ (الكاسيت) الثالث الخاص بذلك القسم الذي ألّفه (عذيب العاشق) .

www.ibtesama.com

www.ibtesama.com

إشراق الذات

أخبرني (شبيب طاهر الغياث) في ما كتب به إليّ قال : وجدتُ بخط (ذاكر القيّم) عن بعض القيّمين على المزار ، عن (السيد نور) قال : سمعتُ (عذيب العاشق) قال :

لولا العشق لما جاز لي النطق في هذا الأمر ؛ إذ أنّى لمريد مثلي سبق فتحُه سلوكَه الإقدام على أمر تصدى له صوفيان محققان تقدماني في سلوك الطريق؟

لم تكن (السيرة) تعنيني يوماً ما اللهم إلا حين تغدو مصدر رزق لي ؛ أترصد من بعيد المتحلقين حول الراوي ، لأتأكد من وجود الرجل المنشود ضمن حلقة المستمعين ؛ فأسطو على حلاله مطمئن البال واثقاً من أنني بمنجاة من الخطر مادام ذلك الرباب يواصل إرسال نغماته الشجية في هدأة الليل ؛ إذ كنت أتخذ سبيلي ثانية نحو حلقة المستمعين إلى الراوي ، بعد الانتهاء من إنجاز المهمة ، إبعاداً للشبهات عني ، فأجلس جنب ضحيتي ، مشبعاً رغبتي الخبيثة في التلذذ بمآسي ضحاياي!

ذلك كان دأبي على مدى أعوام شبابي ؛ غرّتني فتوتي وجسارتي على اختطاف (رزقي) بالوسيلة الوحيدة التي كنتُ أجيدها : وهي السلب والنهب .

وليتني اكتفيتُ بذلك : فذات يوم وأنا أمر بـ(الشريعة) نادتني

www.ibtesama.com

صبية من وسط صويحباتها المنهمكات في الغسل ، طالبة مني مساعدتها في حمل قربتها ، فعرجتُ نحوها ، وحمّلتها القربة ، فمنحتني نظرة شكر من عينين سوداوين هالتني سعتهما ، فلم أستطع الامتناع عن تعقبها منكس الرأس ، متتبعاً بشرود أثر القطرات الراشحة من القربة وقد ارتسمت على التراب . وهناك قرب باب بيتها استدارت بحملها نحوي ، مانحة إياي نظرة دهشة قبل أن تدخل .

منذ ذلك اليوم دأبتُ على ذرع تلك المسافة التي تفصل ذلك البيت عن (الشريعة) أكثر من مرة في اليوم ، حتى إذا ما خرجت الصبيّة تعقبتها دون خجل ، مطمئناً إلى أن وسامتي ستكفل لي بالبقية!

كنت أرابط قرب (الشريعة) ، مبادلاً الفتاة النظر غير آبه لهمسات صويحباتها وضحكاتهن الكظيمة وهن ماضيات في تجلية قدورهن النحاسية البائسة .

هكذا تعاقبتْ شهور ما كففتُ خلالها عن ملاحقتها إلا حينما كنتُ بصدد القيام بعملية سطو خارج (ديرة الهشيمة) ما أكاد أنتهي منها ، وأسارع إلى تعليق بندقيتي على موضعها المعهود في البيت ، حتى أندفع خارجاً نحو (الشريعة) .

وكانت اللعبة قد راقتِ الصبيّة أيضاً ؛ فحينما كانت تلمحني من باب بيتها أو من فوق السطح ، وأنا أحوم هناك كالتائه كانت تسارع إلى الخروج ، والقربة الفارغة تتأرجح إلى جانبها ، مانحة إياي إحدى نظراتها الخاطفة لتتهادى بعدها أمامي مثل طائر الحجل .

وكان أمرنا قد شاع في الديرة وبات أخوة الصبيّة يلاحقونني ، حينما يصادفونني في الجوار ، بنظرات تهديد ووعيد تنذر بالشر ، لكنها كانت – عوضاً عن أن تردعني – تزيدني تحدياً وعناداً ، حتى أنني

www.ibtesama.com

تجرأتُ ، في أحد الأيام ، على الإمساك بزند الصبيّة عند مرورنا بأول منعطف يحجبنا عن باب بيتها ، فجمدت في موضعها مصعوقة ، متفرسة بي بعينين كادتا تورداني حتفي . واكتفت بأن همست من بين أسنانها :

- ألا تخجل؟

فتراختْ قبضتي عنها ، فتخطتني مواصلة سيرها نحو (الشريعة) ، في حين بقيتُ أنا واقفاً في موضعي لا أريم حراكاً ، أشعر بالشمس تلسع جانب وجهي بشكل لا يطاق . ولم أدرِ إلى متى كنت سأظل متسمّراً في موضعي ذاك لولا رؤيتي إياها وهي تعود من (الشريعة) بالقربة الممتلئة لتقول لحظة مرورها بي ، وهي تخفق بجفنيها خفراً :

- البيوت تُطرق من أبوابها يا . . . عذيب!

وكادت ساقاي تعجزان عن حملي لهول المفاجأة ، وطغى وجيب قلبي في سمعي على كل صوت . لحظتها ظننتُ أنني في حلم لولا تنبهي إلى نفسي مدركاً أن وقوفي قد طال بشكل لافت للنظر ؛ إذ كيف لا يثير الشبهات لص مثلي يتطلع بولَه إلى قطرات ماء رقّشت التراب ببللها؟

مساء ذلك اليوم - عقب ساعات قضيتها نهباً للشك من موافقة أسرة محبوبتي باقتران اسم ابنتهم النظيف مثل رغيف خبز باسمي الملطخ - انتهيت إلى أنه من الجبن الإحجام عن المجازفة في الاستجابة لطلبها ، فدفعتُ أهلي بما يشبه الإكراه للتوجه إلى ذلك البيت الذي كادت قدماي تحفران حوله أثر سيري . ولكن النتيجة كانت كما توقعتُ رفضاً مشفوعاً بأسباب معروفة كان في وسعهم غضّ الطرف عنها لولا خوفهم من أن تؤوّل موافقتهم التأويل المتوقع : وهو أنهم اضطروا إلى الموافقة ستراً لعار ابنتهم!

www.ibtesama.com

وهكذا شاعتْ قصة حبي على كل لسان، حتى أنني لُقّبتُ بـ(العاشق)، هذا اللقب الذي طمأنني إلى أن محبوبتي - برغم أهلها - ستبقى لي؛ فأنّى لمخلوق التقدم من صبيّة اقترن اسمها باسم رجل؟!

وأخذتُ أمنّي النفس بأن أهلها سيوافقون في آخر الأمر. وازددت وثوقاً من أمنيتي تلك حين حجروا عليها، ومنعوها من تخطي العتبة؛ إذ إلى متى يستمر الحجر على فتاة في ديرة ما تكاد الطفلة تفطم فيها حتى يغدو أمر تزويجها شغل أهلها الشاغل؟

لكن الزمن كشف لي أن أهلها كانوا بدورهم يفكرون ويضعون الخطط لانتشال ابنتهم من براثن لص مثلي عوّل على وسامته في الإيقاع بها: فذات يوم صحوتُ من غفلتي على ضجّة نقر على الدفوف، تتخللها أصوات زغاريد، تنطلق من بيت محبوبتي، ومعها شاع أمر زفافها إلى قريب لها كان يسكن البلدة!

واندفعتُ خارجاً من البيت كالمجنون لأذرع الأزقة يطاردني ذلك النقر اللعين. كنتُ أترصّد بعيني نسر كل من أمرّ به، عساني أن ألمح بادرة شماتة لأفرغ غيظي. لكن الجميع كانوا يتجنبون مبادلتي النظر، بيد أنهم في صمتهم كانوا يبدون كأنهم يعيشون أسعد لحظاتهم، فلم أملك غير أن أقفل عائداً إلى بيتي، يتعقبني النقر والزغاريد، فأخذت أناطح الجدران برأسي وثمة سؤال وحيد يتردد في ذهني بإلحاح: ما العمل؟

بغتة وقع بصري على بندقيتي المعلقة في موضعها المعهود، تلك البندقية التي رافقتني نصف عمري بعدما سبق أن تداولتها الأيدي عشرات الأعوام، إذ إنها كانت واحدة من مخلفات واقعة (دكة المدفع).

اختطفتها من فوري، وألقمتها البارود والرصاص. وبعدما تأكدتُ

www.ibtesama.com

من أن الليل كان قد هبط خرجتُ وقد تلثّمتُ بكوفيتي ، متخذاً سبيلي نحو ضجة المحتفين بالزفاف .

حمتُ طويلاً حول الخيمة التي كانت قد نُصبتْ للاحتفال بالعرس ، متستراً بالظلام . ولاح لي أكثر من مرة العريس الرافل في ثوبه الأبيض ، والطاقية البيضاء تعلو رأسه ، وقد كشفتْ أضواء المصابيح الزيتية والنيران المتراقصة تحت قدور العشاء أنه لا يقل عني وسامة . حينها فقط تذكرتُه : إذ سبق لي أن لمحته مرتين أو ثلاثاً يُقدم إلى الديرة لزيارة بيت محبوبتي .

ورفعتُ بندقيتي أكثر من مرة مصوباً إياها نحوه ، لكنني سرعان ما كنت أرتد بها خوفاً من أن أصيب غيره من ذلك الحشد الذي لم يكن يكف عن التحرك هنا وهناك . ولكن الفرصة المواتية لاحت أخيراً ؛ فقد استجاب العريس لإلحاح الحشد الذي تحلق حوله فأخذ يرقص وسطهم ملوحاً بمنديل أبيض زاد من كراهيتي له ؛ فأفرغتُ غيظي بأن ضغطتُ على الزناد بكل ما في سبابتي من عنف و . . . .

غفرانك يا مولاي . . تراها أكانت محض مصادفة؟ أم رعايتك أنت تلك التي جعلت البندقية عوضاً من أن تردي غريمي تنفجر بين يديّ؟

لم أدرك في أول الأمر ما حصل ؛ فذات يوم عاد لي وعيي لحظات خيّل إليّ أنني أضطجع على فراشي عاجزاً عن الحركة . أما لماذا؟ فهذا ما لم أجد له جواباً ؛ ذلك لأنني فقدت الوعي من جديد لتلاحقني كوابيس رهيبة كانت تتداخل مع بعضها وهي تزداد التباساً وغموضاً . وكنت قد فقدت شعوري بتعاقب الأيام : فقد كنت أنتبه أحياناً فألمح وجوهاً تحنو عليّ ، وأيدي تجس جبيني أو نبضي في أوقات مختلفة : ليلاً إذ ثمة قنديل مضاء في مواجهتي يعشي عيني بومضه ، أو نهاراً

www.ibtesama.com

وثمة حزمة من ضوء الشمس ترقطها ذرات غبار تمرق إلى الداخل من إحدى الكوى . وأخذ سمعي يلتقط كلمات عن حمّى وعن استحالة شفائي وعن قرب دخولي طور الاحتضار ، كلمات رهيبة كنت أهرب منها إلى كوابيسي التي كانت تزداد وطأة ، حتى حلّ وقت لم أدرِ أكان ليلاً أم نهاراً سمعتُ فيه نداءً يطرق سمعي :

– يا (عذيب العاشق) .

فأجبته من فوري :

– نعم .

فعاد الصوت يقول :

– فلينعم الحق عليك بالخير والبركة .

حينها شممتُ رائحة مسك نفّاذة ، ومعها تبدد الظلام عن ناظري ؛ فإذا بي أجدني واقفاً في كوخ (عبد الله البصير) ، ذلك الكوخ الذي لم يقربه مخلوق منذ موت (مدلول اليتيم) . وكان قد أنجز القسم الثاني من (السيرة) تاركاً وراءه الرباب رمزاً يتحدى كل من يحاول التصدي لإكمال الأحداث . ولكن من الذي كان يفكر بهذا الأمر؟ فبإزاء المصائب والكوارث المتعاقبة غدت (السيرة) أمراً من أمور الماضي ، كادت تدخل طور النسيان ، لا يكاد (البواشق) يتذكرون منها غير نتف تتعلق بـ(مطلق) وأطوار تحولاته بين قطبي الشر والخير ، وأعوام الطاعون الأسود والطوفان وقصة عشق طارش لـفتنة . وكان من المؤكد أن مصير تلك النتف بدورها سيكون النسيان لولا ذلك الحلم الذي رأيتني فيه واقفاً في ذلك الكوخ ، و(عبد الله البصير) على يميني و(مدلول اليتيم) على شمالي ، وهما ينزعان عني ثوبي ، لا يسبق أحدهما الآخر ، إنما يقومان بالعمل بانسجام وتناسق مثلما تعمل يدا شخص واحد . وألبساني ثوباً أبيض يعبق برائحة المسك ، وتشابكت

www.ibtesama.com

راحتاهما حول كوز مدّاه لي لأشربه ، فإذا به يطفح باللبن . بعدها أشارا لي نحو الرباب القابع في كوته ، هاتفين بي بصوت واحد :

- امضِ نحو بغيتك!

حينها صحوتُ من حلمي على أصوات المحيطين بفراشي وهم يبشّرون بعضهم بعضاً بنجاتي ؛ فقد بارحتني الحمى ، وأخذ جبيني ينضح بالعرق!

منذ ذلك اليوم غدت (السيرة) شغلي الشاغل : أستعيد تفاصيلها وأنا مضطجع على فراش النقاهة ، غير آبه للجروح والحروق التي شوهت عنقي ووجهي ؛ إذ إن ثمة همّة سكنت قلبي كانت تدفعني لتذكر أحداث السيرة ، حتى إذا ما بات في وسعي الوقوف على قدمي بادرتُ في التوجه إلى كوخ (مدلول اليتيم) حيث أصلحت من شأن الرباب . وعاد الوتر الأسود يمس الوتر الأبيض ، وترددت النغمات مجدداً في سماء الديرة ومعها أخذتُ أُردد أحداث القسمين السالفين من (السيرة) مترسماً سبيلي نحو أحداث القسم الثالث ، تاركاً ذلك العليم بدقائق الأحداث وأسرارها ، المستغني عنا نحن البشر الفانين ، يأخذ بيدي مثبتاً الهمّة في قلبي ، محيلاً رقيقة من روحه لتحل بي - أنا المفتقر إليه - ملهماً إياي بمعرفته اللدنية ؛ فإذا بي أشرع في إنشاء الأحداث بفطنة ثلاثة رجال (عبد الله البصير) و(مدول اليتيم) وأنا ، وإذا بالبندقية التي انفجرت بين يدي ، والتي كانت السبب في أن يسبق فتحي سلوكي ، إذا بها تلهمني بمفتتح القسم الثالث من (السيرة) :

وسط دخان البارود ودويّ الطلقات الذي طغى على كل صوت في (ديرة الهشيمة) لم يدرك (مطلق) إلا متأخراً أن ابنه البكر طارش كان قد أعدى إخوته الآخرين بمرض اسمه : الحب!

www.ibtesama.com

قال الراوي : وكان (مطلق) معذوراً في جهله ذاك ؛ فقد تحقق ما حلم به طويلاً ؛ فذياب لم يكتفِ بتزويده وحده بالبندقية ، بل زوّد أبناءه أيضا بالبنادق ، فبات في وسع (مطلق) التخلي عن وعده القديم بالامتناع عن حلاقة شعر رأسه ، أو تهذيب لحيته ، وعدم التضمخ بالطيب ؛ فأخذ يحرص على الاعتناء بزينته مبالغاً في وضع (الخضيرة) ، حتى أضحى الآخرون يستدلون بذلك العطر عليه : ما يكادون يشمون أريجه النفاذ حتى يخطر (مطلق) في أذهانهم تلقائياً ، مخمنين وجوده في الجوار!

وكان قد بات من المألوف مشاهدة (مطلق) فجر كل يوم وهو يغادر القلعة وسط أبنائه ، يقودهم ذياب شمالاً حيث يعبرون النهر ، ويختفون بين التلال لتتردد طويلاً أصداء عياراتهم النارية وهم يتدربون على التهديف . وكان (مطلق) أسرعهم تعلماً ؛ فقد كاد يتخطى (ذياب) نفسه في دقة التصويب : يردي الطائر ببندقيته لحظة طيرانه الخاطف . وبلغت مهارته حداً دفع (ذياب) إلى أن يشبّهه بالباشق ، ذلك الطائر الجارح السريع الذي يستحيل على فريسته الإفلات منه .

وكان (مطلق) يجابه ثناء الآخرين على إتقانه التهديف بأن يهز بندقيته مردداً قولاً غدا على كل لسان :

- ما ادّخرتُ دمعتي إلا لشدتي!

وكان يهيب بأبنائه ليبزوه في التهديف تحسباً لمخاطر قد يستهدفهم بها الأعداء يوماً ما . وكان أبناؤه الستة - خلا سابعهم (نايف) الذي كان لا يزال صغيراً - قد تدرجوا في مدى إتقانهم التهديف . وكان سادسهم حاصود أسرعهم تعلماً ؛ فعلى الرغم من أنه لم يكن يتخطى البندقية طولاً ، لكنه ندر ألا يصيب الهدف : ما يكاد يغمض إحدى عينيه حتى يرتد بجسده إلى الوراء بفعل قوة انطلاق العيار الناري ،

www.ibtesama.com

فتذوب ضحكات التهكم على شفاه إخوته وهم يرونه وقد أصاب الهدف . وكان ابن (مطلق) البكر طارش ، على النقيض من حاصود ، يتحجج بأوهى عذر ليعود إلى القلعة متهرّباً من تلك التدريبات اليومية البغيضة إلى نفسه ، فكان أخوته يودعونه بتعليقات ماكرة تنصبّ على مبالغته في تدليل زوجته فتنة التي كان موعد وضعها لحملها البكر قد حان ، كما كانوا يعيّرونه بغيرها من أمور أسرية اشتهر طارش بشدة شغفه بها ، وحتى (ذياب) نفسه لم يكن يسلم من غمزهم ؛ فقد يعلق أحدهم متهكما :

- وعلى كل حال سيتكفل عمه بتعليمه التهديف!

فيكون جواب ذياب الفوري :

- معلوم . . . وإلا لن يكون جديراً بأن يبقى زوجا لفتنة سليلة من دوّخ العسكر أعواماً لا تعد ولا تحصى!

قال الراوي : وكان ابن (مطلق) الثاني جناح أكثرهم لهفة لتعلم إطلاق النار ، وهو أمر اعتاد أخوته أن يجعلوا منه مادة لتفكههم ومرحهم ؛ فقد بقي جناح كما عهدوه في صغره : يزيده مرور الأعوام عزلة وعنفاً كان ينفِّس عنهما بالإيقاع بالحيوانات والطيور ، لا من أجل شيء سوى التمثيل بها . وبقي نفوراً ، يتجنب أخوته إثارة غضبه لما عُرف به من عنف مدعوم بقوة جسدية خارقة . وحتى الأب نفسه - بصرامته المعهودة - لم يستطع ترويضه ، فتركه وشأنه ، يدخل القلعة ويخرج منها متى شاء ، متجهم الوجه ، يندر أن يبادل الآخرين الكلام .

كان جناح أول من يغادر القلعة والجميع نيام ، وآخر من يعود إليها وقد لجأ الآخرون إلى مضاجعهم غير آبه بالأسئلة المكررة عن مكان وجوده طوال ساعات النهار ، وعن كيفية إطعامه نفسه ، وما أشبه من

www.ibtesama.com

أسئلة كان يوليها أذناً صماء . كان كالغريب وسط أسرته لا يلتقونه إلا نادراً . وكان من دأبه تفقد فخاخه وشباكه المنصوبة في شتى أدغال الديرة ومخاضاتها ، تلك الفخاخ والشباك التي كان يتركها عادة محمية بسطوة اسمه ؛ يتجنب أكثر الصيادين جرأة وشجاعة الاقتراب منها ، مفضلين اختيار أماكن نائية يمارسون فيها صيدهم بأمان ، متجنبين بذلك الوقوع تحت وطأة نقمة جناح التي كان يمارسها بالقسوة نفسها التي يوقعها بفرائسه : يعذّب غريمه أطول مدة ممكنة ، يمر به متجاهلاً رد تحيته ، أو قد يقصده في بيته ، ليلتقيه وجهاً لوجه . وبعد مرور لحظات متوترة - لا يكف خلالها قلب ذلك الرجل البائس عن النبض بألم من شدة الهلع - يفاجئه جناح بأن يسأله عن أمر عرضي قبل أن يغادره تاركاً إياه واقفاً عند باب بيته مفغور الفم لا يكاد يطبقه بعد مرور لحظات إلا لازدراد لعابه ، داعياً الله أن يجعل جناح يعجّل في الاقتصاص منه ليتسنى له التنفس بسلام!

لم يكن جناح يستفيد من فرائسه ببيعها مثلاً - فذلك ما لم يقدم عليه قط - بل كان يتصرف بها بحسب هواه : قد يهدي بعضها إلى أول عابر سبيل يمر به مصادفة ، أو يعمد إلى إشعال نار صغيرة في الموضع الذي هو فيه - سواء بين البساتين أو التلال أو مقبرة جزيرة (البطيحة) - ليشوي عليها إحدى فرائسه ، ناشباً أسنانه في لحمها الساخن ، مزدرداً إياها مع عظامها خلال لحظات ، كأنه لم يأكل منذ دهر ، أو قد يعمد ، في لحظة ما ، إلى نتف ريش طائر حي مبقياً على ريش جناحيه فقط قبل أن يطلقه ، فيمرق ذلك الطائر البائس مثل قطعة لحم بجناحين ، فيسقط جناح في موضعه مقهقهاً - وتلك هي المرات النادرة التي كان يشاهد فيها وهو يضحك! -

لكن عبث جناح بفرائسه نما بنموه : فحينما غدا شاباً أمعن في

www.ibtesama.com

قسوته ؛ فلم يعد يكتفي بالعبث بتلك الطريقة (المسالمة) ، بل طوّر وسائل تعذيبه ؛ فحينما كان يوقع بابن آوى مثلاً كان يعمد إلى سمل عينيه - بحجة أنه يخرّب الحقول والبساتين! - مطلقاً بعد ذلك سراحه ، فينطلق ذلك الحيوان المسكين بجنون مصطدماً بجذوع الأشجار ، ليختفي في آخر الأمر مخلفاً وراءه عويله وهو يتردد بين البساتين . وقد أوقع ، في إحدى المرات ، بثعلب ؛ فعمد إلى تعليق جرس برقبته قبل أن يحرره ، جاعلاً إياه مصدر ضحك الناس ؛ فكلما حلّ الليل وتردد رنين ذلك الجرس قرب قن دجاج يمسك الجميع ببطونهم من شدة الضحك وهم يرددون :

- إنه ثعلب جناح!

وكاد جناح ، في إحدى المرات ، أن يسبب في نشوب حريق في القلعة ؛ فقد أوقع بهر اعتاد اقتناص أفراخ دجاجات زوجة أبيه ؛ فعمد إلى تلطيخه بالزيت ، وأشعل فيه النار ، فانطلق الهر كتلة لهب ليختفي تحت حزم سعف وحطب كانت مكوّمة في إحدى الزوايا ، مما أدى إلى استعار النار فيها!

وهكذا لم يسلم اندفاع جناح في تعلّم التهديف من تعليقات فكهة كان أكثرها إثارة للضحك قول ربيع :

- لا شك أن (جناح) ملّ من تعذيب فرائسه بتلك الطرق البدائية ، فقرر إتقان الرمي بالرصاص ليجهز عليها دفعة واحدة!

قال الراوي : وكان ابن (مطلق) الثالث قاصد الوحيد الذي كان لا بد للجميع من بذل جهود مضنية ليقنعوه بالرمي ، حتى إذا ما أمسك بالبندقية وصوب نحو الهدف أخذ يتمتم بآيات قرآنية قبل أن يرمي مسوّغاً تصرفه ذاك بأن الأرض عامرة بالأرواح والجن ، فلا يعدم أن يصيب واحداً منها!

www.ibtesama.com

أما ابن (مطلق) الرابع خضر فلم يكن من اليسير إقناعه بالإمساك بالبندقية ؛ ذلك لأن ذهنه كان منصرفاً دائماً إلى فتيات الديرة والخطط الكفيلة بالإيقاع بالمزيد منهن . وكان غالباً ما ينجح في ذلك بفضل وسامته وامتلاكه لساناً كان يعرف كيف يستميل به القلوب . وهكذا كان لا بد لأخوته من إغرائه بمزايا تعلم التهديف ، مزينين له الأمر بأن ذلك سيكفل له هيبة عند الصبايا - فما من فتاة لا ترتخي ساقاها أمام شاب مرهوب الجانب! - فضلاً عن أن بندقيته ستجعل غرماءه - وما أكثرهم! - يفكرون ألف مرة قبل أن يحاولوا الاقتصاص منه!

وكان ربيع ابن (مطلق) الخامس يكاد يضارع أخاه الأصغر حاصود في شدة شغفه في حمل البندقية ؛ فلكونه في مقتبل العمر - لا يمر عليه يوم لا يلقي فيه نظرة على وجهه في المرآة عسى أن يكون الزغب الذي يعلو فمه قد نما أكثر! - تسكره كلمات الإعجاب التي تطرق سمعه وهو في طريقه إلى الجانب الآخر للنهر ، تتأرجح البندقية خلف ظهره!

قال الراوي : وهكذا سرعان ما غدا (مطلق) مدعوماً ببنادق أبنائه فضلاً عن بنادق ذياب ورجاله ؛ فدوّى صيته من جديد ، وبات الجميع ينشدون ودّه ، موطنين أنفسهم بالانضواء تحت (بيرق) عشيرة (البواشق) - هذه التسمية التي جاءتْ من لقب (مطلق) - وكانت العشيرة قد سادت (ديرة الهشيمة) دون منافس ؛ فأخذت تقلق بال المسؤولين في البلدة ولاسيما بعدما بدأتْ تلك العشيرة تتلكأ في دفع الضرائب المعهودة : فحين كان الجباة يقدمون إلى الديرة كان (مطلق) يقيم لهم ولائم حافلة ، لكنهم كانوا يزدردونها ازدراد السم الزعاف ؛ فقبل تناولهم الزاد كان أبناء (مطلق) لا يكفون عن دخول المضيف والخروج منه ، مبدين حرصهم على لفت الانتباه إلى البنادق التي

www.ibtesama.com

تثقل أكتافهم . كانوا يرحبون بهم وهم يدفعون بنادقهم خلف ظهورهم بإهمال . وكانوا يحرصون على دسّ تلك البنادق تحت ركبهم لحظة تحلقهم حول الطعام . وكانوا في لحظات سرورهم – عقب احتسائهم فناجين القهوة مثلاً – ينطلقون نحو باب المضيف ليقفوا هناك مطلقين طلقاتهم بسخاء في الفضاء ، فكان (مطلق) يصيح بهم مفتعلاً الغضب :

– يا لكم من أشرار ؛ لقد عكّرتم صفاء بال ضيوفنا دون مسوّغ!

فكان أحدهم يجيبه بمكر :

– ما العمل يا أمحفوظ ؛ إذ لا بد لنا من استعمال هذه البنادق خوفاً من أن تصدأ!

فكان (مطلق) يجيبهم مجارياً إياهم في لعبتهم :

– صبراً يا رجال ، وفّروا حماستكم ليوم ستحتاجون فيه إلى كل عيار ناري!

بعدها كان يستدير نحو (الجباة) ليسألهم ، بمنتهى الرقة ، عن سبب قدومهم؟ مؤكداً لهم وضع نفسه وأبنائه السبعة تحت تصرفهم في كل ما يأمرون به . فكان هؤلاء (الجباة) المرعوبون يزدردون لعابهم بصعوبة ، ويبذلون جهوداً خارقة للسيطرة على هلعهم . وبعدما كانوا يعقفون شفاههم الشاحبة بابتسامات باهتة كانوا يتمتمون بأنهم ما قدموا إلا للسلام عليه ، وتفقد أحواله ، مؤكدين استعدادهم لإبلاغ المسؤولين في البلدة عن كل متطلبات عشيرة (البواشق) ، فكان أبناء (مطلق) يحتفون بمثل تلك الأقوال بإطلاق المزيد من الرصاص!

وهكذا بدا من الطبيعي أن ينقطع (الجباة) عن القدوم إلى الديرة ؛ فبات في وسع (مطلق) الانصراف إلى شؤونه الخاصة بادئاً بإبراز مظاهر الأبهة والترف المحيطة به ؛ فأمر رجاله بالإسراع في إكمال القلعة ؛

www.ibtesama.com

فعادتْ أعمال البناء تتواصل فوق التل ، حتى إذا ما مضت أعوام معدودة غدا (مطلق) مرهوب الجانب ؛ لا يحلّ في موضع إلا وثمة معلمان يُستدل بهما عليه : أريج (الخضيرة) الذي يفوح قبل ظهوره بلحظات ، ووميض سبطانات بنادق المحيطين به الذي يسطع لحظة رحيله!

قال الراوي : ولكن (مطلق) – وعلى الرغم من تلك المظاهر كلها – بقي في دخيلته ينطوي على ذلك القلق القديم بألا يبقى له ذكر من بعده ؛ فأمسى همه الوحيد ينصبّ على ضرورة الإسراع في تزويج أبنائه ليضمن بذلك بقاء نسله من بعده . وكانت تسليته الوحيدة قد تركّزتْ على الانصراف إلى رعاية حفيده منهل ؛ فقد كان يجلسه على ركبته ، ويطعمه من طبقه بالحرص نفسه الذي كان يطعم به آخر أبنائه (نايف) حينما كان في عمره . وكان لا ينسى ، بين كل لقمة تتخذ طريقها نحو فم الطفل المفغور على سعته ، أن يقرّع (طارش) لكونه قد خذله ؛ ذلك لأن امرأته فتنة انصرفت إلى إنجاب سلسلة بنات بعد ولادتها لمنهل وكأنها عولت على إغاظته! . . وكان لا ينسى أن يعرج بتقريعاته على أبنائه الآخرين لكونهم يبدون كأنهم زهدوا في الزواج بالرغم من أن أصغرهم (نايف) لم يبق بينه وبين دخول طور الرجولة سوى أعوام معدودة . وكان أبناؤه يتقبلون تقريع أبيهم بصمتهم المعهود . لكنهم لم يكونوا ينسون أن يتبادلوا بينهم نظرات ذات مغزى كانوا يثبتونها في النهاية على أخيهم جناح!

قال الراوي : وكان الجميع في واقع الأمر يتحرقون لهفة للزواج – بل إن لدى أكثر من واحد منهم مشروعاً جاهزاً للزواج! – لكن العقبة الوحيدة التي تقف في طريقهم كانت تتمثل بجناح ؛ ذلك لأن الزواج كان آخر ما يشغل تفكيره ، لا همّ له في الحياة سوى المضيّ في نصب

www.ibtesama.com

فخاخه وشباكه للإيقاع بالمزيد من الحيوانات والطيور!

كانوا يتذكرون ذلك بوجوه مظلمة لولا أن (ربيع) كان يسارع إلى التخفيف من ذلك بإطلاق أحد تعليقاته الفكهة :

- خير له ألا يتزوج ؛ فما أدرانا بالذي سيفعله بعروسه ليلة الدخلة؟ فقد يعمد إلى إطلاق ثعبان تحت ثوبها لا لشيء سوى البرهنة لها على خفة دمه!

ولكنهم كانوا يحاولون أحيانا تحقيق المستحيل ؛ ففي المرات النادرة التي يعود فيها جناح إلى القلعة مبكراً كانوا يحاولون أن يزيّنوا له فكرة الزواج : فيتبارون - وكل واحد منهم مضطجع على فراشه في حجرتهم المشتركة - في ذكر حسنات هذا الأمر ، متطرقين إلى تعداد جميلات الديرة وميزة كل واحدة منهن و . . . ولكنهم كانوا يفاجأون بشخير جناح يتصاعد من الركن الذي يرقد فيه وقد استغرق في نوم عميق ، فكانوا يبادلون بعضهم بعضاً نظرات دهشة تنتهي بعاصفة ضحك تزداد استعاراً حين ملاحظتهم وجه شقيقهم قاصد وهو ينطق باليأس الكامل ، فكان ربيع يعلّق ، مغالباً ضحكه بصعوبة :

- لاشك أن قاصد سيعملها الليلة في ثيابه كما عوّدنا في أغلب الليالي!

وكان من سوء حظ قاصد أنه ندر أن تمر به ليالي الشتاء بسلام : ففي أكثرها برداً اعتاد أخوته الاستيقاظ على استغفاراته وهو يزحف على أربع مغادراً فراشه ، متعثراً بسيقانهم وأذرعهم قبل أن يفلح في الوقوف ، محاولاً هذه المرة الاهتداء في الظلام إلى باب الحجرة ، صاباً لعناته على رأس جناح لحظة مروره بفراشه الخالي منه ، فكان أخوته - برغم استيائهم لاستيقاظهم من نومهم ، أو بسبب ذلك - يكتمون بصعوبة ضحكاتهم في ثنايا أغطيتهم . لكن (ربيع) ، الذي هو أقلهم

www.ibtesama.com

صبراً ، لم يكن يستطيع الامتناع عن إرسال أحد تعليقاته :

- ها . . . قاصد؟ هل أغواك الشيطان مجدداً؟

فكان خضر ينوب عنه في الإجابة مؤججاً نار غضب قاصد :

- لكن . . . أي شيطان وضيع هو شيطان قاصد هذا؟ فهو لا يختار إلا أشد الليالي برداً ليتدفأ بين ساقيه!

وهنا يأتي دور حاصود ؛ فيصيح من تحت لحافه الملفوف حول جسده بإحكام :

- لعله شيطان محرون!

فكانت الضحكات تستعر تحت الأغطية الثلاثة ، في حين يبقى غطاء نايف الوحيد الذي يواصل ارتفاعه وانخفاضه على وتيرة واحدة وهو يتنفس بانتظام مستغرقاً في نوم عميق ، نوم الصبي الذي يكون ثقيلاً عادة عند الفجر . وكان قاصد يتحول ، هذه المرة ، بلعناته فيصبّها على رؤوس أشقائه الثلاثة ، ويغادر الحجرة ضارباً الأرض بخطى غضبى عامداً إلى ترك الباب وراءه مفتوحاً على سعته عسى تيار الهواء البارد أن يُشعر هؤلاء العابثين بعمق محنته ؛ إذ يتوجّب عليه التوجه إلى النهر القريب ليغتسل (غسل الجنابات) داعياً ربه أن يأتي اليوم الذي سيستطيع فيه أن يوَقت التوقيت الدقيق لهذا (الغسل) وذلك بوجود الزوجة التي ستنقذه من زيارات الشيطان الليلية فضلاً عن أنها ستأخذ على عاتقها مهمة تسخين الماء له ومناولته ملابس نظيفة . . . بيد أن لسعة المياه المتجلدة سرعان ما كانت تبدد حلمه ذاك مذكرة إياه بوجود جناح بفخاخه وفرائسه . . . وهكذا ما يكاد يعود إلى الحجرة ، وأسنانه تصطك في فمه بصورة تستدر الشفقة من أكثر القلوب غلظة ، حتى يكون ربيع في انتظاره بأحد تعليقاته السمجة :

- ما هذا الصرير؟ هل ثمة لقلق بنى له عشاً فوق السطح؟

www.ibtesama.com

ووسط انفجار عاصفة ضحك جديدة لا يجد قاصد له مفراً من أن يواجه (القِبلة) ليؤدي صلاة الفجر قبل أن يغفو فيراوده الشيطان مجدداً ناقضاً بذلك وضوءه!

قال الراوي : وعلى النقيض من قاصد كان خضر يستثمر وجود عقبتين في طريق زواجه تتمثلان بأخويه اللذين يكبرانه في العمر على أفضل وجه ؛ فقد كان يبالغ في عقد صلات سرية بأية صبية أو امرأة يستطيع الإيقاع بها . لم يكن يأبه من تكون ضحيته سواء أكانت عذراء أم مطلقة أم أرملة ، إنما كان ما يهمه هو أن يزيد رصيده من غراميات كانت تختم في الغالب بفضائح مجلجلة كان من المؤكد أن تنتهي به إحداها النهاية المعروفة لولا أن أمه رازقية كانت تعمل المستحيل لتجعل من زوجها (مطلق) الشخص الوحيد في الديرة الذي هو على جهل بتلك الفضائح متخذة من (مصيبة) طارش بالاقتران بواحدة من بنات (المعدان) عظة وعبرة!

لقد بلغت سمعة خضر سوءاً أن مروره ، ولو بشكل عابر ، بزقاق ما كان كفيلاً بإثارة شكوك الأزواج الغيورين ، أما الأشقاء (النشامى) فما أسرع ما كانوا ينهالون على شقيقاتهم ضرباً متمثلين بالنصيحة المتوارثة عن ضرورة ألا تنام البنت يوماً إلا وعينها دامعة!

كان فتى مفضوحاً ، لا يكتفي بالارتباط بعلاقتين عاطفيتين أو ثلاث دفعة واحدة ، بل كان يتلذذ لذة لا توصف حينما ينجح في الإيقاع بأختين شقيقتين ، موهماً كل واحدة منهما بأنه سيتزوجها في أقرب فرصة . بل إنه أقدم ، في إحدى المرات ، على علاقة بقيتْ حديث الديرة مدة طويلة : فقد أوقع بابنة أرملة عُرفت بسلاطة لسان حالت بينها وبين الحصول على زوج وهي في بداية ترملها ؛ فعلى الرغم من تحلّيها بكل الصفات المثالية المعهودة في نساء الديرة من جمال

www.ibtesama.com

وصغر سن - فابنتها تلك كانت وحيدتها - وإلمامها بكل الأعمال النسائية ، لكن الرجال كانوا يستعيذون بالله كلما ذُكرت لهم ؛ فقد بلغت شراستها حداً دفع جاراتها إلى أن يغرينها بـ(أتاوات) على شكل هدايا ، حرصاً منهن على بقاء قِرَبهن معلقة بسلام على حمالاتها دون أن تتعرض لطعنة سكين أو ضربة وتد من مجهول . كما أنهن كن يدسن أيديهن بثقة تحت دجاجاتهن القابعات على أكوام القش ، ليخرجنها ممسكات ببيضات لا تزال دافئة . أما الملابس المغسولة فقد كن يتركنها ترفرف على الحبال لتجف على مهل ، ضامنات عدم احتمال تلطخها بالوحل أو الأصباغ - من قبل مجهول أيضاً! - أما سلاطة لسانها فقد دخلت ضمن لعنات الديرة : تدعو الأم على ابنتها - في لحظة غضب - أن يجعلها الله ضحية لسان تلك المرأة!

وهكذا لم يصدق قاصد سمعه يوم طلب منه خضر مرافقته في زيارة تلك الأرملة في بيتها - لحظتها كاد يسأله إن كان لا يكفيه شيطان الليل الذي يجعله يعمد إلى الاغتسال في المياه المتجلدة ليواجهه بشيطان النهار الذي قد يجعله يغتسل بدمه؟! - وحينما سأل قاصد أخاه عن سبب هذه الزيارة (الميمونة!)؟ اعترف خضر بأن ابنة تلك الأرملة صارحته بأنها كاشفت أمها بأنه غرر بها ، وأن المؤمل منه الآن التقدم إليها خاطباً!

وعلى الرغم من أن (قاصد) أخذ ذلك التهديد على محمل الجد - فمن من أبناء (مطلق) لا يتذكر حادثة إجبار طارش على الزواج بابنة المعيدي؟ - لكنه استغفر الله ليسأل أخاه بقسوة :

- ولِمَ غررت بفتاة لها أم على هذه الشاكلة؟

فأجابه خضر وقد تورّد وجهه الوسيم :

- ما العمل؟ فأنا شاب . . . و . . .

www.ibtesama.com

وسارع يضيف رداً على نظرة الاستنكار التي رمقه بها قاصد ، ضارباً على الوتر الحساس الذي سيرجّح كفته فوراً :

- . . . ثم أنسيتَ أخانا (جناح)؟ فلو أنه كان قد تزوج لأصبح في امكانك أنت . . . .

فقاطعه قاصد وقد أُثيرتْ شجونه كلها :

- حسن . . حسن . . . هيا تقدمني إلى كورة الزنابير!

وتعقب أخاه بخطى مترددة وهو يتلو في سره (آية الكرسي) . لكنه كاد يتخاذل لحظة وقوفهما بإزاء باب بيت الأرملة ؛ فسأل أخاه همساً :

- ولكنْ . . . لم اخترتني أنا للقيام بهذه المهمة البغيضة؟

أجابه خضر باعتزاز :

- ذلك لأن الجميع يبجلونك لاستقامتك وتدينك .

فتساءل قاصد متشبثاً بآخر أمل :

- ثم ما المطلوب مني على وجه التحديد؟

فاكتفى خضر بأن أجابه باستهانة :

- تستطيع إقناعها بالتستر على الأمر لقاء تعهدي بالابتعاد عن ابنتها .

- تتستر على الأمر لقاء . . . هل أنت مجنون؟

أنهى قاصد كلامه صارخاً ، فتلفت خضر حوله في ظلام الليل الدامس راجياً إياه ألا يفضحه ، فتمتم قاصد من بين أسنانه :

- حمداً لله لأنك بدأتَ تخشى الفضيحة!

وأضاف وهو في سبيله لدق الباب :

- تأكد أن تعهدك بالابتعاد عن ابنتها ليس أكثر من ثمن بخس لن تفلح في أن تقنع به أرملة تشتري جاراتها سكوتها بالدجاجات والبيض وحلانات التمر!

www.ibtesama.com

قال الراوي : وكانت زيارة الأخوين لبيت الأرملة زيارة عجيبة خرجا منها بنتيجة لا تخطر على بال : كان قاصد غاية في الإرتباك ؛ فبرغم وجود قنديل مضاء لكنه لم يهتد إلى البساط المفروش قرب الموقد إلا بعدما تعثر بعشرات الأشياء ، كان من بينها دجاجة أطارها من أمامه بركلة عشوائية ، وتربع إلى يمين الموقد حادجاً دلة القهوة الداخنة وسط الجمر بنظرة ظامئة . إلا أن (خضر) صرفه عن هذا الأمر حينما لكزه منبّهاً إياه على الأرملة التي قبعت في الجانب الآخر من الموقد ، لاسعة إياهما بنظرة ضارية من بين ثنايا عباءتها التي تلفعت بها بشكل فضح إمتلاء وركها وغلظ فخذيها . وتلجج قاصد طويلاً وهو يحاول الوقوع على الكلمات المناسبة متنقلاً بعينيه ، في الوقت نفسه ، في زوايا البيت الغارقة في الظلام ، مخمّناً بوجود تلك (العاهرة الصغيرة) في موضع ما ، وهي تضحك من خجله وارتباكه . وفي النهاية أفلح في النطق ببضع جمل لا تتخطى نطاق الستر والعفاف وإلقام الناس حجراً لكي لا تلوك ألسنتهم كلاماً سيئاً ليس له آخر!

ومضى قاصد في كلامه ، وقد زاد من تقطيب جبينه ، مقترباً من هدفه . وكان ارتباكه قد أخذ يبارحه بالتدريج . لكنه تنبه إلى أنه قضى وقتاً طويلاً وهو يتكلم دون أن يحظى بجواب ؛ فرفع عينيه رامقاً المرأة بنظرة خاطفة ، فلمحها وقد وسّعتْ من المساحة المكشوفة من وجهها مظهرة عيناً مكحلة يعلوها حاجب تم تحديده بدقة متناهية . لكن قاصد لم يولِ هذا الأمر أهمية تضاهي الأهمية التي أولاها إلى نصف فمها المصبوغ بـ(الديرم) وقد انفرج عن ابتسامة من المؤكد أنها لم تكن بسبب كلامه . وحينما التفت نحو خضر ، المتربع بجانبه باستكانة ، هاله أن يراه وهو يبتسم بدوره متخطياً بعينيه الموقد والدلة والجمر ، ليثبتهما على وجه الأرملة بنظرة واضحة الدلالة!

www.ibtesama.com

وعلى الفور شعر قاصد ببلاغته وقد بارحته دفعة واحدة ؛ فعاد ينكّس رأسه محاولاً عبثاً تحريك لسانه في فمه بكلام معقول ، لكنه اكتشف متأخراً أن الأحداث تخطت دوره ؛ فقد أخذ خضر على عاتقه مهمة إدارة دفة الحديث . وانتفض قاصد كالملدوغ حين استطاع أن يميّز تلك النغمة التي يعرف خضر كيف يلوّن بها كلامه حين يكون في سبيله للإيقاع بأنثى! . . . فاستغفر الله بصوت مسموع ، وحاول معاودة الكلام ، لكنه فوجئ بخضر يخرسه بلكزة من مرفقه مرسلاً في الوقت نفسه ضحكة الانتصار التي لا يطلقها عادة إلا لحظة اطمئنانه إلى أنه قد أجهز على ضحيته . وتخطى الأمر الحدود لحظة بادلته الأرملة ضحكة مماثلة ، فرفع قاصد رأسه مصدوماً ؛ فإذا به يراها وقد أزاحت طرف العباءة عن العين الثانية متطلعة إلى خضر بنظرة جعلت قاصد يستعيذ بالله ؛ فوثب واقفاً ساحباً أخاه من يده . وما أن تلقفهما ظلام الزقاق حتى فحّ من خلال أسنانه المطبقة :

- ما هذا؟ أجئتَ بي لحل مشكلة الابنة؟ أم لتوقع بالأم؟

فاكتفى خضر بأن أجابه باستهانة :

- لا عليك ؛ لقد حققت زيارتنا النتيجة المطلوبة ؛ فستأخذ الأم على عاتقها حل مشكلة ابنتها!

وتحقق ما توقعه خضر ؛ فبعد مرور أسابيع سمع قاصد بأن الأرملة زوّجت ابنتها بأحد أقاربها . وما كاد يتنفس الصعداء حتى تناهى إليه خبر آخر كاد يخرجه عن طوره ؛ فقد أُشيع أن (خضر) شوهد يحوم حول بيت الأرملة أكثر من مرة!! . . بل قيل إنه لُمح في إحدى الليالي وهو يمرق داخلاً . أما لماذا؟ فهذا سؤال لم تكن بقاصد حاجة ليتعب نفسه للوقوع على جواب مناسب له ، وذلك ما كان يصيبه بالجنون ؛ فهو شاء أم أبى قام بدور مريب في هذه المسألة ، دور غير مشرّف كان

www.ibtesama.com

يجعله يبالغ في استغفار الله الذي جعل بعض عبيده يغلبون أحياناً إبليس بخبثهم . وقد نفد صبره في أحد الأيام فسأل خضر عن صحة ما يشاع عن ارتباطه هذه المرة بعلاقة بالأم بعد انتهاء دور البنت؟ فأجابه خضر ضارباً على الوتر المعهود :

- لولا امتناع جناح عن الزواج وإكمال نصف دينه أكان يشاع عني مثل هذا الكلام؟

ووجد كلامه ذاك دعماً فورياً من شقيقيه الآخرين ربيع وحاصود اللذين كانا أكثر الأخوة شعوراً بالمرارة لكون عقبات زواجهما تتضاعف كلما اقترب دورهما في هذا الأمر!

قال الراوي : وكان الجميع متفقين على أن المحظوظ الوحيد فيهم أخوهم الصغير نايف ؛ ففضلاً عن كونه لم يبلغ الحلم بعد - وبذلك فهو في غنى عن مشكلات الزواج ومحنه - كان موضع ثقة أبيه (مطلق) ؛ فبالرغم من حداثة سنه كان ذا شخصية قوية ، صارماً دون تهور ، ومرحاً دون لين ، وواسع الصدر دون ضعف . وكان والده يقول عنه :

- كأنني أرى نفسي به يوم كنت في عمره!

كان يبدو كأنه غدا رجلاً مع يوم فطامه ؛ ما شوهد قط يشارك الصغار في ألعابهم ، أو ضبط يوما ما يبكي قهراً . كان الوحيد الذي أُلقيت على عاتقه مهمة متابعة مصالح أبيه سواء في القلعة أو في الحقول أو في البساتين : يُشاهد يومياً وهو يخترق الأزقة لمتابعة تلك الأمور ، يرفع يده محيياً الجالسين على عتبات دورهم ، أو المنحنين في المزارع على أشغالهم ، فيهب هؤلاء واقفين ليردوا على تحيته بأحسن منها ، واضعين أكفهم على صدورهم احتراماً له بالرغم من صغر سنه وأنه قد يكون بعمر أصغر أبنائهم ، مدركين أنهم إن فقدوا حظوتهم

www.ibtesama.com

لديه فقدوا بالنتيجة حظوتهم لدى (مطلق) .

كـان هو الذي يشـرف على أمـور الحـراثة والبـذار ، لا ينسى المرور ببيـوت الفـلاحين قـبل مـوعـد الحـراثة بمدة مناسـبـة ، ليـسـألهـم عن أحوالهم ، متطرقاً بصـورة عـرضـيـة إلى ضـرورة التنبه إلى سن سكك المحاريث . وعقب الانتهاء من الحراثة كان يتقدمهم إلى عنابر الحبوب في القلعة حيث يكيل لهم الكميات اللازمة للبذار بحسب الشروط المعهودة في حصة (المشيخة) . وكان هو الذي يشرف على مواعيد سقي الحقول ، لا تنحدر قطرة ماء واحدة نحو حقل ما في غير الموعد المقرر . وعند الحصاد ، حينما تتماوج السنابل الذهبية حول قامات الفلاحين المنحنيـة ومناجلهم تسطع تحت وهج شـمس الصيف وهي تمرق بالتتابع مقتطعة ملء الأصابع حزم السنابل ، حينذاك كان نايف يُشاهد في هذا الموضع تارة وفي الموضع الآخر طوراً وهو يصدر الأوامر والإرشادات التي لم تكن به حاجة لتكرارها ؛ ذلك لأن الفلاحين كانوا ينفذونها من فورهم . حتى إذا ما حان موعد دراسة البيادر وتذريتها ، ومن ثم توزيع الحـصص على الجـمـيع ، كـان هو وحـده من يشـرف على تلك العمليات فارزاً حصص (المشيخة) و(الديوان) و(السادة) وغيرها من الحصص . وبرغم انشغاله بهذه الأمور كلها كان نايف يُشاهد ليلاً جالساً في المضيف إلى يمين أبيه ، وهو على أتم استعداد لتلبية طلباته قبل أن ينطق بها ؛ وكأنه كان يخمّن ما يدور في ذهنه!

وكان (مطلق) يتابعه في حركاته وسكناته بنظرات ولهى ، محدّثاً أبناءه الآخرين بقوله :

– أصارحكم بأن حرصي على الإسراع بتزويجكم لا يعود لحبي لكم فحسب ، بل لهفة مني لليوم الذي سأكحل فيه عيني بمرأى أصغركم نايف وهو يرفل في ثوب عرسه الأبيض . . . . يومذاك

www.ibtesama.com

سأجعل زفته حدثاً تروى أخباره عشرات الأعوام!

فكان الأخوة يبادلون بعضهم بعضاً النظرة المعهودة هامسين باللازمة الأبدية :

– وكيف سيتم ذلك وهناك جناح المنشغل أبداً بفرائسه؟

قال الراوي : ولكن الجميع آمنوا بأن ثمة معجزة في سبيلها لأن تتحقق تحت سقف القلعة : فذات ظهيرة فوجئوا – وهم متحلقون حول صينية الغداء المشترك – بجناح يدخل حجرتهم على غير عادته متطلعاً إليهم بنظرة شاردة . وكان ممسكاً بساقي بلبل لا يكف عن الرفيف بين أصابعه في محاولة مستميتة للإفلات . وحينما دعوه لمشاركتهم لم يجبهم ؛ فقد بقي منشغلاً بتأمل الطائر الأسير كأنه لم يسبق له أن شاهد هذا الصنف من الطيور!

– لا شك أنه سينتف ريشه قبل أن يطلق سراحه!

علق ربيع ، فغصّ حاصود في اللقمة التي كان في سبيله لازدرادها وقد وقع أسير نوبة ضحك . وقال خضر وقد كوّر قبضته على لقمة ضخمة :

– قد يعمد إلى سمل عينيه قبل أن يدعه يطير!

فاستغفر قاصد ربه وعلّق وهو يمسح فمه بظاهر كفه :

– أو قد يشق بطن الطائر المسكين ليراقب قلبه الصغير وهو ينبض لحظات قبل أن يسلم روحه إلى خالقها لتشكوه ظلم الإنسان وقسوته!

– لكن . . . انظروا إليه! . . ما الذي دهاه؟!

صاح نايف وهو ينفض يديه عن الطعام ، ويثب واقفاً . وكان جناح في شاغل عنهم يمسّد ريش البلبل بحنان لم يكن من طبعه حتى أنه جفل على لمسة نايف لزنده ، فتلفت حوله ليلاحظ أنه غدا محط أنظار الجميع . وبحركة غير متوقعة عمد إلى رفع ذنب الطائر وهو يقول :

www.ibtesama.com

- انظروا . . . . لقد نتفتُ لها الريشات الصفر التي تنمو عادة في هذا الموضع!

فتبادل الأخوة نظرات دهشة لينفجروا بعدها مقهقهين . واستعرت بينهم حمى التعليقات الفكهة التي كان ربيع أول من أذكى نارها :

ـــ حمداً لله ؛ لقد غدا جناح رقيقاً في آخر الأمر ؛ فاستبدل بنتف ريش الطائر كله نتف الريشات الصفر التي تنمو تحت ذنبه فقط!

- إنها بادرة تبشر بالخير!

- ولكن كيف سيتصرف لو وقع ثعلب في أحد فخاخه؟

- لا مفرّ له في مثل هذه الحالة من أن يقطع ذنبه!

لكن (نايف) سارع إلى إسكاتهم منبهاً إياهم على غرابة حالة جناح ، وذلك أمر كان جلياً لهم جميعاً ؛ إذ إنه لم يكد يشعر بسخرياتهم ؛ فقد بقي منكفئاً على نفسه ، لا يكف عن تأمل الطائر الأسير الذي رفعه في النهاية عالياً وهو يقول :

- هيا أيها البلبل الحبيب . . . أفرد جناحيك الرقيقين وانطلق نحو زرقة السماء عساك أن تحطّ على سطح دارها!

وترك البلبل يمرق من بين أصابعه لينخطف من فتحة الباب ، فتمتم ربيع وهو يطرف بعينيه دهشة :

- ما الذي يجري يا أخوتي؟ وما الذي سمعتُ من جناح؟ أيها البلبل الحبيب أفرد جناحيك الرقيقين . . . وماذا؟ عساك أن تحطّ على سطح دارها؟

وصاح حاصود :

- ولكن سطح دار من؟

- حقاً . . . دار مَنْ؟

تساءل خضر بدوره ، فعاد نايف يجيل فيهم عينيه مسكتاً إياهم

www.ibtesama.com

ليربت بحنان على زند جناح سائلاً إياه بإشفاق :

- مالي أراك حزيناً يا أخي؟

وعلى غير توقع انهار جناح في موضعه ، وأخفى وجهه بين كفيه لينخرط في البكاء . بكى طويلاً تاركاً جسده المختض في موضعه مستهدفاً من عيون أخوته الذين هالهم مدى ضعفه وهشاشته وهو الذي كان لهم مضرب مثل في القسوة والعنف . رأوه بنظرة جديدة إنساناً مثلهم يتألم ويبكي . . . بل يبالغ في إظهار ضعفه!

- هيا أخبرنا بسبب حزنك ؛ عسانا أن نعينك في محنتك فنحن نبقى أخوتك أقرب الناس إليك .

عاد نايف يتكلم بالرقة نفسها ، معيناً أخاه على تخطي حيائه الذي كان يمنعه من مكاشفتهم بما يثقل صدره . وسرعان ما أفلح في ذلك ؛ فقد تمتم جناح وسط بقايا نشيجه :

- . . . لقد عشقتُ . . .عشقتها . . . يا أخوتي!

وأطلق الجميع بصوت واحد صرخة فرح ، وهللوا لاقتراب الفرج . وسمعوا وقع خطى شخص ما وهو يتجه نحو حجرتهم ، فسارع نايف إلى إطباق الباب فشملتهم عتمة كان يخفف من كثافتها حزم أشعة الشمس المتسللة من الكوى المفتوحة في أعلى الجدران . وعاد نايف يسكتهم بنظرة ليتساءل بكل هدوء وحذر :

- ومن التي عشقتَ يا أخي؟

- لا أعلم!!

قالها جناح يائساً ، فقطّب الأخوة جباههم مستنكرين ، وتمتم ربيع :

- يا للحظ النكد ؛ إذ لم يعشق جناح بعد مضي هذه الأعوام الطوال إلا فتاة لا يعرفها!

www.ibtesama.com

لكن (جناح) أضاف بعد لحظات وهو يطالعهم بوجه مبلل بالدموع :

- إنها . . . فتاة لها سنّ ذهبية .

فانفجر حاصود صارخاً :

- يا لها من علامة فارقة!

وعلّق خضر ساخراً :

- أستطيع أن أرشدكم إلى أكثر من عشر فتيات لهن أسنان ذهبية كانت لي معهن صولات وجولات!

فتمتم قاصد راشقاً خضر بنظرة جانبية :

- صدقوه في ذلك ؛ فأنا أدرى الناس بمصائبه!

قال الراوي : وأخذ جناح يحدثهم بالقصة من أولها إلى آخرها وهو يتجنب مبادلتهم النظر . قال إنه صادف أن مر بـ(الشريعة) ممسكاً بذلك البلبل الذي كان أحد شراكه قد أوقع به ، ففوجئ بصبية ترفع وجهها من بين صويحباتها المنهمكات في الغسل أو ملء القرب ، مخاطبة إياه بجسارة غير معهودة في فتيات الديرة :

- ما هذا الطائر المرفرف في يدك أيها الشاب؟

فجمد جناح في موضعه ليتأمل ذلك الوجه المشرق تحت وهج الشمس بنظرة أعقبتها ألف حسرة . وبعدما ازدرد لعابه بصعوبة استطاع أن ينطق بكلمة واحدة :

- بلبل!

- بلبل؟ هاته . . . لا تخف . . . سأعيده لك .

خاطبته الفتاة بنبرة آمرة لا تقبل الرفض ، وشفعتْ أمرها بأن مدت نحو جناح كفاً بليلة ملطخة بالحناء وقد افترّت شفتاها المكتنزتان عن ابتسامة طغى عليها وهج تلك السنّ الذهبية . وقدّم جناح لها

www.ibtesama.com

الطائر كالمأخوذ متأملاً الفتاة بعينين لا تطرفان ، فرآها تسارع إلى نتف تلك الريشات الصفر لتعيد إليه البلبل وهي تقول :

- انظر . . . ألا أبدو أجمل وأنا أزيّن شعري الأسود بهذه الريشات الصفر؟

وكانت في أثناء كلامها قد أفردت خصلة من شعرها الطويل من تحت طية عباءتها غرزت فيها تلك الريشات فوق حاجبها تماماً ، فازداد وجهها فتنة ، وبدا وسط وجوه الفتيات الأخريات مثل القمر بين النجوم . وبقي جناح يتأملها وقد ذهل عن كل ما حوله . لكنه تنبه إلى نفسه حين ازداد لغط الفتيات ارتفاعاً ؛ وكنّ قد تركن ما بين أيديهن ليتنقلن بنظراتهن بين الاثنين ، مرسلات ضحكات مكتومة .

- ولكن . . ابنة من هي تلك الفتاة؟

تساءل نايف بغتة قاطعاً على جناح استرساله في الكلام ، وأعقبه خضر بأن سأل بدوره :

- ألم تتعقبها لتعرف أين يقع بيتها؟ فذلك هو أول ما أبدأ به أنا عادة!

واندفع الأخوة يمطرون (جناح) بأسئلة على تلك الشاكلة لا تخلو من لوم وتقريع ، فكان يتنقل بنظراته الزائغة بين وجوههم وقد دس أصابعه تحت حافة طاقيته هارشاً شعر رأسه القصير بحيرة .

قال الراوي : منذ ذلك اليوم غدا من دأب الأخوة ترديد لازمة جديدة مشفوعة بنظرة لوم عوضاً عن نظرة الإدانة الأبدية :

- لو أنك تعقبتها يا جناح وعرفتَ أين يقع بيتها!

وقد حاول جناح التكفير عن (خطيئته) تلك بالمرور بـ(الشريعة) يومياً عسى أن يصادف تلك الفتاة مرة أخرى . كان يمر عادة وهو يمسك بين أصابعه ببلبل لا يكف عن الرفيف بجناحيه . وحين أعياه الأمر

www.ibtesama.com

استبدل بالبلبل طائراً آخر يتميز بجمال الريش؛ لعل الفتاة المنشودة تكون قد زهدت التجمّل بريش البلابل الأصفر. ولكن عبثاً؛ فالنتيجة الوحيدة التي خرج بها جناح من المرور بطيوره المرفرفة بريشها الزاهي هي أنه تلقى ضربة من قدر نحاسية على رأسه سددتها إليه امرأة فاقت الثيران في غلظة عنقها، متهمة إياه بأنه يحاول إغراء الفتيات واستدراجهن بطيوره البائسة تلك!

وفي حجرة القلعة أسلم جناح رأسه المعطوب لأيدي أخوته الذين حلقوا الشعر من ذلك الموضع، ووضعوا على البقعة الدامية (عطابة). بعدها أخذوا يتداولون في كيفية معرفة تلك الفتاة. واقترح خضر - وهو يحدج (قاصد) بنظرة حذرة - أن يسمح له بالاستعانة بمن يعرفهن من فتيات الديرة ليساعدنه في الأمر. لكن قاصد قطع عليه الطريق صارخاً:

- نحن نحاول أن نحل مشكلة جناح لا أن نورط فتيات الديرة بمشكلاتك!

وكان من رأي ربيع أن يفاتحوا أمهم بالأمر. لكن جناح اعترض هذه المرة؛ فقد هز رأسه الذي تعلوه (العطابة) رافضاً وقال، وقد استعاد بلحظة خاطفة سخريات رازقية منه وهو طفل حينما تزوجها أبوه بعد موت أمه في عام الطاعون الأسود، وكيف أنها كانت تتركه في رعاية شقيقه طارش الذي لم يكن يسلم بدوره من عبث امرأة أبيهما:

- لا... محال... ستجعل الأمر مادة لسخرياتها مع زائراتها الثرثارات!

وكان حاصود أول من نفد صبره؛ فصاح وقد خرج عن طوره:

ـــ ما دمتَ لا تعرف من هي؟ وأين تسكن؟ فلم لا تتزوج غيرها يا أخي وتريحنا من مشكلاتك؟

www.ibtesama.com

فتأمله جناح بنظرة متألمة جعلت (ربيع) يعلق بمرح محاولاً التخفيف من حدة الموقف :

– حقاً . . . تزوّج غيرها يا أخي ؛ فالنساء يتشابهن في الفراش تماماً!

وكما هو متوقع سرعان ما وقع نايف على الرأي الصائب :

– هل لاحظتم أن كل واحد منكم رأى أن حلّ هذه المعضلة لن يتم إلا عن طريق امـــرأة؟

فتساءل قاصد دهشاً :

– حسن . . . وما معنى ذلك؟

فأجابه نايف بعزم :

– معنى ذلك أنه يجب أن نستعين بامرأة ، أما من تكون تلك المرأة ؟ فالجواب لديّ أنا!

قال الراوي : وبادر نايف من وقته وساعته بالتوجه إلى الجناح الذي اختاره طارش من القلعة لسكن أسرته حيث فوجئ بذلك الطابع الأنثوي الذي يمكن تشخيصه في كل ما يحيط به ؛ فأينما مدّ بصره لاحظ أثراً من تلك اللمسات الرقيقة التي تُفتقد عادة في الأجنحة الأُخرى ؛ فالبسط كانت تغطي الأرض ، وثمة (تحفيات) تزيّن الجدران ، فضلاً عن أريج البخور الذي يكاد يكتم الأنفاس . وبدت حجرة فتنة وكأنها تمثل قلب ذلك العالم الأنثوي الأثير الذي زاد من سحره كلمات الود والترحيب والعتاب التي استقبلت فتنة بها (نايف) . وسارعتْ إلى إخراج بناتها الصغيرات ، طالبة منهن الالتحاق بشقيقهن منهل في فناء القلعة ، ورجعت وهي تحتضن طفلتها الرضيع . وفي طريقها لم تنس أن تعدل بلمسة من قدمها المزدانة

www.ibtesama.com

بحجل ذهبي طرف سجادة كان مطوياً . وجلست في مواجهة نايف مواصلة الترحيب به ؛ ذلك لأنها المرة الأولى التي يزورها في جناحها . وقضى نايف ساعة من الزمان لم يترك خلالها أمراً من الأمور إلا تطرق إليه محاولاً إيجاد الثغرة التي يمكن النفاذ من خلالها إلى غايته . وحينما أعيته الحيلة ، وأخذ يتململ في موضعه ، فوجئ بفتنة تسأله ، وهي تدير طفلتها في حضنها ملقمة إياها ثديها المختفي تحت (شيلتها) :

– لم لا تحدثني بالأمر الذي قدمتَ من أجله دون لف أو دوران؟

بوغت نايف المعروف بشدة سيطرته على نفسه ، فابتسم بإحراج ليسألها بدوره :

– ولم تظنين أنني قدمت لأمر ما؟

فأجابته معاتبة :

– ذلك لأنها المرة الأولى التي تتنازل فيها فتزورني في جناحي!

وأسقط في يد نايف ؛ فنكّس رأسه ساعة من الزمان استعاد خلالها حقده الدفين تجاه هذه المرأة التي لم يغفر لها لحظة واحدة ، خلال هذه الأعوام التي كانت فيها زوجة أخيه ، أنها أوقعت بسحر جمالها بطارش الذي يفضلها ألف مرة . واستعاد من جديد ذلك الشعور بالمرارة والمهانة الذي لم يفارقه طوال هذه الأعوام التي مرت على هذا الزواج غير المتكافئ : زواج ابن (مطلق) – على جلال شأنه – بابنة ذياب – المعيدي حتى ستين ظهراً! – لم يغفر لهذه المرأة التي استطاعت بعينين ذهبيتين نفاذتين أن تمرغ كبرياء (مطلق) بالوحل!

– حسن . . . دعك من الاسترسال في أفكارك ؛ فلقاء مقدمك إلى حجرتي أنا على استعداد لأعينك في أي أمر لا قدرة لك عليه . . . . .

www.ibtesama.com

تكلمت فتنة لتردف بعد وقفة مدروسة :

- . . وأنت القادر على كل الأمور!

فرفع نايف رأسه ليفاجأ بتينك العينين الذهبيتين تطالعانه بنظرة إخلاص جعلته يزيح حذره وتردده جانباً فيسارع إلى إخبارها بسبب قدومه . وقصّ عليها حكاية عشق جناح الغريبة التي خُتمت بضربة قدر أسالت دمه ، فعلقت فتنة وهي تحني رأسها محاولة إخفاء ابتسامتها :

- يبدو أنه كُتب على أبناء (مطلق) أن يسيل قليل من دمائهم قبل أن يتزوجوا بمن يحبون!

فأجابها نايف مجارياً إياها في مكرها :

- صحيح . . . . والدم يبقى دماً سواءٌ أسال بعيار ناري أم بضربة قدر نحاسية!

فلم تستطع فتنة الامتناع عن الضحك ، حتى إذا ما سيطرت على نفسها تساءلت متشككة :

- ولكن . . . . أتستحق تلك الفتاة المجهولة أن يزدان رأس جناح من أجلها بندبة؟

وتشاغلت طويلاً بتمسيد شعر طفلتها التي حدس نايف ، من خلال انتظام أنفاسها ، أنها نامت في حُجر أمها . وتململ في موضعه وقد طال بينهما الصمت أكثر من اللازم ، فتهيأ للانصراف . لكن فتنة باغتته سائلة :

- قل لي يا نايف : لمَ قررت الاستعانة بي أنا في هذا الأمر؟

- ذلك لأنك امرأة ، وثانياً لأنك . . . .

وصمت نايف على استحياء ، فأكملت فتنة وهي ماضية في تمسيد شعر ابنتها النائمة :

www.ibtesama.com

- .. لأنني أحببتُ!

وأضافت وقد رفعت رأسها ، وعادت تتطلع بعينيها الذهبيتين إلى نايف :

- نعم . . . لأنني أحببتُ أخاك حباً هو موضع فخري واعتزازي .

وبغتة شعر نايف بأن هذه الكلمات المعدودة قد أزاحت حاجز الكراهية والاحتقار الذي كان يقوم بينهما ، شعر بأنه يكنّ احتراماً خفياً لهذه المرأة ، احتراماً أخفاه تحت قناع الكراهية والاحتقار . . . بل اكتشف هذه اللحظة أن الأسباب التي أوقعت بينهما القطيعة من قبل هي الأسباب نفسها التي تستدعي الاحترام والاعتزاز بها الآن ؛ فلو لم تكن جديرة بأخيه طارش أكانت تفوز به بيسر؟ ثم ألا تكفيه هذه الأشياء المحيطة به للبرهنة على ذلك؟ فما الذي جعل ابنة الهور - التي لم ترَ أبعد من (جباشات) قومها اللصوص - تضفي هذه اللمسات الساحرة على جناحها ، جاعلة منه أجمل أجنحة القلعة سوى حبها لطارش؟ إنها امرأة . . . امرأة جديرة بأخيه ، وليذهب هذر الآخرين إلى الجحيم!

وعادت فتنة تقول :

- سأبذل جهدي برغم خوفي من أن أكون غير مؤهلة لهذا الأمر .

- ولِمَ ترين أنك غير مؤهلة؟

فأجابته وهي تكشف عن أسنانها البيض المتراصة بابتسامة عريضة :

- ذلك لأن نساء الديرة ينظرن إليّ بالنظرة نفسها التي كنتَ تنظر بها إليّ!

وشعر نايف بسخونة وجهه الذي لا شك أنه احمرّ خجلاً ، وفتح فمه ليدافع عن نفسه . لكن فتنة أعفته من ذلك بأن أضافت قائلة :

www.ibtesama.com

- لا عليك . . دع نظرتهن تلك ، فثمة نظرة أخرى توازيها ، وهي الكفيلة بترجيح كفتي ؛ هي نظرتهن إليّ بحكم كوني زوجة ابن (مطلق) كبير الديرة!

قال الراوي : وكانت فتنة عند وعدها ؛ فمنذ ذلك اليوم دأبت ، من حين إلى حين ، على القيام بزيارات دورية إلى بيوت الديرة ، زيارات كان ظاهرها رد زيارات حظيت بها من قبل ، في حين كان دافعها الحقيقي العثور على تلك الفتاة المجهولة . وكما هو متوقع : سرعان ما شاع سر زياراتها تلك لدى الفتيات ، وبذلك تعقدت مهمتها أكثر ؛ فما من أسرة لا تتمنى أن يصاهرها أحد أبناء (مطلق)! . . وهكذا غدت فتنة تُستقبل في كل بيت تدخله ببنت تكون قد زُيّنتْ وأُعدت لتغدو بديلة تلك الفتاة المجهولة ، وهذا الأمر دفعها إلى أن تصارح (نايف) - الذي كثر تردده على جناحها - بعدم جدوى زياراتها تلك . وحينما ترجاها نايف ألا تيأس ، أجابته معترضة :

- لعل الفتاة ليست من ديرتنا ، إنما قدمت إليها زائرة بعض أقاربها .

لكن (نايف) أفحمها بقوله :

- أيعقل أن ترد (الشريعة) مَن جاءتْ زائرة؟

قال الراوي : وتجددت آمال فتنة ، فاغتنمت مناسبة ختان ابنها منهل بتوجيه دعوات إلى أجمل فتيات الديرة لمشاركتها في احتفالها بهذه المناسبة . وكلّمت (نايف) بشيء من المكر والمباهاة :

- لا شك أنها ستكون بينهن ؛ إذ يفترض بشقيق طارش أن يضارع أخاه في حسن الاختيار!

وطلبتْ من نايف أن يوصي (جناح) بأن يتخفى في موضع ما من القلعة ليختلس إليهن النظر ، حين اجتيازهن تلك المسافة القصيرة التي

www.ibtesama.com

تفصل البوابة الخارجية عن جناحها ، لعله يشخّصها من بينهن .

وكان يوماً مشهوداً رفرفت فيه عشرات العباءات في الريح حول قامات حسان الديرة وهن يرتقين سفح التل ليدخلن القلعة مخلفات للشباب الذين تجمّعوا هنا وهناك حسرات كان يزيد من حرقتها أريج عطورهن المشفوع بلمحات خاطفة من سيقان وأذرع وزنود كانت الريح تعرّيها خطفاً قبل أن تغرقها العباءات بسوادها الكريه من جديد . وكان ذلك اليوم من أسوأ الأيام التي مرّت بخضر ؛ ذلك لأنه كان اليوم الوحيد الذي غدت فيه القلعة محط ذلك الحشد المنتقى من فاتنات الديرة دون أن يحظى منهن بنصيب ؛ فقد شدد إخوته عليه الحصار مراقبين إياه بعيون مفتوحة على سعتها خوفاً من أن يقدم على عمل طائش ليس في الحسبان ، حتى أنه لم يملك في النهاية إلا أن يُفرغ غيظه في منهل الذي كانت أمه فتنة قد أجبرته على البقاء مع أعمامه لتبعده عن أريج العطور ، وكانت قد ألبسته (دشداشة) بيضاء ، وعلقت في عنقه (بصلة) كان عليه أن يشمها من حين إلى حين ، وهو يتجول هنا وهناك منفرج الساقين . صاح به خضر بغضب حقيقي :

– ما ذنبي أنا لأُحاصر بهذا الشكل؟ أعليّ أن أدفع ضريبة ذلك الشيء التافه الذي بتروه لك؟

ولكن تلك المناسبة انتهت دون نتيجة أيضاً ؛ فبعدما عبقت أروقة القلعة بتلك الروائح العطرية ، وترددت الضحكات والهمسات تحت سقفها ، سارعت فتنة ، عقب توديع آخر واحدة منهن ، إلى التوجه إلى حجرة الأخوة ووجهها المشرق ينطق باللهفة في انتظار سماعها النبأ السعيد . لكن نظرة واحدة ألقتها على جناح الذي كان وجهه يحاكي وجوه الموتى شحوباً ، جعلت البسمة تنطفئ على فمها . وسارع جناح يقول بصوت متهدج من الانفعال ، وكأنه يحاول الدفاع عن نفسه :

www.ibtesama.com

ـــ وكيف أستطيع أن أُشخّص بغيتي وسط سرب فتيات ملفعات بعباءات سود جعلتهن يتشابهن تشابه سرب زرازير؟

- وأنتِ؟ . . . ألم تقفي على شيء؟

تساءل نايف ، فهزت فتنة رأسها سلباً . لكنها أبدت ملاحظة عرضية مشفوعة بضحكة تهكم :

- كما توقعت : لقد كُنّ جميعهن على علم بسر هذه الدعوة!

فتساءل نايف وقد تجددت آماله :

- وما أدراكِ بذلك؟

فأجابته مطلقة لضحكتها العنان :

- لقد زيّنت كل واحدة منهن شعرها بريشات صفر!!

- جميعهن؟

عاد نايف يسأل وهو يشاركها في الضحك ، فأجابته وهي في طريقها للانصراف :

- جميعهن . . . باستثناء واحدة!

فوثب نايف نحوها وقد نسي نفسه ، وانقضّ على زندها ممسكاً به وهو يصيح متسائلاً :

- باستثناء واحدة؟ قلتِ واحدة؟

فرمقته فتنة بنظرة دهشة ، وأجابته مخلّصة زندها منه :

- نعم واحدة!

- وهل كانت هذه الواحدة جميلة؟

- بل كانت أجملهن!

فجال نايف بنظرة انتصار على إخوته ، ليثبتها في آخر الأمر على وجه جناح الشاحب معلناً بثقة :

- إنها . . . هي!!

www.ibtesama.com

قال الراوي : وكان توقع نايف في موضعه ؛ فقد تبين لـفتنة – عقب الزيارة الخاطفة التي قامت بها لبيت تلك الفتاة في اليوم التالي – أنها هي حقاً . وكان اسمها نعناعة ، وحيدة زوجين حُظيا بها على كِبر ؛ فبالغا في تدليلها : لا يكادان يمنعان عنها أي شيء تطلبه . وتحدثت أمها الكهلة إلى فتنة عن الدمى التي كانت تصنعها لها – وهي صغيرة – من الخرق المحشوة بالصوف ، وعن الأقفاص التي كانت تربي فيها أصناف الطيور المغردة ولاسيما البلابل ، وعن (ابن عرس) جلبه لها أبوها من البستان وهو لا يتجاوز الإصبع طولاً ، فحدبت نعناعة عليه تسقيه الحليب وتطعمه اللحم حتى نما وكبر ، وأخذ يتعقب نعناعة أينما تحركت في أرجاء البيت أو الزقاق ، وثمة جرس فضي يرن في عنقه . لكن نعناعة قطعت على أمها كلامها وقد دمعت عيناها :

– لكنه هجرني . . . . ما أن كبر حتى اختفى بجرسه الفضي إلى الأبد!

وسارعت نعناعة تمسح الدمعة التي نزلت على خدها المتورد لتعلق مسوّغة سلوكها ، وقد أشرق فمها الأحمر بابتسامة زاد من جمالها منظر عينيها المغرورقتين بالدموع :

– إلا أن ذلك أمر مضت عليه أعوام . . . . يومذاك كنت لا أزال صغيرة!

فقالت الأم وقد كشفت بابتسامة عريضة عن فمها الذي كاد يخلو من الأسنان :

– مجنونة . . . لقد نما جنونها معها وهي تكبر حتى بلغ بها الأمر أن تجبر أباها ، في أحد الأيام ، على اصطحابها إلى . . . .

– أمي!!

صاحت بها نعناعة محذرة . لكن الأم مضت في (فضح) ابنتها

www.ibtesama.com

وقد وقعت أسيرة موجة مرح :

- دعيني أحدثها . . . لقد . . . لقد طلبتْ من أبيها أن يصطحبها إلى المضيف!!

فتساءلت فتنة وهي تدق على صدرها :

- وهل اصطحبها؟

فهزت الأم رأسها إيجاباً وقد عجزت عن الكلام لشدة استغراقها في الضحك ، حتى إذا ما سيطرت على نفسها أطلقت للسانها العنان :

- وكان الذنب ذنب أبيها ؛ فما من مرة عاد من المضيف إلا حدثنا عن كذا وكيت مما يجري هناك ، وعن (مطلق) وأبنائه ورجاله . . . كل ذلك ونعناعة تراقبه مأخوذة ، تستزيده الكلام إن صمت ، حتى فاجأتنا في إحدى المرات بطلبها الغريب ذاك . في البداية لم يصدقها والدها ؛ ذلك لأنها كانت قد كبرت حتى كادت تدخل طور البلوغ ، مما كان يستحيل إدخالها المضيف ، وحينما مضت في إلحاحها حاولتُ أنا ثنيها هذه المرة ، مخبرة إياها بأن طلبها هذا ليس على شاكلة طلباتها وهي طفلة . لكنها مضت في عنادها وامتنعت عن تناول الطعام ؛ فكان لا بد لنا في النهاية من الإستجابة لطلبها!

فتساءلت فتنة مبهورة ، وقد التفتت نحو نعناعة ، قارصة إياها في صدرها :

- وكيف أخفيتِ رمانتيك الريانتين هاتين وأنتِ تدخلين المضيف؟

فأجابتها نعناعة وهي تغالب ضحكها بصعوبة :

- كنتُ لا أزال أصغر مما أنا عليه الآن ، كما أنني ارتديتُ ثوباً رجالياً وأخفيتُ شعري تحت الكوفية والعقال ، ملففة جسمي كله بعباءة رجالية!

- مجنونة . . . ألم أقل لكِ أنها مجنونة؟

www.ibtesama.com

عادت الأم تعلق تمهيداً للاسترسال في الكلام :

– لقد تدربت على زيها الجديد أياماً : كانت تمشي به في أرجاء البيت وتجلس ، وتصيح (صبحكم الله بالخير) وهي ترفع عجيزتها عن الأرض قليلاً كأي رجل ، واضعة يمناها على صدرها . . .

وباتت نعناعة تنافس أمها في حماستها في إكمال الحديث بعدما كانت تعترض عليها في البداية :

– لكن أبي فاجأني في اليوم الموعود باعتراض مفحم عن انطباع الناس عنه وهم يرونه يصطحب غلاماً برغم معرفتهم بأنه لم يرزق بذكر؟ فطلبتُ منه أن يدعني أتعقبه على مسافة ، وأجلس في المضيف بعيدة عنه ، وكأن أحدنا ليس على معرفة بالآخر!

وعادت فتنة تتساءل مستفظعة :

– وهل جلست في المضيف؟

– جلست . . . وأجبتهم على عاصفة (الله بالخير) التي انطلقت من كل جانب . . . ولكن . . . لا أكتمك يا أختاه : لقد كان قلبي يدق في صدري بشكل كان يجعل حاشية العباءة القريبة من عنقي تهتز بشكل ظاهر للعيان!

– لا أكاد أصدق ذلك!

صاحت فتنة ، فأجابتها نعناعة :

– صدقي يا أختاه . . . لقد جلستُ في المضيف أكثر من ساعة . . . وتطلعتُ إلى (مطلق) وأبنائه عن قرب!

فسألتها فتنة وهي تقرصها مجدداً :

– أخشى أن تكوني قد وضعت عينك على جناح منذ ذلك اليوم!

فأجابتها نعناعة بمكر :

– أبداً . . . لم أكد أشخّصه يومذاك . كان ما يهمني أن أراقب

www.ibtesama.com

(مطلق) في كل حركة يقوم بها أو كلمة ينطق بها . . . . لقد سحرني الرجل حتى كدت ألا أتنبه إلى أبنائه!

فتساءلت فتنة عابثة هذه المرة :

– ما هذا؟ هل وضعتِ عينك على الأب قبل الابن؟

– لو أنه كان أصغر بثلاثين عاماً أو عشرين ، ولو أنه لم يتعلق بامرأته رازقية هذا التعلق لما منعني شيء عن ذلك!

أجابتها نعناعة وهي تغرق في الضحك ، فسألتها فتنة مجارية إياها في عبثها :

– و . . . جناح الذي سحرته يوم نتفتِ الريشات الصفر من بلبله؟

– وما أدراني بأن ذلك العمل العابث سيورطني به؟

صاحت نعناعة وهي تكاد تستلقي على ظهرها من شدة استغراقها في الضحك . واستطردت في كلامها وسط شهقاتها المتلاحقة :

– لقد رأيته فيما بعد يقدم إلى (الشريعة) أكثر من مرة ممسكاً ببلابله المرفرفة بين أصابعه ، فعمدت إلى إخفاء وجهي بطرف عباءتي ، أو الإسراع في العودة إلى البيت ؛ إذ إنني بتُّ أُشكك في صدق نيته ، فضلاً عن أنني كنت قد زهدتُ في اللعبة بعدما فقدت سحرها!

– هكذا هي . . . مجنونة تسير على هواها!

عادت الأم تكرر لازمتها ، في حين تساءلت فتنة :

– ولكن . . . لمَ لمْ تعرّفي بنفسك بعد شيوع قصة تعلّق جناح بك؟

– قلت لك بأنني بتّ أشكك بصدق نيته ولاسيما حينما اكتشفتُ أنه لا يقل جنوناً عني ، فضلاً عن أنني لم آخذ الأمر على محمل الجد!

www.ibtesama.com

- والآن؟ هل ترين الأمر جداً؟

سألتها فتنة مبتسمة، فأجابتها نعناعة قبل أن تنفجر ضاحكة:

- وما أدراني بأنه يضاهيني في جنوني؟!

وهكذا استطاع أبناء (مطلق) أن يتنفسوا أخيراً بارتياح، وكانوا أكثر إلحاحاً من جناح نفسه على أبيهم من أجل الإسراع في تزويجه بنعناعة، ولم يمانع (مطلق) في هذا الزواج؛ فقد تساءل مجيلاً عينيه في وجوه أبنائه:

- ولم لا أُزوّجه بها؟ فما دمتُ قد سبق لي أن زوجت (طارش) بابنة . . .

وقطع كلامه مستغفراً الله ليردف قائلاً:

- حسن . . . ما المانع من أن أزوّج جناح بابنة رجل من ديرتي معروف الحسب والنسب؟

وزُفّت نعناعة إلى جناح زفة حاول (مطلق) أن يثأر بها مما لحقه من إحراج في زواج طارش؛ فبالغ في الاحتفاء بالمناسبة، ونحر عشرات الذبائح، وأطلقت مئات العيارات النارية في الهواء، ودامت الأفراح سبعة أيام بلياليها. وكان جناح قد اختلى بعروسه، فوجدها درّة لم تثقب ومهرة لم تركب.

قال الراوي: وكانت زفة جناح تلك مفتتح زفات تعاقبت خلال أعوام معدودة؛ ذلك لأن أبناء (مطلق) الآخرين تزوجوا واحداً عقب الآخر، فبات في وسع قاصد أن ينام دون أن يخشى ذلك الشيطان اللعين الذي يراوده عن نفسه؛ فهناك زوجة أنقذته من ذلك بالحلال، فضلاً عن إسراعها في تسخين الماء له فلا يضطر إلى الاستحمام في مياه النهر المتجلدة، وتكون عادة في انتظاره بالمنشفة والملابس النظيفة!

أما خضر فقد تزوج بالفتاة الوحيدة التي لم يستطع الإيقاع بها

www.ibtesama.com

برغم مطاردته إياها أعواماً . ويوم زفته تنفس الآباء والأزواج والأخوة الغيورون الصعداء . وكذلك تزوج ربيع وحاصود ، ولم يبق سوى نايف سابع أبناء (مطلق) ؛ فعادت نظرات القلق تتواثب تحت حاجبي أبيه الكثيفين وهو يتعقبه بعينيه في رواحه ومجيئه ، وكان الأمر الوحيد الذي ينغّض عليه سعادته هو أنه لم يكحّل عينيه بعد بزواج آخر أبنائه قبل أن يغدر به الزمن الذي لا يرحم!

www.ibtesama.com

كتاب الكتب

سِفر الألف المحذوفة

وسط ضجة نغمات رباب (القصخون) الاحتفالية ، وهو ينهي القسم الثالث من (السيرة) بسلسلة زيجات أبناء (مطلق) الصاخبة ، تراءتْ لي ورقاء ترفل في ثوب عرس أبيض تمسّ أذياله الأرض من حولها ، والطرحة المعهودة تحيط بشعرها الأسود ، تعلوها حلية فضية مرصعة باللؤلؤ على شكل تاج .

صورة تفاءلتُ بها خيراً ؛ فدوّنتُ في الدفتر آخر كلمة من قسم (عذيب العاشق) قبل أن أوقف جهاز التسجيل منهياً بذلك تفريغ الكاسيتات الثلاثة . وكنتُ قد تقدّمتُ كثيراً في مشروع روايتي ؛ فقد توضحتْ خطة عملي تماماً بفضل دفتر ملاحظاتي ، ولم يبق أمامي سوى الحصول على القسم الذي كتبه (السيد نور) من مخطوط (الراووق) ، أو في أقل تقدير الحصول على تلك الأوراق التي تكشف سر تحوّل (السيرة) من مرحلتها الشفهية إلى مرحلتها الكتابية التي من المؤكد أنها تتضمن كشف خفايا تلك الأحداث المحظورة المعروفة باسم واقعة (دكة المدفع) ؛ فالدلائل كلها تشير إلى أن تلك الأحداث كانت السبب الرئيس لذلك المنع .

كان عليّ العودة مجدداً إلى زيارة المتحف بعد انقطاع طويل استغرق العطلة الصيفية كلها استثمرته في تفريغ تلك (الكاسيتات) ،

www.ibtesama.com

بيد أن تذكّري لزيارتي الأخيرة إلى المكتبة - مستعيداً بالمحصّلة تلميحات تينك الموظفتين إلى احتمال كون ورقاء خُطبت أو تزوجت - أجهز على أية رغبة لديّ في التوجه إلى هناك ؛ ذلك لأنني لم أدرك أهمية ورقاء في حياتي إلا بعد غيابها : فبرغم أن (إلهام) - تلك الأنثى المجهولة - بقيتْ تطاردني باتصالاتها الهاتفية التي أمست أكثر حميمية بمرور الزمن ، لكنها لم تستطع أن تنسيني ورقاء : كنتُ أتوقف أحياناً بقلمي هذا وأنا في منتصف جملة ، متذكراً ابتسامتها المشرقة المرحبة بي ، وحركتها الأثيرة في نفض شعرها إلى الوراء لتتسنى لها رؤية صفحة السجل التي تكتب فيها ، محركة شفتيها بصمت مع حركة قلمها . وكنت أتذكر سطوع عينيها المتفجرتين حيوية وسط سواد الكحل . كما كنت أستعيد تفاصيل أول لقاء لي معها في القاعة (النورية) وآخر لقاء تكرر في القاعة عينها ، ومعها كنت أُشبع نفسي لوماً وتقريعاً ؛ فانشغالي المبالغ فيه بهذه الرواية جعلني أفرط بها مفضلاً عليها تسطير الصفحات البيض بالحروف والكلمات ليس طمعاً في شيء سوى أن أجعل لحياتي معنى . تُرى ألم يكن في وسعي أن أجد في حب ورقاء مثل هذا العزاء؟

وتحوّل لومي لنفسي إلى ضرب من جلْد للذات ؛ فقد أفزعتني تلك اللامبالاة التي عاملتُ بها تلك العاطفة النبيلة حتى بلغ الأمر بي أنني لا أزال أجهل عنوان ورقاء ومحل سكناها في هذه المدينة الواسعة . ولم تكن بي حاجة بطبيعة الحال للتفكير بزيارة المكتبة للحصول على ذلك العنوان ؛ إذ من المؤكد أن تينك الموظفتين ستكونان واقفتين لي بالمرصاد!

لكن الحل تمّ في آخر الأمر على يد بدر فرهود الطارش ؛ فقد اتصل بي هاتفياً في أحد الأيام بحجته المعهودة التي تتلخص بالسؤال عن

www.ibtesama.com

(أحوالي) بعدما امتدّ انقطاعي عن المتحف مدة أشهر الصيف . ومضى في إشباعي لوماً وتقريعاً وهو يحوم حول (الموضوع) الذي كان السبب المباشر لاتصاله ذاك ؛ فسألني عن مشاريعي (الإبداعية) وعن ضرورة استثمار أيام الخريف التي يراها أقرب ما تكون إلى أيام الربيع بعد ذلك الصيف القائظ . وعقب إطلاقه ضحكة سألني دون مواربة عن مدى تقدمي في إنجاز الرواية المنتظرة؟ وحين أعطيته جواباً مبهماً عن طبيعة عملي ، وكيف أن إنجاز رواية من رواياتي يقتضي مني أن أكرّس لها ثلاثة أعوام أو أربعة ، قاطعني قائلاً :

– تعال غداً إلى المتحف لتتأكد من صحة ذلك الاستنتاج الذي أخبرتني به في آخر زياراتك عن كوننا ، نحن الاثنين ، نماثل بعضنا بعضاً في محاولتنا تلافي ذلك (النقص) الحاصل . تعال فقد هيّأتُ لك نسخاً مصورة عن غالبية تلك الأوراق التي تم العثور عليها خلال ربع القرن الذي مضى على مشروع شبيب في تحقيق المخطوط ؛ ذلك لأنه من المؤكد أنك ستعثر بينها على أوراق عديدة عائدة لـ(السيد نور) .

وأضاف مزيّناً لي الأمر :

– من الأفضل لك الاطلاع سريعاً عليها من أجل دراستها والتدقيق فيها ومعرفة الثغرات التي تعتورها – فهي ، كما تعلم ، مجمّعة من ملفات مختلفة – وما أشبه من أمور يفترض بك إنجازها قبل موعد (تعفير) مخازن المخطوطات ؛ فحينها سيعمد المسؤولون عن تلك العملية إلى رفع المخطوطات عن رفوفها وخزاناتها ، وهي خير فرصة للعثور على الأوراق الناقصة .

وأنهى كلامه بجملة خفق لها قلبي :

– النسخ المصوّرة ستجدها لدى ورقاء . . .

www.ibtesama.com

فقاطعته بانفعال تلقائي :

– من؟ ورقاء؟

فتساءل دهشاً :

– نعم . . . ورقاء! . . ألا تعرفها؟ إنها الموظفة المسؤولة عن الاستعارة ، والواقع أنها هي التي تقف وراء إعداد تلك النسخ المصورة لك ؛ فمنذ انتهاء إجازتها والتحاقها بالعمل وهي لا تألو جهدها في استثمار تلك النصيحة التي سبق لي أن أسديتها لها ولمن معها بضرورة مساعدتك ؛ فتذكّرني بذلك كلما أُتيحتْ لها فرصة .

إذن آن لي أن أنهي ذلك القلق ، وأتأكد من سر غياب ورقاء الطويل!

صباح اليوم التالي توجهتُ إلى المتحف – بادئاً بذلك أول تغيّباتي عن مدرستي مع العام الدراسي الجديد! – لارتقي من فوري سلم المفتول الشرقي داخلاً أولى قاعات العرض متخذاً طريقي نحو المكتبة ، متخطياً بذلك التقليد المعروف في أن تكون غرفة بدر أولى محطاتي ضامناً بذلك لومه وتقريعه فيما بعد لهذا (الخرق) غير الطبيعي لـ(بروتوكولات) الصداقة!

في المكتبة كان سجل الاستعارة مهملاً في موضعه على الحاجز الخشبي دون أن يكون لورقاء أثر . وكانت الموظفتان الغريتان حاضرتين : تجلس إحداهما على كرسي في الطرف الآخر من الحاجز الخشبي وقد وقفت زميلتها فوق رأسها ، وهي تثرثر بصوت خافت ، في حين تصغي صاحبتها لها صامتة ، منصرفة بكل كيانها إلى حياكة شيء ما بين يديها . وعند خزانات الأدراج كان ثلاثة فتيان منصرفين إلى النبش في بطاقات العناوين .

فجأة شعرتُ بوجود ورقاء في الجوار ؛ هجستُ بذلك الأريج

www.ibtesama.com

العذب يملأ عليّ روحي ، وحين التفتُّ نحو الباب الزجاجي رأيته ينصفق وراءها وهي تدخل .

حيّتني بابتسامة خجلى ، وانسلّتْ خلف الحاجز الخشبي لتعلق حقيبتها على مسند كرسيها ، مبادلة زميلتيها تحيات باردة . وعمدتْ إلى السجل ، فأخذت تتصفح أوراقه على غير هدى ، مغالبة ارتباكها . وسمعتها تقول مسوّغة تأخرها بسبب قلة المواصلات ولبعد بيتها - ظننتها ذكرت منطقة (تل العاشق) موقعاً لسكناها - حينها فقط رفعتُ عينيّ نحو الساعة الجدارية لاكتشف أنني بكرت في القدوم إلى المكتبة أكثر مما ينبغي .

بدت ورقاء على غير عهدي بها : تتهرب بعينيها مني معززة بذلك شكوكي من أن (أمراً ما) قد حصل . لكن خلو أصابع يدها اليمنى - التي كانت تقلب بها الأوراق - من خاتم الخطوبة جلب لي شيئاً من الاطمئنان ، ولم يبق أمامي سوى التأكد من أصابع اليد الثانية المكورة على منديل ورقي ، وهنا خفق قلبي وقد خيّل إليّ أنني لمحتُ ومضة خاتم لم تسبق لي رؤيته في تلك اليد ، فهمستُ لها بصوت متهدج انفعالاً :

- مبروك!

- نعم؟

رفعتْ رأسها متسائلة ، نافضة شعرها إلى الوراء بحركتها الخاصة . وحينما رأتني أومئ برأسي نحو كفها اليسرى ، رفعتها متفحصة إياها باستغراب ، فإذا ببنصرها مطوّق بخاتم بزمردة خضراء جعلني أتنفس الصعداء . حينها فقط اكتشفتْ ورقاء السر ؛ فغطت فمها بالمنديل ، كاتمة ضحكة صامتة ، أنهتها بأن سألتني بمكر :

- مبروك على شراء هذا الخاتم؟

www.ibtesama.com

- لا بل مبروك على زمردته الخضراء التي أعادت الروح إلى جسدي!

فقالت وهي تبعد كفها عن عينيها وقد أفردت أصابعها ، متأملة خاتمها بإعجاب :

- كنت أبحث عن خاتم بياقوتة حمراء . ولكن لا أعلم ما الذي أغراني بشراء هذا الخاتم؟

- أما أنا فأفضّل أن يكون خاتمك عاطلاً من أي حجر كريم ، محض حلقة ذهبية لا أكثر!

- لا رغبة لي بخاتم من هذا النوع!

أجابتني بجفاء مصطنع ، وتركتني لتدلف إلى الباب المفتوح خلفها حيث ظهرت بعد لحظات حاملة كيساً كبيراً مملوءاً بالأوراق . وأوضحت وهي ترمق زميلتيها بنظرة سريعة :

- أنها نسخ مصوّرة عن أوراق سقطت من ملفات أو مخطوطات مجهولة العناوين ، وثمة أوراق أُخرى لم أستطع لقدمها وتمزقها تصويرها ، وسيتم ذلك بعد الانتهاء من صيانتها وترميمها وذلك بطلب من الأستاذ بدر نفسه .

أنهتْ كلامها مؤكدة كلماتها الأخيرة بنبرة خاصة كأنها كانت تستهدف بها سمع زميلتيها اللتين كانتا قد استدارتا بكامل جسديهما في اتجاهنا مترصدتين حركاتنا وسكناتنا بعيون مفتوحة على سعتها!

في طريق الخروج مررتُ بغرفة بدر ؛ فجابهني بالتقريع المتوقع :

- سيشفع لك هذا الكيس الذي تحمله ؛ فهو خير دليل على مدى اندفاعك لإنجاز الرواية ، ولولاه لما عذرتك في عدم مرورك بغرفتي أولاً!

وحينما حاولت إبداء اعتذاري سبقني في طرح سؤال لم يخامر ذهني من قبل :

www.ibtesama.com

- قل لي : كيف سيتسنّى لك العثور على الأوراق العائدة لـ(السيد نور) وسط هذا الركام الضخم؟

- بقراءتها كلها بطبيعة الحال فارزاً المكتوبة منها بخط (الرقعة) الذي يشاع أن (السيد نور) كان يكتب به .

- لكنني سأهديك إلى طريقة أسهل وأكثر دقة ؛ إذ يحتمل وجود آخرين كتبوا بالخط نفسه . . . هيا بنا .

وقادني من يدي صاعداً بي من جديد نحو المكتبة .

- عليك أولاً الاهتداء إلى أقدم الأوراق المكتوبة بخط (الرقعة) وذلك ما لن تفلح فيه مع هذه النسخ المصورة التي تتشابه مع بعضها بورقها الجديد ، ولا بد من الاستعانة بالنسخ الأصلية للحصول على ذلك الفرز ، وهذا عمل لن يتعبك كثيراً ؛ فالأصول مرتبة في معمل الصيانة والترميم بتسلسلها نفسه في أوراق هذا الكيس .

وكما ذكر : كانت الأوراق التي تمّ تصويرها مرتبة في المعمل على أحدى المناضد ، وثمة أوراق أخرى لم تجف بعد صيانتها وترميمها كانت موضوعة تحت لوح زجاجي سميك على منضدة ثانية .

إنه منظر ذكّرني بذلك المقطع الذي كتبه شبيب في أوراقه ؛ ذلك لأن كل شيء بدا مثلما كان عليه منذ ربع قرن تماماً ، والتغيير الوحيد الحاصل كان يتمثل ببدر نفسه ؛ فقد أمسى أقل تشدداً وتحفزاً لمنعي من لمس تلك الأوراق العتيدة شأنه مع شبيب ، أمر واحد كان لا يزال متمسكاً به وهو إصراره الذي لم يتزعزع في منع إخراج ورقة واحدة من تلك الأوراق خارج المتحف ؛ فلحظة طلبتُ منه ذلك أجابني رامقاً إياي بنظرة استنكار :

- ذلك ضرب من المحال ؛ فما أدراني أنك ستصل سالماً بهذه الأوراق إلى بيتك ولا تصدمك في الطريق سيارة - لا سمح الله - أو

www.ibtesama.com

أن حريقاً لا يشب الليلة في بيتك؟

فاستعذتُ بالله ، وحاولتُ ثنيه عن إصراره بقولي :

– ولكن فرز كل هذه الأوراق لن يتم في يوم أو اثنين ؛ إنما قد يتطلب الأمر أسبوعاً سيتحول إلى أسابيع بحكم كوني مدرّساً يقتضي مني عملي أن أمرّ على مدرستي من حين إلى آخر .

فكان جوابه أن دسّ مفتاح المعمل في يدي ، وقال وقد شرعت عيناه الزرقاوان في الاختفاء وسط شبكة الغصون المحيطة بهما بفعل ضحكة :

– تستطيع دخول المعمل وقتما تشاء متخطياً (بروتوكولات) الصداقة المعمول بها!

وهكذا ؛ غدوتُ من رواد تلك الغرفة : ما تكاد تسنح لي فرصة حتى أتسلل من المدرسة لأستقلّ أول سيارة تحملني نحو (تل الأربعين) فأدخل المتحف متخذاً طريقي نحو المكتبة قبل أن أدخل معمل الصيانة حيث أطبق الباب خلفي ، معاوداً بذلك سيرتي القديمة في الاستغراق بعملي وكأنّ وجود ورقاء في موضع قريب مني أعفاني من مهمة (القلق) عليها!

كنتُ أقضي ساعات وسط جو مثقل بروائح الورق القديم والمواد الكيمياوية الخانقة وأنا منهمك في مطابقة النسخ المصورة بإصولها ، مصنفاً إياها بحسب قدمها ، حتى إذا ما نجحتُ في عزل أقدم الأوراق عمدت إلى تلك المجموعة لأفرد منها الأوراق المكتوبة بخط (الرقعة) ، فتجمّع لديّ ، بعد مضي أسابيع ، عدد لا بأس به عزلت النسخ المصورة عنه في كيس ، كما وضعت النسخ المصورة عن الأوراق الأخرى في كيس ثانٍ حملتهما معاً إلى غرفة بدر لأقول له :

– الآن انتهى دور الشكل ليبدأ دور المضمون ؛ إذ عليّ الآن

www.ibtesama.com

الاعتكاف في بيتي مستهدياً سبيلي نحو أوراق (السيد نور) من خلال المضامين ، معتمداً في ذلك على نسخة مصورة عن تلك الورقة اليتيمة التي كانت السبب المباشر في إجهاض مشروع شبيب في التحقيق .

كانت مضامين تلك الأوراق فوضى تبعث على الدوار : فكل ورقة منها كانت تفاجئني بأمور لا تخطر على البال ؛ ذلك لأنها كانت ساقطة أو منتزعة بشكل عشوائي من موضع ما من سياق إحدى نسخ (الراووق) ؛ فلذلك كانت تضعني في قلب موضوع لا علم لي به . وكان العديد من الصفحات مملوءاً بصور وأشكال متعددة لأوفاق وأدعية و(حروز) معمولة لغايات متعددة : صور مستطيلات متداخلة ببعضها تتوسطها مثلثات تحوي مربعات أو دوائر ، وكلها مملوءة بحروف وأرقام وكلمات تتكرر فيها كتابة اسم (الله) مؤطراً بواحد من الحروف الأبجدية . دوائر متداخلة ببعضها توزعت فيها أسماء البروج والأشهر والفصول وعناصر الطبيعة الأربعة . مربعات ومستطيلات ودوائر أضلاعها ومحيطها حروف من آيات قرآنية عوضاً عن الخطوط . صور لموازين الأعمال . مربعات مُلئتْ بحروف تبدو متكررة حين قراءتها من زواياها ، لكنها تعطي معاني قدسية حين تقرأ أفقياً ، ومعاني أُخرى حين تقرأ عمودياً ، أو من الأسفل إلى الأعلى . أسماء الله الحسنى موزعة على مربعات ، وتحتها القيمة العددية لكل اسم . أسماء ملائكة مختلطة بأرقام وحروف . أشكال تحتوي على رموز مبهمة!

كنت خلال قراءتي لتلك الأوراق أقع أحياناً على أوراق كتبها بعض قيّمي المزار حتى إنني - واستناداً إلى ما كتبه (ذاكر القيّم) في صفحاته الثماني - عثرتُ على أوراق دلّت مضامينها على أنها كتبت من قبل (حليم الغياث) أو (فرج الغياث) فضلاً عن آخرين . كنتُ أكتفي بقراءة مضامين تلك الصفحات بدافع الفضول قبل أن أنحيها

www.ibtesama.com

جانباً ؛ فهدفي لم يكن بطبيعة الحال تجميع المتن القديم لـ(الراووق) وذلك ليقيني باستحالة ذلك ؛ إذ ستبقى عشرات الأوراق مفقودة ، لا سبيل إلى العثور عليها ، بل كنت بإزاء متن جديد للمخطوط أخذ - بسبب روايتي هذه - بالظهور ، متن لا يحتوي تلك الكتابات التي كانت فصولاً من المخطوط الأصلي فحسب ، بل يحتوي صفحات (ذاكر القيّم) و(شبيب طاهر الغياث) ومشروع (بدر فرهود الطارش) في إقامة متحفه وكتاباتي هذه ؛ فهدفي يتخطى (الراووق) إلى كتابة رواية عنه ؛ وذلك هو ما جعلني أركّز على الأوراق التي يحتمل أن يكون (السيد نور) قد كتبها بخط (الرقعة) .

لقد امتلأت غرفة (الأرسي) والسرير والطاولة ، بل الأرض نفسها ، بتلك النسخ المصورة بشكل ذكّرني بذلك المقطع الذي كتبه شبيب عن تلك الغرفة القابعة في نهاية مخازن المخطوطات ، وكيف أنها لفوضاها غدت تُعرف باسم (متاهة الراووق) ؛ لقد بدت غرفة (الأرسي) مشابهة تماماً لتلك الغرفة التي رأيتها بخيالي وقد أحاطت فوضاها بشبيب وهو ماضٍ في تحقيق المخطوط . لكن المفارقة أنني على النقيض منه اتخذتُ من الورقة - التي أجهضتْ مشروعه - دليلاً لي للاهتداء إلى الصفحات التي كتبها (السيد نور) معتمداً في ذلك على كون تلك الورقة الوحيدة (معقّبة) : فأسفل الوجه الثاني منها كُتبتْ كلمة مفردة تشير إلى أول كلمة من أول سطر من الورقة التالية المفقودة - كما هو الشائع في أغلب المخطوطات - كما أن أول كلمة من السطر الأول للوجه الأول تشير بطبيعة الحال إلى الكلمة (المعقبة) المكتوبة أسفل الوجه الثاني من الورقة المتقدمة المفقودة ؛ وهكذا بات في وسعي تحديد الورقتين اللتين تسبق إحداهما تلك الورقة والتي تليها . وبما أن تلك الأوراق كانت مكتوبة بخط الرقعة لم يبق أمامي سوى التدقيق

www.ibtesama.com

في مضامين تلك الأوراق وصولاً إلى هدفي . وكانت النتيجة مشجعة : فقد تمكّنتُ من ترتيب صفحات من تلك الأوراق عن طريق (التعقيب) يجمعها مضمون بدا من الواضح أنه من تأليف (السيد نور) ؛ فقد أخذت الأحداث تنتظم بالتدريج ، وانكشف سبب منع الراوي الرابع - من قبل المشيخة - من سرد ذلك القسم علانية شأن الأقسام الثلاثة السابقة التي كانت شائعة على الألسن ، مما دفع بـ(السيد نور) إلى تدوينها كلها ناقلاً بذلك (السيرة) من مرحلتها الشفهية إلى المرحلة الكتابية ، كما تكشّفتْ وقائع (دكة المدفع) التي كانت - كما سبق لي أن خمّنتُ - هي سبب ذلك الحظر!

بيد أن فجوات بقيت - كما هو متوقع - تعتور ذلك المضمون ؛ فثمة أوراق لا تزال ساقطة قد لا يتعدى عددها في كل موضع ورقة أو ورقتين ، إلا أن سقوطها أدى إلى حصول خلل كان لا مفر لي من تلافيه .

كنت في سباق مع الزمن : أحاول حصر تلك الثغرات قبل حلول موعد (تعفير) مخازن المخطوطات ، وقد توصلتُ إلى ذلك في الوقت الملائم : فقد سجلتُ في ورقة من نسختين - احتفظتُ بإحداهما في درج مكتبي للرجوع إليها لاحقاً - عدد الثغرات والكلمات التي تبدأ بها الأوراق المفقودة والتي تنتهي بها . ويوم غادرتُ بيتي لأتجه نحو المتحف اكتشفتُ أن انشغالي بعملي كان قد أفقدني الشعور بالزمن ؛ فبرغم أنني كنت أتوجه يومياً إلى المدرسة لكنني أدركت ، صباح ذلك اليوم فقط ، أن الشتاء كان قد هيمن دون أن أدري ؛ فقد بدتِ السماء ملبدة بالغيوم وثمة قطرات مطر ترقّط الزجاجة الأمامية لسيارة الأجرة حيث كانت البروق تومض لتعقبها الرعود في قصف يطغي على صخب مدينة (الأسلاف) .

www.ibtesama.com

في المكتبة ما كدتُ أضع تلك الورقة على الصفحة المفتوحة من سجل الاستعارة حتى أخذت ورقاء تتلفت حولها مصعوقة ، وقد احمرّ وجهها خجلاً . وفوجئتُ بها تحاول إطباق السجل على الورقة مخفية إياها ؛ فأوضحتُ لها بصوت حرصتُ على أن يتناهى لسمع تينك الموظفتين خوفاً من أن تؤولا تلك الورقة التأويل المتوقع منهما :

– لقد دونتُ فيها كلمات قد تبدأ بها بعض الأوراق المفقودة أو تنتهي على طريقة (التعقيب) المعهودة عساك أن تستعيني بها عند (التعفير) للعثور على ما يسد الثغرات الحاصلة في الأوراق التي توصلت إلى ترتيبها بحسب تسلسلها القديم .

ومضت ورقاء تقرأ تلك الكلمات مع نفسها ، حتى إذا ما انتهت منها رمقتني بنظرة خيبة ويأس ، وعلقت متهكمة :

– آمل ألا تكون قد نسيت مسح آثار بصماتك عن هذه الورقة خوفاً من أن تتخذ دليلاً مادياً ضدك لا سمح الله!

وتركتني وقد لجمتني الدهشة لتدخل الباب المفتوح خلفها ، فعدت أهبط السلالم محاولاً جهدي اكتشاف سر خيبتها المفاجئة . وبغتةً تجمّدتُ في موضعي : تُراها كانت تتوقع أن أدسّ بين تلك المفردات كلمات ذات دلالة خاصة كأن أعترف لها بحبي مثلاً؟

وتذكرتُ التفاتتها المذعورة واحمرار وجهها ومحاولتها إخفاء الورقة بالسجل .

من المؤكد أنها كانت تتوقع ذلك!

يا إلهي! . . . أيعقل أنها كانت تنتظر مني أن ألجأ إلى مثل هذه الوسيلة المبتذلة التي لا يلجأ إليها عادة إلا المراهقون؟

ولكن . . . أليس الحب ضرباً من طفولة الروح يتساوى فيها المراهق والكهل . . . بل العجوز؟

www.ibtesama.com

وهكذا عدت إلى البيت محمّلاً بمعين لا ينضب من القلق وتقريع النفس وغيرها من أمور اعتدت أن اختلقها اختلاقاً من أجل عرقلة مشروعي الروائي ، فكيف بها وقد قُدِّمتْ لي على طبق من ذهب؟

كان قلقاً أخفيه وراء هدوء ظاهري مخادع ؛ إذ إنها الفترة الوحيدة التي غدوتُ فيها مدرساً مثالياً : أصل إلى المدرسة قبل رنين الجرس بدقائق ، ولا أغادرها إلا مع رنين جرس الدرس الأخير ، مثيراً بذلك دهشة مديري الذي سألني أكثر من مرة إن كنت على ما يرام ولا أشكو من علة ما؟ فطمأنه صديقي الشاعر طالباً منه ألا يستعجل الأمور ؛ فستأتيه أيام سيحتار خلالها في كيفية ملء دروسي الشاغرة!

والواقع أن الشاعر كان الوحيد الذي يدرك مبلغ قلقي ؛ ذلك لأنها المرة الأولى التي تداخل فيها حرصي على إكمال روايتي بترسيخ علاقتي بورقاء . وفي انتظار انتهاء عملية (التعفير) - التي أغلقت المكتبة بسببها أبوابها - كان عليه مرافقتي في جولات طويلة كنا نقوم بها في أرجاء المدينة عقب انتهاء الدوام مباشرة ، مستثمرين برد الشتاء الذي يحفّز على مثل هذا الأمر .

كنا ، في أثناء قيامنا بتلك الجولات شبه اليومية ، نشعر وكأننا عدنا طلاباً جامعيين لا يربطنا أي قيد : نتناول وجبات مرتجلة ونحن وقوف بإزاء عربات الشواء والكبة و البيض المسلوق ، لنحتسي بعدها أكواب شاي من (قهوجية) متنقلين ينصبون أدواتهم في زوايا الأسواق والشوارع ، متلذذين بالرشفات الساخنة وهي تذيب ما تجمد في أفواهنا من سمن .

كنا نتجول أحياناً حتى حلول المساء ، ذارعين الأسواق المتخصصة ببيع السلع النسائية والكماليات حيث يتزاحم الناس ، معرجين على الأسواق الموروثة ذات الطابع المعماري الخاص بها ، والتي تخترقها أزقة

www.ibtesama.com

ضيقة مسقفة . وكانت أسواق بيع الملابس المستعملة تغرينا في اجتيازها أكثر من مرة حيث السترات والمعاطف والبناطيل والقمصان والتنانير والدشاديش تتدلى من الواجهات ، غامرة وجهينا - لحظة مرورنا وسطها - بدفء الأذرع والصدور والسيقان التي شغلتها أعواماً قبل أن تُشحن من بلدان بعيدة على شكل بالات ، كنا نصادفها في الخانات الخلفية - التي تُركت لتستعمل كمخازن - مكدسة على هيئة أكوام ، تباع رخيصة لكثرة عيوبها .

وكانت جولاتنا تشمل أيضاً المرافق العصرية المحاذية لـ(وادي المر) التي تكثر فيها الملاهي والمشارب والمقاهي ، وكنا ندخل مشارب مضت علينا أعوام لم نتخط خلالها أبوابها ، أو نجلس في مقاهٍ تضج بصخب روادها ، فنتسمّر ساعات على تخوتها الصلبة المفروشة بحصران قاسية تحفر خطوطها في لحمينا ، مراقبين المارة والعابرات الرشيقات وهن لا يكففن عن المرور خلف الواجهات الزجاجية ، في حين تملأ سمعينا ضجة لاعبي (الدومينو) وهم يرصون أحجار اللعب بصخب احتفالي ، تتخللها قرقعة أحجار لاعبي (النرد) ، كل ذلك وسط رائحة الشاي النفاذة ، وقرقرة (النراجيل) ، وسحب الدخان المنبثقة من أفواه عجائز يمتصون مباسم خراطيمهم بشغف قد لا يعادله سوى شغف الأطفال الرضّع حين يطبقون أفواههم الدبقة على (رضّاعاتهم)!

وغدا مقهى (أبو بلقيس) محط رحالنا في أغلب الليالي حتى أن الرجل أُصيب بفزع حقيقي وهو يرى شبابه الخالد معرضاً للانهيار بسبب الكأس الوحيدة التي لا مفر له من أن يشاركنا فيها . لقد بلغ فزعه حداً أننا ضبطناه ليلتين متعاقبتين وهو يدندن خلالهما بالمقطع نفسه من الأغنية عينها ، وهو الذي عوّدنا على الدندنة كل ليلة بمقطع جديد!

www.ibtesama.com

وكانت الرواية محور أحاديثنا في حلّنا وترحالنا ، لا نملّ من التحدث عنها كلما سنحت الفرصة . وكان من رأي صديقي أنني أُبالغ في قلقي ، كان يفاجئني أحياناً بسؤال استفزازي يثير نقمتي عليه :

- فلنفترض أن ورقاء لن تعثر على تلك الأوراق ، أيعني ذلك أن تصرف النظر عن إنجاز روايتك؟

فكنت أرميه بنظرة استياء سرعان ما كانت تتبدد ؛ فمن المؤكد أن سؤاله ذاك له ما يسوّغه ، فكنت أُسارع إلى إجابته :

- محال ؛ فمخطوط الرواية تكاد تكون قد اكتملت كلها ، بل إن عنوانها (سابع أيام الخلق) اتخذ موضعه في دفتر ملاحظاتي ؛ فمنذ تلك الليلة التي اتصلتَ فيها بي هاتفياً ، معززاً لديّ ذلك الانطباع الذي كنتُ قد خرجت به من خلال قراءتي كتابات (ذاكر القيّم) التي كان قد دوّنها في تلك النسخة القديمة من كتاب (الإنسان الكامل) ، منذ تلك الليلة تبلور لديّ بناء هذه الرواية ؛ فبفعل مصادفة جاءت تلك الصفحات البيض في موضع احتوى في نصه الأصلي على تلك المراحل الثلاث التي تخرج بها الذات من إطلاقها إلى مسرح الوجود حيث سأتتبع عروج شخصياتي الروائية صعوداً نحو المؤلف ، وعروج المؤلف بدوره نزولاً نحو تلك الشخصيات ، ليدرك الطرفان وحدتهما على صفحات هذه الرواية : فما كان موجوداً في ذهن الروائي بالقوة - أخيلة ، صور ، أفكار ، تعينات - سيتحقق في الرواية بالفعل على شكل حروف وكلمات .

- فكرة رائعة تجعلك في غنى عن تلك الأوراق المفقودة .

- لكن السر النهائي يكمن في تلك الأوراق ؛ ففيها سر اتخاذ مخطوط (الراووق) هذه البنية الغريبة غير المعهودة في المخطوطات العربية إلا نادراً ؛ فهناك ، في تلك الأوراق ، سأقع على أول بذرة نثرها

www.ibtesama.com

(السيد نور) دافعاً كل هذا الحشد من (القيّمين) إلى إضافة فصولهم إلى المخطوط ، وكأنهم لم يكونوا سوى مشاريع أولية لروائيين حاولوا التعبير عن مواهبهم بوسائل غير مكتملة وعلى شيء من القصور ، وما ادعاؤهم تجلي (السيد نور) لهم ليأذن بالإضافة إلى المخطوط غير ضرب من رغبة إبداعية دفينة بلغت من قوتها وأصالتها حداً جعلهم يتخيلون حصول ذلك الأمر الغيبي لهم ، بل أكاد أجزم أن (السيد نور) نفسه لم يكن في حقيقته سوى روائي سبق زمنه فأفلح ليس في استيعاب أحداث عاصرها فحسب ، بل نجح في استباق الزمن وصولاً إلى المستقبل ؛ وإلا ما الذي يسوّغ حصول تلك الأمور الغيبية غير المعقولة التي توّجت باختفائه بتلك الطريقة الغامضة سوى سياق فصول (الراووق) الذي كان هو وحده من مهّد له ونظّر بذكاء خارق؟!

وهنا كان يقاطعني معترضاً :

- مشكلتك تكمن في تلك الفكرة التي أراها قد هيمنت على روايتك منذ شروعك فيها ، وهي فكرة (الكمال والنقص) .

فكنتُ أسأله بطريقة لماحة :

- أتعني تلك (الفكرة الأدبية)؟

فيجيبني ضاحكاً :

- سواءً أكانت فكرة أدبية أم لم تكن لكنني لا أملك سوى الاعتراف بأنها واحدة من الأفكار المهمة في الفلسفة الإسلامية ولاسيما في الجانب العرفاني منها حتى أن (ابن عربي) عدّ العلم بالكمال والنقص في الوجود النوع الرابع من علوم المعرفة ، فقال إن لم تخني الذاكرة : (اعلم أن كمال الوجود وجود النقص فيه ؛ إذ لو لم يكن لكان كمال الوجود ناقصاً بعدم النقص فيه) وذلك ما يعقب عليه أحد المفكرين العرب المعاصرين بقوله (من كمال الإنسان إذن أن يعلم

www.ibtesama.com

عجزه وفقره إلى الله . . . . وكمال العالم يتطلب وجود النقص فيه حتى تتحقق حكمة الله في الكون) .

وكان يختم كلامه بجملة استفزازية مفحمة :

- أترى؟ ستبقى روايتك إذن ناقصة سواءً أعثرتْ ورقاء على تلك الأوراق أم لم تعثر!

هكذا تتابعت أيام الانتظار : جولات تتخللها حوارات كانت تخفف من قلقي بعض الشيء ، حتى إذا ما انفردت بنفسي في البيت عاودني ضجري من جديد ، فلا أجد غير ورقاء مَن أُشبعه لوماً وتقريعاً ؛ إذ ألا يفترض بها أن تدرك مبلغ قلقي فتسارع في إنهاء عملية (التعفير)؟ - وكأنها المسؤولة الوحيدة عن تنفيذ تلك العملية! -

وكان ضجري قد بلغ حداً شعرت معه بأنني أعديت به (إلهام) ؛ فقد عادت ، في اتصالاتها الهاتفية ، إلى طريقتها القديمة في اللهاث والهمس بكلمات غير مفهومة ، مما أفقدني الصبر ، فصحتُ بها في إحدى المرات عن سر حرصها على الاستمرار في التحدث معي همساً؟ وسألتها أيضاً إن لم يكن ذلك يدل على أنني على معرفة بها؟ وإلا لكانت تستطيع أن تتكلم كما يتكلم (البشر)! . . . فأطبقت السماعة في وجهي ، وانقطعت عن الاتصال بي . ومرت ليالٍ لم يرن الهاتف فيها مرة واحدة ، حتى أنني كنت أشك أحيانا بحصول عطل فيه ؛ فكان لا بد لي من رفع السماعة للتأكد من أنه لا يزال يعمل!

لكنني جفلتُ صباح أحد الأيام من نومي على رنينه المعهود ، فإذا بضحكة بدر في انتظاري في الطرف الآخر من الخط . كان أقصر اتصال هاتفي يجريه معي ؛ إذ ما كاد يبلغني بانتهاء عملية (التعفير) وفتح أبواب المكتبة حتى شكرته مطبقاً السماعة في وجهه لأثب من فوري نحو ملابسي مدخلاً أحدى ساقي في البنطال ، وذراعي في كم

www.ibtesama.com

القميص ، في حين أحجل على ساقي الثانية وأنا أبحث بيدي الطليقة عن سترتي!

في المرآة الداخلية لسيارة الأجرة أزعجني منظر وجهي المزرقّ بعد مضي يومين على حلاقته . بدا ذلك الوجه المكفهر ، الذي عمّقتْ ليالي القلق والانتظار الأخاديد والغضون تحت العينين المتعبتين ، غير جدير بنظرات ورقاء .

لكن ورقاء كانت غائبة وثمة زميلة لها كانت تقف في موضعها خلف السجل . بدتْ كأنها في انتظاري ؛ ذلك لأنها ما أن لمحتني داخلاً حتى بادرتني هي بالكلام قائلة إن ورقاء تركتْ لديها مظروفاً يحتوي على نسخ مصورة عن أوراق تم العثور عليها في أثناء عملية (التعفير) .

فسألتها جزعاً :

– وأين هي الآنسة ورقاء؟

– إنها موجودة في موضع ما من المكتبة ؛ فثمة أمور عديدة لا بد لها من إنجازها عقب تلك العملية .

وتركتني واقفاً أمام الحاجز الخشبي أتابع بعيني عقرب الثواني في الساعة الجدارية وهو يدور بوثبات صغيرة أشبه ما تكون بنبضات قلبي .

ما سر تهرّب ورقاء من لقائي؟ أما كان في وسعها تأجيل تلك الأمور إلى وقت آخر؟ لعلها زهدت فيّ بعدما يئست مني!

وعادت الموظفة بظروف لاحظتُ دهشاً أنه مغلق!

شكرتُ الموظفة ، وغادرت المكتبة هابطاً نحو غرفة بدر لأبشّره بحصولي على بغيتي ، لكنني لحظة دخولي اصطدمت بمنظر بدر الغريب ؛ فقد كان ممسكاً بسماعة الهاتف ، وكل الدلائل تشير إلى أنه أنهى اتصالاً مزعجاً جعل وجهه يحاكي وجوه الموتى شحوباً . تطلع إليّ

www.ibtesama.com

بنظرة غائبة من المؤكد أنه لم يبصرني بها ؛ فقد مرت لحظات قبل أن يسرّ لنفسه بنبرة غير مصدقة :

- لقد مات!!

وعلى الفور خمّنتُ مَن يعني بكلامه ، لكنني برغم ذلك سألته جزعاً :

- من الذي مات؟

حينها فقط تنبه إلى وجودي ؛ فقد أضاف ذاهلاً وهو يعيد سماعة الهاتف إلى موضعها بحركة آلية :

- مات شبيب طاهر الغياث!

وانتابتني حالة الذهول وعدم التصديق التي تكتنفني كلما سمعتُ باختفاء إنسان عزيز إلى الأبد . لم استطع تصديق الأمر ، بدا لي شبيب جالساً على إحدى أرائكه القديمة المخسوفة في (ديوخانة) بيته سيئة الإضاءة ، وهو يبتسم لي عن أسنانه الصناعية في انتظار أن نستأنف حديثنا عن مخطوط (الراووق)!

كان من المستحيل الاقتناع بأنني لن أراه بعد اليوم إلى الأبد!

- مات فجراً ، وقد أُقيم له مجلس الفاتحة في مسجد منطقة (المضيفخانة) .

قالها بدر وهو يستل بأصابع مرتعدة سيجارة من علبتها ليبذل بضع محاولات قبل أن يفلح في إيقادها .

- سأذهب إلى هناك من فوري .

وسحب أنفاساً متعاقبة من سيجارته . ولحظة مر بي في طريقه إلى الخارج تتعقبه سحابة دخان ، أبى إلا أن يطرح إحدى أفكاره المجنونة في اللحظة غير المناسبة :

- سأطلق اسمه على قاعة المطالعة . . . نعم سأسميها قاعة

www.ibtesama.com

(شبيب طاهر الغياث)!

وتركني واقفاً وحدي في غرفته تغمرني الحيرة والحزن .

تُرى أكان لا بد لشبيب من أن يموت ليطلق اسمه (رسمياً) على قاعة المطالعة ، وهو الذي عُرفت المكتبة كلها – بقاعاتها ومخازنها وغرفها – باسمه حينما كان على قيد الحياة؟!

وحانتْ مني التفاتة عابرة نحو الطاولة الموضوعة أمام الأريكة الوثيرة ، فلمحتُ ذلك الختم الأسطواني الذي كنتُ ممسكاً به يوم تجادلت مع بدر عن الخلود و(شكسبير) و(طروادة) و . . . . واندفعتُ خارجاً كالهارب لأتجه بدوري نحو منطقة (الجرية) حيث ترجلت من سيارة الأجرة قرب بناية المصرف ، ومررت بباب مزار (السيد نور) وقد ازداد عدد أقفاله عن آخر مرة مررت بذلك الموضع!

اتخذت طريقي نحو جامع منطقة (المضيفخانة) سيراً على قدمي ، مستهدياً سبيلي بوساطة صوت مقرئ كانت تضج به مكبرات الصوت من بعيد . كان واحداً من تلك الأصوات الشائعة التي تبث عادة في مجالس الفاتحة عن طريق المسجلات . كان صوتاً جباراً يجعل الجسد يقشعر هولاً وخشوعاً وهو يرتّل سورة (الرحمن) بإيقاع مهيب :

– (الرحمن) .

يطلق الكلمة مفردة مدوية ملء الأسماع ليعود فيكررها مرتين أو ثلاثاً ، منغّماً ، في كل مرة ، صوته بشكل مختلف ، شاحناً إياه بحالة انتظار لما سيأتي . وسرعان ما يتدفق الصوت الهائل في سلسلة آيات متعاقبة تختصر الكون كله :

– (الرحمن . علّم القرآن . خلق الإنسان . علمه البيان . والشمس والقمر بحسبان . والنجم والشجر يسجدان . والسماء رفعها ووضع الميزان) .

www.ibtesama.com

كان صوتاً عجيباً شعرتُ وكأن المقرئ يخاطبني به أنا ، داعياً إياي إلى أن أخفّ خطوي وسط لغط هؤلاء البشر الفانين من حولي وهم يدخلون ويخرجون من المقاهي والحوانيت والبيوت العتيقة التي تحف بتلك الأزقة الضيقة الملتوية كيفما اتفق ، تعلوها مأذنة المسجد التي بقيت تطالع عيني وأنا أغذّ السير .

- (خلق الإنسان من صلصال كالفخار . وخلق الجان من مارج من نار . فبأي آلاء ربكما تكذبان) .

في حرم المسجد نهض في استقبالي رجال عديدون ، لم أعرف أحداً منهم ، ولا شك أنهم أبناء المرحوم وأحفاده وأقاربه وأصدقاؤه وجيرانه . كان بدر الوحيد الذي شخصّته من بينهم ، بدا أكثرهم حزناً ، جلس على أريكة مطرق الرأس لا يكفّ عن التدخين .

- (مرج البحرين يلتقيان . بينهما برزخ لا يبغيان . فبأي آلاء ربكما تكذّبان) .

كان جهاز تسجيل ضخم يواصل بثّ صوت المقرئ وقد نصبت قربه لاقطة . وكان الجميع جالسين بصمت على الأرائك والتخوت التي تحف بالجدران ، يمر بهم حامل دلّة القهوة ، يتعقبه صبي بصينية السجائر . وكان آخرون يقدمون داخلين ، في حين يبارح غيرهم المسجد خارجين . كان أغلبهم في أرذل العمر ، يُقاد بعضهم من أيديهم ، وثمة آخرون يتحسسون طريقهم بأطراف عصي مستقرة في أكفهم الراجفة .

- (كل ما عليها فان . ويبقى وجه ربك ذو الجلال والإكرام . فبأي آلاء ربكما تكذّبان) .

كان الموت يهيمن ثقيلاً ومرّاً مرارة القهوة التي كنتُ أحتسيها من فنجاني . وكانت العصافير وحدها تذكّرني بالحياة : تتنقل بحماسة بين

www.ibtesama.com

الأعمدة وعوارض السقف المرتفع حيث تتدلى المراوح والثريات الكهربائية .

وتنبهتُ للمظروف المهمل بجانبي يخشخش بفعل لمسة غير مقصودة مني .

أليس من العبث الاستنجاد بما في داخل هذا المظروف سعياً وراء خلود موهوم؟

– (فإذا انشقّتِ السماء فكانت وردة كالدهان . فبأي آلاء ربكما تكذبان . فيومئذ لا يُسألُ عن ذنبه إنس ولا جان . فبأي آلاء ربكما تكذّبان) .

عدتُ إلى البيت محبطاً مثبط الهمة ، لا شيء يهمني قدر رغبة لا تقاوم في النوم ، فهرعتُ إلى سريري لأتهالك عليه كالميت ، حتى إذا ما استيقظت كانت الستارة الزرقاء تشفّ عن وهج الشمس الجانحة غرباً . وكانت العصافير في ذروة ضجّتها الأزلية بين أغصان السدرة وهي تودع النهار الراحل .

نزلتُ إلى المطبخ لأنبش في الثلاجة لا رغبة مني في الطعام ، بل لاتبلغ بشيء ما أستطيع بعده ارتشاف كوب شاي قد يصفّي ذهني بعض الشيء . في طريق الصعود لم ألمح من صور (الليوان) التي طغت عليها الظلال سوى توهّج زجاجاتها . وكانت الساعة وحدها تعلن عن نفسها دون الحاجة لرؤيتها .

كان المظروف في انتظاري على المكتب ، ففتحته بعدما أشعلت ضوء المصباح المنضدي مغالباً دهشتي للجوء ورقاء إلى إغلاقه!

تفحّصتُ تلك الأوراق بنظرة سريعة ، فإذا بها كلها مدوّنة بخط (الرقعة) معززة بذلك احتمال كونها الأوراق المنشودة ، حلّ بعد ذلك دور التأكد من تسلسل تلك الأوراق وذلك بمقارنة الكلمات (المعقّبة) فيها بالكلمات التي دونتها في ورقة سبق لي أن سلمتُ نسخة منها

www.ibtesama.com

إلى ورقاء ، مالئاً بها بالتالي الثغرات التي تعتور أوراق (السيد نور) .

فجأة لفت نظري أمر لا شك أنه جرى بعد تصوير تلك الصفحات ؛ فقد لاحظتُ وجود دوائر محددة بالقلم الرصاص حول حروف بعض الكلمات الموزعة على تلك الصفحات!

ما معنى هذا؟! أتكون ورقاء هي التي حددت تلك الدوائر؟

وشعرتُ بقلبي ينتفض في صدري .

أبسبب هذا الأمر عمدتْ ورقاء إلى إغلاق المظروف مكلّفة إحدى زميلاتها في تسليمه لي؟

وبعينين لا تكادان تبصران من فرط الانفعال عدتُ أتتبع تلك الحروف المؤطرة بدوائر قلم الرصاص ، فإذا بها سبعة حروف لم أخرج منها مجتمعة بمفردة مفهومة الدلالة ؛ ذلك لأنني ، في أثناء تقليب تلك الأوراق وتوزيعها بين الثغرات ، كنتُ قد غيّرتُ تسلسلها الذي كانت عليه وهي مطوية داخل المظروف .

عمدتُ إلى كتابة تلك الحروف على ورقة ، وبعد محاولتين أو ثلاث قدّمتُ فيها بعض الحروف وأخّرتُ بعضها دون الحصول على نتيجة مقنعة أدركتُ أن خير وسيلة للوصول إلى المعنى المطلوب هو ترتيب تلك الحروف بحسب مواقعها من كلماتها : ذلك لأن ورقاء كانت قد حددتْ تلك الدوائر حول حرف يقع في أول كلمة أو يقع في منتصف كلمة ثانية ، أو في نهاية كلمة ثالثة . بل إنها لم تكتف بتحديد إحدى الدوائر حول حرف (ميم) في نهاية إحدى الكلمات ، بل أعقبته بعلامة استفهام دلالة كونها تشكّل نهاية جملة استفهامية!!

وهكذا بات من اليسير الوقوع على الترتيب الصحيح لتلك الحروف السبعة ؛ فإذا به يشكّل الجملة الآتية :

– (متى تفهم)؟!

www.ibtesama.com

وشعرت بعيني تتنديان بالدموع ؛ فذلك السؤال القصير الحاسم كان محمّلاً بتقريع وعتاب قفّ لهما الزغب على جسدي كله!

- (متى تفهم)؟!

سؤال رددته مع نفسي مئات المرات ، وأنا أذرع الأرض جيئةً وذهاباً ، شاعراً بالبيت على سعته لا يكاد يسعني . كنت أحدس بأنني مقبل على حياة جديدة لا عهد لي بها من قبل ، حياة قد تنسيني كل كآباتي وأحزاني .

- (متى تفهم)؟!

سؤال على قصره كشف لي سر الوجود كله ، الوجود القائم على الحب ؛ فهو سره وعلته الأولى .

هبطتُ نحو الطبقة الأرضية لأفتح أبواب غرف لم أفكر يوماً ما في فتحها ، مضيئاً مصابيحها المغبرة . واستبدلت بمصباح المجاز المحترق مصباحاً جديداً . وأضأت مصباح (الديوخانة) التي ندر أن دخلتها ، وكذلك مصباح (الليوان) والمطبخ فالحمام . وارتقيت السلم بعدما أضأت مصباحه . وعمدت إلى إضاءة مصابيح طارمات الطبقة الثانية وغرفها محيلاً البيت كله إلى مهرجان أضواء أفزعت طيور السدرة ؛ فخفقت بأجنحتها هاربة ، مرتطمة بكل ما يعترض سبيلها .

بات من المستحيل عليّ أن أركز أفكاري لأقرأ مضامين تلك الصفحات الجديدة لملء آخر ثغرة تعتور روايتي . كنتُ أستعجل بزوغ شمس صباح الغد لأهرع إلى المتحف لا من أجل إنجاز روايتي بل من أجل ورقاء . . ورقاء الحبيبة وحدها!

وواصلتُ ذرع الأرض وهبوط السلم وصعوده عسى أن أخفف بعض الشيء من توتر أعصابي لأستطيع اللجوء إلى النوم مقرّباً ساعة اللقاء المنتظر .

www.ibtesama.com

في مـثل تلك اللحظات المشـحـونة بالقلق جـفلتُ على رنين الهاتف ، فتجمدتُ في موضعي ساكن العينين مصغياً لذلك الرنين الذي بقي يتردد بوضوح مفزع في هدأة الليل . تركته يرنّ حتى النهاية ؛ ذلك لأنه لم تعد بي رغبة في إضاعة الوقت مع تلك المرأة المجهولة التي سـمّتْ نفسـها باسم إلهام ؛ فقد اعتادتِ الاتصال بي في مثل هذا الموعد في أغلب الليالي .

لكن الهاتف عاد يرسل رنينه ثانية ، فاندفعتُ داخلاً غرفة (الأرسي) وقد بيّتُ النية على وضع حدٍ لهذا العبث .

ما كدتُ أرفع السماعة حتى انسابَ همس إلهام إلى سمعي وهي تبادرني بتحية المساء ، فأجبتها بصوت حاولتُ أن أُفرغه من أية دلالة :

ـ أهلاً . . . إلهام .

– إلهام؟ . . . يبدو حقاً أنك (لم تفهم) بعد!!

وأطبقتِ السماعة .

لم أفهم بعد؟!

أعدتُ السماعة إلى موضعها .

ما معنى هذا الكلام؟

ولم أشعر إلا وأنا أصفع جبيني من هول الاكتشاف : أتكون إلهام هي ورقاء نفسها؟!

يا إلهي! . . . يبدو أن هذه الليلة هي ليلة المفاجآت!

الآن فقط اكتشفتُ سر تهرّب ورقاء بعينيها مني عقب لقائي إياها بعد تمتعها بإجازتها ؛ وذلك لأنها بدأتْ اتصالاتها الهاتفية الليلية في تلك الأيام ، وأنا لغبائي كنت أحسب أن سبب ذلك التغيير يعود لاحتمال أن تكون قد خُطبت!

www.ibtesama.com

ركزتُ عيني على جهاز الهاتف مستنجداً بكل خوارق الشعور أملاً في أن أعدي بها ورقاء في الطرف الآخر من الخط فتتصل بي مجدداً لأكفّر لها عن بلادتي . لكن انتظاري طال دون نتيجة ، فعدتُ أهبط نحو الطبقة الأرضية . ودخلت (الديوخانة) تاركاً آثار قدميّ على السجاجيد المثقلة ، لطول الإهمال ، بالتراب . كان الغبار يغمر كل شيء : الأرائك والطاولات التي تعلوها مزهريات متخمة بورود بلاستيكية ، واللوحات التي تزين الجدران ، وحتى شاشة (التلفاز) كانت مغطاة بطبقة غبار كثيفة يسّرتْ لي أن أكتب عليها بطرف سبابتي اسم ورقاء ، هذا الاسم الحبيب الذي تمنيتُ لو كان في وسعي أن أخطه على كل جدار من جدران البيت ، بل على كل طابوقة فيه ؛ فقد بدا أشبه بتعويذة بددت فجأة وحشة أعوام الوحدة والكآبة التي كانت تهيمن على كل ما يحيط بي!

ليلتها تبدت لي حياتي في ضوء جديد هجست معه وكأنني أستبق الزمن وصولاً إلى المستقبل - المستقبل الذي أعيشه الآن لحظة كتابتي هذه المفردات - يوم تملأ عليّ ورقاء بيتي فتضفي على كل زاوية من زواياه لمسة من يديها لها مفعول السحر جاعلة بذلك ذاكرتي تزداد صفاءً وجلاءً : فمع كل ريشة ستزيحها يدا ورقاء من (برج الطيور) المهمل في إحدى زوايا السطح ، ومع كل نسيج عنكبوت تزيلها من أحد أركان السرداب ستعاودني ذكريات الطفولة دقيقة واضحة : إنفراد أخي الكبير في (برج الطيور) حيث يتناهى لسمعي هديل الحمائم واصطفاقها بأجنحتها وهي تتزاحم على زنده لتلتقط الحب من كفه ، ودمدمات أبي الساخطة وهي تتصاعد من جوف السرداب لأن أحدنا دخل غرفة (التختة بوش) من غير احتراس فأخذت أرضيتها الخشبية - التي تكوّن سقف السرداب - تضج في الطقطقة معكرة عليه قيلولة

www.ibtesama.com

ظهيرة الصيف التي كان لا بد له من التمتع بها سواءً في ذلك الموضع ، أم على (دكة) كانت قائمة في (المجاز) حيث تتسلل إلى الداخل نسمات الهواء الباردة الرطبة من خلال (عماريات العاقول) البليلة التي كان يحاط بها الباب الخارجي .

وبين هذه الذكريات المتباعدة بعضهما عن بعض بُعد السطح عن قاع السرداب ستختلط في ذهني عشرات الذكريات التي ستتداخل إحداها بالأخرى على شكل أصوات وروائح وأضواء : تمتمات أمي المترددة في (الليوان) وهي تؤدي الصلاة ، وصرخة أول طفل ولدته أختي خلف أحد أبواب الغرف ، ورائحة البخور التي كانت تذكرني بأن يوم غد هو الجمعة - إذ إنها كانت تضوع عادة عصر كل يوم خميس - وارتسام بقعة ضوء على أحد الجدران منعكسة عن مرآة كانت الشمس تمسها بحزمة من شعاعها في وقت معين من ساعات النهار .

هكذا ستمضي ورقاء في إضفاء لمساتها الساحرة على أرجاء البيت لتنتهي بهذا المكتب فتبسط تحت قلمي أول ورقة بيضاء لأكتب عليها عنوان أول فصل من فصول هذه الرواية : (سفر الألف) حيث ستتداخل محتويات دفتر ملاحظاتي الذي سيتخذ له عنوان (كتاب الكتب) مع محتويات المتن الجديد لـ(الراووق) ، ذلك المتن الذي أوجده ستة رواة قبلي ، تاركاً حروف اسم (الرحمن) السبعة تسري فيه سريان الواحد في مراتب الأعداد : لا مفر لها من أن تفنى فيه لتبقى به!

تلك الليلة نمتُ في وقت متأخر لأستيقظ ضحى اليوم التالي ، فبادرتُ من فوري إلى الاستحمام والحلاقة وارتداء أفضل بزة لي .

ترجّلت من سيارة الأجرة عند منطقة (تل الأربعين) . وهرولت لأحتمي تحت واجهة عمارة من رذاذ كان يهمي بهدوء . كانت محلات ملابس جاهزة تشغل تلك الواجهة ، وثمة (مانيكان) بحجم

www.ibtesama.com

امرأة كاملة ينتصب خلف الزجاج رافلاً ببدلة بيضاء ، تعلو الطرحة رأسه .

كان الوقت لا يزال مبكراً على انتهاء الدوام ، ولم أجد لديّ الشجاعة الكفيلة بدفعي للصعود نحو المكتبة لألتقي ورقاء ، في مثل هذا اليوم الاستثنائي من حياتنا ، تحت أنظار تينك الموظفتين ؛ فأخذتُ أتجوّل على غير هدى متجنباً الرذاذ قدر الإمكان . ومررتُ بدار سينما كان جرسها يواصل رنينه معلناً قرب الشروع في عرض الفلم بعد انتهاء الاستراحة ؛ فتذكرتُ مدرستي التي كانت قد غابت عن ذهني حتى تلك اللحظة . لا شك أن جرسها دق اليوم أكثر من مرة معلناً بدء دروس ضجّت في أثنائها بعض الصفوف بلغط طلاب لم تكن بالمدير حاجة للتأكد عمّن يكون المدرس المسؤول عن ذلك!

وذكّرتني رائحة الشواء العابقة من مطعم صغير بأنني لم أكد البارحة أتبلغ بما يسد رمقي ؛ فدخلت دون تردد .

حين عدتُ لأقف في موضعي السابق قرب الواجهة التي ينتصب خلفها ذلك (المانيكان) كان موعد انتهاء الدوام الرسمي قد أزف ؛ فأخذت أتطلع خافق القلب إلى تلك المدرجات الكونكريتية التي لا تعد ولا تُحصى في تتابعها صعوداً على محيط (تل الأربعين) لتنتهي ببوابة المتحف المشرعة والتي يحيط بها ذانك المفتولان وأسوار القلعة القديمة التي تدرج فوقها مرافق المتحف بتلك الطريقة المربكة التي تصيب المرء بشيء من الدوار وهو يتعقبها بعينيه عن قرب في ارتفاعها نحو الطبقة الأخيرة ، طبقة المكتبة ومرافقها حيث من المؤكد أن ورقاء كانت تلتقط في تلك اللحظة حقيبتها من مسند كرسيها استعداداً للنزول .

وكان الموظفون والموظفات قد شرعوا فعلاً في مغادرة البوابة ليهبطوا

www.ibtesama.com

بحذر المدرجات الإسمنتية البليلة . ولاح لي بياض قميص ورقاء وسط اللون الرمادي لسترتها ، تتأرجح فوقه حليتها . كانت تنحدر على مهل ، وقد رفعت حقيبتها اليدوية فوق رأسها محتمية من الرذاذ .

مرّتْ على بعد أمتار مني دون أن تشعر بي متوجهة نحو موقف الحافلة القريب حيث احتمى عديدون تحت سقفه المعدني ، مذكّرة إياي ببيتي (ابن الفارض) :

جَلَتْ في تجلّيها الوجودَ لناظري
ففي كلّ مرئيّ أراها برؤيةِ
وأشهدتُ غيبي إذ بدتْ فوجدتني
هنالك إياها بجلوةِ خلوتي

وتعاقبتِ (الحافلات) في المرور ، وأخذ الزحام يخف ، حتى إذا ما قدمت (حافلة) من جهة الغرب تحمل فوق واجهتها الأمامية عبارة (تل الأربعين – تل العاشق) غادرت ورقاء موضعها ، فسارعتُ إلى اللحاق بها وهي تدخل (الحافلة) متعقباً إياها خلال الممر الممتد بين صفي المقاعد لأشاركها في الجلوس على المقعد نفسه شاعراً بقلبي يزيد من دقه العنيف .

لم تكن قد شخصتني بعد ؛ فقد ازدادت انكماشاً في زاويتها في طرف المقعد حتى كاد وجهها يلتصق بزجاج النافذة الجانبية الذي كانت خيوط مطر تسيل عليه على مهل . وتشاغلتْ في النبش في حقيبتها ملتقطة من وسط أشيائها الصغيرة الحبيبة دفتر بطاقات اقتطعت منه واحدة .

– والآن . . . أأناديك باسم ورقاء؟ أم . . . إلهام؟

همستُ وسط وجيب قلبي متنسّماً منها ذلك الأريج العذب ، فالتفت نحوي متسائلة باستنكار :

www.ibtesama.com

- نعم؟

وحينما عرفتني احمرّ وجهها ، فتهربتْ بعينيها مني لتنشغل في النبش في حقيبتها من جديد مقتطعة بطاقة أخرى ناولتهما (المحصل) الذي مرّ بنا في تلك اللحظة .

أجابتني بهمس ذكّرني بهمس إلهام في سماعة الهاتف :

- بالاسم المكتوب في (هوية الأحوال المدنية) بطبيعة الحال!

وكانت (الحافلة) قد قامت بدورة كاملة حول (تل الأربعين) - حيث لاحتْ لنا مرافق المتحف من شتى جوانبها - قبل أن تتجه بنا غرباً نحو (تل العاشق) ، في حين أخذتُ أفكر في تلك الحروف السبعة التي ستجمعني بورقاء إلى الأبد ، تلك الحروف التي خطتها ريشة (السيد نور)!

تُرى أليستْ تلك المصادفة واحدة من كرامات ذلك الولي المبارك؟!

www.ibtesama.com

كتاب الأحديّة

أخبرني (شبيب طاهر الغياث) في ما كتب به إليّ قال : وجدتُ بخط (ذاكر القيّم) عن بعض القيّمين على المزار عن (السيد نور) قال :

يا قــارئاً كلمي دغْــهــا مــســطَرةً
على البــيــاض مــداداً أســود اللونِ

يا (مطلق) : لولا (كن) لبقيَ كما كان (ولا شيء معه) ، بيدَ أن الشوق فاض به ؛ فتجلّى في نفسه لنفسه ، وتنفّس عن كرب الوحدة المطلقة : فإذا بالأحداث تتمثل في خياله بكل دقائقها وتفاصيلها ، فامتدّ عليها ظل وجوده العلمي ، فتعلق بها واهباً إياها الوجود على شكل هذه الحروف والكلمات .

يا (مطلق) : ها هو ذلك العليم بكل شيء يتنزّل بي من حيث عرّج الرواة الثلاثة نحوه ، مانحاً بذلك سيرتك أول ظهور ذاتي يستقيم معه وجودها ويتميّز عن الموجودات الأخرى المبثوثة ضمن صفحات تتابع بعضها في أثر بعض منذ عام ظهور النجم المذنّب :

ســمّــيــتــهــا للأولى الراووق مــســتــتــراً
في أحــرف ســبــعــة أســرارَ اســمــينِ
فظاهر الاسم مــحكومٌ ببــاطــنــه
كـــصــورة الكون بين الكافِ والنونِ

يومذاك كانت حروف اسمك الأربعة أول ما سوّده المداد على

www.ibtesama.com

بياض الورق . ولكن شتان ما بين ذلك اليوم البعيد وهذا اليوم ؛ فالألسن التي لهجتْ طويلاً بسرد أحداث سيرتك انعقدت الآن في الأفواه ، ووتر الرباب الذي رافق ذلك السرد بنغماته الشجية قطع ؛ فقد حُظر على الرواة ذكر اسمك!

يا (مطلق) : ها هو المداد يعود مرة أخرى لينطق ، على هذه الصحائف ، بالمحظور جامعاً بذلك ما تفرّق على ألسن الرواة ؛ فلولا هذه الحروف والكلمات لما استقامتْ دقائق سيرتك بهذا التركيب الذي وهب العلم بما كان وما سيكون ؛ فقد قُدّر لهذه الكلمات - منذ الأزل وقبل أن يحصل ما حصل - ألا تكفّ عن التتابع إلى أن يستدير الزمان كهيئته يوم خلقه الله ؛ فثمة دائماً من سيتعاقب في الإضافة تدويناً وتسطيراً :

أفصحتُ باسميَ عن نصف جهرتُ به
وثمّ اسمٌ سيأتي بعد جيلينِ
اسمانِ اثنانِ لم يجمعهما عبثاً
الحقُّ إلا ليهدي الخلقَ للدينِ
فعنهما تنجلي الأسرارُ ثانيةً
وفيهما يُجمع (الراووق) في اثنينِ

لقد انتهى طور العلن ليبدأ طور الكتمان ؛ إذ ما من راوٍ يُسمح له الآن في أن يعقب (عذيب العاشق) في تأليف القسم الرابع ؛ فـ(السيرة) التي لم تُحظَ يوماً ما برضا سلطة المحتلين أو مشيخة (البواشق) وصلتْ بأحداثها إلى المرحلة التي لا يمكن السماح لها بالشيوع والانتشار ؛ ذلك لأنها تتوج بواقعة (دكة المدفع) ، فاضحة بذلك جريمة الطرف الأول وعار الطرف الثاني!

والحق أن بعض أحفاد (مطلق) المتنفذين في (المشيخة) ، التي

www.ibtesama.com

نصبتها سلطة المحتلين على (البواشق) عقب تلك الأحداث الدامية بأعوام ، كانوا يمنّون أنفسهم بمنع (عبد الله البصير) من المضي في تأليف (السيرة) وهي لا تزال في بداية شيوعها مفضّلين عودة (الرجل الأعمى) إلى ما دأب على القيام به من قبل مثل التغنّي بمدائح بحق الأولياء والرسل فضلاً عن سرد أنساب العشيرة وبطونها وما شاكل ذلك من أمور لا تستدعي الحرج ، بيد أن الأمر كان قد خرج من أيديهم ؛ فـ(السيرة) كانت قد شاعت على ألسن الجميع ، وغدت تمثّل وجدان (البواشق) . وكانت السلطة بدورها - متمثلة بقوادها وجنودها وموظفيها وجباة ضرائبها الذين عادوا يتوافدون على الديرة بعد (دكة المدفع) - تستثقل أحداث هذه (السيرة) التي نشأتْ تلقائياً في غفلة من مراقبتها الصارمة . لكن ما كان يخفف من استيائها كون تلك الأحداث تتعلق بماضي العشيرة الذي ولّى وانتهى مع واقعة (دكة المدفع) .

لكن نُذر الخطر شرعتْ في الظهور حين أخذ بعض الرواة - عقب (عذيب العاشق) - يسرّبون في ختام القسم الثالث من (السيرة) فقرات جديدة لم تستطع ضجة نغمات الرباب إخفاء كونها تمهّد للأحداث الدامية : فثمة راوٍ اعتاد أن يهيب بمستمعيه ، عقب انتهائه من سرد (السيرة) ، طالباً منهم الترحّم على أروح شهداء (دكة المدفع) ، لاعنين في الوقت نفسه مَنْ جبُن عن المواجهة . وثمة آخر كان ينهي روايته للأحداث بالترنم بسلسلة (نوحيات) اشتهرت بكونها مراثي تناقلتها الألسن عقب تلك المأساة . وكان راوٍ ثالث يثير مشاعر مستمعيه إلى حد البكاء حين كان يشير إلى أن رائحة (الخضيرة) هي التي هدتِ الفؤوس إلى جسد (خير الرجال) لتنتشل بقاياه من تحت ركام الأنقاض!

www.ibtesama.com

كانت تلك الفقرات مبهمة، لا تذكر فيها أسماء، أو تُشخّص فيها أحداث، لكنها على الرغم من ذلك بدأتْ تقلق بال السلطة والمشيخة؛ فحاولتا في البداية استباق الأمور بأكثر الطرق لباقة وذلك بإغراء رواة يمكن شراء ذممهم من أجل غضّ الطرف عن بعض الوقائع واختلاق بعض آخر ضمن أحداث (السيرة)؛ فالسلطة كانت تهدف إلى تجاهل أمر المدفع وما أوقع من خسائر، في حين كانت (المشيخة) تجاهد من أجل إخفاء عارها؛ وذلك بالتكتم على المواقف المخزية لبعض أبناء (مطلق) في أثناء الواقعة. ولكن النتيجة التي خرج بها الطرفان غدتْ مدعاة لسخرية (البواشق) واستهجانهم: فثمة راوٍ مأجور حاول أن يشيع رواية يتحدث فيها عن معركة وهمية وقعت بين (مطلق) وأبنائه السبعة ورجاله الأربعين من جهة، وبين لصوص مجهولي الهوية استطاعوا الانتصار بسبب امتلاكهم مدفعاً!... وقد أثارت تلك الرواية تهكّم الجميع، وغدت مضرب مثل على غباء ذلك الراوي الذي حاول الاقتداء عبثاً برواة (السيرة) الثلاثة العظام؛ فمن يصدّق وجود لصوص يملكون المدافع؟ وحاول راوٍ ثانٍ أن يكون أكثر ذكاءً؛ فتحدث عن وقوع معركة بين (مطلق) والسلطة... معركة انتهت بالتصالح بين الطرفين. لكن المشكلة التي جابهت ذلك الراوي هي نهاية (مطلق) وبعض أبنائه ورجاله بتلك الصورة التي هي معروفة للجميع؛ فاضطر ذلك الراوي إلى الادعاء أن طرفاً ثالثاً، لا يحبذ سلام العشيرة وتصالحها مع السلطة، هو الذي تسبب في وقوع تلك الكارثة!!

وهكذا تعددت الروايات وتناقضت، ولكنها جميعاً لم يكتب لها البقاء؛ إذ كيف يعقل تزييف وقائع أحداث لولاها لما اقتصرتْ (مشيخة البواشق) الجديدة على أحفاد (مطلق) دون ابنائه؟!

لكن الإغراء والوعيد والإرهاب أتى أُكله في آخر الأمر؛ فشاعت

www.ibtesama.com

رواية تحمل نصف الحقيقة : تقول إن مطلق وأبناءه السبعة – دون استثناء – فضلاً عن رجاله الأربعين كلهم قد انتهوا إلى تلك النهاية بسبب مدفع السلطة!

لقد أرضت هذه الرواية (المشيخة) ؛ فالتأكيد أن الأبناء السبعة ضحوا من أجل أبيهم كان قد غطى على عارها . لكن المشكلة أن الرواية نفسها أغضبت السلطة ؛ فالمدفع الذي فتك بالعديد من (البواشق) بدا أكبر من أن يستطاع إخفاؤه وسط نبرات الراوي المشفوعة بنغمات الرباب ؛ فانتقمت السلطة من (المشيخة) بأن أزاحت شيخها عن العشيرة ، ونصبت في موضعه حفيداً آخر يفضله في خنوعه للسلطة ، فسارع هذا إلى البرهنة على جدارته لموقعه الجديد ؛ فعمد في أول الأمر إلى منع سرد أحداث (السيرة) في المضايف والدواوين لكونها ستؤدي إلى وقوع الشقاق بين أبناء العشيرة الواحدة . وحينما لم يجده هذا الأمر نفعاً – بل زاد من حماسة الرواة على التغني بأحداث (السيرة) – أصدر أمراً آخر بإيقاع العقاب بكل من يذكر اسم (مطلق) خيراً أو شراً وذلك احتراماً لذكرى ذلك الرجل العظيم التي أخذ بعض (البواشق) يستغلونها لغايات شخصية وأهواء مشبوهة ، وشفع ذلك الأمر بتمزيق الرباب وتقطيع وتر القوس تاركاً للزمن مهمة الإجهاز على الذكريات التي مهما بلغت حدةً وألماً لا بد لها في النهاية من أن تمحى من ذاكرة الإنسان الذي جُبل بطبعه على النسيان!

ولكنْ . . . أنّى للإنسان الزائل أن يمحو ما أثبته القلم منذ الأزل؟ فها هو المداد يتابع – منذ عام النجم المذنّب – تشكّله حروفاً وكلمات على هذه الصفحات مبرهناً بذلك على صحة النتيجة التي حُذّر منها (مطلق) من الانسياق لأهوائه طمعاً في مظاهر الدنيا الزائلة ؛ فالسلطة التي تبنته في أول الأمر أداة لترسيخ نفوذها في هذه المنطقة المعزولة

www.ibtesama.com

عن أطراف الدنيا الأربعة لم تغفر له انقلابه عليها لاحقاً . وجعل تحالفه مع ذياب أمر الجابهة محتوماً ؛ فبعد بنادق رجال ذياب التي وقفت حاجزاً في وجه الجنود من دخول الأهوار عزلتْ بنادق رجال (مطلق) (ديرة الهشيمة) عن نفوذ السلطة ؛ فانقطع موظفوها وجنودها وجباة ضرائبها عن القدوم إليها ، وتلك حالة قد يستطاع غضّ الطرف عنها مدة زمنية ، ولكنْ ليس إلى الأبد ؛ فثمة خزينة في البلدة يجب أن تُملأ بحصيلة الضرائب لدفع رواتب الموظفين ، وثمة ضباط كبار استلذوا خيرات الديرة واعتادوا الصيد والقنص فيها ، وفضلاً عن كل ذلك هناك هيبة السلطة ؛ فقد أخذ الخارجون على القانون يجدون في (ديرة الهشيمة) خير ملجأ لهم!

تلك أمور يستحيل السكوت عليها ، ولا بد من تحيّن الفرصة الملائمة لإعادة الأمور إلى نصابها وتلقين (مطلق) درساً لا ينسى سيبقى بعده عظة وعبرة لمن قد تسوّل له نفسه مجاراته في تمرده .

وسنحت تلك الفرصة على أثر نشوب حرب بين تلك السلطة وسلطة غازية أخرى قدمت من وراء الحدود سرعان ما انتهت بتصالح الطرفين . بيد أنه لم تكد تمضي ثلاثة أشهر حتى نشب النزاع بينهما مجدداً ؛ فعادت جيوش الغزاة تجتاز الحدود ؛ فعمتِ الفوضى المناطق النائية ولاسيما الحدودية منها ؛ ذلك لأن عصابات اللصوص استثمرتْ فرصة انحسار نفوذ السلطات خارج المدن فأخذت تصول وتجول ، قاطعة الطرق ، مكتسحة أمامها كل ما يعترض سبيلها من عشائر وقوى لا طاقة لها على المقاومة ، حتى إذا ما اصطدمت بعشيرة عصية عليها عمدت إلى محاصرتها أياماً وليالي ، تاركة إياها نهباً للجوع والرعب قبل أن تقتحمها في آخر الأمر . وكانت عشيرة (البواشق) واحدة من تلك العشائر المهددة بالاجتياح لولا انسحاب

www.ibtesama.com

اللصوص على أثر شيوع أخبار تتحدث عن انتهاء تلك الحرب بتصالح جديد . وما كاد (البواشق) يتنفسون الصعداء حتى فوجئوا ذات يوم بارتفاع سحابة غبار من جهة الغرب انجلتْ عن كوكبة من رجال الدرك ؛ فاندفع (مطلق) خارجاً من المضيف وفي أعقابه أبناؤه وبعض رجاله مراقباً إياهم بتوجس ؛ إذ كانت قد مرّت أعوام لم تطأ خلالها قدما دركيّ (ديرة الهشيمة)!

- قلبي يحدثني بأن وراء هذه الزيارة ما وراءها!

قالها (مطلق) وهو يرى رجال الدرك يترجّلون عن خيولهم على مبعدة من البيوت ، تاركين إياها تسرح بين الأعشاب . وأضاف موضحاً مغزى كلامه :

- . . ذلك لأنهم لم يقدموا من فورهم إلى المضيف!

ولم يجانب (مطلق) الصواب في توجسه ذاك ؛ فبعد طول انتظار وفد رسول ما كاد يقف بحصانه عند باب المضيف حتى أعلن أنه يحمل قائمة بأسماء من عملوا أدلاء وجواسيس للجيوش الغازية التي اجتازت الحدود على مقربة من (ديرة الهشيمة)!

فتساءل (مطلق) نافد الصبر :

- وما شأننا نحن بمن عملوا أدلاء وجواسيس؟

فأجابه الرسول ، وهو يتهيّأ ليلكز الحصان في حالة ظهور بادرة خطر :

- ذلك لأنك أنت ، فضلاً عن بعض أبنائك ورجالك وصهرك (المعيدي) ، على رأس المطلوبين!!

فانطلقت صرخات استنكار من أفواه الجميع ، واستداروا رامقين بعضهم بعضاً بنظرات دهشة . وكان (مطلق) الوحيد الذي سيطر على نفسه ، والتغيير الوحيد الذي طرأ عليه هو أن حاجبيه الكثيفين ازدادا

www.ibtesama.com

تشابكاً عند منبت أنفه المرتفع . واكتفى بأن قال بكل برود :

– لولا أنك رسول لكنتُ جعلتُ كلامك هذا آخر ما تنطق به!

وارتفعت أصوات الآخرين مؤكدين أن الحقيقة جرتْ على النقيض من ذلك تماماً ؛ فطوال أيام الحرب الجارية على مبعدة من ديرتهم كانت قلعة (مطلق) هدفاً لعصابة لصوص حاصروها أياماً ، كانوا يستهدفون ببنادقهم أي شيء يتحرك نهاراً ، حتى إذا ما جُنّ الليل أوقدوا النيران في الحقول وعلى رؤوس التلال لإدخال الرعب في قلوبهم!

لكن الرسول أبدى تشككه في أن يقتنع قائده بهذا العذر ، فصرخ (مطلق) به ، وقد فقد السيطرة على نفسه على غير توقع :

– يقتنع قائدك بهذا العذر؟ نحن لا نتعذّر . . . إنما نذكر لك الحقيقة!

فازدرد الرسول لعابه رعباً ، وزاد من شدّ العنان حتى كاد يكسر عنق حصانه المسكين الذي أخذ يراوح تحته . وتمتم وهو يتهرب بعينيه من العيون المصوبة نحوه :

– أنا لست أكثر من عبد مأمور .

فتساءل (مطلق) متهكماً :

– حسن أيها العبد المأمور . . . أتريدني أن أصحبك إلى قائدك واضعاً عقالي في عنقي؟

فواصل الرسول تمتمته وهو يتحرق شوقاً للكز حصانه والنجاة بنفسه :

– لا شأن لي بكل ما يجري ؛ فقد وردتْ أوامر صارمة إلى البلدة تقضي بتأديب العشائر المشكوك في ولائها بعنف و . . . وليس أمامكم في هذه الحالة سوى مهلة تنتهي فجر الغد!

www.ibtesama.com

- فلتذهب أنت ومهلتك إلى جهنّم!

صاح (مطلق) بجنون ضارباً في الوقت نفسه الحصان ما بين عينيه ؛ فانطلق بفارسه كالريح متجهاً غرباً . وكانت زخات الرصاص التي انطلقت في اتجاه المضيف ، عقب وصول الرسول إلى صحبه ، خير دليل على صدقه!

وقفل (مطلق) والمحيطون به داخلين المضيف ليجلسوا واجمين لا يندّ عنهم صوت من هول الصدمة ، حتى إذا ما أخذ لغطهم يعلو على حذر كان التعليق الوحيد الذي تبادلوه هو شكهم في أن يكون الدرك جادين في هذا الأمر . واقترح أحدهم ضرورة إرسال وفد منهم لمفاوضة قائد الدرك من أجل اكتشاف سر سوء الالتباس الحاصل . لكن (مطلق) كان أول المعترضين :

- لا جدوى من بذل ماء الوجه ؛ فمن الواضح أنهم لم يقدموا إلا في طلب رأسي ورؤوس بعض أبنائي ورجالي!

وأضاف رافعاً صوته فوق اللغط الذي علا فجأة :

- لكن رأسي ليس رأس بصل ليقطف بهذه السهولة!

فصاح طارش بنبرة خوف لم يستطع إخفاءها :

- ولكن يا أبي . . . . يبدو أنهم جادون هذه المرة!

فأجابه (مطلق) رامقاً إياه بنظرة إشفاق :

- ومتى كانوا غير جادين يا ولدي؟!

فعاد طارش يفتح فمه ليسترسل في كلامه ، لكنه سرعان ما أحجم ، فنكّس رأسه .

ونهض (مطلق) آمراً أبناءه بتكليف حملة البنادق ليربضوا على امتداد السور الغربي للقلعة من أجل رصد رجال الدرك في انتظار انتهاء المهلة . وصاح وقد أخذ في ارتقاء التل :

www.ibtesama.com

- سأسبقكم إلى القلعة ؛ فأمامنا ليلة ستكون أطول من دهر .

تلك الليلة جثم صمت غريب على (ديرة الهشيمة) حتى أن أصوات اصطفاق مياه (البزايز) على الجروف كانت تُسمع في أبعد بيت . وكانت أول ليلة تمر بـ(البواشق) دون أن يعبق الهواء برائحة الخبز ؛ إذ لم تجرؤ امرأة على سجر تنورها .

كان الصمت مطبقاً والعيون وحدها تفصح عن قلق الانتظار . وكانت الأقدام في حركة دائبة في أرجاء القلعة حيث (مطلق) كان قد أخرج عشرات البنادق ليوزعها على كل من لم يكن يملك بندقية ، آمراً الجميع بالشروع في تنظيفها وتزييتها وتعبئتها بالبارود والرصاص ، واضعين نصب أعينهم أنهم مقبلون على معركة حقيقية .

هكذا مضى (مطلق) يتنقل من مكان إلى آخر : تعبق رائحة (الخضيرة) أولاً قبل أن تلوح قامته المديدة في الظلام ، سائلاً المتربصين فوق أسوار القلعة إن كان ثمة ما يريب؟

وكان نايف يمر بدوره على الرجال ليتأكد من أنهم يملكون الكميات اللازمة من البارود والرصاص . كان يتنقل بينهم بالحرص المعروف عنه حين كان يحث الفلاحين على الاستعداد للحراثة أو الحصاد . ولم يكن ينسى المرور على إخوته ؛ فبرغم كونه أصغرهم سناً لكنه كان يعرف كيف يثير هممهم : فهذا خضر مثلاً وقد عكّر القلق وجهه الوسيم لا يكف عن المرور على غرفة زوجته لا لشيء إلا ليفرغ غيظه فيها لاعناً اليوم الأسود الذي اقترن بها هو الذي كانت حسان الديرة طوع إشارة من يده . ويعود إلى فناء القلعة مواصلاً إرسال شتائمه ، فيهتف نايف به مفتعلاً المرح :

- لا تقلق يا أخي ؛ ستنفرج الأزمة قريباً ، وسيغدو في وسعك التخلص من رقابة زوجتك الصارمة لتعيد سيرتك القديمة مع الصبايا!

www.ibtesama.com

فيجيبه خضر وهو يتهالك جالساً قرب أخيه حاصود :

- هيهات ؛ لن نخرج من هذه الأزمة محتفظين برؤوسنا بين أكتافنا ليتسنى لي التفكير في مثل هذه الأمور!

فيهتف حاصود بهلع متحسساً عنقه :

- أخشى أن يكون ما تقوله صحيحاً ؛ ذلك لأن امرأتي تقول إنها حلمت الليلة الماضية بأنها رأتني وفي عنقي عقد أحمر! . . تصور! . . . ما معنى أن يرتدي رجل عقداً نسائياً أحمر غير أن تكون نهايته قد دنتْ؟!

فلا يستطيع ربيع الامتناع عن إطلاق إحدى طرائفه :

- لا تخشَ على عنقك من القطع ؛ إذ يبدو أنك عرفتَ كيف تسمّنه لمثل هذا اليوم ؛ فقد شوهدت قبل أيام في سراي البلدة!

هكذا يتركهم نايف ليتفقّد إخوته الآخرين ؛ فيمرّ بقاصد الذي لم يمنعه انهماكه في إعداد البنادق من أن يردد همساً الآيات والأدعية التي حفظها عن ظهر قلب لمثل هذه المواقف . وكان جناح الرابض فوق السور الغربي ، ينتظر قدوم رجال الدرك بالصبر والدأب المعروفين عنه حينما كان ينصب فخاخه وشباكه . وكانت قد مضت عليه ساعات لم يغادر خلالها موضعه ذاك إلا مرة واحدة نزل فيها ليعيد امرأته نعناعة عنوة إلى حجرتها بعدما وقعت أسيرة إحدى نزواتها الغريبة ؛ فرابطت طويلاً تحت السلم الخشبي المسنود إلى السور ، طالبة من زوجها أن يسمح لها بالصعود لتتطلع إلى رجال الدرك الرابضين غرباً!

وكان طارش الوحيد الذي لم يقع نظر نايف عليه ؛ فقد مضت ساعات وهو جالس في غرفته منكس الرأس ، وامرأته فتنة لا تكفّ عن التنقل هنا وهناك مضيئة القناديل حال غروب الشمس ، لتسرع بعدها إلى تسخين العشاء ، منادية بناتها اللائي تحلقن حول صينية

www.ibtesama.com

الطعام ليتعشين صامتات ، مختلسات نظرات حذرة إلى أبيهن الواجم وقد جلس في مواجهته شقيقهن الوحيد منهل الذي بدا كأنه يشارك أباه في قلقه .

وانتظرت فتنة أن يفصح زوجها عما يشغله . ولكن الوقت مضى دون أن يفتح فمه . ونامت البنات واحدة عقب أخرى . وكان منهل آخر من نام ، فلم تملك فتنة إلا أن تبادر هي (طارش) بالسؤال ، فرفع رأسه ليتأمل طويلاً عينيها الذهبيتين اللتين زادهما ضوء القنديل القريب تألقاً وسحراً .

- إنها الحكومة يا فتنة وليست محض عصابة لصوص!

ناح طارش بصوت يائس قبل أن يضيف وهو يحرك سبابته في الهواء :

- ستقع مذبحة لا يعلم بدمويتها إلا الله!

وشجعه صمت زوجته على أن يُفصح عما كان يفكر فيه منذ ساعات :

- اسمعي . . . أنا قلق عليك . . . وعلى منهل و . . . البنات!

فتساءلتْ فتنة بنبرة جارحة :

- وأبوك؟ وأخوتك وزوجاتهم؟ وأبناؤهم؟ ألا تقلق عليهم؟

- ومن الذي أجبر أبي على معاداة الحكومة؟

انفجر صارخاً مسبباً في إيقاظ إحدى بناته ، فسارعت فتنة تربت على ظهرها ، في حين خفض طارش صوته مواصلاً ثورته مفرغاً كل ما كتمه طويلاً في صدره :

- ما الذي كسبه أبي من هذا العداء؟ ثم . . . ألم يسبق له أن تخاذل أمام السلطة؟ لقد تهرّب من مجابهة الجنود يوم قدموا لاستيفاء بقايا الضرائب وسوق الشباب إلى العسكرية ، فأذلّني أنا حين جعلني

www.ibtesama.com

أستقبلهم عوضاً عنه!

– ما هذا الكلام يا طارش؟!

تساءلت فتنة مستنكرة . إلا أن زوجها كان قد اتخذ قراره الذي لا رجعة له عنه :

– اسمعي . . . سأحملك أنت و(منهل) والبنات إلى (جبايش) أبيك!

– وأنت؟ أتعود بعدها إلى القلعة؟

سألته فتنة بازدراء ، فأجابها وهو يتهرب بعينيه منها :

– وما قيمتي أنا إن عدتُ أو لم أعد في معركة سيقتل فيها بعضهم بعضاً من بعيد؟

فلطمت فتنة صدرها ، وصاحت غير آبهة بأن تسبب هي هذه المرة في إيقاظ بناتها :

– يا للعار! . . . وتخذل أباك وإخوتك؟

فوثب طارش واقفاً وكأنه في سبيله للفتك بامرأته . وحينما بقيت تجابهه بنظرة عناد أفرغ غيظه بأن صاح بها قبل أن يغادر الحجرة :

– وهو؟ ألم يخذلني يوم كاد يجهز عليّ؟ أيوجد أب يطاوعه قلبه فيستهدف ابنه برصاصته؟

وفي فناء القلعة توقف نايف متنبهاً لاصطفاق باب . وما مرت لحظات حتى شخّص أخاه (طارش) وهو يبرز من الظلام المهيمن على جناح الحريم . رآه يمر به ، مشيحاً بوجهه عنه ، متجنباً مبادلته الكلام . وراقبه وهو يتخذ سبيله نحو خضر ليتهالك جالساً قربه ، مفصحاً له عن مخاوفهما المشتركة دون شك!

وكان قاصد قد أدار وجهه نحو (القبلة) ليؤدي الصلاة ، وعلى مقربة منه استقرّتْ بندقيته على الأرض ، فحضرت ربيع النكتة برغم

www.ibtesama.com

دقة الموقف ؛ فلكز أخاه الأصغر (حاصود) في جنبه معلقاً بمكر :

– أتراه يؤدي صلاة العشاء؟ أم صلاة الخوف؟

فأجابه حاصود بامتعاض وهو يبتعد عنه :

– ألا يمنعك رفيف جناحي (عزرائيل) فوق رؤوسنا من إرسال طرائفك السمجة؟

فتساءل ربيع متهكماً :

– ياه . . لم أكن أعلم بمبلغ شجاعتك إلا الآن! . . . لقد عرفتُ الليلة فقط سر حماستك القديمة في تعلّم الرمي بالبندقية يوم لم تكن تتجاوزها طولاً ؛ إذ يبدو أن ما كان يهمك آنذاك هو أن تتعقبك صبايا الديرة بنظرات إعجاب ، وأنت تخطر هنا وهناك ، والبندقية تثقل كتفك!

هكذا قضوا ليلتهم تلك وهم في انتظار فجر مشؤوم سرعان ما لاحت تباشيره حينما بدأت الديكة تصفق بأجنحتها فوق السطوح مطلقة لصرخاتها العنان . وشرعت قمم الجبال الشرقية النائية تتورد حيث شعّت تحتها مياه (بزايز الجولان) بوميض ضوء مجهول المصدر وقد اعتورتها تغضّنات رقيقة .

وبغتة طارت (قبّرة) من قلب العتمة التي كانت لا تزال تغمر الأرض الخلاء المنداحة غرباً حيث يكمن مصدر الخطر ، ورفرفت بجناحيها فوق الرؤوس ، مطلقة صرخة يتيمة قبل أن تختفي . وارتفع صوت جناح من أعلى السور :

– خذوا الحذر ؛ فقد شرعوا في الزحف باتجاهنا!

وتخطى الرجال وثباً السلالم الخشبية المسنودة إلى السور الغربي ، واشرأبوا بأعناقهم محاولين عبثاً اختراق الظلام بأنظارهم ، إلا أن آذانهم التي أرهفها التوجس والحذر سرعان ما التقطت وقع خطاهم وهم

www.ibtesama.com

يتسللون في اتجاههم، فسارعوا في تهيئة بنادقهم ورفعوا أعينهم نحو المقتول الغربي في انتظار شروع (مطلق) في إطلاق النار. وكان (مطلق) قد ثنى إحدى ركبتيه، مسنداً عقب بندقيته إلى كتفه محركاً فوهتها في اتجاه تلك الجلبة المكتومة التي كانت تواصل زحفها نحو القلعة، حتى إذا ما استطاع تمييز رجال الدرك، وقد أمعنوا في الاقتراب وهم يهرولون محنيي القامات، وقد صالبوا بنادقهم أمامهم، اختار الذي في المقدمة وأطلق النار، فارتفعت مع دويّ الانفجار صرخة ألم جعلت الرجال في القلعة يهللون مكبرين وهم يرون أن كبيرهم يبرهن عملياً على جدارته بلقب (الباشق)!

لكن (مطلق) لم يؤخذ بالضجة التي أثارها من حوله؛ إنما سارع إلى التقاط بندقية أخرى محشوة ليردي برصاصتها دركياً ثانياً قبل أن ينتقل إلى بندقية ثالثة، ولم يدرِ بعدد الذين أصابهم لحظة تخلى عن بندقيته ليجيب على النظرات المتسائلة التي استهدفه بها رجاله:

- من العار أن أُصيبهم في ظهورهم!

وحينما التفتوا غرباً لمحوا، من فوق السور، رجال الدرك يرتدون هاربين تاركين وراءهم جثث قتلاهم ليعتلوا صهوات خيولهم مطلقين لها العنان في اتجاه البلدة!

وعاد الرجال يضجون في تهليلاتهم وتكبيراتهم. لكن (مطلق) نهرهم بقسوة آمراً أحدهم بالإسراع في تبليغ (القهوجي) ليدق حبات البن المحمصة في الهاون النحاسي الكبير الذي لا يدق البن فيه عادة إلا في الحالات الاستثنائية الطارئة التي تقتضي اجتماع (البواشق) كلهم في المضيف لحدوث أمر جلل.

ومع شروق الشمس شرع الرجال في التقاطر على المضيف حال ارتفاع دقات الهاون برنينها الحاد المنذر بالخطر. وأعلن (مطلق) وهو لا

www.ibtesama.com

يزال واقفاً وسط المضيف :

- سيعود رجال الدرك حتماً!

وجلس في الصدارة في مواجهة موقد الدلال ، وأضاف مخففاً من وقع كلامه السابق الذي جعل الجميع يلغطون دفعة واحدة :

- بيد أنّ أمامنا يوماً أو يومين علينا استثمارهما في تخزين المؤن . وفي الوقت نفسه آمل الاسراع في إخلاء بيوت الجانب الغربي ؛ ذلك لأنها ستكون معرضة للخطر .

وطلب منهم الانتشار ببنادقهم شمالي القلعة ، على حافة الإخدود المشرف على صدر النهر ، وكذلك في الطرف الجنوبي في حين لا حاجة بهم إلى حماية الطرف الشرقي ؛ فهناك تمتد (بزايز الجولان) التي ليس من اليسير اقتحامها . واختار أربعين من خيرة رجاله ليربض بهم - مع أبنائه السبعة - في القلعة المشرفة على جميع الاتجاهات .

- والآن جاء دور النساء والعجائز والأطفال ؛ فلا بد لنا من إخلائهم إلى جزيرة (البطيحة) ليكونوا هناك في مأمن .

واصل (مطلق) إصدار تعليماته مراقباً بنظرة متوجسة ابنه البكر (طارش) الذي رفع صوته بعد تردد وإحجام :

- وأنا . . . . سأحمل امرأتي و(منهل) والبنات إلى (جبايش) عمي ، وسأعود مصطحباً إياه معي لينجدنا برجاله!

فتأمله (مطلق) طويلاً قبل أن يقول بأسى :

- ليت الوباء كان قد أجهز علينا نحن الاثنين في عام الطاعون الأسود يا ولدي!

وحينما لم يحر طارش جواباً ، وبقي يتطلع إليه وقد فغر فمه ببلاهة ، استطرد (مطلق) في كلامه :

www.ibtesama.com

- ولكن ما العمل؟ سأبقى مديناً لك ؛ فلولا عنايتك لكان من المحتمل أن يجهز الداء عليّ . . . اذهب . . . صحبتك السلامة . . . ولكنْ لا تنسَ أن تحيط حفيدي (منهل) برعايتك!

فسأل نايف أباه متعقّباً بعينيه (طارش) وهو يغادر المضيف منكّس الرأس :

- كأني بك تودعه يا أبتاه!

- أوَ تحسب أنه سيعود؟! . . هيهات ؛ فقد تخاذل وانتهى الأمر!

علّق الأب بنبرة مشفقة ، رفع بعدها صوته آمراً الرجال الإسراع في تنفيذ ما أمرهم به .

وغدت الديرة أشبه بخلية زنابير هائجة : ثمة حركة في كل بيت ، حركة نزوح واستعداد للدفاع عن النفس ؛ فإلى الشرق كانت المشاحيف والطرّادات لا تكفّ عن تأرجحها بين أشجار الصفصاف قرب الجرف وهي تكاد تنوء بحشود النساء والأطفال والعجائز حيث (المرادي) تندسّ في المياه بضربات متقنة ، والمشاحيف تشق بمقدماتها الرشيقة سيقان (الجولان) ، متخذة سبيلها نحو جزيرة (البطحية) ، تصحبها النوارس بزعيقها .

وإلى الشمال بقيت القلعة موضع لقاء الرجال : لا تكف الأقدام عن ارتقاء سفح التل حيث البوابة الجنوبية المفتوحة على سعتها تبتلع رجالاً تثقل البنادق وأكياس البارود والرصاص أكتافهم وأيديهم .

ومرت ليلة انتظار مريرة ليس لطولها نهاية . ومع انتصاف نهار اليوم التالي كان خضر أول من لم يعد في وسعه إخفاء تبرمه ؛ فقد تساءل مستنكراً ، ووجهه الوسيم قد احمرّ غضباً :

- أيعقل أن المسافة إلى (جبايش) المعيدي قد تضاعفت حتى لا يعود طارش إلى الآن؟

www.ibtesama.com

فأجابه حاصود الذي شاركه طوال الليل في إبداء تذمره :

– ومن أوهمك بأنه سيعود؟

فصاح خضر متشفّياً :

– حسناً فعل ؛ ذلك لأنه ما جدوى أن يعود بقدميه إلى موت محقق؟

فعلّق ربيع بمكر :

– إنك معذور في تبرمك يا خضر ؛ فهي المرة الأولى التي تغدو الديرة فيها وقفاً على الرجال فقط!

فاندفع خضر نحوه صارخاً :

– ما الذي تعنيه بكلامك هذا؟

لكن (قاصد) سارع يفرق بينهما ، وقال محاولاً أن يهدئ من حدة غضب خضر :

– سامحك الله يا خضر! . . . فمعنى كلام ربيع واضح ؛ وهو أنك لم تعد تطيق الحياة في الديرة بعد نزوح النساء عنها إلى جزيرة (البطيحة) . . . أستغفر الله العظيم .

لكن (خضر) أصرّ على رأيه :

– لا . . . إنما يعني أمراً آخر . . . ولكن اسمع . . . سأبقى رجلاً على الرغم منك!

فلسعه ربيع بابتسامة جارحة ، وقال وهو يقوم بإيماءة واسعة حوله :

– الساحة أمامك مفتوحة للبرهنة على رجولتك!

وكان من المؤكد أن يتلازم الشقيقان بالأيدي لولا إسراع نايف في سحب ربيع بعيداً بحجة ضرورة إشرافه على مجموعة رجال مكلفين بحماية موضع غير حصين من السور . وبقي جناح يراقب ما يجري في الأسفل بصمت ، حتى إذا ما انتهت المشادّة ربتَ على بندقيته وعاد

www.ibtesama.com

يتطلع من فوق السور غرباً ، مراقباً النسور وهي تحوم راسمة دوائر واسعة في الفضاء وثمة أعداد غفيرة منها تتزاحم على جثث رجال الدرك القتلى التي بقيت مهملة في مواضعها بين الأعشاب .

وكان عليهم قضاء ليلة أخرى حافلة بالتوتر والانتظار ، بيد أن ما حدث فجر اليوم التالي لم يخطر لهم على بال ؛ فقد جفل الجميع على دويّ هائل انتهى بسقوط قذيفة مدفع أطاحت بكوخين ، أعقبتها صرخات دركي كان قد اقترب بحصانه من القلعة ، منذراً إياهم بالذبح إن لم يستسلموا قبل شروق الشمس ، حينها فقط استطاع المتحصنون في القلعة تشخيص كتلة مبهمة لا تكاد تتميز عن الظلام الذي كان لا يزال مخيماً ، وقد ناطحت بماسورتها الضخمة زرقة سماء عميقة تنبض فيها نجمة أو نجمتان!

كان مدفعاً عملاقاً يبدو أنهم نصبوه ليلاً في ذلك المثلث المحصور بين الجدولين اللذين يتفرعان عن النهر الرئيس!

وتناقل الجميع هلعين كلمة (مدفع) مزدردين لعابهم بصعوبة . وتساءل أحدهم بنبرة غير مصدقة :

- أيعقل أن يحاربونا بمدفع؟!

فأجابه (مطلق) من أعلى المفتول :

- ألم أقل لكم أنهم بيّتوا النية على ذبحنا؟

عاد بعدها يشد من عزيمتهم مصارحاً إياهم بأنهم مقتولون لا محالة سواء استسلموا أم صمدوا فلا يبقى أمامهم في هذه الحالة سوى اختيار الموت بالطريقة التي تناسبهم كرجال .

فبادل خضر أخاه (حاصود) نظرة زائغة وهو يقول :

- لكن الموت يبقى موتاً سواءً تجرعناه كرجال أم . . . .

وطغتْ أصوات العيارات التي شرع (مطلق) في إطلاقها على

www.ibtesama.com

صوت خضر. وسرعان ما أعقبته عشرات البنادق في صب حممها، لكن ومضاً خاطفاً أضاء ظلام الجانب الغربي، أعقبه دويّ قذيفة ثانية أصابت جانباً من سور القلعة فانهار جارفاً معه إلى الأسفل العديد من المدافعين عن ذلك الموضع. وعمّ الهرج القلعة؛ فشرع الجميع يهرولون بفوضى، حتى إذا ما انجلت سحب الغبار والدخان وبات في وسع نايف إحصاء عدد الضحايا صاح (مطلق) من فوق المفتول، وهو ماضٍ في تعبئة البنادق المنتشرة من حوله:

- أنا لا يخيفني عدد الضحايا الذين أردتهم قذيفة المدفع، لكن ما يرعبني حقاً عدد الذين سيرديهم الجُبْن الآن!

وكان ذلك الصواب عينه؛ فما أن أصابت قذيفتان أخريان موضعين مختلفين من أسوار القلعة حتى بات في وسع نايف، عقب تبدد سحب الغبار والدخان، أن يلاحظ أن عدد الذين لم يقع بصره عليهم كان ضعف عدد الجثث الدامية التي كان بعضها لا يزال يتقلب بين الأنقاض ملطخاً الحجر والتراب بالدماء. وكان ذلك آخر عهده بأخيه خضر؛ إذ لم يرَ له أثراً بين القتلى أو الأحياء!

وبقيتِ القذائف تنهال في مختلف أرجاء القلعة يسبقها صفيرها الخاطف قبل أن تنفجر بدويّ أصم. وشوهد حاصود يتراكض على غير هدى كمن أصابه الجنون صارخاً بأعلى صوته:

- المدفع... لا بد لنا من تدمير المدفع... وأنا الكفيل بإنجاز هذه المهمة!

وانطلق واثباً من خلال إحدى ثغرات السور حيث أخفته سحب الدخان والغبار؛ إذ عبثاً أطلّ نايف بوجهه من فوق السور باحثاً عن أخيه وهو في سبيله لاجتراح مهمته المجنونة. لكن أباه كلمه بإشفاق من بعيد:

www.ibtesama.com

– عبثاً تبحث عن أخيك في هذا الاتجاه ؛ إذ من المؤكد أنه سار في الاتجاه المعاكس!

فصاح نايف بنبرة غير مصدقة :

– ماذا؟ أتعني أنه هرب يا أبتاه؟

فأجابه (مطلق) من فوق المقتول ، وهو يستبدل ببندقيته التي خلت من الرصاص أخرى محشوة :

– من يفكر في تدمير مدفع جبار وسط رجال الدرك لا بد أن يكون مجنوناً . . . أو أنه . . .

واستعاض عن إتمام كلامه بالضغط على الزناد .

وبقي جناح رابضاً في موضعه فوق السور ، لا يكفّ عن إطلاق الرصاص متصيداً كل دركي يغامر في الاقتراب من القلعة دون أن يفكر في فتح فمه لينطق بكلمة واحدة ، حتى أنه بقي محافظاً على إطباق شفتيه لحظة أصابته شظية من قذيفة انفجرت تحت موضعه مباشرة ؛ فانزلقت بندقيته من يده ، وأعقبها بجسده الذي انهار داخل القلعة حيث ارتطم برأسه بالأرض ، إلا أن فمه لم ينفرج عن صرخة ألم باستثناء خيط دم انساب من بين شفتيه المطبقتين بإحكام ليتلوى بين شعيرات لحيته النامية قبل أن يتجمع في الأخدود الذي يعلو ذقنه التي ارتجفت لحظات قبل أن تسكن إلى الأبد!

ولمح قاصد مصرع أخيه من أعلى السور ؛ فتوقف عن الرمي لحظات متمتماً على روحه الفاتحة ليعاود بعدها الرمي ماسحاً بظاهر كفه الدموع التي منعته من الرؤية بوضوح . وتبع ربيع أخاه في رحلته الأبدية ، ولحظة سقط نطق بكلمة واحدة :

– أبي!

فانتفض (مطلق) فوق المقتول وهو يسمع استغاثة ربيع ؛ فأخطأت

www.ibtesama.com

إطلاقته في إصابة الهدف حيث رجال الدرك كانوا يزدادون اقتراباً من القلعة كلما مضى الوقت وقلّ عدد المدافعين عنها ، فصرف بأسنانه ، وواصل إطلاق الرصاص بعزم اليائسين .

كان يدرك أن النهاية قد دنت ؛ فأصوات العيارات النارية المنطلقة من القلعة أخذتْ بالتضاؤل : ثلاث بنادق أو أربع تنطلق على مدد متباعدة من هنا وهناك ، تاركة هدير قذائف المدفع يطغى على كل صوت . لكنه كان يزداد إصراراً على أن يجعل مقتله باهظ الثمن . . . كل قطرة دم منه بدركيّ ، أما دماء أبنائه . . .

وجاءته صرخة قاصد ونطقه بالشهادة قبل أن يلفظ آخر أنفاسه ، فازداد بذلك الثمن المستحق ارتفاعاً ؛ فمضى في رمي الرصاص ، شاعراً بسبطانات البنادق ، التي كان يلتقطها تباعاً ، وقد غدت تلسع بحرارتها كفه . كان يضغط على الزناد ، وثمة فكرة مرعبة تومض في ذهنه تتعلق بابنه الأثير إلى قلبه نايف ، فكّر أن حياة ابنه ذاك تتعلق بالتفاتة منه إلى الوراء ، يكفيه أن يلتفت ليرى مصرعه بأم عينيه ، فاستعاذ بالله من تلك الفكرة ، وازداد تشبثاً بالبنادق مواصلاً تعبئتها وإطلاقها ، غير مبال إلى أنها أحرقتْ باطن كفه وسلخت الجلد في أكثر من موضع . قرر ألا يلتفت إلى الوراء مهما يكن الثمن . سيظل يحدق إلى هذه الأرض الممتدة إلى مداها وقد بدأت معالمها تتوضح مع انتشار الضوء حيث يربض المدفع بعيداً ، وهو يبرق ويرعد ، موقعاً بقذائفه المزيد من الدمار . وإلى مسافات أقرب منه في اتجاه القلعة ، تتابعت أجساد رجال الدرك – القتلى منهم والأحياء – وهي تزداد كثافة كلما قصرت المسافة التي تفصلهم عن السور الغربي .

إذن ها هي أحلامه في امتلاك هذه الأرض تتبدد . . إنه لا يرى سوى تراب ملطخ بالدم . . . تراب يتصاعد منه الدخان والغبار . . .

www.ibtesama.com

تراب ملعون تزيده دماء الضحايا عطشاً .

وكانت الشمس قد أشرقت من خلفه ، فارتسم ظل القلعة تحته طويلاً ومديداً ينداح غرباً حتى تخوم الحقول .

إنها آخر مرة يرى فيها الشمس . . . الشمس التي طالما أحبها ، وترقّب مشرقها فجر كل يوم ، الشمس التي اقترنت لديه بالحياة والعمل .

والتفتَ إلى الوراء ؛ فعشيت عيناه بإزاء ذلك القرص النوراني الصاعد من وراء الجبال حيث المياه والأرض والسماء تومض مثلما لم يرها تومض من قبل بهذا الشكل .

وخفض عينيه ليتطلع هذه المرة بنظرة دامعة إلى فناء القلعة حيث تناثرتْ عشرات الجثث بوضعيات مختلفة وثمة جريح يتقافز بينها دائراً حول نفسه مثل طائر ذبيح ملطخاً برشاش دمه المتدفق من جسده كل ما يحيط به!

لم يكن غير نايف وقد أُصيب بأكثر من جرح بفعل قذيفة انفجرت قربه . وتعثر بغتة في دورانه العشوائي ، فكاد الأب يلقي بنفسه من فوق المفتول ليقيه عثرته الأخيرة . لكن (نايف) كان قد انبطح على وجهه مصالباً ذراعيه إلى جانبيه على امتدادهما!

يا (مطلق) : وهكذا بقيتْ بندقيتك وحدها تواصل الرمي في اتجاه الغرب مستوفية ثمن الدم الغالي قطرة . . . قطرة . . . حتى إذا ما أحالتِ القذائف القلعة كلها إلى ركام سال دمك بدوره ليمتزج بدماء من سبقوك ، ولولا رائحة (الخضيرة) لكان من المحال على النابشين بفؤوسهم ، فيما بعد ، الاهتداء إلى بقايا جسدك مختلطة بأحجار المفتول الذي شيّدته يوماً ما أملاً في أن تحمي به نفسك وذريتك مما خبأ القدر لك من كوارث . ولكن . . . هيهات . . . هيهات . . . فها هو

www.ibtesama.com

آخرك وقد رجع إلى أولّك ليكون كما كان قبل أن يكون ؛ وبذلك آن لي أن أطوي آخر صفحة على اسمك ، تاركاً لمن سيأتي بعد أجيال وأجيال مهمة تأويل ما بين المبدأ والمعاد ؛ إذ إنه أولنا في المسطور وآخرنا في الظهور!

www.ibtesama.com

كتاب الكتب

سِفر النون

(تمّتِ الرواية)

١١ تشرين الأول ١٩٨٩

٢٥ تشرين الثاني ١٩٩٢

www.ibtesama.com

إشارة

* هناك سطور ـ أُدرجتْ بتصرف في هذه الرواية ـ مأخوذة من الكتب الآتية :

١ ـ ألف ليلة وليلة ـ طبعة الدكتور محسن مهدي المحققة .

٢ ـ الإنسان الكامل في معرفة الأواخر والأوائل ـ عبد الكريم الجيلي .

٣ ـ فصوص الحِكَم ـ ابن عربي ـ طبعة (أبو العلا عفيفي) المحققة .

٤ ـ رسائل ابن عربي .

* يرد في هذه الرواية ذكر روايتين للروائي نفسه هما (الراووق) و (قبل أن يحلّق الباشق) يتم التطرق فيهما إلى أحداث أخرى جرتْ في الأماكن عينها .

* وردت أسماء الشخصيات والأعلام والأماكن ، في الرواية ، بصيغة الرفع بمعزل عن الحركات الإعرابية الأخرى .

www.ibtesama.com

فهرست كتاب
(سابع أيام الخلق)

مقدمة ـــــــــــــــ 5

* كتاب الكتب - سِفر الألف ـــــــــــــــ 31
* إشراق الأسماء ـــــــــــــــ 65
* كتاب الكتب - سِفر اللام ـــــــــــــــ 117
* كتاب الإنيّة ـــــــــــــــ 139
* كتاب الكتب - سِفر الراء ـــــــــــــــ 181
* إشراق الصفات ـــــــــــــــ 201
* كتاب الكتب - سِفر الحاء ـــــــــــــــ 251
* كتاب الهويّة ـــــــــــــــ 277
* كتاب الكتب - سِفر الميم ـــــــــــــــ 309
* إشراق الذات ـــــــــــــــ 331
* كتاب الكتب - سِفر الألف المحذوفة ـــــــــــــــ 373
* كتاب الأحديّة ـــــــــــــــ 403
* كتاب الكتب - سِفر النون ـــــــــــــــ 427

www.ibtesama.com